

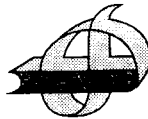


ICAS
JAKARTA
LIBRARY

حضارة الأزمة ماذا قبل الانهيار؟

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
1424هـ - 2003م

دارالهدى للطباعة والنشر والتوزيع



هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
Tel.: 03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199 - P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: <http://www.daralhadi.com>

قضايا إسلامية معاصرة

حضارة الأزمة

ماذا قبل الانهيار؟

حسن السعيد

مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد
بالتعاون مع دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل بلا مقدمات

تقف الإنسانية، اليوم، على مفترق طرق. وهو مفترق خطير، إن لم يكن الأخطر، من نوعه، على امتداد تاريخ البشرية السحيق، وليس من قبيل المبالغة أو التشاؤم القول أن المجتمع البشري المعاصر، لا يمتلك خيارات مفتوحة.. فالخيارات محدودة جداً، إلى حد لا يكاد يصدق.

ومما يزيد من حرجة الموقف، أن الساحة الإنسانية تعجّ بالمشكلات، والمعضلات، والمخاوف من الغد المجهول الذي ينتظر البشرية، بكل ما يكتنفه من غموض، وتكهّنات، وتحديات!، دون أن تلوح في الأفق بوادر حلول جذرية للأزمة الرهيبة التي تعصف في العالم، منذ عقود، وتساعدت بشكل أخطر، منذ أحداث تفجيرات نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠١م، والذي من المحتمل أن يسجله التاريخ باعتبارها نقطة تحوّل في صياغة النظام العالمي للقرن الواحد والعشرين، على حد قول هنري كيسنجر.

وإذ تدلف البشرية نحو الألفية الثالثة وهي تدشنها بحرب طويلة الأمد، فيما يبدو تكون على أعتاب عصر المراجعات الكبرى، وهي مراجعات تأتي بعد التعثرات المتوالية التي عرفها المجتمع البشري، والتي أدّت إلى طرح أخطر سؤال نعرفه في العصر الحديث: الإنسانية إلى أين؟

بعبارة أدق: هل هي سائرة نحو الفناء أو نحو البقاء؟.. نحو الشقاء أو نحو الهناء؟.. نحو عنصرية متشددة أو نحو عالمية متحرّرة؟.. نحو صدام بربري أو نحو حوار حضاري؟ نحو سحق حقوق الانسان أو نحو الحفاظ على هذه الحقوق؟.. نحو تكنولوجيا غاشمة أو تكنولوجيا واعية؟ هل ستسود المعرفة على القوّة والمال أم ستسود القوّة على ما عداها من فعاليات؟^١

وفيما تظل هذه التساؤلات وغيرها.. عالقة دون جواب، تتجه أزمة الانسان المعاصر

(١) بشيء يسير من التصرف، عن كتاب «جولة في القضايا الدولية المعاصرة»، لفضيل أبو النصر، ص ١٦٦.

إلى مزيد من التعقيد والتفاقم والحيرة... والرعب. وها هو المجتمع البشري المعاصر يمر اليوم بلحظات حاسمة من تاريخه الطويل، لحظات قد تؤدي به إما إلى ازدهار، ومستقبل مشرق، تتخلص فيه البشرية مما تعاني منه الآن من جهل ومرض وفقر... وإما أن تقضي به إلى سبيل ليس فيه إلا الدمار المهلك، الذي لا يُبقي ولا يذر.

وقد مرّت بعض الشعوب بمثل هذه المواقف من قبل مواقف مصيرية، واجهت فيها احتمالات بقائها أو فنائها، لكن ما يجعل هذا الموقف الذي تواجهه الإنسانية الآن يختلف عن غيره من المواقف السابقة، هو أن الموقف الحالي، يهدّد الإنسانية جمعاء، وينذرنا بالفناء الشامل، في حين أن ما سبق من مواقف كانت مقصورة على جماعات وشعوب متفرقة، وحتى بالنسبة لتلك الجماعات والشعوب، لم تكن مسألة فنائها كليا في عداد الممكن. فما يوجد الآن من أسلحة فتّاكة - سواء أكانت ذرّية أم هيدروجينية أم غيرها - كفيلة بالقضاء على كل مظاهر الحياة على سطح الأرض. أسلحة وأجهزة لم يسبق أن خبرها الإنسان من قبل، خلال آلاف السنين من تاريخه الطويل^١.

ورغم كل هذه التحديات التي تحاصرنا، فإن أكثر الناس يرون أننا بلغنا من التقدّم ما لم يبلغه سوانا. فنحن سائرون إلى الأمام بخطى قويّة ثابتة. فقد قصّرنا المسافات، وقربنا المدن، وتغلّبنا على الحر والقر. هذا ما يراه الناس تقدّماً. أمّا الحقيقة فتختلف عمّا يرون، فنحن لم نتقدّم إن لم تقل إنّنا قد تأخرنا، لأنّ التقدّم لا ينحصر في ناحية واحدة من نواحي النشاط الانساني، وإنّما يشمل مختلف ضروب هذا النشاط وشتى ألوانه ونواحيه. فلا يكفي لنكون قد تقدّمنا أن نتحرّك مع الحياة بعقولنا وأيدينا وأرجلنا وإنّما علينا أن نتحرّك معها بقلوبنا وعواطفنا وبكل ما فينا من قوى هاجعة وقوى مستيقظة. والحقيقة إنّنا قد تحرّكنا معها في ناحية واحدة من نواحيها هي ناحية العقل. فارتقت عقولنا واتسعت مداركنا، فتوصلنا إلى ما لم يتوصّل إليه أسلافنا من الاختراعات والاكتشافات في حقل الكيمياء والفيزياء والاقتصاد. أمّا عواطفنا وغرائزنا فلا تزال على ما كانت عليه في العصور البدائية. لقد حبسنا الماء والكهرباء والهواء في أنابيب، وراقبنا سير النجوم وضبطنا حركاتها، وسيطرنا على جزء كبير من الطبيعة، ولكننا لا نزال بعيدين كل البعد عن السيطرة

(١) د. إدريس سالم الحسن: «الجوانب الاجتماعية للمعرفة العلمية»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٣٥٠)، جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ - يناير (كانون الثاني) ١٩٨٨ م، ص ١٥٤.

على أنفسنا، وعن ضبط أهوائنا، والتحكّم بشهواتنا، ومعرفة الدوافع والأسباب الخفية التي تدفعنا إلى الكره والبغض وإراقة الدماء...^١

ومن المدهش حقاً أن نجد العصور التي نحسبها همجية قد سخت علينا بفضائل الرجولة من شجاعة وإقدام، وقوة عضلية، وحب للبذل والعطاء، كما أنمت روابط الألفة والتعاون... فماذا أنعمت علينا «همجية» القرن العشرين؟

إن بعضاً من الجواب ذكره رئيس بلدية كليفلند الأميركية حين قال: «... إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع انساناً إلى القمر... بينما هو غائص إلى ركبتيه... في الأوحال... والقاذورات»!!^٢

أما بقية الجواب فنجده في: معاناة الطواير المنتظمة الواقعة على عيادات الأطباء النفسانيين... وفي ضياع القطيع المتفرّق على موائد اللهو والشراب... وفي تزايد ضحايا «الإيدز»... وفي تصاعد أرقام نسبة الانتحار... وفي تفاقم ظاهرة تعاطي الأفيون... والجريمة... والتمرّد... والتسكّع في شوارع العواصم الكبرى، وكأنهم أسراب قطيع ضال، يسير على غير هدى، ويجوب الطرقات ليس بحثاً عن شيء، بقدر ما هو هروب من هذا الواقع.

ناهيك عمّا تسلكه البشرية من طريق وعر موحش مخيف، حينما تسير قدماً نحو التخلّي عن القيم الانسانية، متوغلة في مهمة التدمير. فالأسلحة النووية، وتلوّث البيئة، وانقطاع التيار الكهربائي، وانعدام الطاقة، والفساد المتنامي في الآداب المدنية، كل هذه الأمور تشكّل تهديدات واضحة مباشرة للوجود الانساني، أضف إلى ذلك أن الشدّة في تقنين الحياة الاجتماعية وانعدام «حرمة المنزل» قد تصل إلى مدى تنعدم فيه إمكانية العيش التقليدي في حياة متمدنة متحضرة، وتتعرّض النظم السائدة لتهديدات قوى المجتمع التكنولوجي التي تتزايد سيطرتها على العالم، على حدّ تعبير «رينيه دوبو» الأستاذ بجامعة «روكفلر» بنيويورك، والحائز على جائزة نوبل لعام ١٩٧٦م^٣.

(١) فيكتور باسيل: مقال «همجية القرن العشرين: المدينة تلد أمراض الحياة والفن والمجتمع»... صحيفة الحياة (لندن) - ١٩ / ٨ / ١٩٩٢م - ٢١ صفر ١٤١٣هـ، العدد (١٠٧٨٤)، ص ١٤.

(٢) رينيه دوبو: «انسانية الانسان: نقد علمي للحضارة الغربية»، تعريب الدكتور نبيل صبحي الطويل، بيروت،

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ٢٣٠.

(٣) المرجع السابق: ٤٢.

ومن الملفت، أن أصواتاً مشابهة لا تفتأ تنبّه إلى خطورة الوضع، وتدقّ نواقيس الخطر القادم، حتى أنها وجدت أصداءً لها، داخل أوساط لم تستسلم بسهولة إلى هذه النتيجة المفزعة، والمتقاطعة مع ما يرغبون في إشاعته بين الجماهير، لأسباب ومآرب وغايات ليست بعيدة عن برامج انتخابية أو شعارات سياسية !.

وهذا السياسي البارز «ميشال روكار» الوزير الأول الفرنسي السابق، يقدّم لنا تشخيصاً متشائماً، في مقالة له نُشرت على هامش الحملة الانتخابية الفرنسية لعام ١٩٩٥م والتي تميّزت بالحيوية السجالية العالية، فيقول: «إنّ الحضارة الغربية ليست على ما يرام. فالواقع الاجتماعي يفلت بصفة متزايدة من رقابة البشر، كما أنّ المسرح السياسي اليوم لا يوحى بالثقة. فمن النادر أن نجد أمة - إن وجدت - توحى بأنها قادرة على أن تضمن لنفسها حداً أدنى من الرفاهية والأمن والإدماج الحقيقي لكل في الحياة الاجتماعية.. فالأجهزة الكبرى للدولة (التربية، العدالة، الضمان الاجتماعي)، تبدو عاجزة ضعيفة.. كما أنّ القوى السياسية الكبرى أصبحت عاجزة عن تقديم مشاريع مستقبلية، بل غالباً ما شكّلت عوائق أمام التغيير».

والواقع أن هذه النغمة، التي تتكرر كثيراً هذه الأيام، في الأدبيات السياسية الغربية، تعبّر عن مرحلة حادّة من القلق الذي ينتاب النخب السياسية إزاء ما أصاب اللعبة السياسية وتركيبية الحقل الأيديولوجي من تغيّرات جذريّة، حجبته لسنوات نشوة الانتصار على الخصم الاشتراكي، بعد نهاية الحرب الباردة وتفكك المعسكر الشرقي.

وتبرز هذه التغيّرات جليّة في الولايات المتحدة الأميركية وكافة البلدان الأوروبية، حيث تشهد وضعاً سياسياً مشلولاً يتجلّى في تفكك الأحزاب الكبرى وعجزها عن استيعاب القطاعات الشعبيّة الواسعة، كما تبدو السلطات الحاكمة عاجزة عن مواجهة مسؤولياتها، وعن اكتساب ثقة الناخب، فضلاً عن الانهيار الأخلاقي العام الذي يتهدد بصفة جذريّة زخمها الشرعي^١.

والمخيف - إلى حد الهلع - أن هذه الأزمة المدمرة التي تحفر أخايدها العميقة في المجتمع الغربي لم تقف تداعياتها عند حد أو مظهر محدد. وها هي تعبّر عن نفسها بواسطة

(١) السيد ولد أباه: مقال «أزمة الديمقراطية الغربية»، صحيفة الشرق الأوسط (لندن) - ٢١ / ٥ / ١٩٩٥م،

العدد (٦٠١٨)، ص ٨.

بعض المظاهر السلبية كالانتحار، والحياة العيشية، والمجون، والإمعان في الجريمة والفوضى^١ رغم كل المحاولات المبذولة، في طريق العلاج!

فعلى سبيل المثال، حاولت الولايات المتحدة يوماً أن تحرّم شرب الخمر، في طول البلاد وعرضها، لحماية مسيرتها الحضارية، وحشدت لحملة التحريم طاقات إعلامية ومالية وبوليسية هائلة.. وكانت النتيجة أن فشلت الحملة وتراجعت الحكومة عن قرارها. وعندها انشغلت أجهزة الإحصاء بمقادير الورق التي استهلكت في الحملة الإعلامية ضدّ الخمر، وأنماطها وصنوفها.. وفي عدد المعتقلين والمعاقبين، ومدد محكومياتهم وأنماط سلوكهم، والشرائع الاجتماعية التي ينتمون إليها.. ثم ماذا بعد، لا شيء..

ظلّ الأمريكي يتناول الخمر.. ثم تجاوزها إلى الحشيش والأفيون.. ثم تجاوزها إلى الحقن والعقاقير.. ثم إلى أن يرمي بنفسه من الطوابق العليا يغادر الحياة التبعة التي يحيها نشوان جذلاً.. ثم تجيء موجات الدنس والفحشاء الجماعية لكي تكتسح الشباب في عواصم العالم الكبرى.. والبيتلز.. والهيبيز.. و.. إلى آخره^٢ ناهيك عن تزايد معدلات الفقر في أميركا نفسها، حيث بلغ عدد الفقراء عام ١٩٩٠م - مثلاً - ٣٣ مليون بزيادة نسبتها ٥٠ ألفاً عن عددهم العام السابق.. بسبب الركود والتغيرات العميقة في الاقتصاد. ويسوقنا هذا الواقع إلى القناعة التامة، بأنّ الحيرة التي يعيشها الفكر الغربي الآن آتية عن شعوره العميق بأنّ حلمه الأكبر بتحقيق السعادة الكاملة، عن طريق التقدم، قد بدأ يتلاشى مخلفاً وراءه طريقاً مسدوداً وسؤالاً بلا جواب: البشرية إلى أين؟^٣

وكلمّا تفاقمّت أزمة الحضارة الأوروبية الحديثة، سواء في عالمها الداخلي، أو في علاقاتها الانسانية، بدا للكثير من المفكرين الخطر الذي يتهدد الحضارة الغربية أو يتهدد الانسانية بالفناء^٤، وإذا كانت الولايات المتحدة هي النموذج الأبرز لحضارة الغرب، فإنّ

(١) يُراجع كتاب «الاسلام والغرب: الوجه الآخر» لكاتب السطور، التوحيد للنشر، طهران، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) د. عماد الدين خليل: مقال «الإحصاء.. أم العقيدة؟»، مجلة العربي (الكويتية) - العدد ٢٦٣، أكتوبر ١٩٨٠، ص ٨٦.

(٣) جورج زيناتي: «رحلات داخل الفلسفة الغربية»، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٦٨.

(٤) عمر كامل مسقاوي: مقال «مالك بن نبي والدعوة للانتقال من التكريس إلى البناء»، مجلة العربي - العدد (٢٨٥)، أغسطس ١٩٨٢، ص ٦٩.

الخبراء الاستراتيجيين في العالم يجمعون على أن القرن الميلادي الجديد لن يكون أمريكياً، في ظل تزايد العلامات التي تبدو في الأفق على أفول نجم الولايات المتحدة كقطب أحادي، وهو ما سنتحدث عنه في الفصل الخامس.

وتجب الإشارة إلى أن هذا الإحساس أخذ يطرح نفسه بقوة، حتى غدا يتعمق بشكل مكثف وملح. وإذا كان الإحساس المكثف بوجود «الأزمة» دليل الاتفاق على قيامها ووجودها.. فإن الاختلاف قائم، على نحو ما، حول خلفيتها.. وقائم كذلك حول مظاهرها.. وقائم بدرجة أكبر حول أسبابها وحول سبل التخلص منها.^١

وهكذا، يتزايد يوماً بعد يوم ظهور عوارض الدمار الخطير الذي أصاب الانسان الحديث في شخصيته الفطرية، حيث أفرغ من محتواه الانساني بفعل اللهاث المجنون الذي استغرق وجوده وهو يركض وراء قيم حضارة مادية خالصة.

والذي جعل المأساة الانسانية في العقود الأخيرة، من القرن العشرين تزداد عنفاً وإيلاماً، هو أن الانسان بدأ يعي وجع الوجودي، بدأ يعي أنه يعاني من اختلال عميق في وضعيته الوجودية، لأن هذه الحضارة قد وفرت له اللذة، ولم تفلح في جعله يمتلك السعادة، ووفرت له حصانة ضد الأمراض والفاقة، وفشلت في أن توفر له السلام الداخلي، كما فشلت في تحقيق درجة يؤبه لها من سلام، وما حققته في هذا الحقل من سلام ضئيل هو سلام «توازن الرعب» بين الأقوياء، وهو سلام يئن تحت وطأته مئات الملايين من البشر في العالم الثالث، المنهوبة ثرواتهم، المهدورة كرامتهم..^٢

وعلى طريقة «شهد شاهد من أهلها»، اعترف الفيلسوف البريطاني «برتراند رسل» بهذه الحقيقة قائلاً: «لقد وقع النصف الأخير، من حياتي، في واحدة من تلك الفترات المؤلمة، من التاريخ الانساني، فيها تسوء حال الدنيا والانتصارات السالفة التي كانت تبدو نهائية ظهر أنها مؤقتة فحسب، وعندما كنت شاباً كان التفاؤل الفيكتوري يبدو أمراً مسلماً به، وكان يسود الاعتقاد أن الحرية والرخاء سوف ينتشران تدريجياً، في كل أنحاء العالم،

(١) استعرنا هذه الفكرة بشيء يسير جداً من التصرف عن د. محمد عمارة في كتابه «معالم المنهج الاسلامي» من إصدارات المعهد العالمي للفكر الاسلامي (أمريكا)، ط ٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص ١٣.

(٢) محمد مهدي شمس الدين: «دراسات ومواقف في الفكر والسياسة والمجتمع»، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ٣٣٢.

على نهج منتظم، وكان من المأمول أن القسوة والاستبداد والظلم سوف تتضاءل، على نحو مستمر، وكلما كان يساور أي امرئ خطر الحروب العظمى. وكلما اعتقد واحد من الناس أن القرن التاسع عشر ليس سوى فترة انتقال، بين بربرية سابقة وبربرية لاحقة.

إن الذين شبوا، في ذلك المناخ العام، يجدون أن أحداث التوافق بينهم وبين العالم الحالي أمر شاق، ولقد كان أمراً شاقاً لا عاطفياً فحسب بل عقلياً^١.

وينتهي هذا الفيلسوف تأملاته: «إن الأفكار التي كانت تبدو وافية بالمراد تثبت أنها غير كافية، وفي بعض الأمور وضع أنه من الصعب الاحتفاظ بالحرّيات الثمينة، وفي بعض الأمور الأخرى - لاسيّما ما يتعلّق بالعلاقات بين الشعوب - ثبت أن الحرّيات التي سبق الاعتراز بها صارت مصادر عنيفة للكوارث التي قادت الانسان إلى صراعات نفسية عميقة، جعلت كل صنوف الرخاء الظاهري غير ذي جدوى»^٢.

ومن هنا يسود الاعتقاد بأن انسان الحضارة يعيش - على الصعيد الاجتماعي والدولي - بين ثلاثة حروب: حرب يخوض غمارها، وحرب يصفّي ذيلها، وحرب يتأهب لإشعالها، ويعيش - على مستوى حياته الشخصية والداخلية - في حرب داخل ذاته دائمة الاشتعال، يحاول أن يخفّف من وطأتها بالفرار من وعيه لذاته، الى خارج نفسه وذاته، بوسائل اللهو، والاستغراق في اللذات الجسدية وما إليها.

لقد فشلت هذه الحضارة على صعيد الانسان بالرغم من وعودها السخّية، وتبجحاتها الكبيرة، وإمكانات النجاح العظيمة التي أُتيحت لها^٣، وفي تحليله لطبيعة الأزمة الحضارية التي تعاني منها البشرية أدرك الإمام محمد باقر الصدر (١٩٣٢ - ١٩٨٠م) أن جوهر الأزمة الحضارية يكمن في تشخيص «النظام الاجتماعي» الصالح الذي «يصلح للانسانية وتسعد به في حياتها الاجتماعية».. والمثير إن البشرية لم تتوصل إلى حل أزمتها الحضارية في العصر الراهن، رغم أن احساس الانسان المعاصر بالمشكلة الاجتماعية أشد من إحساسه بها في أي وقت مضى من أدوار التاريخ القديم من جهة، ورغم إن الانسان الحديث، من ناحية أخرى، أخذ يحقق تطوراً هائلاً في سيطرته على الطبيعة لم يسبق له نظير، لكن هذه

(١) يُراجع المقال الذي كتبه الفيلسوف برتراند رسل الموسوم «في عيد ميلادي الثمانين»، المنشور في مجلة العربي الكويتية، العدد (٢٨٨)، نوفمبر ١٩٨٢م، ص ١٥٦، ترجمة نصري عطاء الله.

(٢) محمد مهدي شمس الدين؛ المرجع السابق: ٣٣٣.

السيطرة تزيد المشكلة الاجتماعية تعقيداً وتضاعف من أخطارها، لأنها تفتح أمام الانسان مجالات جديدة وهائلة للاستغلال^١.

وفي غمرة الإدراك المتنامي للواقع المأزوم ووعي أبعاده وأخطاره وتداعياته الراهنة والمستقبلية على الانسان.. تنطلق صيحات التحذير مؤكدة: «أنّ الخطر الأكبر الذي يتهددنا اليوم يتمثل في التحالف القائم بين بربريتين: بربرية أولى تأتي من سحق الأزمنة، وتجلب معها الحروب والدمار، والمجازر والتعصّب، والسيطرة والاستغلال. وبربرية ثانية تتأتى من الحضارة التقنية الصناعية البيروقراطية وتفرض منطقها الآلي الجامد، متجاهلة الأفراد وأجسادهم، ونفوسهم وأحاسيسهم. وهي إلى ذلك تضع في خدمة السلطة أسلحة الفتك والدمار ووسائل السيطرة»^٢.

وعلى ذكر أسلحة الدمار.. فإنّ المرء لينتابه الذعر، حالما يسمع أو يقرأ الأرقام المذهلة، عن «ترسانة الرعب» التي تهدد البشرية بالفناء، خلال لحظات.. وتشير إحصائيات عام ١٩٨٩ إنّ العالم ينفق مليوناً وسبعة أعشار المليون من الدولارات على الأغراض العسكرية كل دقيقة واحدة. وفي نفس الدقيقة يكون ثلاثون طفلاً قد ماتوا بسبب الجوع أو نقص الأغذية!^٣.

وفي تلك الأثناء، كان الغرب يبذل جهوداً حثيثة وضغوطاً هائلة على الآخرين للإقرار بالتسليم لمركزية الغرب وادعائه الإشراف على التاريخ، وكانت محاولة فرنسيس فوكوياما (الأمريكي الجنسية والياباني الأصل) فيما عُرف بنظرية «نهاية التاريخ» التي أطلقها غداة نهاية الحرب الباردة، من أبرز المساهمات التنظيرية التي أريد لها أن تُسوّق وتُروّج في العالم، وفي لحظة معيّنة من لحظات موازين العلاقات الدولية. إذ حظيت باهتمام وتعليق بلغا حد «الضجيج» المؤيد والمعاوض، ومنذ الوهلة الأولى، بدا أنّ المهمة العاجلة التي تستدعيها مقالة «فوكوياما»، هي التبشير بانتصار الليبرالية كنهاية لصراع

(١) السيد محمد باقر الصدر: «الانسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية»، النجف، ١٣٨٤هـ، ص ٨-٩.

(٢) صدر حديثاً عن منشورات «أرليا» (Arlea) في باريس كتاب بعنوان «سياسة حضارية» يحمل توقيع عالم الاجتماع الفرنسي ادغار موران والمفكر السياسي الفرنسي من أصل جزائري سامي ناير، استعرضته صحيفة الحياة بحلقتين في ملحقاتها الأسبوعية آفاق: ٢١/٤/١٩٩٧، ٢٨/٤/١٩٩٧.

(٣) د. حسان حنحوت: مقال «ميزانية القتل»، المنشور في القبس: ١٩/١٠/١٩٨٩م. والمعاد نشره في كتاب عالم النيه والضياع للدكتور نجيب عبدالله الرفاعي، الكويت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص ٩٥-٩٧.

الايديولوجيات في العالم، بعدما انهزمت الشيوعية وتداعت مجتمعاتها، وأخذت تبحث عن خلاصها في صيغ الديمقراطية الغربية^١.

ورغم كلّ الإدعاءات العريضة التي تطلقها دوائر الغرب، فإنّ ريادة الغرب للمجتمع البشري، أخذت تتعرّض إلى اهتزازات وعلى أكثر من صعيد، ممّا يتيح المجال لبروز فترة مخاض عسيرة تجتازها البشرية، نحو آفاق جديدة. ومن هنا تأتي أهمية تحديد مشكلة الحضارة التي لا بدّ لنا في حلّها من أن نطرح القضايا المرتبطة بفعالية البناء.. وأخيراً فإنّ المشكلة التي كان يجب أن تُطرح، منذ فترة، ضمن حدود حضارة معينة، ولكن على مستوى أسس هذه الحضارة وإرادتها وقدرتها، قد تمّ وضعها على مستوى منتجاتها^٢.

وما دمنّا بصدد الحديث عن مشكلة الحضارة، فإنّنا نخالف أولئك الذين يعتبرونها «أزمة» وكفى.. وربّما يذهب البعض من هؤلاء إلى أنّها أزمة (عابرة)!! ولكن هذا لا يغيّر من جوهر المشكلة شيئاً، فضلاً عن أنّ هذا التشخيص -الذي لا يخلو من تبسيط مخل- يساهم في تعميق الأزمة وديمومتها خاصة وأنّها ليست عارضة، فهي من العمق والخطورة ما لا يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها.

فما تزال قضية القضايا في «الوجدان الانساني» هي التساؤل عن كيفية مواجهة هذه الأزمة الحضارية التي تضيق من خناقها للمجتمع الانساني، يوماً بعد آخر. ومن أخصّ معالمها: انتشار القلق، وسيادة الترجسية وعبادة الذات، والاندفاع المحموم نحو المادة، وحياة الأشياء واكتسابها، والزهد في المحافظة على المودات والعلاقات الانسانية الحميمة والعميقة، وما أدّى إليه ذلك كلّ من انتشار العنف الفردي والجماعي، بصورة لا شبيه لها في تاريخ الانسانية الطويل.. ومن المؤسف أن هذه الظواهر أعراض لأعراض تصاحب الخطو السريع، على طريق النمو والتقدّم الصناعي، وما يتحقق من وفرة في السلع والخدمات.. لهذا ارتفعت الشكوى منها باعتبارها أعراضاً «لأزمة» في المجتمعات الصناعية المتقدمة..

(١) كتب «فوكوياما» مقالاً مثيراً في مجلة الشؤون الخارجية الأميركية (نيسان / أبريل ١٩٩١م) بعنوان «نهاية التاريخ» ثمّ نشره كتاباً بالعنوان نفسه، ترجم إلى أكثر من ١٣ لغة. تُراجع الأدلة حول تهافتها ضمن دراسة الدكتور وجيه كوثرائي عن «صدام الحضارات» لهنتفوتن، والمنشورة ضمن الكتاب الذي يحمل نفس العنوان، من إصدارات مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٩١.

(٢) مالك بن نبي: «القضايا الكبرى»، إصدارات ندوة مالك بن نبي، بيروت، دمشق، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م،

وتلك التي شهدت تعاقباً وتسارعاً في القفزات العلمية والصناعية.. وتراكماً في الآثار الاجتماعية والنفسية لهذه القفزات كلها..^١

ومع ذلك، فإنَّ الإحساس بالأزمة الذي يُعتبر أوّل الطريق إلى معالجتها، أصبح من المسلّمات التي بدأ يلحظ الانسان آثارها هنا وهناك، كنتيجة للاصابات والاحباطات والنكبات المتوالية، التي يأخذ بعضها برقاب بعض، والتي لم تدع استزادة لمزيد. لكننا في الوقت نفسه بإمكاننا القول: إنَّ الإحساس بالمشكلة والأزمة جاء لوناً من الانفعال بها، الأمر الذي لا يعني أبداً الإدراك لها، ولا يعني الوعي بكل أبعادها، والتعرّف على أسبابها، والقدرة على تحليل عناصرها، وتحديد طرق معالجتها، ورسم سبيل الخروج منها، وفقاً للسنن التي شرّعها الله للسقوط والنهوض، والتي يهدي إليها استصحاب القيم في الكتاب والسنة، والشهود التاريخي من السير في الأرض، وقراءة الواقع بشكل صحيح.. ونعني بوعي المشكلة - يقول كاتب اسلامي مرموق - الانتقال من الإحساس الذي يعني الانفعال إلى مرحلة الإدراك، والاهتداء إلى فقه الحل والخروج، الذي يعني الفعل الرشيد، ذلك أن مجرّد الاحساس - والذي غالباً ما يقود إلى مجازفات، ومغامرات، ومواقف ارتجالية، بسبب زيادة التوثّب والحماس - يحول دون القراءة الواعية لعناصر الإصابة، ويؤدّي إلى الخلط بين الإمكانيات والأمنيات، وبالتالي إلى تأزيم المشكلة، بدل تقديم الحل، وينتهي بأصحابه إلى ضرب من الانتحار الاجتماعي، ومن ثمّ الانسحاب من المواجهة، والإصابة بالانكسار، والاحباط والعجز عن التعامل، والالقاء بالتبعة على الخارج، والهروب إلى طلب الخوارق والمعجزات المخلّصة من الواقع الذي يعانون منه^٢. وإنّه لمن الواضح، أن جانباً هاماً من حياتنا المعاصرة تحتاج إلى تحليل ووعي.. وخاصة تلك القضايا التي تمسّ الواقع الحضاري، بكل إشكالياته وتجليّاته، وهذا ما يفتح فضاءً هاماً لا سبيل إلى إهماله، إذا ما ابتغيّا مساهمة حقيقية في بناء الغد الأفضل^٣.

(١) د. أحمد كمال أبو المجد: مقال «الحاجة إلى الإسلام في هذا الزمان»، مجلة العربي (الكويتية) - العدد (٣١٩)، يونيو / حزيران ١٩٨٦م، والمعاد نشره ضمن كتاب العربي / ١٤ (المسلمون والعصر) الكويت، يناير ١٩٨٧، ص ٢٢ - ٣١.

(٢) عمر عبيد حسنة: «مراجعات في الفكر والدعوة والحركة»، من إصدارات المعهد العالمي للفكر الاسلامي (أمريكا) ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ٨٤.

(٣) استعرنا هذه الفكرة، وبشيء من التصرف عن افتتاحية مجلة 15 - 21 (التونسية)، العدد الثامن، السنة

ولعل أول الطريق لوعي الأزمة؛ محاولة اكتشافها، ومعرفة أعراضها، ومن ثمّ تحديد أسبابها، ورسم الطريق إلى الخروج منها، ولا يتأتى هذا إلا بالتقويم الصحيح، والنقد الجريء، والمراجعة الأمانة، واستكمال شروط التوبة، والتصميم على عدم العود، والاقلاع من جديد^١.

وكمدخل إلى ما نرمي إليه، لابدّ من الإشارة إلى مؤثرات فهم الأزمة. ذلك أنّ الحاجة إلى فهم تشكّل الأزمات ومسارها، لتحديد اتجاهاتها ومسارها يستدعي متابعة قضايا محددة في تضاريس الواقع الحضاري^٢ بكلّ منحنياته الاجتماعية والسياسية والنفسية والثقافية والعسكرية..

على أنّ هذا لا يعني إنّ المهمة بسيطة ويسيرة. إنّ المسألة جدّ خطيرة وليس هناك أدلّ على مدى خطورتها من هذا الجدل المحتدم بين أوساط النخب الفكرية، خاصة في الغرب، ولم تُحسم القضية حتى الآن، إذ لا أحد يقف هناك، على سِرّ الأزمة، أو يغوص إلى أعماقها البعيدة!

ففي الغرب رغم أنّ الدراسات والبحوث والكتب التي تدرس وتنقّب في موضوعات هامة متنوعة تتكاثر وتتوالد توالداً يصعب اللحاق به، فإنّ الأوابد الشامخات قد يكون عصرنا الحديث القلق قد عطّل مخاضها إلى حد بعيد، أو لم يعد قادراً على توليدها. فالمذاهب الفكرية والأدبية والسياسية والفنية وسواها تتساقط تتساقط الفراش أمام وهج الواقع العالمي الماجن المستهتر الضائع، أمام نمط من الحياة معقّد متشابك، غدا من الصعب فيه أن يمسك الباحث بخيط وأن يفك عقده. ومن هنا كان جل ما يُكتب لقطات جانبية عابرة لكلّ يظلّ مستعصياً على التحليل دون أن يدري فلاسفة الغرب ومفكروه؛ هل أزمة العصر في النهاية هي أزمة الفكر، أم أنّ أزمة الفكر من أزمة العصر؟.

وفيما إذا كان هذا النتاج المتناثر الغزير سيقوى في النهاية على توليد صوى أساسية جامعة هادية تتجاوز الأزمة، وتتوصّل إلى مخرج للانسان ومصيره، بما في ذلك تقديم

الثانية، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٢.

(١) عمر عبيد حسنة؛ المرجع السابق.

(٢) علي المبدالله؛ مقال «كيف نفهم الحدث السياسي؟»، مجلة 15 - 21، العدد (١٢)، السنة الثالثة

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م، ص ٥٩.

حلول لمشكلاته المعاصرة؟^١

وليس من العسير أن نشير، هنا، إلى أن ثمة اتجاهًا أخذ يفرض نفسه، يؤكد أن الانحسار الحضاري، أو الأزمة الحضارية، التي نعاني منها اليوم هي أزمة فكر أولاً وقبل كل شيء^٢ وما هذا التخبُّط الذي يغوص الغرب في وحله، واتساع آفاق التيه والضياغ أمامه إلا مؤشر، على عمق المأزق الفكري، الذي يئن تحت وطأته. ولكن المكابرة والغرور والصلف وعدم التجرّد... تحول بينه وبين اكتشاف الحقيقة، وتلك هي أزمة الفكر الوضعي من جهة المفكر نفسه، أي من الزاوية التي يطل بها على العالم، والمنهج الذي يعتمد، في التعامل مع الظواهر، والحقائق والأشياء^٣! ولهذا نجد محاولات الغرب، خاصة في إطار الأزمة النفسية، تدور في فراغ عقيم، فالمشكلة ما تزال تراوح مكانها، وفي كل يوم تنعقد الحلول فتضع الجيل الصاعد أمام استحالات الخروج من الأزمة^٤.

من هنا، تتأثّر صعوبة معالجة الموقف بكل تعقيداته وتداعياته، حتى لتبدو المهمة الأصعب، في مرحلتنا الراهنة، وما يزيد من حرجة المأزق الحاد هو أن مسار الوقائع يرتطم بعنف مع كل التصورات المتفائلة.

ولكي نعرف مآل الأمور، وكيف تتجه إلى منحدرات مخيفة، نكتفي بإيراد مؤشر ذي دلالة بليغة. ففي أواخر القرن التاسع عشر، وفي غمرة النجاحات المذهلة التي حققها التقدم

(١) من العسير تقصي كل النتائج الغربي، في هذا الصدد (أي التساؤل الفلسفي عن مصير الإنسانية وما يكتنفه من غموض ومخاوف ونكتفي بالإشارة إلى أربعة نماذج، صدرت خلال فترة متقاربة جداً (أحدود شهرين من خريف ١٩٨٣م)، وفي عاصمة غربية هي باريس، وهذه النماذج هي: «حرب نهاية العالم» لماريو فرغاس يوسا، و«هل في العالم البديل؟» و«ثائق ملتقى سيريزي، و«النظرة إلى أبعد: هل في الانثروبولوجيا طريق جديد للخلاص؟» لعالم الاجتماع الشهير كلود ليفي ستروس، وترجمة فرنسية لكتاب الكاتب الإيطالي البرتو مورافيا (١٩٣٤م): «هل يستطيع الإنسان أن يحيا اليأس دون أن يتمنى الموت؟».

للمزيد من الاطلاع على هذه الإصدارات تراجع مجلة الثقافة العالمية (الكويت) - العدد (١٣)، ص ٣٠٣. محرم ١٤٠٤هـ - نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٣م، ص ١٨٠ - ١٨٢، باب (كتب جديدة هامة).

(٢) عمر عبيد حسنة: مقدّمة كتاب «أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق»، للدكتور أحمد محمد كنعان، سلسلة كتاب الأئمة (٢٦)، قطر، ١٤١١هـ، ص ٩.

(٣) د. عماد الدين خليل: المقال الافتتاحي «شيء عن الفكر الوضعي»، مجلة المسلم المعاصر (بيروت) - العدد (٣٩)، رجب ١٤٠٤هـ - مايو ١٩٨٤م، ص ٧.

(٤) المحامي عمر مسقاوي: مقال «مالك بن نبي ومشكلات الحضارة»، مجلة المطلق (البيروتية) - العدد الأول، شوال ١٣٩٧هـ، ص ٤٦ (بشيء من التصرف).

العلمي والتقني، كانت الثقة كبيرة بقدرات الانسان الإبداعية تدفع العديد من المفكرين وأصحاب الايديولوجية الكبرى - هيجل، ماركس، أوغست كونت - إلى الاعتقاد بأن القرن العشرين، سيكون فاتحة العصر الذهبي للانسانية، وبأنه سيشهد اقامة الفردوس على الأرض، وبالجهد البشري وحده.

ثم جاء القرن العشرون، وواصل العلم نجاحاته الباهرة وارتقى الانسان إلى أعالي الفضاء المحيط، وتوغّل في دقائق أعماق الذرّة، وحقق الأعاجيب في شتّى مجالات الاكتشاف والاختراع، ومع هذا كلّ لم يتحقق الحلم الجميل بل، وعلى العكس من ذلك، أطبقت على البشرية كوابيس مرعبة تجلّت في أكبر حريين عالميتين عرفهما التاريخ، وفي عدد كبير من الحروب المحدودة التي لا تقل فتكاً وتدميراً. وارتكبت جرائم لا يحيط بها العد والحصر، ليس أقلّها القاء القنبلة الذرية على هيروشيما، واغتصاب فلسطين، وإيادة شعوب بأسرها، وتجويعها، عن طريق التدمير المدروس والممنهج لمقومات العيش في البلدان المغلوبة على أمرها. ولكن الأمور لم تقف عند هذه الحدود، إذ بعد أن شحّن سطح هذا الكوكب بكمّيات ضخمة من «الألغام» النووية تكفي لتدميره بالكامل، وصل الأمر بانسان هذه الحضارة إلى حد إفساد البيئة الطبيعية، وضرب الشرط الأولي لبقاء الحياة على الأرض... وكل هذا من أجل مواصلة «التقدّم» والمحافظة على الرفاه، في بلدان الغرب، حيث فتك التخمة أشد وطأة من فتك المجاعات في بلدان العالم البائس^١.

وبصدد هذه المفارقة، يتساءل أحد الباحثين قائلاً: إذا أردنا أن نصف العصر الذي نعيش فيه - أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين - فما هي السمة الجوهرية المميزة له؟ هل هو عصر السرعة، أم عصر الفضاء، أم عصر الذرة، أم عصر الكمبيوتر، أم عصر ثورة الاتصالات والمعلومات؟

ويمضي هذا الباحث مجيباً: «لو اعتبرنا مطلع الثمانينات (من القرن الماضي) بداية لهذا العصر، فأنني أقول: انه عصر المليار الواحد والمليارات الخمسمائة الثلاث! أنها قصّة

(١) من المفارقات التي تكاد لا تنتهي، هي أن خمسين ألف انسان يموتون سنوياً بالنوبة القلبية في فرنسا وحدها كما ثبتت الإحصائيات والمعروف أن هذا المرض ناجم - جزئياً - عن تكاثر الدهون في الدم، وبالتالي عن طبيعة النظام الغذائي السائد حالياً في الغرب والمتميّز بغناه المفرط.. راجع المقال القيم: «أزمة الغرب والانتقال من الاستعمار الأصغر إلى الاستعمار الأكبر»، لعقيل الشيخ حسين، مجلة منبر الحوار (بيروت) - س ٨. ع ٣٠، خريف ١٩٩٣م، ص ٤٢.

المفارقات التي تحكم حياة انسان هذا العصر، أسعد العصور وأتعتها على الإطلاق!». ولكن ما هي حكاية المليار الواحد، والمليارات الخمسمائة الثلاث هذه؟

.. ولتوضيح اجابته التي يكتنفها شيء من الغموض.. راح الباحث يضع النقاط على الحروف: «في مطلع الثمانينات تجاوز عدد سكان الكرة الأرضية الأربعة مليارات انسان. وفي الوقت نفسه كان هناك مليار انسان - ربع سكان العالم - يعانون من الجوع، ونقص التغذية، والمرض والأمية، والحرمان من المسكن، وارتفاع وفيات الأطفال، وانخفاض متوسط العمر، ويقل نصيب الواحد منهم من الدخل ووسائل الحياة عن نصيب الواحد من المليار الأغنى من البشر بحوالي ٤٠ - ٥٠ مرة بالمتوسط، وتزداد هذه الفجوة اتساعاً.

فبينما لا يزيد نصيب الفرد من السكان، من الناتج القومي الاجمالي، في أفقر بلدان العالم الثالث عن ١٧٠ دولاراً في العام، فإنه يزيد في أغنى الدول الغربية عن ١٥ - ٢٠ ألف دولار، وبينما يبقى الأول ثابتاً أو يتزايد بدولارات قليلة سنوياً.. فان الثاني يتزايد عدة مئات من الدولارات في العام.

أما المليارات الخمسمائة الثلاث.. فالأولى هي المبلغ الذي تجاوزته ديون الدول الرأسمالية المتطورة على شعوب العالم الفقيرة، والثانية هي فوائض أموال دول العالم الثالث المودعة أو المستثمرة في الدول الرأسمالية المتقدمة. أما الخمسمائة مليار الثالثة في حجم الإنفاق العسكري في العالم على الحروب والتسليح وتحشيد الجيوش وتكديس أسلحة التدمير الشامل^(١).

هذه الأرقام المفزعة وغيرها.. كانت بمثابة «جرس انذار» للعديد من الهيئات المعنية، وقد سارعت بعضها إلى عقد ندوات وملتقيات، لتلافي ما يمكن تلافيه، ومن ذلك على سبيل المثال الملتقى العالمي الذي عقدته هيئة اليونسكو في عام ١٩٧٧، تحت عنوان: «انتحار أم بقاء؟: تحديات عام ٢٠٠٠م»، وهو الأول من سلسلة من الملتقيات التي انبثقت من مائدة مستديرة عقدتها في عام ١٩٧٦، عن تحديات عام ٢٠٠٠م، وهي تحديات واسعة المدى متنوعة الآفاق: اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية وأخلاقية. شارك في هذا الملتقى ثلاثة وثلاثون من أعلام الفكر العالميين من مختلف

(١) د. عارف دليه: مقال «مسير مليار جائع»، مجلة العربي (الكويتية) - العدد (٢٨٧)، أكتوبر، ١٩٨٢م.

التخصصات : علماء ، فنانون ، فلاسفة ، سياسيون . فهم الحاصلون على جائزة نوبل ، وصدر كتاب الملتقى عام ١٩٧٨ ، ولا يشترط في هذه الندوات والملتقيات أن تكون آراؤها معبرة عن اتجاهات اليونسكو . فلكل مشارك أن يبدي رأيه بحرية كاملة . ودارت أعمال الملتقى حول أربعة محاور : (الانسان ؛ أهو دمية أم سيّد انتاجه ؟ ، الانسان في مواجهة القوى القائمة ، عقد اجتماعي جديد ، المعركة المستمرة للثقافة) ^١ .

وها هي البشرية ، اليوم ، تطرق بقلق هستيري أبواب القرن الحادي والعشرين وبداية الألف الثالث من التقويم الميلادي ، حيث تتقف ، وكما فعلت قبل قرن ، وتنتظر المستجدات . فماذا يقول المسكون بزمان الأمور عن مجمل هذه الأوضاع ، وكيف يرون مستقبل العالم ؟ لو أن هذا السؤال وجه إليهم قبل سنوات قليلة لكانوا قدموا إجابات متشائمة ولأنحوا باللائمة على الخطر السوفياتي .. ولكن هذا الخطر قد زال الآن مفسحاً المجال أمام إقامة النظام العالمي الجديد الذي يفترض فيه أن يكون نظام السلام والحرية والديمقراطية ، وهي كلّها توفّر - كما يؤكد الخطاب الغربي على الدوام - أفضل الشروط وأكثرها ملاءمة لإحراز المزيد من التقدم العلمي ولوضع هذا التقدم في خدمة الانسان . فالإجابة الآن لابدّ وأن تكون متفائلة بحكم المنطق السائد ، اذ لم تعد توجد معسكرات وقوى فعلية من شأن نشاطها الخطر أن يحول دون تحقيق معجزة الديمقراطية . فهل يحقق الغرب الذي يفترض أن نمودجه قد انتصر ، وأثبت جدارته ، مع بداية القرن العشرين ما كان وعده به في نهاية القرن السابق له ، أم أن ليلة البشرية ستكون في ظل هذا النموذج أسوأ من بارحتها ؟

يبدو أن الاحتمال الثاني هو الأكثر رجحاناً عند «أهل العلم» في الغرب نفسه ، كما يقول الباحث اللبناني عقيل الشيخ حسين ، فعلى الرغم من افلاس الاشتراكية الذي ازدهى به الغرب ، وعدّه دليلاً على صحة الرأسمالية وحقيقتها ، أطبقت الأزمات على العالم الرأسمالي ، وتفاقت بأشكال لم تعهد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وهي تتجه يومياً نحو المزيد من التعمق ولا تلوح في الأفق أية حلول من النوع الذي يبعث على الارتياح . لذا فإنّ الغرب خائف من الحاضر ومن المستقبل القريب (لأنّ البعيد لا يثير مخاوف انسان الحضارة بفضل الموت الذي يحول دون وصوله إليه) ^٢ .

(١) د . عبدالعزيز كامل : مقال «انتحار أم بقاء ؟ تحديات عام ٢٠٠٠» ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) كان أحدهم يعرض على شاشة إحدى قنوات التلفزيون الفرنسي سيناريو كئيباً عن مستقبل العالم بعد ٥٠

وما يزيد الطين بلّة، والدوامّة تفاقماً هو أن عدد سكان الكرة الأرضية قد تجاوز الستة مليارات انسان، في نهاية القرن الماضي. والسؤال الذي طرحته السبعينات (من القرن العشرين) بالحاح، وبقوة وعلى جميع الأصعدة هو: هل يسير رقم الفقراء في العالم إلى الاختفاء نحو نهاية القرن، أم على العكس، يسير إلى التزايد، وربما إلى التضاعف، والعالم يفتح أبواب القرن الواحد والعشرين؟ والجواب على هذا السؤال يعني تحديد نوعيّة ربع القرن القادم الذي يتفق الجميع على أنه سيكون أخطر فترة في تاريخ البشرية، ففي أي اتجاه نسير؟

البعض يبحث عن جواب لهذا السؤال في الجغرافيا، وفي موارد الطبيعة وقدرتها على تلبية الحاجات المتزايدة للانسان. وآخرون يبحثون عن الجواب في التاريخ، في محاولة لاستعادة أنماط اجتماعية استطاعت ذات يوم مضى استنهاض قوى الانسان، وتعظيم امكانياته. والبعض يرى الحل الشامل في الثورة العلمية التكنولوجية وما تحمله من مضاعفة هائلة لطاقات الانسان الماديّة والعقلية في استغلال الطبيعة وتنظيم حياته الاجتماعية. ولكن أبرز وأخطر سمات العصر لا تتحدد لا في الجغرافيا، ولا في التاريخ، ولا حتى في العلم والتكنولوجيا، فهذه كلها يمكن أن تصبح نتائج عوامل أخرى^١، كذلك انّ المسألة تتجاوز النظرة القائلة بأن أبرز وأخطر سمات العصر هي الكيفية التي يجري بموجبها تصريف ثمرات المدنيّة الضخمة، وانتاج مليارات البشر، والتي تتحدد بكيفية توزيع الناتج، وتخصيص الموارد على المستوى المحلي، وبحركة المليارات الخمسمائة الثلاث (آنفة الذكر) على المستوى العالمي^٢ إذ تبقى الأزمة أعمق بكثير من محاولة علاجها بتصريف ثمرات المدنيّة الضخمة. نعم تساهم هذه المحاولة بجزء من الحل.. أما الحل الحقيقي الكامل فيبقى بمنأى عن ذلك.

عاماً، فوجّهت إحدى المشاركات في الندوة - وهي كانت قبل لحظات تعرب عن حبّها الشديد للأطفال - وجّهت شكرها إلى السماء لأنها لن تكون حيّة في تلك الأيام.

ولحسن الحظ كان الحسن السليم حاضراً في تلك الندوة فقبل لها: «إنّ معنى ذلك هو أن أولادنا سيددون فاتورة الحساب بالكامل». مجلة منبر الحوار؛ م.س، ص ٤٣.

(١) مجلة العربي: مرجع سابق ٢٨٧: ٢٥، وما ينبغي التنويه إليه أن الكلام أعلاه يعود الى ثمانينات القرن العشرين.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦.

وإذا ما توخينا الدقة بحثاً عن الحل، فلا بدّ من تشخيص الأزمة ومن أي نمط... ليعكف المعنيّون على وضع الحلول المناسبة.

ولمّا كانت أغلب الدراسات التحليلية المعمقة تؤكّد: بأنّ الأزمة الحادّة التي تمسك بخناق البشرية هي - في عمقها البعيد - أزمة نمط حضاري، ومن هنا فإن من العبث البحث عن أي حل، خارج هذا الإطار. وأيّة محاولة من هذا القبيل ليست سوى عمل ترقيعي، وبالنتيجة فإن ذلك يساهم في اطالة الأزمة وتعميقها، خاصة بعد افلاس كل الرهانات التي سادت، أو ارتفع صوتها، رداً من الزمن.

ومن أبرز تلك الرهانات هو التعويل كثيراً على العلم، حتى تم تصوّيره وكأنه الدواء السرمدي الناجع لكل أوجاع البشرية وعذاباتها.. وسرعان ما أسفرت الحقيقة بكل تجلياتها. فهذه الآثار المدمرة للتقدّم التكنولوجي الغربي الأعمى بدأت تتضح نتائجها الكارثية، والتي من شأنها أن تهدد مستقبل البشرية جمعاء.

إنّ صيحات المعارضين للتقدم التكنولوجي والحضاري الأعمى، والذي تلوح شظاياه المتناثرة هنا وهناك، تعكس صدى القلق الوجودي للإنسان المعاصر. أنّها أشبه بما لدى الحيوان من احساس وصياح يسبق الكوارث والهزّات الأرضية والبراكين. إنّ التقدم التكنولوجي الأعمى، يبدو أنه لا يقضّ مضجع الإنسان وحده.. فالسماء هي الأخرى ليست آمنة من رغبة الإنسان، وبالأخص رغبة إنساننا المعاصر، المحكوم بها جس القوة والتقدم والتوسّع إلى ما لا نهاية في عالم محدود ومتناهٍ. رغبته في بناء الآلة التكنولوجية العملاقة والتي يتحوّل فيها الناس إلى مجرد قطع تغيير، بصورة أدق، رغبة في بناء الغابة التكنولوجية والتي تسرح في أرجائها قوى هائلة ووحوش مفترسة لا تعرف القناعة ولا الاكتفاء^١.

وإزاء هذا المستقبل المحفوف بالمخاطر، إلى حد الهلع، تتوجّب ضرورة التفكير بمسألتين مترابطتين هما: الأولى: المصير الذي ينتظر الإنسانية، والثانية: المخرج الذي يتيح للإنسانية أن تؤمن مستقبلها، وسط كل هذه التحديات التي تواجهها من كل حذب وصوب.

(١) تركي علي الربيعو: مقال «مدخل لدراسة أزمة النمط الحضاري المهيمن: التقدّم التكنولوجي على الطريق المسدود»، مجلة منبر الحوار: مرجع سابق، ٣٠: ٢٢.

وفي سياق البحث عن حل «ما»، وضمن قراءات نقدية معمقة للمأزق الحضاري، هناك أكثر من سيناريو - يعمن أغلبها في التخيل إلى حدود بعيدة - وفي هذا الصدد يقول جون كالتنغ (أستاذ دراسات السلام في جامعات بيرن وهاواي وسارلند): «نحن لانعرف الكثير عن المجتمع العالمي في عام ٢٤٩٢، هناك سيناريو واحد يبدو أنه غير وارد: إن امتداد الغرب عامة وأوروبا خاصة يستطيع التقدم من دون رادع على حساب الكثير ممّا تبقى من العالم، اذن الافتراض في هذا الجزء أنه سيكون هناك انقلاب، أمّا السؤال فهو كيف وكما يُعتقد طبعاً، إن الانقلاب ينبث في الضحايا، الأجزاء المُستغلة من المجتمع العالمي، لنفترض أن الأجزاء المُستغلة هي: الطبيعة، والبروليتاريا الخارجية كالشعب، والبلاد والبروليتاريا الداخلية جميعها أربعة أشكال للآخر.

وهذا يعطينا أربعة سيناريوهات للسقوط والقيام، ولكن على رأس هذا يأتي السيناريو الخامس، الذات، وحاكمو البناء يأتون كمستغلين لذاتهم، ومن هذا المنطلق فهم يشكلون منبع الانقلاب»^١.

ومهما يكن موقفنا من هذه السيناريوهات، فإن الذي يلفت نظرنا بالدرجة الأولى، وقبل كل شيء، هو السيناريو الأخير الذي يتمثل بالثورة على الذات، ولكن لماذا يثور الغربيون على أنفسهم وهم على رأس الهرم؟ ربما أنهم سيتعبون يوماً ما من هذه اللعبة، قد يفكرون يوماً ما أن ٥٠٠ + سنة من تعذيب كل هذه الأجزاء من العالم، وهم أثناءها قد أبرزوا أنفسهم بطريقة جميلة من خلال تغيير أنظمة معتقداتهم، قد صار كافياً.

وقد ينظرون إلى أنفسهم، كما يقول المثل الأمريكي، على أنهم «جزء من المشكلة وليس من الحل». .. وطبعاً قد حصل هذا للعديد منهم من قبل سنة ١٩٩٢... وهكذا تأتي فكرة الانسحاب، لكن لمن؟ ليس للولايات المتحدة التي ستكون نفس ما هم عليه، لكن مع لكتة أمريكية. إذن هل ينسحبون للحر المباديين، أو السود المستعبدين، انهم مختلفون جداً حتى يكونوا مرجعاً للانسحاب، ربما إلى الصفر: أسياد الاقتصاد الجدد. أو أن هناك جواباً أفضل بكثير؟^٢.

(١) جون كالتنغ: المقال المثير «أوروبا ١٤٩٢-١٩٩٢-٢٤٩٢: عقل أم مرض المجتمع العالمي»، مجلة منبر

الحوار: المرجع السابق. ٥٩: ٣٠.

(٢) المرجع نفسه: ٧٣-٧٤.

قد نجد ملامسة سلبية للجواب، في ثنايا الجدل الذي أثاره «صموئيل هنتنغتون»، صاحب مقالة «صدام الحضارات» الشهيرة، اذ يخيّم على العواصم الغربيّة الرئيسية إحساس بالقلق تجاه المستقبل. فالثقة في أن الغرب سوف يظل قوّة سائدة في القرن الواحد والعشرين، كما كان أبان الأربعة أو الخمسة قرون الماضية، يحل محلها إحساس بالتشاؤم من أن قوى مثل ظهور الاسلام (الأصولي)؛ وبزوغ نجم شرق آسيا، وانهيار روسيا وأوروبا الشرقية.. يمكن أن تمثّل تهديدات حقيقية بالنسبة للغرب.. وتنشأ من جرّاء ذلك عقلية محاصرة. وفي داخل تلك الجدران التي تموج بالاضطراب من المحتم أن تكون مقالة صموئيل ب هنتنغتون «صدام الحضارات» ذات دوي. ولذا سوف تكون مفاجأة كبرى لكثير من الغربيين أن يعلموا أن باقي العالم يخاف الغرب أكثر مما يخافه الغرب، وعلى وجه الخصوص التهديد الذي يمثله غرب جريح^١.

لقد فات «هنتنغتون» الكثير من الحقائق، ومنها أن القيم الغربيّة لا تشكّل نسيجاً من قطعة واحدة، فبعضها جيد وبعضها ردي، ولكن على المرء أن يكون خارج الغرب، ليرى ذلك بوضوح، ويرى كيف أن الغرب يسبب اضمحلاله النسبي بيديه، وهنتنغتون أيضاً لديه غشاوة بالنسبة لهذه الحقيقة، كما يؤكّد وكيل وزارة الخارجية وعميد كليّة الخدمة المدنية في سنغافورة «كيشور محبّاني»^٢.

غير أن هناك فهماً مغايراً لنظرية «صدام الحضارات»، وتتأتّى أهميته أنه صادر من لدن أكثر من خبير ضليع بالحضارة وفلسفتها، وفي المقدمة «آرنولد توينبي» المؤرخ الغربي الذائع الصيت، الذي رأى بوضوح، ومنذ وقت مبكر، كيف أن الانسانية تعبت من الفلسفات المادية بأشكالها المختلفة.

وها هو يطرح، منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، رؤيته في أزمة الفكر والممارسة الغربيّة التي أوصلت العالم إلى التهديد الخطر بأن تُنسف هذه الأرض بمن عليها من جرّاء مخزون السلاح النووي، وتمسي قاعاً صفصفاً، أو تفسد من الداخل من جرّاء العبث بالبيئة والانسان فتصبح خربة جوفاء. لقد قال «توينبي»: «إن المأزق الذي يواجه الفكر الغربي

(١) كيشور محبّاني: مقال «أخطار التدهور؛ ما يمكن أن يعلّمه باقي العالم للغرب»، مجلة الحرس الوطني (الرياض) - العدد ١٦٤ / ١٦٥، س ١٧، ذو القعدة / ذو الحجة ١٤١٦هـ - مارس / أبريل ١٩٩٦م، ص ١٠٧.

(٢) المرجع نفسه: ١٠٩.

هو امكانية التفجير من الداخل، وذلك لانعدام التحكم والرقابة، وإذا كان لابد من إعادة الاستقرار إلى الحياة الانسانية التي جعلها الغرب حائرة، فلا بد من البحث عن موجهين لحركة الاستقرار هذه خارج الغرب. والتزاوج الرائع بين الروحانية و«القبول الأسمى للوجود اليومي هو رسالة الاسلام إلى البشرية التي تتجاوز الأطروحات المكبلة للانسان، والتي تحصر قدراته في نطاق ضيق»^(١). وما بين ايجابية «تويني» (في تشخيص الأزمة) ومكابرة «هنتنغن»، على هذا الصعيد، يكاد يتفق علماء الفكر الغربي - سواء على المستوى الفلسفي أو التقني - على أن الحضارة الغربية، بالرغم مما وصلت إليه من تطور، تتجه إلى طريق مسدود، وتعود البشرية إلى حضارة الانسان المتأزم، في قوته وليس في ضعفه، الأمر الذي ينذر بأزمة خطيرة قد يدمر الانسان فيها نفسه، ذلك أن التطور المعاصر يقوده في اتجاه واحد هو اتجاه الأزمة، بينما يقتضي الأمر أن يكون هذا التطور شاملاً.

وهنا، يتكرر التساؤل عن المدى الذي وصلت إليه الحضارة الغربية ذات البعد الواحد، وكيف يمكن أن يكون للانسان حضور حقيقي لتصحيح مسيرة التطور؟ وقد كفانا مؤونة الجواب الدكتور «رشي فكار» - الذي خبر حضارة الغرب عن قرب، وتعامل معها من موقع الخبرة والمعاناة والتخصص المنهجي، فاكسبت بذلك شهادته وادانته لحضارة الأزمة أو أزمة الحضارة المعاصرة قيمة خاصة - إذ يقول: «إن التطور يكيف السلوك دائماً، كما إن السلوك يكيف التطور.. وقد اختلف بعض الفلاسفة حول: أيهما يقود الآخر.. التطور يقود السلوك أو السلوك هو الذي يقود التطور؟ ومتى؟.. إلا أن هناك شبه اجماع على أن التطور يقود السلوك في اللحظات الانسجامية حينما تكون المسيرة ايقاعية، ويملي عليه التغيير. أما في حالة التأزم فإن السلوك هو الذي يقود إلى التطور.. وقد تجاوز الإنسان الأزمات الكبرى للبشرية بالسلوك وليس بالتطور.. ومن الخطأ أن نتبنى القول بأن التطور هو الذي قاد البشرية في المجتمعات القديمة.. وإنما السلوك - بمعنى الرسالة الالهية والوحي الالهي - هو الذي قاد هذه المجتمعات التي كانت تعيش في الصنمية والوثنية، وغير قادرة حتى على تحليل أبسط الأمور، قادها إلى التأمل.. ذلك - كما قال «دوركايم» الفيلسوف الملحد - : «إن وراء كل فلسفة ديناً، ولا يمكن تصوّر فلسفة لا تركز على دين».

(١) مقدمة كتاب «الاسلام والمستقبل»، من اعداد اللجنة التحضيرية العليا لمؤتمر القمة الاسلامي الخامس، الكويت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص ٥.

فالدين هو الذي دفع إلى التأمل وأيقظ الحكماء والرؤية الفلسفية.. وبالتالي فإن السلوك الذي نبع من رسالة الخالق هو الذي قام بعملية تصحيح مسيرة المجتمعات البدائية والمجتمعات التي كانت تعاني من الالتباس والمراوغة.. ويعتبر الاسلام، بلا شك، المرحلة الرئيسية في التصحيح الجذري للتطور بالسلوك وليس تصحيح التطور بالتطور^١.

وفي ظل شيوع حالة التمرد التي يريزح تحتها الغرب - وخاصة تلك المتفشية في أوساط الشباب - فإن مبررات الاعتقاد بأنه سيكون للاسلام دور في انقاذ البشرية المتمردة.. تغدو أكثر وجاهة، وأشد إلحاحاً.. أكثر من أي وقت مضى. ذلك لأن الاسلام يتمتع بميزات لا وجود لها في أي دين آخر.. فهو الدين الوحيد الذي يستطيع أن يتحاور مع المتمرد.. وقد اعترف بذلك «كانت» حين ذهب إلى القول بأنه اذا كان ولا بدً للانسانية أن تعود إلى دين «وطني» - أي علمي - يتمشى ومتطلبات العصر، فلن تجد إلا الاسلام.. هذا الاعتراف قليل في القرن التاسع عشر، عصر التمرد الأساسي في المدرسة الوضعية.. وهذه القدرة على المحاورة التي يتمتع بها الاسلام تنبع من تجاوز الشكليات، فهو يتحدث دائماً بلغة الشمول والتجانس والايقاع الكوني، وينزه عن الحماقات البشرية، وهذا ما يلفت نظر العقل المتمرد^٢.

وفي ضوء هذه الحقيقة، يقول الدكتور رشدي فكّار مؤكداً: «لا أعتقد إن نهاية العقول المتمردة في الغرب ستطول كثيراً.. ومما يؤكّد هذا المصير، ذلك الشعار الذي طرح أمامنا، منذ سنوات في مؤتمر عُقد في باريس، والذي يشير إلى أن نصف المجتمعات المتقدمة سوف تعاني نفسياً بعد ربع قرن - وربما أقل - في أسرة المرضى، بينما ينتظر النصف الآخر دوره في غرفة الانتظار»^٣.

وهذا الاعتراف المدهش بل والمرعب يثبت بأن ما تعانيه البشرية اليوم ليس «أزمة حضارية»، ولا حتى «أزمة حضارة» وإنما هي على وجه الدقة «حضارة أزمة». وما يدعوا إلى تبني هذا الرأي الأخير هو أن «الأزمة الحضارية» بالامكان علاجها أو حتى تجاوزها..

(١) يُراجع الحوار المعمق مع د. رشدي فكّار الذي أجرته معه مجلة الأزمة (القطرية)، العدد (٦٧)، ص ٦. رجب

١٤٠٦ هـ - آذار (مارس) ١٩٨٦ م، ص ٤٠.

(٢) المرجع نفسه: ٤٥.

(٣) المرجع نفسه:

أما حقائق الواقع ومنطق الأشياء فتؤكد جميعاً أننا ازاء «حضارة أزمة»، وما هذا العجز الفاضح عن العلاج أو التجاوز إلا دليل على ما نذهب إليه .

ومن غير أن نخوض في البُعد الفلسفي لهذه المسألة ، حسبنا أن البشرية اليوم تقف على مشارف قرن جديد، وهي خائفة قلقة مذعورة ! فيما تنبيري علامات الاستفهام ؛ فمن ذا الذي يصدّق أن حضارة القرن العشرين ، برغم ما حققت من انجازات قارنها بعضهم بالمعجزات ، آخذة بالانحدار ، دائرة في الفراغ ، مستعدة للرحيل ، عاجزة عن مواصلة المسير ؟

من ذا الذي يصدّق أن غياب الروح العلمي الحق هو الذي يدفعها في عصر العلم إلى الانتحار، والاحتضار، والانهيار ؟

تلك مأساتها .. فمن شاء فليصدّق ، ومن شاء فليكدّب ! أما المشاركون في صنعها فيعلمون أن أجلّها المحتوم قد حان ، وأنها على فراش الموت تلفظ آخر الأنفاس !!
والسرّ في مأساة الحضارة أن الانسان صنعها لنفسه ، ولكّنه ما كاد يُنمّ صنعها لكل بني الانسان حتى انزلت من يده ، وتفلتت من قبضته ، وحادث عن دربه ، ومالت عن سربه ، وابتعدت عن قلبه ، فطارت من بُبه ، وصارت حضارة بلا انسان ..^١

إذن ، يمكننا القول أننا في الوقت الذي نودّع فيه قرناً راحلاً ، ونستقبل قرناً جديداً ، نلج به بوابة الألفية الثالثة .. تنكّرس أكثر فأكثر .. القناعة بأن حضارة العصر مستعدة للرحيل .. وهذا ما يستدعي حلول حضارة تُقبل محل حضارة ترحل . ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾^٢ .

وهذا الفيلسوف الفرنسي المسلم «رجاء غارودي» الخبير بخلفيات الحضارة الغربية ، وابن الدار ، والشاهد على الانكسار والعد التنازلي .. لا يتوانى عن نعت الغرب بأنه «مريض .. ومريض جداً ولعله في حالة النزاع الأخير» ، وبما أنه «لا يوجد خمسون حلاً ، بل هناك حل واحد ..» فأنه قد وجد «في الاسلام المنقذ الوحيد للعقل الحائر»^٣ .

(١) د. صبحي الصالح : «الاسلام ومستقبل الحضارة» ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ٣٥٧ ، الفصل (٢٢) «مأساة الحضارة» .

(٢) آل عمران : ١٤٠ .

(٣) مجلة الأئمة : مرجع سابق ٦٧ : ٤٢ ، ويُراجع الحوار مع الفيلسوف الفرنسي المسلم «غارودي» ، في مجلة المستقبل الباريسية (محتجبة) ، العدد (٤٢٨) ، س ٩ ، ٤ آيار (مايو) ١٩٨٥م ، ص ٥٠ وما بعدها .

أما الدكتور «مراد هوفمان» (سفير ألمانيا السابق في الرباط)، فيرى كرجل دبلوماسي محكك شغل عدّة مناصب «أن القرن الواحد والعشرين هو قرن الاسلام الذي سينبعث من أوروبا.. وأن الاسلام لا يطرح نفسه بديلاً (خياراً) للمجتمعات الغربية بعد الصناعية. انه بالفعل هو البديل الوحيد^١.

على الصعيد التنظيري، يمكن القول بأنّ هناك امكانيّة هائلة، لكي يستأنف الاسلام عطاء الحضاري، رغم كل ما يشوب الواقع الاسلامي من مظاهر التخلف والتراجع الحضاري. ولكي يتحقق ذلك - أي وضع الاسلام بديلاً نهائياً - لا بدّ لنا من مواجهة الذات، بكل ما يتطلبه من مستلزمات نهوض، ووعي لحركة الصراع، والاصرار على الافلات من القيد، وكسر عنق الزجاجة، وتجاوز الطريق المسدود.. ومن ثمّ نفتح الطريق لأمتنا كي تصنع اليوم وغداً ما يجعلها بحق الأمة الوسط.. الشاهدة الشهيدة.

ان اعادة بناء الحاضر، والاستشراف الصحيح لصناعة المستقبل، وتقويم واقع الأمة بتعاليم الكتاب والسنة، وتحديد مواطن الخلل والاصابة، التي تعيق النهوض، منوط إلى حد بعيد بقدرتنا على اعادة تشكيل مركز الرؤية، للعقل المسلم، ودراسة الاصابات التي لحقت به، ورسم سبيل الخروج به من الأزمة، وتحقيق الانعتاق العقلي، والتحرر من أسر البيئة، والمناخ الثقافي، الذي يحيط به، واخراجه من تحكّم الأبنية الفكرية المسبقة، والعودة به إلى التزام القيم المعصومة في الكتاب والسنة، في معاييرته للواقع، وتسقيته للموارد الفكرية، التي تساهم في تشكيله، ذلك أن العقل في نهاية المطاف، هو الذي ينتج ويؤلد عالم الأفكار، وهو الذي يتشكّل بها، ومن ينظر، ويبدع، ويحكم على الأشياء، من خلالها^٢.

لا شك إن نظرة المرء للمستقبل إنّما تعتمد أساساً على دقّة فهمه للماضي. فإذا كانت اتجاهات الماضي قد تمّ تحديدها تحديداً سليماً، فعندئذ يستطيع المرء أن يتصوّر امكانيّة استمرار بعض هذه الاتجاهات في المستقبل (أو توقّفها)، وإن كان هذا التصوّر لن يكون في

(١) د. مراد هوفمان: «الاسلام كبديل»، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ترجمة د. غريب محمد غريب، وقسم

الترجمة في مؤسسة بابافاريا (ألمانيا)، ص ٧، ٢٠.

(٢) تُراجع مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب «العقل العربي وإعادة التشكيل» - كتاب الأمة (٣٥)، قطر ١٤١٣هـ،

ص ٩.

دقة ما يحدث من أفعال مباشرة تتخذ لها مساراً مستقيماً، ذلك لأن بعض هذه الاتجاهات تناقض بعضها الآخر، وتميل كلها إلى التغيير صعوداً أو هبوطاً، حسب المواقف المتغيرة. فضلاً عن ذلك فإن الحقيقة المؤكدة التي تعلمناها من الماضي هي أنه ستحدث أمور كثيرة لا يمكن التنبؤ بها، وقد تؤدي إلى تغيير حاسم لهذه الاتجاهات. صحيح إن المستقبل لا يبدو واضحاً بالنسبة لنا، لكننا، حتى نتأمله في حالته الضبابية، نستطيع تمييز المجالات التي يتحدد بها بعض المشاكل الكبرى^١.

وهذا «مارتين ستورا» يكتب بأن القرن الحادي والعشرين هو «قرن الاختبارات الصعبة» وعلينا أن نتوقع ظهور أعراض مرضية من العصاب الجمعي والهلوسة الجماعية، في انتظار مخلص بعد أن اقتربت نهاية العالم^٢.

وأياً ستكون درجة الوضوح للمستقبل، فإن ما يبدو بمنتهى الوضوح، هو - كما يقول المربي البريطاني المخضرم «ف. هابولد» - شيء ما يحدث في العالم.. لقد اهتزت الأسس القديمة وأثبتت الأوضاع القديمة عدم صلاحيتها.. شيء ما جديد وغامض.. يجري على أرض الواقع.. ويفرض ذاته على العقول الكبيرة المرهفة.. نحن على أبواب عالم جديد مختلف عن عالمنا الذي نعيشه ونضيق في يومياته الرتيبة وأحداثه الجزئية.. عالم جديد تتطلب رؤيته تجاوزاً للذات، وارتفاعاً عن التقليد، وتجديداً في النظر والاحساس^٣. ولا شك.. كلما ازدادت معاناة الأزمة اتسع أمل الخلاص^٤ وعليه، وبناء على ما تقدم، وبغية قراءة المستقبل عبر فهم الماضي، لا بدّ من التعرّض لحضارات العالم، وكل ما يجول فيه من حركات فكرية، وتحديد موقفنا منه، من هذا المنظور^٥.

فالحاضر حلّه في الماضي، والمستقبل لحظة من لحظات الماضي.. الذي لا تسكنه سوى امكانات الحاضر.

(١) أدوين رايشاور: «اليابانيون»، ترجمة ليلي الجبالي، سلسلة عالم المعرفة (١٣٦)، الكويت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، ص ٤٢٧.

(٢) إبراهيم الحيدري: «العلاقة بين البشر تحدد العلاقة بين الحضارات»، مجلة العالم (لندن) - العدد (٦٠٦): ٣١ كانون الثاني ١٩٩٨ م - ٣ شوال ١٤١٨ هـ، ص ٣٢.

(٣) نقلاً عن كتاب «العالم والعرب سنة ٢٠٠٠» للدكتور محمد جابر الأنصاري، بيروت، ١٩٨٨ م، ص ٤٧.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) مجلة المسلم المعاصر؛ مرجع سابق ٣٩: ١١.

الفصل الأول

إشارات حضارية

كثيراً ما تتردد على مسامعنا، أو تطالعنا مصطلحات معاصرة، من قبيل: المشروع الحضاري، الحوار الحضاري، الصراع الحضاري، التدافع الحضاري، التحصين الحضاري، التواصل الحضاري، التفاعل الحضاري، الاستلاب الحضاري، التحدي الحضاري، السبات الحضاري، الافلاس الحضاري، السقوط - الانهيار الحضاري، البديل الحضاري،... الخ.

ولشيوع استخدامات هذا «الطيف الحضاري»، من الممكن القول: إن الحديث عن الحضارة هو حديث الساعة، بل هو حديث العصر، ولغته، واسلوبه^١ فيما تعتبر كلمة «حضارة» من الألفاظ اللغوية الأكثر شيوعاً في الاستعمال، لدى الكتّاب والمفكرين في عصرنا الحاضر، غير أن الغموض الذي يحيط بمدلولها، لدى هؤلاء الكتّاب، يجعلها بعيدة عن أن يكون لها معنى واحد محدد^٢.

فما اختلف في مصطلح يقول تاريخ كيان أمة وحضورها في هذا العالم، وتوقّفاً إلى ما يتجاوز حدود واقعها، كالاختلاف في مصطلح «الحضارة» نظراً للصعوبة تحديده، وقابليته لاحتضان الكثير من الدلالات.

وفي الاختلاف كان ابتعاد، أو مقارنة، أو معاقبة، أو ارتداد، ولكن في كل مرّة يصيب القارئ أو الدارس قبال المصطلح اضطراب، بل قلق مؤقت أو مستديم، حتى يعبر في نص المصطلح ومنتته مدّة، تطول أو تقصر، قبيل أو بعد أن يطويه، ممّا يؤثّر في مسار الاستفادة، أو يربكه، أو ينسخه - أحياناً - إلى سوء فهم. خصوصاً وأن مستخدم المصطلح قلّما يحدسون في امكانية وقوع هذا النوع من الاضطراب، فلا يردفون استخدامهم بايضاح أو

(١) د. محمود محمد مسفر: «دراسة في البناء الحضاري»: ٢٥.

(٢) مجلة العالم (لندن) - ٢٩٢: ٥٢.

تفسير أو جلاء قصد^١.

ولهذا غدا مصطلح الحضارة من المصطلحات الأكثر تعقيداً. فيكاد هذا المصطلح يجمع مئات التفسيرات، وكل منها يعكس مرياته الخاصة عن الوجود، ويختصر مفاهيم أصحابه عن الحياة، ولا غرو في ذلك، فمفهوم الحضارة مقياس لمستوى الإدراك، وعنوان على معطيات الأمم والشعوب. ومن خلاله يمكننا تفسير كثير من أحداث التاريخ ومضامين الثقافة والإبداع. وقد أكثر المؤرخون والفلاسفة والمفكرون، في القرون المتأخرة، من الأبحاث الحضارية موضحين مفاهيمهم عنها - وبخاصة - تفسير تواريخ الأمم، توصلًا إلى رسم صورة أو أخرى للحضارة الأمثل التي بها يسعد الناس^٢.

ولا يتسع المقام لعرض وتحليل جميع تلك التصورات والآراء، فهذا ما لسنأ بصده، غير أننا نجد لزماً توضيح بعض المعالم بقدر ما يتصل بالبحث.

ما الحضارة؟

وقبل استعراض أهم التحديدات الاصطلاحية المتعددة لمفهوم الحضارة، ينبغي التوقف قليلاً إزاء «إثارة» تعتبر بمثابة مدخل لـ «بوابة» الحضارة. ففي سياق طرح تأملاته الفلسفية، حول الطابع الجوهرى للحضارة، تساءل «ألبرت اشفيتسر»: «ما الحضارة؟، ليسارع بالاجابة قائلاً: «سؤال لا بد أن يكون قد ألحَّ على اهتمام كل أولئك الذين يعدون أنفسهم متحضرين، ورغم ذلك فانه من العجب أن الانسان لا يكاد يجد في الانتاج الفكري العالمي اليوم كتاباً وضع هذا السؤال، وأندر من هذا أن يكون قد أتى عليه بجواب. فقد افترض أنه لا حاجة بنا إلى تعريف الحضارة ما دمنا قد ملكناها هي نفسها. واذا مسَّ هذا السؤال أحد، كان من المظنون أنه مفروغ منه بالإحالة إلى التاريخ والعصر الحاضر. أمّا الآن وقد أفضت بنا الأحداث إلى الشعور بأننا نعيش في خليط خطير من الحضارة والبربرية فيجب - شئنا أو لم نشأ - أن نحاول تحديد طبيعة الحضارة الحقيقية^٣.

وقد يكون مفيداً - ونحن نعرض لقضية علمية - أن نحدّد بعض المفاهيم الضرورية

(١) د. سمير سليمان: «الإمام الخميني والمشروع الحضاري الاسلامي»: ١٤.

(٢) محمد علي ضناوي: «مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية»: ١٠.

(٣) ألبرت اشفيتسر: «فلسفة الحضارة»: ٣٤.

لمستقبل الرؤية الحضارية، ولنستبين بعض المعالم^١. إن الحضارة - كمصطلح - ينبغي أن تحدّد بمعزل عن الأطر الفكرية، طالما ارتضينا أن تكون الحضارة مصطلحاً.. ومن هنا كان علينا أن نحاول - كما يقول كاتب إسلامي - تصوير الحضارة كما هي.. بقطع النظر عن صواب أو خطأ المعطيات الفكرية، أو الثقافية، أو الدينية لأمة من الأمم.. ذلك أن تحديد مفهوم الحضارة - على هذا المستوى - يساعدنا، في النتيجة، على فهم كثير من الأمور. وأوّل ما ينبغي هنا أن نؤكدّه هو إنّ الحضارة تفاعل. أي هي انعكاس لأنشطة الانسان في هذا الكون. وهي - بمعنى أدق - صورة لممارساته المبنية على مبادئه وأهدافه وقيمه ومفاهيمه. أي أن الحضارة ليست المبادئ والأهداف بذاتها.. فالمبادئ أو القيم أو التصورات تحمل معاني مصطلحاتها، وهي التي توحى بممارسات الانسان المختلفة، وعلى كل صعيد.

أما الحضارة فهي نتيجة تطبيق تلك المفاهيم في ظرف أو ظروف معينة، وهي أيضاً تفاعل الانسان بالكون، عبر زمان محدود أو أزمنة متعاقبة.. ذلك أن المبادئ كالاسلام مثلاً، مجموعة قيم ومفاهيم عن الحياة تتضمن عقيدة وأمراً ونهياً وتنظيماً لشؤون الحياة المختلفة.

غير أن هذه المفاهيم، إن لم تُمارس، تغدو تراثاً وكتباً قيّمة ليس إلّا.. والكلام المسطور لا يصح تسميته «حضارة» بل يُسمى باسمه، أي «مبادئ».. أو «أفكار»، حتى إذا ما تُرجم الكلام إلى واقع، والأمر والتنظيم إلى فعل وممارسة، أي إلى وجود في عالم، وإلى تفاعل في حيّز محدود، ظهرت الحضارة حاملة صفات التفاعل والتطبيق.. عندها صحّ وصف الحضارة بالاسلامية وصحّ قولنا «الحضارة الاسلامية».

وهذا يعني إنّ القيم وحدها دون تطبيق ليست إلّا ترفاً فكرياً لا يوجد حضارة فالحضارة لا توجد إلّا بالتفاعل^٢ ولهذا يفسّرنا بعض فلاسفة الحضارة بأنها نتاج عبقرية عصر معين، وليس باعتبارها نتاج عبقرية جنس معيّن، كما يقول ولترشوبرت^٣.

يبد أن هذا التفريق بين مصطلحي الحضارة والمبادئ لا يسقط استخدام المقاييس في

(١) د. زغلول راغب النجار: «قضية التخلف العلمي والتفتي في العالم الاسلامي المعاصر»: ١٦.

(٢) مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية: م. س: ١٤ - ١٥.

(٣) نقلاً عن شروط النهضة لمالك بن نبي: ٦٤.

تقدير الحضارات وتقويمها.. فبقدر ما تكون المفاهيم صحيحة وسوية وملائمة للانسان ومُعينة له على الممارسة والانفتاح، بقدر ما تكون الصورة، أي التفاعل أي الحضارة مشرقة مضيئة. وبقدر ما تكون المفاهيم مجانبية للفطرة الانسانية بقدر ما تبهت الصورة، حتى قد تستحيل إلى ما يشبه الفولكلور أو الكاريكتور^١.

من هنا يمكن القول: إن الحضارة هي من الشروط اللازمة لأي اجتماع بشري مستقر، وسقوط حضارة أي مجتمع هو سقوط للوجود المميّز لهذا المجتمع، وتذويب لشخصيته. كما أن أي اجتماع بلا حضارة لها صفة التطور سيكون اجتماعاً تغلب عليه صفة البدائية، وتسوده شريعة الغاب، وذلك يتنافى مع تحقيق انسانية الانسان. وهذا ما يؤكده مالك بن نبي بقوله: «إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للانسان لأنها تضع حاجزاً بينه وبين الهمجية»^٢. ولعل دروس تاريخ الحضارات في العالم تؤيد ما جاء به «مالك بن نبي» في تعريفه وفهمه للحضارة. فالحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيج لمجتمع معيّن أن يقدّم لكل فرد من أفرادها، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموّه. الحضارة اذن حصانة لحياة الانسان، وفيها تأمين على مصيره، وتوفير لاحتياجاته وحفاظ على شخصيته الوطنية والدينية.

الحضارة هي النتائج الحاصل - ضرورةً - عن حركة مجتمع، حركة شاملة، في مجال الفكر والاقتصاد، وفي رحاب التوازن الروحي والمادي، وبدون هذه المسألة لن يكون المجتمع مجتمعاً، لأنه من شروط المجتمع البشري، أن يكون له حضارة، يرقى بها ومن خلالها دوماً نحو الأفضل، ويصبح مغلوباً على أمره تائهاً عندما يضيّع معالم حضارته، فأى جماعة بشرية تكتسب «صفة المجتمع، عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير

(١) مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية: م.س: ١٥.

(٢) النجدة، القاهرة، المطبعة العالمية، ١٩٥٧م، ص ١٦ (نقلًا عن كتاب: «مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً» للدكتور أسعد السحمراني: ١٤٣).

وحول هذه النقطة يقول ول ديورانت في كتابه «قصة الحضارة»: «الهمجي هو أيضاً امتدّد بمعنى هام من معاني المدنية لأنه يُعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه، وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية»..

وإن كان هذا لا يمنعنا من القول بأن الحضارة الحقّة حاجز بين الانسانية والهمجيّة.

نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة فإن لها حياة دون غاية فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة»^١.

على أن الحضارة ليست وفقاً على شعب دون آخر، أو على أمة دون سواها، كما وأن الحضارة - مادة التاريخ - ليست ثمرة جهود فرد أو شعب أو مجموعة أمم، بل هي صنع الانسان، في مختلف عصوره القديمة والحديثة والمستقبلية^٢.

وإن كان لا يمنع الخصوصية الحضارية كما يرى الفيلسوف الألماني «شبنغلر»؛ إن كل حضارة من الحضارات هي كل متكامل غير قابل للتجزئة وظاهرة أولية متفردة، وذلك لأن لكل حضارة نفساً أولية واحدة، وتعبّر بموزها عن نوازعها وطاقاتها، وأن تلك تنطلق عنها النفس وهذه الظاهرة وهذا الرمز هي التي تسيطر وتوجه جميع نتائج الحضارة من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وعلم وفلسفة ومذاهب...^٣

ومع أن الحضارة تشكّل كلاً منطقيّاً متماسكاً، إلّا أنها ليست كلها في درجة واحدة من التكامل^٤، غير انها - كما يرى شبنغلر - تولد في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة، وتتفصل هذه الروح عن الروح الأولية للطفولة الانسانية الأبدية، كما تتفصل الصورة عمّا ليس له صورة، وكما ينبثق المحدود من اللّا محدود، ويرى شبنغلر أيضاً أن الحضارة تولد وتنمو في تربة بيئة يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً^٥.

الحضارة.. والمجتمع:

ولهذا ظلّت فكرتا المجتمع والحضارة غير منفصلتين حيناً من الزمن في الدراسات الاثنولوجيّة، ذلك باعتبارهما ظاهرتين متكاملتين، وإن الحضارة تتضمّن أو تفترض على الأقل مجتمعاً. فكل مجتمع انساني لا بدّ أن تصحبه إذن حضارة، غير أن هناك من يقول بالتفرقة بين فكرتي المجتمع والحضارة.. ومن الذين حاولوا أن يصفوا على التفرقة بين

(١) د. أسعد السحمراني: «مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً»: ١٤٤.

(٢) موسوعة تاريخ الحضارات العام، بإشراف مورييس كروزيه، مقدمة الطبعة العربية، ص ١١، المجلد الأول.

(٣) تدهور الحضارة الغربية ١: ٧.

(٤) د. محيي الدين صابر: «التغيّر الحضاري وتنمية المجتمع»: ٥٤.

(٥) المرجع نفسه: ١٢.

المجتمع والحضارة صفة شرعية من الواقع هو الانثروبولوجي الأمريكي الشهير «أ.ل. كروبر»، حين ذهب إلى أن كل حضارة تفترض مجتمعاً، ولكن العكس غير صحيح، فلا يفترض كل مجتمع حضارة^١.

وفيما أخذت الدراسات المتأخرة تتبنى هذا الفهم، في ضرورة التفريق بين مفهومي الحضارة والمجتمع، فإن علماء الحضارة بدورهم بدأوا يجنحون إلى هذا المنحى، إذ يرون أن هناك فرقاً بين كلٍّ من مفهوم: الحضارة، والثقافة، والمدنية.

فإذا كانت المدنية تعني: الإبداع، والارتقاء بالوسائل المادية التي تحقق للإنسان الرفاه في مجال الصناعة، والعمران، والمواصلات، والزراعات.. الخ، أي أن موضوعها وسائل الإنسان (عالم الأشياء) والإبداع في مجال الماديات؛ وأن الثقافة تعني: الارتقاء بخصائص وصفات ومزايا الإنسان، وحسن تأهيله وتربيته، واكتسابه مجموعة معارف تساهم بتشكيل شخصيته، وتكوين نظرته السوية إلى الكون والحياة، وتحديد هدفه وتكوين نسيجه العام، أي أن موضوعها الإنسان نفسه (عالم الأفكار) والإبداع في مجال المعنويات.. فإن الحضارة تعني: المدنية والثقافة معاً^٢.

الحضارة.. والمدنية:

على أن ثمة خلطاً مفاهيمياً يقع فيه الكثير، من المشتغلين بالدراسات الحضارية، عند تناولهم مصطلحات: الحضارة، الثقافة، المدنية. ومنشأ هذا الخلط يعود -أساساً- إلى اختلاف في الاستخدام الغربي لهذه المصطلحات، ومن ثم انعكاس أثره على الدراسات التي تتناول هذا الموضوع في اللغة العربية. فهناك من التداخل والتشابك ما يجعل الحضارة مرادفة للمدنية والثقافة معاً.

(١) المرجع السابق: ٥٣-٥٥، مع ضرورة إبداء التحفظ حول منطلقات الدراسات الانثروبولوجية باعتبارها تعكس ايدولوجيا استعمارية، وللتوسع في هذه النقطة يراجع كتاب: «الانثروبولوجيا والاستعمار» لجيرار لكر، ترجمة د. جورج كتورة، ط ٢، بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

(٢) قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الاسلامي؛ م. س: ١٧. للمزيد يُراجع كتاب «الحضارة» للدكتور حسين مؤنس (سلسلة عالم المعرفة - ١)، الكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، وكذلك النظام الاجتماعي في الاسلام للسيد هاشم الموسوي، (منظمة الاعلام الاسلامي) طهران، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، وبين الحضارة والمدنية للأستاذ علي القرشي.

ويتّضح هذا الخلط ، من الوهلة الأولى ، لأي مراجع لمعنى كلمتي (culture) و (civilisation) فمن معاني الأولى : ١- حراثة ، ٢- تثقيف ؛ تهذيب ، ٣- ثقافة ، ٤- حضارة ، ٥- زرع البكتريا أو الأنسجة الحيّة للدراسة العلمية ، في الوقت الذي يرد فيه معنيان للكلمة الثانية ، وهما : الحضارة ، المدنيّة^١ .

وكلمة culture ترجع في أصلها إلى الفعل اللاتيني colere ، وهو يعني فعل الزراعة ، أو التمجيد والتعظيم .. وقد ظل معنى الزراعة - حتى في الاستعمالات الحديثة - واضحاً في اللغات الأوروبية في فعل الكلمة . ومن الاستعمالات القديمة للكلمة ، في اللاتينية ، استعمالها بمعنى الدرس والتحصيل العلمي .

أمّا كلمة civilisation فقد انحدرت عن كلمة civis اللاتينية ، التي تدل على المواطن المدني ، في صورة سلوكيّة معينة ، هي ما تتميز به طبقة العليّة في التقاليد الرومانية . وحين بدأت عهود الكشف الجغرافي ، منذ خمسة قرون ، وكثرت معارف الرجل الاوروبي عن أنماط الحياة عند المجتمعات الكثيرة ، في مستويات متفاوتة من العيش ، ظهرت هذه الكلمات مع ظهور المحاولات الأولى للدراسات الحضارية ، على يد المغامرين والرحالة والمبشرين والمحاربين والتجار والهواة .. في مذكرات وخطوط ، تناولها بعد ذلك فلاسفة القرن الثامن عشر ، وعلماء القرن التاسع عشر بالدرس والتحليل والتقويم .

وكانت الحضارة والمدنية تقوم احدهما للأخرى ، وتغني غناءها . ولكن العلماء الألمان ، خاصة في العهد الرومانسي ، نزعوا إلى الفصل بين وجهي الحضارة ، وأطلقوا على كل واحد منهما اسماً ، ورسموا له حدّاً .

فهم يذهبون إلى أن Kultur الحضارة ، هي صورة التعبير عن الروح العميقة للمجتمع ، وأن مظاهر التقدم التكنولوجي والآلي ، هي المدنيّة civilisation ذلك ما تجده عند راتناو Rathnau وكيسيرلنج Keyserling ، وحتى الكاتب الألماني توماس مان Thomas

(١) قاموس المورد الغريب لمعير البعلبكي ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨٠ ، ١٠٧ .

وما يلزم الإشارة - هنا - أن «وليام هاويز» يقول : قد تكون هناك تعريفات عديدة للحضارة أو المدنية ، ولكننا نكتفي هنا بالقول بأنها «وجود المدن بكل ما تتضمنه هذه العبارة من معان» . كتابه : «ما وراء التاريخ» ترجمة د . أحمد أبو زيد ، ص ٤٣١ .

Mann يقرر أن الحضارة هي الروح العميقة للمجتمع، وأن المدينة هي الآلية الصماء. ويبلغ هذا الاتجاه مداه عند العالم الألماني الفريد فيبر Alfred Weber الذي صاغ كلمة علم الاجتماع الحضاري Kultursogologie والذي يذهب إلى أن المدينة ذات طبيعة عقلية عامة، لا تتحدد بصفة محلية. أما الحضارة فهي تختلف عن المدينة في أنها تقوم على تأكيد الاصاله الروحية والحقيقة الفلسفية والعاطفية للانسان^١ ؟

أما المدرسة الانجلوسكسونية، فانها في مجموعها لم تكد تفرق بين المعنيين. ومن التعاريف التي أصبحت كلاسيكية ذات وزن للحضارة، ذلك التعريف الذي وضعه أحد شيوخ الانثربولوجيين الانجليز وهو تايلور E.B.Taylor والذي يقول فيه عن الحضارة أنها الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن، والأخلاق والقانون والتقاليد، وكل القدرات التي يكتسبها الانسان بوصفه عضواً في مجتمع. ويذهب إلود Ellwood، وديكسون Dixon غير بعيدين من هذا الاطار، وإن كان ديكسون يقول إن الحضارة هي تلك التي تسميها الشعوب المتقدمة مدنيّة.

على أن هناك آخرين تأثروا بالمدرسة الألمانية، منهم ماكيفر Maciver، صاحب كتاب المجتمع، الذي ركن إلى التناظر المعروف الذي أقامه العالم الاجتماعي الألماني تونيز بين الجماعة والمجتمع في التفرقة بين الحضارة والمدينة، على أن ماكيفر يفصل بين الحضارة والمدينة، في عبارات واضحة فيقول: إن الحضارة هي ما نحن، أما المدينة فهي ما نستعمل. والحضارة تتمثل في الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات، بينما تتمثل المدينة في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا. ومثل أودوم H.W.Odum الذي تأثر بكيسرلنج، فعرّف المدينة بأنها نمو متخصص للمجتمع، يتميز عن الحضارات الشعبية القديمة أو عن مجموعة الحضارات، ومعنى هذا أن كلّ مدنية civilization هي حضارة وليست كل حضارة cultere مدنيّة.. وهو بعد ذلك يذهب إلى أن للمدينة خصائص وسمات.

أما عند الفرنسيين، فإن كلمة مدنية civilisation أكثر دوراً في كتبهم، ولا يكاد يكون بحث ينقصد للفصل بين كلمتي الحضارة والمدينة.. فهم يستعملون الأخيرة لتدل على كل جوانب الحضارة^٢.

(١) نقلاً عن كتاب «التغير الحضاري وتنمية المجتمع»: ٤٠ هامش (٢).

(٢) للمزيد يراجع المرجع السابق: ٣٩-٤٥.

الحضارة.. والثقافة:

أما الثقافة فهي في اللغة مصدر الفعل الثلاثي ثَقَّفَ، فالثقافة بكسر الناء تعني الحدق والفتنة والنشاط.. وثَقَّفَ الرمح تثقيفاً ساواه وعدله، والصفة من الفعل المضعف مَثَقَّفٌ ومثَقَّفٌ، وهي ما نستعمله نحن. والواقع أنَّ الاستعمال هو الذي يحدّد معنى الكلمة، فكم من كلمة استبدلت حالاً بحال في حياتها، وانتقلت إلى معانٍ مختلفة، بل إن هناك كلمات تدلّ على الشيء وضده في طبيعتها، ولا يفرق بين الضدين إلّا الاستعمال وسياق المعنى... والثقافة، مهما يكن من أمر اشتقاقها، فإنها اصطبت في اللغة العربية المعاصرة بصيغة خاصة، فهي تدل على المعرفة والتعليم، فنقول: هذا رجل مثَقَّفٌ، أو نقول: إننا نعمل على نشر الثقافة.. الخ. بل إنَّ هناك وزارات للثقافة في البلاد العربيّة، وما نحسب أن من أعمالها الدلالات العلمية لكلمة culture بالمعنى الفنّي. ومن الحق أن نقرّر أن هذا الالتباس قائم في اللغات الأوروبية نفسها في استعمال كلمة culture^١ ولعل ذلك ممّا دفع بالفرنسيين إلى استبدالها في كتاباتهم بكلمة مدنيّة civilisation. وإنّ لنا مع هذا مندوحة عن هذا التضييق على أنفسنا، في الكلمات العربية المستعملة في الميدان نفسه.. ولهذا فإن هناك ميلاً إلى استبعاد كلمة ثقافة من هذا المجال.. ولنحاول إذن أن نتدبر كلمة حضارة.

فالحضارة، في اللغة تدلّ على نوع خاص من الحياة، هو الاستقرار والاقامة الدائمة^٢ ولو تقصّينا الشرح اللغوي للفظ الحضارة في المعجم العربي لوجدناه مقصوراً على الإقامة في الحَضَر^٣ وإن كان هذا المعنى أدخل في المدنيّة منه في الحضارة بمفهومها الشامل الرحيب.

ولو أضفنا إلى هذا المعنى اللغوي المعجمي مدلولاً اجتماعياً نستقيه من مقدمة ابن خلدون، لكانت الحضارة كما يقول: «غاية العمران، ونهاية لعمره، ومؤدية لفساده»، لأنها

(١) يذهب علماء الانثروبولوجيا إلى أنّ «الحضارة» بالمعنى الدقيق للكلمة تصدق في نظرهم على النماذج الثقافية. وهذا أحد أبرزهم «تابلور» لا يفرّق بين «الثقافة» و«الحضارة» ويقدم لنا في مطلع كتابه «الثقافة البدائية Primitive Culture» تعريفه الشهير الشائع الذي يعتبره الكثيرون - رغم بساطته - أوفى للتعريف للثقافة حتى الآن: «الثقافة - أو الحضارة، بمعناها الانتوجرافي الواسع، هي ذلك الكل المركّب الذي يشمل المعرفة والمقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع...».

(٢) التغيّر الحضاري وتنمية المجتمع؛ م. س: ٤٦ - ٤٧.

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي ٢: ١٠، أساس البلاغة للزمخشري: ١٨، ٨٦.

في نظره لا تزيد على «التفنن في الترف، واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه»^(١).

ومن اليسير أن نرى أن ابن خلدون يعطي هنا حكماً تقويمياً على الحضارة، فيصوّر السلوك الحضري، ويحكم عليه أخلاقياً، ثم ينتزع منه قانوناً كونياً، يقضي بأن الترف الذي ينتج عن الحضارة هو سبب فساد العمران ونهاية عمره.. فابن خلدون يستعمل الحضارة كصفة لنوع معيّن من الحياة، في الوقت الذي يرد استعمالها اسماً دلالة موضوعية على مفهوم معيّن من نشاط الانسان في صورة معينة، في سبيل البقاء والنمو^(٢).

الحضارة.. مفهوماً:

ولو أردنا أن ندرس الحضارة كمفهوم، فإننا نجد أن الحضارة - كما يقول السيد فضل الله - تنطلق من قاعدة فكرية تنشأ من المعرفة المنفتحة على الكون والحياة والانسان، في عملية تواصل بين هذه العناصر، باعتبار تحديد علاقة كل منها بالآخر، ثم في حركة هذه المعرفة بالجانب الفكري والعاطفي والعملية الذي يختزن في داخله المنهج الذي يقود عملية التكامل وعملية التطبيق، كما يختزن في داخله العنصر الأخلاقي، فيما هي القاعدة الأخلاقية المنطلقة من القاعدة الفكرية، الذي يحكم العلاقات سواء علاقة الانسان بالله وعلاقته بالكون وعلاقته بالانسان^(٣).

فالحضارة، في هذا المعنى، وفي مفهومها العام؛ هي سلوك ونظام وقيم ومعان، وأسس ومبادئ، ومنظومات وطبيعة حياة، يزخر بها مجتمع، وتسيطر على مجريات الأحداث فيه، يدعمها ويحافظ على بقائها عمل متصل وفعالية عالية مرتفعة، يُسهم فيه كل انسان قادر مؤهل بقدر طاقته وتأهيله، وتبقى الحضارة والرقى ما بقي العمل المتصل، والعطاء المتجدد، والفعالية المرتفعة، فيتطور الفكر ويتفاعل، وتبرز المخترعات، وتستطور الاكتشافات، لتنتج أدوات تلك الحضارة ومنجزاتها^(٤).

وإذا ما أركنا إلى هذه النتائج، فإنا نستطيع القول بأن الحضارة تعني - كما تعارف عليها

(١) نقلاً عن كتاب «الاسلام ومستقبل الحضارة» لصبحي الصالح: ١٧.

(٢) بشي، يسير جداً من التصرف عن كتاب: «التغير الحضاري وتنمية المجتمع»؛ م.س: ٤٧، ٤٨.

(٣) مجلة المنطلق (البيروتية) - ٦٢: ١٣٢.

(٤) دراسة في البناء الحضاري؛ م.س: ٢٥.

الباحثون في علوم الحضارة - العمران والانتاج الثقافي والنظام الاجتماعي، فهي كما عرفها ابن خلدون: «أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرّفه وتفاوت الأمم في القلّة والكثرة تفاوتاً غير منحصر». أو هي كما عرّفها ول ديورانت: «نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي». وقد درس بعض الباحثين التعريفين واستخلص منهما أن الحضارة هي: «مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم ومعارف وفنون وما إلى ذلك، والترقي بها في مدارج الحياة ومسالكها، حتى تصل إلى الغاية التي تواتيها بها أحوالها وامكانياتها المختلفة»^١.

أما المؤرخ الشهير آرنولد توينبي فيصف الحضارة وصفاً أقرب إلى الدقة من غيره حين يقول: «أنّها حصيلة عمل الانسان في الحقل الاجتماعي والمناقي». فالنشاطات الاجتماعية المشتملة للأعراف والعادات والقوانين والنظم والموروثات الخلقية والفكرية، تعتبر في نظره موضوعات حضارية تعبّر في أنماطها عن مفاهيم وتصورات وركائز فكرية معيّنة^٢.

يقول «اشفيتسر»: «نستطيع أولاً أن نعرّف الحضارة بصورة عامة، فنقول: إنّ الحضارة هي التقدّم الروحي والمادي للأفراد والمجتمعات على السواء»^٣ فالحضارة والحالة هذه: «وضع مثالي وحقيقي في آن واحد، عقلي وطبيعي... سببي وغائي»^٤.

وفي الوقت الذي نكتفي فيه بهذا القدر من التعريفات، إذ الانسياق في ذلك أمر لا طائل وراءه، فإنّ من المفيد الإشارة إلى محاولة جديدة لباحث جاد، حدّد فيها مفهوم الحضارة، ذلك المفهوم الذي ساد من التشويه والتلبّيس ما أخرجه عن سياقه الصحيح، وأفقده جوهره ومعناه، فقد أصبح هذا المفهوم مرادفاً للمدنيّة، أو الثقافة، أو يشملهما معاً. وهناك من ربط مفهوم الحضارة بالحضارة بحيث جعله عكس البداوة. وهذه التعريفات لمفهوم الحضارة ليست ذات موضع في سياق البحث الذي اعتمده هذا الباحث، إذ يقول: «إنّنا

(١) دوريّة قراءات سياسية (أميركا) - ١٨: ١٤٢.

(٢) علي القريشي: «بين الحضارة والمدنية»: ١٦.

(٣) فلسفة الحضارة: م. س: ٣٤.

(٤) تاريخ الحضارات العام: م. س: ١٧.

سوف نعتد مفهومًا للحضارة مشتقًا من جذر لغوي، مخالف تمامًا لما سبق الحديث عنه، دون الغاء هذه التعريفات بصورة كلية، بل احتوائها وتجاوزها. فالحضارة مشتقة من حضر، بمعنى الحضور وهي نقيض الغيب والغيبة، حضر يحضر حضوراً وحضارة، وتنطق بكسر الحاء وفتحها. وتعني الحضور الدائم والتجدد. ويرد في القرآن الكريم هذا اللفظ مرادفًا للفظ «شهد»، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ (البقرة: ١٨٥)، أي حضر مجيء الشهر وشاهده، ويؤدّي لفظ الشهادة في القرآن دلالات أربع تتكامل فيما بينها وتتحد لتؤدي معنى الحضارة أو الشهادة في الفهم الاسلامي، هذه المعاني لا يمكن تجزئتها وإلا فقدت مضمونها ومعناها، فأى واحد منها يمثل جزءاً من البناء المفهومي للحضارة، ومن ثم لا يمكن القول أن توفر بعضها دون الآخر يؤدي مضمون الحضارة نفسه، بل لا بدّ من توفرها جميعاً في منظومة أو نسق واحد، حتى تعطي المفهوم كامل معانيه^١.

وطبقاً لذلك، فإن الحضارة هي: الحضور والشهادة بجميع معانيها. حيث تقدّم النظرة الاسلامية مفهوماً للحضارة، مخالفاً لما قدّم حول الحضارة كتراث تاريخي، أو انجازات ماديّة، أو ركام ثقافي، فالحضارة بالمعنى القرآني هي: الحضور والتجدد والشهادة والفاعلية والخيرية^٢.

وبتعبير آخر: هي منهج معرفة وفهم الأُمَّة للوجود والطبيعة، وعلاقتها بالانسان، ولعلاقات البشر، ولعلاقة ذلك كلّ بالغيّب. وهي بالتالي مُنبَتَق أخلاقهم، ونظام قيمهم، ومثلهم الأعلى الذي يرتقون اليه، ويتكاملون فيه، وهي أيضاً منهج رؤيتهم للتاريخ والمستقبل والمصير. وهذا يعني أن الحضارة منهج فكري واصل بالنتيجة إلى أنواع وأنماط ومواقف سلوكية انسانية تحاكي واقعاً محدداً، ومُثلاً علياً معيّنة. انها بمعنى مختصر «كيان الأُمَّة الفكري» وعلله ومصادره، وتجلياته في القول والعمل والتطلعات، ومعايير محاكمته للأشياء وعلاقات الناس والعالم^٣.

(١) نصر محمد عارف: «نظريات التنمية السياسية المعاصرة»: ٧٧، أمّا الدلالات المشار إليها فهي باختصار، كما يستفاد من لفظة الشهادة، بمعنى: التوحيد، قول الحق وسلوك طريق العدل، التضحية والفداء، وظيفه هذه الأُمَّة كما وينصرف معناها إلى الشهادة في الدنيا والأخرى (المرجع نفسه: ٧٦).

(٢) المرجع السابق: ٧٧.

(٣) الإمام الخميني والمشروع الحضاري الاسلامي؛ م. س: ١٤، ١٥.

وهنا يجب الإشارة إلى أن هذا المفهوم يختلف تماماً عن الفهم الشائع للحضارة في الاسلام، الذي ينصرف إلى دراسة الخبرة التاريخية التي مرّت بها الأمة الاسلامية، وما قامت به من انجازات، وما تركته من آثار مادية وثقافية، ذلك أن هذا الأخير يسير وفق الفهم الأوروبي للحضارة، وليس وفقاً للمعنى الذي سبقت الإشارة إليه، لمفهوم الحضارة في الاسلام.. كما أن الفكر السياسي والاجتماعي العربي المعاصر يستخدم المفهوم نفسه، بمضامينه الأوروبية ذاتها، دون محاولة تطويره أو تنقيته، ممّا لحق به من تشويه^١.

وعلى الرغم من أن ميدان الحضارة ومجال تأثيرها هو الجانب الانساني من الانسان والحياة، كالعقائد والأفكار والسلوك والقيم والقوانين والفنون والآداب.. الخ، ومجال المدنية هو وسائل الحياة المادية، كوسائل النقل، وآلات الانتاج، وطريقة صنع الدواء، وعلاج المرضى، واستخراج البترول.. الخ، إلّا أنّ هناك علاقة وثيقة بينهما، وتأثيراً متبادلاً يختلف من حضارة إلى أخرى، والذي يعنينا، في هذا البحث، هو الموقف الاسلامي من تفسير العلاقة بين الحضارة والمدنية، والذي يتلخّص في اعطاء الاسلام دور القيادة للحضارة وتبعية المدنية لها.

فعلى هدى المفاهيم الحضارية التي محورها عقيدة التوحيد يستثمر الانسان مكتسباته المدنية، ويستغلها لصالحه. فما أجازته الحضارة وأباحّت استعماله واستغلاله فهو جائز الوجود والاستفادة، وما حرّمته الحضارة فليس من حق الانسان أن يستعمله، أو يعمل على ايجاده، لأنّه تخريب لبناء الذات والحياة الانسانية^٢.

نضرب لذلك مثلاً: إنّ المدنية تقدّم لنا الدواء وتصنع الطائرة والسيارة ونسيج القطن والصوف، وتستخرج المواد المختلفة من النفط وتطور انتاج الزراعة وتحسّن نسل الحيوان، وتجهّز البيت بالأثاث وأدوات التدفئة والتبريد.. الخ. فهي بهذا العمل توفر للانسان راحته وحاجته، ومهمّة الحضارة عندئذ تحريك طاقة

(١) نظريات التنمية السياسية المعاصرة؛ م. س: ٧٨، وعلى سبيل المثال لا الحصر، تُراجع المراجع التالية التي تستخدم المفهوم بمضامينه الغربية:

- د. أنور عبد الملك: «رياح الشرق»، القاهرة، دار المستقبل العربي، ١٩٨٣م، ص ١٧، ٣٣، ١٢٤، ١٣٢.

- د. إلياس فرح: «في الثقافة والحضارة»، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ١٩.

- د. حسين مؤنس: «الحضارة»، الكويت، سلسلة عالم المعرفة - ١، ١٩٧٨م.

(٢) لماذا السقوط الحضاري؟، مؤسسة البلاغ: ١٥ - ١٦.

الانسان، في هذا الاتجاه ويبيان منهج الاستفادة والانتفاع بهذه المكاسب الانسانية الرائعة. أما حين يصنع الانسان أدوات الفتك والدمار والتعذيب ويتفنن في صناعة وسائل اللهو والمجون والاباحة كالمخدرات والمسكرات ووسائل الممارسات الجنسية الشاذة.. الخ. فإن الحضارة بما تملك من قيم وموازين تقف بوجه هذا الانحراف المدني والاستغلال المنحرف لطاقة الانسان والطبيعة^(١).

ومما تجدر الإشارة اليه، إن كاتباً اسلامياً موقفاً قد أثار، قبل عقدين من الزمن، سؤالاً محدداً: عَمَّن هو المتمدين ومن هو المتحضّر؟ ومن الواضح وجوب أن تبقى هذه النقطة عالقة بالأذهان، خصوصاً بوصفها موضوعاً يتعلّق بأفراد الطبقة المثقفة المفكرة في المجتمعات الاسلامية والتي يقع على عاتقها عبء المسؤولية والريادة في هذه الأمة. وأردف بقوله: إنّ الحضارة تعتبر واحدة من أدق النتائج الحيوية التي تواجهنا - نحن شعوب البلاد غير الأوروبية التابعة للمجتمعات الاسلامية -، وأنه من المؤسف حقاً أن تُفرض علينا الحضارة، نحن الشعوب غير الأوروبية، بوصفها المدنية^(٢).

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن محاكاة ما تسير عليه بعض المجتمعات من تقاليد، وما تحمله من قيم ومبادئ، وما تطرحه من سلوكيات، لمجرّد تفوقها المادي والتكنولوجي، أمر فيه من ضالة الوعي وسوء التقدير الشيء الكثير، إذ أن مثل هذه المحاكاة أساساً قائمة على عقدة مجازاة القوي والتشبه به.. هذه العقدة التي يساهم في تشكيلها - في بعض ما يساهم - غياب العمق الفكري، هذا الغياب الذي يجعل المدنية والحضارة وجهين لعملة واحدة، فيلصق كل تطور مادي يظهر الحضارة التي تظله.

إنّ فهم الحضارة وتقديرها - وبمعزل عن الجانب المدني - على ضوء من الدرس والتأمل، والاستقرار الواعي للأسس التي تشكلها وتصوغ بالتالي خطوطها ومواقفها العامة ازاء الكون والانسان والحياة، هو المنهج الصحيح للتقييم الحضاري، وهو النحو الصائب للموازنة بين حضارة وأخرى. وإلا لو كان التقدم العلمي والمادي مبرراً كافياً للتعلّق بالمناهج الحياتية والأفكار السائدة في البلاد التي يتألق بها ذلكم التقدّم فإننا نسأل: ماذا يعني هذا التدهور الذي يعانيه الانسان في أوروبا وأمريكا، على الرغم من سعة

(١) المرجع نفسه: ١٦.

(٢) مجلة المسلم المعاصر (بيروت) - ٣٣: ٣٣.

عيشه ووسائله؟ .. وبأي شيء نفسّر هذا الانحدار البشري المفجع .. والمدنيّة ما فتئت في تألق باهر فوق ساحات هاتك الدول ، وتحت ظل تلك الحضارات ؟
إذن ، فالمنحى الحضاري هو الواجهة الجوهرية للراقي - أو التخلف - الاجتماعي والانساني ، وإن التقدّم المادي والصناعي ليس بقادر على صياغة الحياة الراشدة السعيدة .. كما لا يعتبر العلامة السعودية للحضارة السائدة^١ .

وإذا صحّ القول بأن مفهوم الحضارة هو «مجموع الحياة التي يحيها شعب واحد أو شعوب عدّة ، بما تضم من نظم في الحكم وسبل في تحصيل المعاش وعلاقات اجتماعية ومعرفة نظرية وعملية ، وقواعد سلوكية وسواها من المقومات التي تتمثل بها تلك الحياة ، وجوهر هذا المعنى هو الوحدة ، التي تسري في هذه المقومات جميعاً وتربطها بعضها ببعض» ، إذا صحّ ذلك فإن المشروع الحضاري الذي ينبغي رسمه وتحديدّه يجب أن يكون شمولياً ، بحيث يفسّر كل مظهر من مظاهر الحياة ، في إطار مفهوم عام متماسك ، لا يتوقف عند مرحلة أو عصر معينين ، وأنما يستوعب الزمن كلّهُ .

وهذا الفهم للتصور الحضاري مشترك بين كل الذين صاغوا تصورات خاصة عن الحضارة ، بدءاً بالذين يعللون تكون الحضارة أو تطوّرها بسبب أو عامل واحد «محتّم» على حدّ تعبير «قسطنطين زريق» ، كالعامل الاقتصادي أو الجغرافي أو الجنسي ، وانتهاءً بالولئك الذين يفسرون تكون الحضارة في عدة عوامل ، تشترك في التكوين والتطوير وتتفاعل في ما بينها .

الحضارة .. والأديان :

إذن ، لا بدّ من مفهوم حضاري شامل يفسّر مجرى الحياة كلّها ، كذلك لا بدّ من إبراز أهم العوامل التي تساعد في تكون الحضارة أو تطورها ومعرفة - بالتالي - فيما إذا كان الاقتصاد وحده قادراً على خلق نسيج حضاري شامل يستوعب الأخلاق والفن والسياسة والدين ، أو العامل الجغرافي وكذلك الجنسي ، وتغييب الدين ، في هذه التصورات والمفاهيم الحضارية أو جعله ناتجاً ومحصلاً متفرّعاً ومتأخراً عن عامل أساسي محوري مريب ، خاصة إذا عرفنا أن معظم الحضارات الكبرى التي عرفتها البشرية هي في أساس تكوينها

(١) بين الحضارة والمدنية : م. س : ٢٩ ، ٣٢ .

وتمايزها دينية كالحضارة البوذية والبرهمية والبيزنطية والاسلامية وغيرها، ولعل أهمية الدين المُعَيَّب، عند أصحاب نظرية العامل الواحد، دفعت بمالك بن نبي إلى القول بأن: «الحضارة لا تبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها»^١ ولعله ليس من الغلو في شيء، أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية.

فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجاً، أو هي - على الأقل - تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر للانسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيداً عن حقيقته اذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيم عليها عبقريته وتتفاعل معها^٢.

ومن هنا يأتي تأكيد الباحثين في فلسفة التاريخ على هذه الحقيقة، وهذا أحد مشاهيرهم، وهو «بوركار» يقر ذلك. فرغم أن فلسفة التاريخ، في نظره، شيء هجين مليئ بالتناقضات، لأن مهمة التاريخ تقتصر على ترتيب الأحداث، وهذه مهمة غير فلسفية، أما الفلسفية فهي حين تحاول الكشف عن مشكلة الحياة تخضع مادتها لتصوراتها ومقولاتها، وهذا اتجاه آخر غير اتجاه التاريخ.. ما نود قوله: رغم هذا، فإن «بوركار» يسلّم بأن اتساع موضوع التاريخ قد يتطلب بيان كل مؤثر من المؤثرات الكبيرة التي أثّرت في أحداث التاريخ على حدة، وإن اعترف بتداخل هذه المؤثرات. وقد جعلها ثلاثة هي: الدولة والدين والحضارة. والدولة والدين يمثلان ركنين ثابتين إلى حدٍّ ما، أما الحضارة فهي عنصر دائم التغيّر والاختلاف.

ويمضي هذا المؤرخ الغربي إلى إصدار حكم نهائي، وفقاً لمنطلقاته الفكرية، بأن لا صحة لأي قول بأن أي ركن من هذه الأركان الثلاثة أهم من الركنين الآخرين، وأي كلام في هذه الناحية هو محض هراء، وبعض العصور يصحّ وصفها بأنها عصور دينية، كما أن عصوراً أخرى قد بدت وكأنّها تحيا لغايات الحضارة. وفي عصور النهضة التاريخية الكبرى سمت هذه الأركان الثلاثة إلى ذروتها وتبادلت التأثير^٣.

(١) مجلة المطلق؛ م. س ٦٢: ٢٦.

(٢) شروط النهضة: ٥٠ - ٥١.

(٣) تراجع موسوعة «تراث الانسانية»، ٦: ٨٤٠.

غير أن الذي يفترض إبرازه وتأكيدُه هو أن مناشئ الحضارات ومنابتها مختلفة، وقد تكون متباينة، وإن كان الدين قد لعب دوراً أساسياً في ولادة وتطور معظمها. وعليه لا يمكن التسليم ببساطة باستقلالية كل حضارة بنفسها عن غيرها مما سبقها، وأنما التفاعل واضح بينها، لا بل يمكن افتراض نوع من الترابط، اللهم إلا إذا ما استثنينا الحضارات القائمة على الدين أو المنبثقة عنه، لكنها لا تخلو من تأثيرات في بعض الجوانب الحياتية والسلوكية، وبذلك لا نسلم بالمطلق في المقولة التي تدعي أن كل حضارة تؤلف «وحدة» تامة ومطلقة، حسب ما يذهب «شبنجلر» وأمثاله، والتأثر والتأثير الحاصلان، في كل الحضارات المتعاقبة والمتداخلة، لا يمكن أن يمسّ جوهر الرؤية الحضارية الخاصة بكل حضارة في التاريخ، وكما أن التجاور الحضاري يؤدي إلى نوع من التفاعل، كذلك فإن التطور، بلحاظ الزمن، يفضي إلى نوع من التراكم الحضاري، الذي يخترنه الجيل تلو الجيل^١.

الدورة الحضارية:

والحضارة، على هذا الأساس، تتمثل أمامنا كأنها مجموعة عديدة تتتابع في وحدات متشابهة، ولكنها غير متماثلة، وهكذا تتجلى لأفهامنا حقيقة جوهرية في التاريخ هي: «دورة الحضارة»، وكل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين، فهي «حضارة بهذه الشروط». ثم إنها تهجر وتنتقل بقيمها إلى بقعة أخرى، وهكذا تستمر في هجرة لانهاية لها، تستحيل خلالها شيئاً آخر، بحيث تعد كل استحالة تركيباً خاصاً للإنسان والتراب والوقت كما يقول مالك بن نبي^٢.

فدورة من دورات الحضارة تولد في بعض الظروف النفسية الزمنية، ثم تنمو وتطرد، فإذا ما سبقتها الحضارة الانسانية توقفت تلك الدورة لتبدأ أخرى في ظروف جديدة تتحول بدورها إلى ظروف متخلفة. فهذا هو القانون الذي خطّ على مَر السنين، خلال التاريخ ذلك «الطريق الصاعد»، الطريق الذي مُنحته البشرية في بطء وروية، وبذلك تمتزج غاية التاريخ بغاية الانسان^٣.

(١) مجلة المنطلق؛ م.س - ٦٢: ٢٦.

(٢) مالك بن نبي: «وجهة العالم الاسلامي»: ٢٦.

(٣) المرجع نفسه: ٢٠٣.

ونخلص من هذا إلى القول بأن الحضارة ظاهرة انسانية عامة^١ ولكن السؤال: هل من الصحيح أو الثابت تاريخياً أن الحضارات تقتبس من بعضها، أو تتراكم فوق بعضها، أو تأتي محصلة لعملية انتقاء من هنا وهناك، أم أن لكل حضارة أساسات تقوم عليها، ومركبات تحدّد سماتها، ومساراً يمضي ضمن سياق خاص، كما لكل منها قوانينها الداخلية التي تتحكّم في حركتها، وفي مختلف جوانبها، بما في ذلك، عملية صعودها وهبوطها، وما يندلع فوق أرضها وتحت سقفها من صراعات؟^٢.

الاخصاب .. والتنافر:

يمكن القول أن هناك سمات موجودة داخل كل حضارة ولدى كل انسان، تعبّر عن وجود الوحدة في الأشياء بين الأشياء (ترابط، تعايش، تجاذب، تماسك)، وعن وجود تميّزات وتناقضات وصراعات وتضادات، الأمر الذي يولد حين تعبّر عن ذلك في الحياة نشوء تيار التوحيد، ونشوء تيار الطغيان، ونشوء تيارات التوفيق والنفاق بين هذا وذاك. ومن هنا عندما يُطرح موضوع وجود الفرق الجوهرية بين نمط حضاري وآخر، أو وجود أكثر من مسار تاريخي لحركة المجتمعات الانسانية. كل ذلك يعتمد على مجموعة عوامل وشروط تكوّنت تاريخياً في كل نمط جعلت له سمات محددة، من حيث الاتجاهات الرئيسية التي سادت حياته ومساره، وجعلت السمات الأخرى في مرتبة ثانية أو ثالثة أو جعلتها هامشية، مثلاً، التوحيد كان هامشياً في تاريخ الحضارة الفرنجية. بينما كان اتجاهاً أساسياً في الحضارة والنمط المجتمعي الاسلامي.

أما النقطة الأخرى التي تُستخدم في تدعيم فكرة التلاقح بين الحضارات أو الأخذ من بعضها فتستند إلى أمثلة حضارية تنتمي إلى حضارة واحدة لا إلى حضارات تقوم بينها فروق أساسية وحاسمة. وعلى سبيل المثال يركّز الحديث حول حضارة اغريقية، وحضارة رومانية، وحضارة جرمانية، وحضارة انكلوسكسونية ثمّ تجري مقارنات في إظهار عملية التواصل والتلاقح والتمازج فيما بين هذه الحضارات. ولعلّ من أهم الأمثلة الصارخة على ذلك تلك العملية الضخمة التي جرت في مرحلة ما يسمى بعصر النهضة في

(١) الحضارة لحسين مؤنس؛ م.س: ٤٩.

(٢) منير شفيق: «الاسلام في معركة الحضارة»: ٦٢ - ٦٣.

أوروبا، عندما استعادت الحضارة الاغريقية والرومانية، كما تمّ تخطّي حضارة العصور الوسطى من خلال نقدها وتجاوزها. إن هذا الطراز من الأدلّة صحيح ولكنه يقوم ضمن عائلة حضارية واحدة هي الحضارة الاوروبية. ممّا يجعل من المقبول القول أن هنالك حضارات متعددة في العالم يمكن تقسيمها على أسس تبدأ بتحديد الفروق الجوهرية، ثمّ تقسمها إلى عائلات، وبهذا ترى حضارة هذا الشعب أو ذاك ضمن العائلة التي تنتمي إليها حضارته. وهنا يمكن أن ترى عملية الاخصاب المتبادل والتلقي والتماثل. أما العلاقة ضمن العائلات الكبرى فهي من طراز آخر. ومن ثمّ فإن القوانين التي تحكم ما يؤخذ، وما يلفظ أو ما يتغلغل كالمرض، وما ينمو نمواً طبيعياً، تختلف فيما بين العائلات الحضارية عنها فيما بين حضارات الشعوب في العائلة الحضارية الواحدة الكبيرة.

فإذا كان هذا التحديد صحيحاً، فلا بدّ أن تسقط المقولة التي تتحدث عن نمط العلاقة التي تربط بين الحضارات، دون الأخذ بعين الاعتبار الفروق فيما بين حضارات العائلة الواحدة وحضارات العائلات الكبرى. فما يجري في داخل العائلة الواحدة لا ينسحب على ما يجري فيما بين العائلات الكبرى^١.

النشأة.. والمقومات:

لقد بحث الناس كثيراً في أصول الحضارات وكيف نشأت. فالمفكرون والفلاسفة اليونان كانوا يرون أن مكتشفات الحضارة كلّها ترجع إلى الذكاء الانساني وحده، دون أن يفسحوا المجال للتجربة أو للظروف التي تحفّز على الكشف والاختراع، وكانوا يرون أن آلهتهم خصّتهم من دون البشر بالتفوق في ميدان الفهم والعلم والاختراع والابتكار، وكلّ من عداهم من البشر «برباروي» أي همج لا حضارة لهم، أو على مستوى خفيض من الحضارة. وكان اليونان يرون أن لكل مظهر من مظاهر الكون ولكل فرع من فروع الحضارة إلهاً أو آلهة تخلق تلك المظاهر والفروع، حتى الفنون كانت لها آلهتها التي اخترعتها وأهدتها إلى البشر، ومع إن كبار فلاسفتهم - كافلاطون وأرسطو - كانوا يعرفون أن الحضارة لا بدّ أن تكون وليدة العقل والتجربة، إلّا أن الفكر اليوناني العام كان يرى أن الحضارة كلها من صنع الآلهة، وإن هذه الآلهة أهدتها إلى الناس وظلّت ترعاها بعد ذلك.

(١) المرجع نفسه: ٧٠ - ٧١.

وأما المسلمون فغالبية مفكريهم على أن الله أعطى الانسان العقل والفكر والحكمة، وأنه اهتدى بعقله إلى أسس الحضارة أو العمران وسار في معارج التقدم، ولكنهم كانوا يرون إلى جانب ذلك أن الله دلّ الانسان على ما ينفعه رحمةً منه ورفقاً به. وقد عبّر «ابن خلدون» عن ذلك تعبيراً دقيقاً في فصل من فصول مقدمته سمّاه «في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات».

ورغم أن «ابن خلدون» لم يتعمق في البحث عن أصل الحضارة، كما نفعل الآن، لكنّه يفترض وجود الصنائع والحرف وأدواتها دون أن يبحث عن كيفية وجودها، وهو يؤكّد أن العمران - أي الحضارة - لا يتم إلا باجتماع البشر وتعاونهم بعضهم مع بعض، ولكنه مسّ لباب الموضوع عندما قال: «أن الله جعل للانسان عوضاً عن ذلك كلّ الفكر واليد، فاليد مهياة للصنائع بخدمة الفكر». ولم يذهب إلى أبعد من ذلك، ولو أنه استطرد مع فكرته تلك لسبق الكثيرين من علماء عصرنا فيما انتهوا إليه من آراء سديدة تتمشى مع منطق العلم في ذلك الموضوع الرئيسي في دراسة التاريخ والحضارة. فانا نتحدّث كثيراً عن قيام الحضارة، ولكننا قلّما نسأل كيف قامت. وفي الإجابة على هذا السؤال يمكن حل معضلة من معضلات تاريخ البشر^١.

يذهب بعض الباحثين إلى أن الانسانية قضت فترة طويلة جداً أسفل «جبل الحضارة»، قبل أن تتحرّك صاعدة السفح. وذلك التحرك لم يقتصر على جماعة واحدة من البشر، بل قامت به أمم شتى في أوقات متقاربة، وبتحركها بدأت مسيرة التسلّق الطويلة المضنية إلى درجات الصعود، وتفاوتت حظوظها في ذلك ونشأ ذلك السباق الحضاري المعروف بين الأمم.

ولكن السؤال الذي يشغل بال دراسي التاريخ والحضارة البشريين هو: ما الذي يبعث الانسان على التحرك الحضاري؟

الحقيقة إن هناك أكثر من سبب لهذا التحرك في رأي مؤرخي الحضارة في العصور الحديثة، من جيانباتيستا فيكو إلى اوزفالد شبنجلر وآرنولد توينبي. فلكل واحدة من الحضارات الانسانية الست الكبرى التي أخرجت الانسانية من البدائية إلى حالة الحضارة،

(١) الحضارة؛ م. س: ٧٧ - ٧٨.

ومن الجمود إلى الحركة ، من حكم العادة إلى حكم الفكر سبب خاص بها أو تشترك فيه مع أخرى من بعض النواحي^١.

يقول «ديورانت»: «الحضارة نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من انتاجه الثقافي. وأما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه اذا ما أمِنَ الانسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإبداع والانشاء ، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازهارها». ثم يستطرد ديورانت في سرد طائفة من العوامل التي تشترط في الحضارة ، وهي التي تستحث خطاها أو تعوق مسراها ، وأولها: العوامل الجيولوجية ، وثانيها: العوامل الجغرافية ، ثم الاقتصادية .. فالنفسية ، إذ لا بدّ أن يسود الناس نظام سياسي مهما يبلغ ذلك النظام من الضعف حدّاً يدنوه من القوضى .. ولا مندوحة عن وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار ، ثم لا مندوحة أيضاً عن قانون خلقي يربط بينهم .. حتى تكون هناك في لعبة قاعدة يرهاها اللاعبون ويعترف بها حتى الخارجون عليها .. وربما كان من الضروري كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود .. وأخيراً لا بدّ من تربية - مهما تكن بدائية - لكي تنتقل الثقافة على مر الأجيال^٢.

أمّا «آرنولد توينبي» فتستند دراسته على إجراء بحث مقارنة للحضارات وتسيطر عليه فكرة رئيسية ، فهو لا يؤمن بأن صفات خاصة في الجنس هي التي تقود إلى تفوّق أمة بعينها . ونجده يسخر من القائلين بتفوّق الجنس الأبيض من الناحية الحضارية ، وبالأحرى العنصر النوردي بالذات الذي تنتمي إليه أمم أوروبا الشمالية على سائر الأجناس . فعنده أن الأجناس جميعها - عدا القليل منها - قد ساهمت في انبعاث الحضارات إلى الوجود ، واشتركت في تقدّم البشرية في مختلف مناحي العرفان . كذلك لا يؤمن بأن توافر عوامل معينة ، في البيئة الجغرافية ، هي العامل الأساس في انبعاث الحضارة^٣.

(١) المرجع نفسه : ٨٠ ، ٨١ .

(٢) للتوسّع تُراجع موسوعة «قصة الحضارة» لديورانت ، ١ : ٣ - ٨ .

(٣) تراث الانسانية ؛ م . س - ٥ : ٣٣٤ .

وعليه، إذا لم يكن نشوء الحضارات ناتجاً عن تأثير العوامل البايولوجية وحدها، أو تأثير العوامل الجغرافية وحدها، فهو ناتج في استقراء توينبي عن تأثير نوع من التفاعل الخلاق بين هذه العوامل المختلفة «ليس السبب في نشوء الحضارات بسيطاً ولكنه متعدد، وليس وحدة مستقلة ولكنه علاقة مشتركة»^(١). ومهما يكن فإن عوامل البيئة والجنس والاقتصاد وما ناظرهما ما هي إلا عوامل مساعدة في قيام الحضارات وليست عوامل أساسية.

والعامل الأساسي في نشوء الحضارات عند توينبي هو التحدي الخارجي والاستجابة الداخلية. ولقد استخلص توينبي هذه النظرية من دراساته لتاريخ الحضارات ونقده لآراء المفكرين وتصوراتهم الفلسفية لعوامل قيام الحضارات وسقوطها^(٢).

وهكذا يخلص توينبي من آرائه بشأن ظهور الحضارات إلى أنها نتيجة استجابة لتحديٍّ صادر إما عن البيئة المادية وإما عن الوسط البشري أو عن كليهما^(٣)، ومن هنا تولدت نظرية «التحدي والاستجابة» لدى توينبي التي تعتبر أم أفكاره وركيزة آرائه في ميدان الدراسات التاريخية وبحث شؤون الحضارات والأمم^(٤)، وقد فسّر بها حركة الحضارات؛ قياماً ونمواً، وتدهوراً... وسقوطاً وانحلالاً.

ورغم الدوّي الذي أحيط بهذه النظرية، فإنّها لم تسلم من النقد، إذ وجّه عدد من الباحثين نقداً لهم لها. وأشهرهم «يترم سوروكن» و«بيتر جيل». فأما سوروكن فيرى النظرية متهاففة في مبادئ أساسيين، أولهما اعتبار «الحضارة» وحدة معقولة للدراسة التاريخية، وثانيهما اعتبار الأدوار الحضارية من النشوء إلى النمو ثم السقوط والانحلال أساساً لفلسفته التاريخية.

يقول سوروكن إن توينبي لا يعني بالحضارة مجرد «مجال للدراسة التاريخية»، وإنما يعني نظاماً موحداً أو كياناً كلياً مرتبطة أجزاءه بعضها ببعض ارتباطاً سببياً بحيث يستتبع التغيّر في الجزء الواحد تغييراً في الكل وبالعكس. وهكذا نرى توينبي - يقول سوروكن -

(١) د. عماد الدين خليل: «التفسير الإسلامي للتاريخ»: ٧٤.

(٢) محمد هيشور: «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها»: ١٠٤.

(٣) تراث الإنسانية؛ م. س - ٥: ٣٣٤.

(٤) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها؛ م. س: ١٠٣.

يفترض إن الحضارات كيانات حقيقية لا مجرد أكوام أو تكتلات لعدد من الظواهر الاجتماعية والثقافية المختلفة. الظواهر المتجاورة في الزمان والمكان من غير أن يكون بينها ترابط سببي موحد. فلو صح افتراضه إن الحضارات كيانات حقيقية إذن لاستلزم التغير في أحد مقوماتها تغييراً في مجموع المقومات الأخرى. والحق إن حضارات توينبي ليست كيانات حقيقية بدليل ما يذكره هو نفسه، في مناسبات عديدة، من أن الظواهر الاقتصادية والتقنية كثيراً ما تتغير في الحضارة الواحدة وتبقى الأخرى ثابتة، وأن العكس هو الذي يحدث أحياناً، وأن الظواهر الاقتصادية في حالات أخرى تتغير في اتجاه، بينما تتغير العناصر الباقية في اتجاه مقابل.

ويذكر توينبي فوق ذلك أنه كثيراً ما يبدو العنصر الديني أو الفني أو السياسي مستقلاً عن غيره من العناصر في ذلك الكل الحضاري.

وهكذا يعتقد سوروكن إن توينبي يقوِّض هو نفسه أساس نظريته القائلة بأن الحضارات وحدات حقيقية ملتزمة الأجزاء بعضها مع البعض الآخر. ويمضي الناقد في تهديمه للمبدأ التوينبي محاولاً أن يبين انتفاء وجود مثل هذه الوحدة الحضارية، حتى في ذلك الإنسان الواحد، فكيف يمكن وجودها في أمداء (مجالات - ثقافية) كالحضارة الهلينية أو الصينية أو السريانية أو غيرها؟ وإن ما يسميه توينبي وحدة حضارية ليس في الواقع سوى مجال ثقافي توجد فيه معاً عناصر عديدة من الأنظمة والتكتلات (الاجتماعية - الثقافية) الكبيرة والصغيرة، تتوجد منسجمة في جانب منها ومتجاورة أو متباينة في الجانب الآخر^١.

المفكر الاسلامي مالك بن نبي يدلي بدلوه في هذا الاتجاه، وهو الذي أصدر جل كتبه تحت عنوان «مشكلات الحضارة»، فيؤكد أن الانتقال من الحياة البدائية الراكدة إلى الحياة العاملة النشطة هو الذي يسجل اذن بداية حضارة ما أو نهضة معينة. لكن هذا الانتقال يظل في التاريخ من الظواهر غير المفهومة لو أنه استلزم وسائل أخرى غير التي تقدمها البيئة، ولو أنه استخدم في الحصول على تلك الوسائل شيئاً غير ما منحه من قدرات طبيعية يسيطر بها على ذاته وعلى أرضه وعلى وقته^٢.

إن الحضارة - كما يراها مالك بن نبي - هي نتاج حركة أبناء المجتمع بتوازن معنوي -

(١) التفسير الاسلامي للتاريخ؛ م.س. : ٨٩ - ٩١.

(٢) وجهة العالم الاسلامي؛ م.س. : ١٠٨.

مادي إلى أهداف محددة تحقق ممارسة الدور لهذا المجتمع في تاريخ البشرية، ولكن تكون عملية التحضر كمن يحرق البحر، إذا فهم بعض الناس أن الحضارة هي استيراد أشياء الأمم الأخرى، أو استعارة فكرها ومنتجاتها. إن في هذا الفهم للحضارة بذرة موت الطموح الحضاري للشعوب، ولذلك يلاحظ أن الاستعمار يحاول دوماً تنمية هذا الفهم العقيم للتحضر. ليس بالشراء للمصنوعات والأدوات يتم التخلص من التخلف من أجل صنع التقدم الحضاري، «ان مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الانسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها»^١. الانسان بما يحمل من عقيدة وفكر عبر التاريخ، والتراب بما يكتنز من ضرورات الحياة والطاقات، والوقت باستثماره لأن كل حقبة تذهب لارجعة لها. بهذا الفهم لأفانيم الحضارة الثلاثة وبها مجتمعه تُحل مشكلة التحضر^٢.

ومن الملاحظ إن مالك بن نبي يؤثر في كتبه، عند الحديث عن الحضارة وعناصرها، التعبير عن العمر بالزمن، وعن الكون بالتراب، ونستبعد - كما يقول البوطي - أن يكون مقصوده بالتراب الأرض وحدها، وإن تجلّى ذلك (وهو أمر غريب) في كتابه: شروط النهضة...!!^٣.

وقد تثير هذه المعادلة أو الصيغة التي وضعها مالك بن نبي للحضارة أثناء التطبيق اعتراضاً هو، إذا كانت الحضارة في خلاصتها عبارة عن ناتج لثلاث قضايا هي: الانسان، الوقت، التراب. فلم لا تكون الحضارة تلقائياً حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة؟ ولعل الأستاذ مالك بن نبي كان يقتبس هذه المعادلات الفكرية أو التشبيهات من اختصاصاته العلمية الرياضية...^٤.

وعلى أية حال، فإن قيام الحضارات ونشوءها كما هو تدهورها وسقوطها خاضع لمنطق السنن الالهية، وسنن التحضر في القرآن سنن إرادية تقوم على حرية الانسان

(١) شروط النهضة؛ م.س: ٤٥.

(٢) مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً؛ م.س: ١٤٧.

(٣) د. محمد سعيد رمضان البوطي: «منهج الحضارة الانسانية في القرآن»: ٢١.

(٤) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها؛ م.س: ١٢٤.

واختياره، كما أن عملية التحضّر تتم وفق ادراك الانسان لغاية وجوده في الحياة...^(١)
وتأسيساً على ما تقدم، فإن منهج الحضارة الانسانية في القرآن، يتلخّص في تعريفه
الانسان تعريفاً دقيقاً على كل من ذاته، وحياته، والكون الذي يعيش فيه. وهذه هي أركان
أي حضارة انسانية على مر التاريخ الانساني الطويل. فلا يتعلّق عمل الانسان أو
الجماعات الانسانية، على اختلاف الأحوال والتقلبات إلّا بها. أيّاً كانت عقيدتها، ومهما
كانت منزلتها في الثقافة والعلم والدراية.

وبتأمل يسير، ندرك أنّ المقياس الوحيد لسير الحضارة الانسانية في طريقها السليم،
وامكان الحصول على ثمارها المرجوة، إنّما يتمثّل في مدى المعرفة الدقيقة لهويّة كل من
هذه العناصر الثلاثة، والتنّبّه إلى الخصائص الحقيقية لكل منها. إذ بهذه المعرفة يتمكن
الانسان من الحصول على تركيبة الجهاز الحضاري الصحيح المتألف من مجموعة هذه
العناصر الثلاثة.

ان عملية انشاء الحضارة، إنّما هي في الحقيقة صورة مكبّرة جداً، لأي تركيبة كيميائية
يعكف على تحضيرها أي متخصص، من مجموعة مواد وعناصر معينة. فكما أن نجاح هذا
التركيب، فيما يُراد أن يتحوّل إليه، متوقّف على معرفة دقيقة لطبيعة تلك المواد وخصائصها
وشواردها، فكذلك نجاح السعي إلى انشاء الحضارة، متوقّف على معرفة تامة بطبيعة
موادّها وعناصرها الأولية، معرفة لا يشوبها أي خطأ أو وهم^(٢).

إنّ الانسان هو أهم العناصر الثلاثة التي تنبثق الحضارة الانسانية من تألفها وتفاعل ما
بينها. ذلك لأنّ الانسان هو العنصر المؤثّر الفعّال، أما الآخرون فمفعّلان ومتأثّران؛ ولأنّ
الانسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة، وهو الهدف من ورائها. أمّا كل ما عداه،
فأسباب ميسرة نثرت له هنا وهناك، ليراها أمامه فيستعين بها ويستخدمها في بلوغ آماله
وتحقيق رسالته^(٣).

التعاقب الحضاري:

ولكن ثمة تساؤلاً مائلاً: ما هو سرّ اقبال هذه الحضارة أو تلك بالأمس وادبارها اليوم؟

(١) للمزيد يُراجع الفصل الخاص بالموضوع في المرجع السابق.

(٢) منهج الحضارة الانسانية في القرآن؛ م. س: ٣٦.

(٣) المرجع نفسه: ٤٥.

لقد قيل الكثير حول الموضوع، ولعل ما يهمنا أكثر من غيره، في هذه النقطة، هو الرأي الذي يذهب إلى أن للحضارة تبدلات ودورات. ويقف المؤرخون والفلاسفة وعلماء الاجتماع من قضية التبدلات الاجتماعية والسياسية في الدول والمجتمعات مواقف متباينة، كما يقف فلاسفة التاريخ والحضارة من ظاهرة الدورات التاريخية والتعاقب الحضاري مواقف عديدة، ويذهبون في بيان عللها وأسبابها مذاهب شتى، وإن كان جلهم ينطلق في تحليلاته من منطلقات نفسية وعقيدية وعرقية، وذاتية الحضارة المنتمي إليها، ولقد آمن كثير من المؤرخين وفلاسفة الحضارة بظاهرة التعاقب الحضاري ودورة التاريخ، حتى غدت عند بعضهم حقيقة ثابتة لا مرأى فيها، وقاعدة متفق عليها.

ولا شك إن كثيراً من الظواهر البشرية كظاهرة قيام الحضارات وسقوطها، وظواهر التقلبات الاجتماعية والسياسية، والتبدلات أو الدورات التاريخية ظواهر قديمة قدم الانسانية نفسها، وما زالت تتعاقب على الأجيال وتشهد أحداثها الأمم والشعوب حتى اليوم^١.

وهكذا تتعاقب الحضارات على الأمم وتتبدل بين القوة والضعف، وتتحرك على محاور عدّة حسب قانون واحد لا مصرف عنه وهو سنّة الله، كما جاء التعبير عنها في القرآن الكريم، وهذا أمر ثابت منذ كان للحضارة وجود، وإلاّ كانت الانسانية عرفت حضارة واحدة ظلّت قائمة منذ الأزل مستمرة إلى ما شاء الله، وإلاّ كانت هذه الحضارة انطمرت وغابت عن الوجود، منذ أمد بعيد، ثمّ عاشت الانسانية في ظلام حضاري لا نور بعده، وإنّما الظاهر للعيان والقائم في التاريخ أن الحضارات تتبدل وتحوّل وتتوارثها الأجيال وتتناولها الأمم، وتأتي عليها فترات ضعف وهوان وفيها تغرب عن الأمم شمس الحياة وتظلم الدنيا ويبتئس الجو ويكفهر، وكل حدث في التاريخ هو نتيجة لما قبله، وفي الوقت نفسه سبباً لما سيأتي بعده، وسنّة الله ثابتة لا تتبدل ولا تتحوّل: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.. ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ (فاطر: ٤٣).

ولكن تصرفات البشر وأعمال الانسان هي التي تتبدل وتتغيّر فتبدّل الحضارات وتغيّر المجتمعات.. وبذا غدت فكرة دورات التاريخ وتداول الحضارة من أهم الأفكار

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: م.س: ١٤١، ١٤٢.

والنظريات التي حظيت باهتمام فلاسفة الفكر الحضاري^١. وهناك اشارات في القرآن إلى الدورة الحضارية وقيام الحضارات وسقوطها، ثم التجدد أو الاستبدال الحضاري بين الأمم، ولكن يبقى الفرق بين المذاهب الفكرية وأحكام القرآن في هذه الظواهر وغيرها، هو كيف يحدث التجدد والاستبدال وما الأسباب المؤدية إليه، والعاملة على حدوثه. وتقف الآية الكريمة ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (آل عمران: ١٤٠) كمعلم رئيسي في الرؤية الإسلامية أو الحكم القرآني في هذه القضية. وسادت الفكر الفلسفي كثير من التصورات والتحليلات والتساؤلات عن علّة تفاوت الأمم حضارياً، وتغيّر أحوالها وأوضاعها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. وقد حاولت بعض الدراسات اثبات وجود الدورة الحضارية، كما سعت أخرى إلى نفيها وعدتها خواطر تواردت على أذهان ذوي نزعات فردية وميول خاصة في الحياة، ولكن جل الدراسات تنصب على بحث الأحداث الداخلية والخارجية في الأمم والحضارات، كتبدل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وتظلم الحكم.. دون أن تطرق لب الحقيقة وجوهر القضية في كل شيء وهو الانسان، كما وجد لبعضها اهتماماً بدراسة الثوابت والعموميات في الحياة، ومحاولة تقويمها بنظرة عصرية، بحجة عدم مسيرتها للواقع المتغيّر وتبدلات الحياة كما هو الصنيع في الناحية الاقتصادية، والسعي إلى إحلال وإياحة ما حرّم الله وتزيين أو منع ما حلّ الله، وهذا أمر شائع في المعاملات المالية والسياسية وغدت الغاية تبرر الوسيلة، حتى أصبحت هذه المناهج لا ترى للظلم أو الكذب، مثلاً، أثراً في هدم الحضارات أو ذهاب الدول والحكومات، كما لا ترى للصدق والعدل أثراً طيباً في استمرارية الحياة الكريمة، ما دامت مصلحة الأمة أو النظام فوق الجميع وفوق الحق عند هذا الاتجاه^٢.

كما أنكر البعض عدم جري سُنّة التبدلات على الحضارات المنتمين إليها والحضارة الغربية بالذات وحاولوا إيجاد مبررات واستثناءات لها في سُنّة الله. ومن سُنّة الله الثبات وعدم التحوّل والتبدّل، ولا محاباة لأحد. وهذا ما نجده عند كثير من الفلاسفة.. ويبدو أن حقيقة دورة الحضارة ما زالت عالقة في تصورات الذين اهتموا بها شأنها شأن كثير من

(١) المرجع نفسه: ١٤٢.

(٢) المرجع نفسه: ١٥٠ - ١٥١.

القضايا الفلسفية والفكرية على مرّ العصور وفي مختلف الأجيال .
ومعظم الدراسات الفكرية والأدبية تنطلق من قواعد خاطئة وتنبثق عن تصورات منحرفة ، ومن ذلك انكار وجود الله والقول بعدم تدخله سبحانه في شؤون البشر الحضارية ، وكأن الله شاء أن يترك الحياة مسرحاً لفساد المفسدين أو عدل المنصفين يصنعون ما يشاؤون فيها .

والتفكير الاسلامي للتاريخ والحضارات يرى أن الوحي هو الأصل والقاعدة في كل شؤون الحياة ، بينما الفكر الغربي يحصر الدين والعقيدة في مساحة ضيقة وبعده رافداً من روافد التفكير البشري والفكر العقيدي في الغرب ذاته وترك المساحات الأوسع للعقل يعيث بها على هواه^١ .

والذين ينساقون مع الرأي القائل بانتفاء أو هامشية دور الدين في التكوين الحضاري إنما ينطلقون من أحكام متعسفة وسطحية ، في آن معاً ، تفتقر إلى العمق والموضوعية . وهم يكتفون بظواهر الأشياء ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تقصي الحقائق وسبر أغوارها .
نعم ، إذا مارسنا التحليل بصورة معكوسة ، وبدأنا من الحضارة المعاصرة .. بالأحرى ؛ المدنية المادية المعاصرة ، بتفوقها المذهل ، وقدرتها الهائلة على الاكتشاف والتنفيذ ، لقلنا بأن الدين لم يلعب ذلك الدور المبالغ فيه في صيرورة التحضر البشري .
فها هي ذي المدنية الغربية ترفض الله ، وتتجرّد عن الدين ، وتلغي الروح من الحساب ، ثم إذا بها تقفز هذه القفزات العملاقة ، فتضع إحدى قدميها على الأرض والأخرى على القمر .

وبقليل من التمعّن يبدو خطأ حكم كهذا .. بل خطله ، وذلك أنه ينطلق من منهج معكوس ، فيصل بالضرورة إلى نتائج معكوسة .
والأحرى أن ينصب التحليل على البدايات الأولى للتكوين الحضاري .. ثم ينطلق مع صيرورتها الزمنية على خط صاعد .. صوب القمة ، وحينذاك ومن خلال فحص واستقراء العشرات من الحضارات البشرية ، يتبيّن له أن الدين هو ، في معنى من المعاني المتدفقة التي يعجّ بها تياره المزدحم ، صراع من أجل التحضر .

(١) المرجع نفسه : ١٥١ - ١٥٢ .

والجهود التي بذلها الأنبياء ﷺ ، لإخراج أممهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة ، جهود كبيرة اقتضت منهم عزمًا يفِل الحديد .. ومن ثمَّ وصفهم القرآن الكريم بأنهم: ﴿أولو العزم﴾^١ ولولا ذلك ما قدرُوا على تحمُّل ضغوط الجاهلية ، والانحطاط ، والشدِّ ، والتخلُّف ، والنزعات الحيوانية الهابطة ، والارتكاس المادي ، والشهوات السافلة .. ما قدرُوا على تحديها والصبر إزاءها ، والانتصار عليها في نهاية الأمر^٢ .

إنَّ خروج الجماعات البشرية من مستنقعات الجاهلية إلى أرض الإيمان ، النظيفة ، المضئية ، المتوحدة .. اقتضى صراعاً مميّناً ، وانتهى إلى انتصار للحضارة والقيم الحضارية في مفهومها الشامل الذي لا يقف عند حدود تفوُّق مادي محدود ، بل يتجاوزه إلى آفاق الفكر والروح والعقيدة والمطامح الانسانية .

إن آدم ﷺ ما جاء إلى العالم إلّا بعد أن تعلَّم الأسماء كلّها .. وبنو آدم بعثوا إلى العالم لكي يكونوا خلفاء عن الله في اعمارِهِ وتحضيرِهِ: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (هود: ٦١) .

ومن خلال هذين الخطين العريضين ، في صميم العقيدة الدينية التي تشكلت سماتها النهائية في الاسلام ، يبدو واضحاً ، ذلك الارتباط الصميم بين الدين والتحضُّر .. ويبدو كذلك حجم الدور الذي لعبه الدين في صيرورة الحضارات .

وما أكثر علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ الذين أكّدوا هذه الحقيقة ووجدوا أنفسهم أمام ثقلها الذي لا مفرَّ من الاعتراف به^٣ ، وقد مرّت بنا ، في ثنايا السطور المتقدمة ، شهادات لكبار فلاسفة الحضارة ومفكريها . وهذا «لياكوب بوركارت» يودع تأملاته في التاريخ أهم أفكاره في هذا المجال^٤ ، إذ يرى ان الحضارة تتألف من مكونات لا حدّ لها تمثل نشاط أي مجتمع برمته ، وكل مكوّن من هذه المكونات معرّض للازدهار والاضمحلال . والكلام معجزة الانسان هو محور كل حضارة ، ومصدره هو الروح الانسانية .

وينتقل بوركارت الى الكلام عن الصلة الحقيقية أو الظاهرية بين الحضارة والاخلاق .

(١) جاء في سورة الأحقاف (الآية : ٣٥) : ﴿فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرُّسل﴾ .

(٢) د. عماد الدين خليل : «مؤشرات اسلامية في زمن السرعة» ، بغداد ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، ص ٨٠ .

(٣) المرجع نفسه : ٨١ .

(٤) يُراجع التعريف بالكاتب والكتاب في «تراث الانسانية» ٦ : ٨٣٣ - ٨٥٨ .

مُبدِياً تشككه في حدوث تقدم اخلاقي، وكذلك فكري مصاحب لتقدم الحضارة، ومؤكداً في الوقت نفسه أن مراكز الاشعاع الحضاري لا يمكن أن تُزيّف أو تُقلّد. فان خلق الجو الذي يساعد على ازدهار الحضارة وانطلاق العباقة ليس أمراً سهلاً هيناً، كما ظنّ تيمورلنك مثلاً، عندما نقل الى سمرقند كل الفنّانين والصنّاع والعلماء الذين عثر عليهم في البلدان التي احتلها ودمّرها، ولكنهم خيّبوا ظنه، فلم يخلقوا حضارة هناك، ولم يبدعوا فناً، وكل ما فعلوه هو.. موتهم في سمرقند!

وبعد أن انتهى بوركارت من تحديد مفهوم كل من الدولة والدين والحضارة تحدّث عن حالات تفاعل هذه المؤثرات الثلاثة في التاريخ، وفيما يتعلّق بالنقطة التي نحن بصددّها، يؤكد بأن الأديان محقة إلى أبعد حد، عندما تعتبر نفسها أصل الحضارات. وليس هناك ما يحول أحياناً دون اعتبار كلمة دين مرادفة لكلمة حضارة، وإن وجب مراعاة اختلاف أساسي بينهما. فالدين ينبع من حاجة ميتافيزيقية، أما الحضارة فتنبع من ضرورات مادية وفكرية^١.

ثمّ أنّه حتى المدنية المعاصرة، في واجهتها المادية المتألّفة التي تغطّي على مأساة روحها الخربة، وظلمة باطنها المتأزّم، المعذب.. حتى هذه، كان للدين، عبر صراعه التاريخي الطويل، دور كبير في تحقيقها.

أليست المدنية هي تراكم خبرات زمنية، وثمره لجهود أجيال تلو أجيال.. قدّم كل منها بعضاً من طاقته.. شيئاً من العرق والدماء والدموع لتحقيق هذا الكشف، وتنفيذ تلك المهمة؟.. فتجمعت روافد الإبداع، وتزايد عطاؤها، يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، وقرناً بعد قرن.. لكي ما تلبث أن تصب في بحر مدينة القرن العشرين التي يبهج وهجها الأبصار؟^٢.

فليست الحضارة، إذن، إينة يومها أو رهينة لحظتها. إنّ الأمم في مدرسة الحضارة كالتلميذ في مدرسته في العملية التعليمية، يمر الطالب بثلاث مراحل رئيسية هي؛ مرحلة التكريس؛ وهي مرحلة التلقّي للمعلومات، تتراكم لديه يوماً بعد يوم، بصورة غير مرتبة، أو منتظمة ومتعددة المجالات، تليها مرحلة أخرى، تتضح فيها الصورة في ذهن

(١) المرجع السابق: ٨٤٠ - ٨٤٦.

(٢) مؤشرات اسلامية في زمن السرعة؛ م. س: ٨١.

الطالب، ويتم ترتيب المعلومات بشكل أفضل حيث يبدأ في تكوين علاقات بينها، تساعد على الهضم أو الاستيعاب، ويمكن تسمية تلك المرحلة بمرحلة الاستيعاب، تليها: مرحلة الإبداع: حيث يستطيع الطالب أن يعطي فكراً جديداً يختلف عما تلقاه، ولكنه ينبع من جوهره، ويرتكز عليه^١.

وهكذا، فإن الأمة إذا ما تجاوزت التكديس بثبات، وصبر، وحزم واصرار، حيث تكون قد تكدست في وعائها الاجتماعي طاقات عملية، وتقنية، وروحية، وشحذت بذلك الفعالية الاجتماعية للانسان شحذاً كبيراً، إذا انتهت من هذه المرحلة، التي تتميز بالبطء فانها تقبل بذلك على مرحلة جديدة، تتميز بسرعة أكبر للنمو، هي مرحلة الفهم والاستيعاب. في هذه المرحلة الجديدة، تبدأ الأمة في فهم العلاقات العضوية، بين الطاقات المقدسة في وعائها الاجتماعي، فتكشف لنفسها، وبفسها ما تم اكتشافه في أمم أخرى، لتصل إلى الجوهر، بين الركام المقدس، ويعطيها ذلك قدرات جديدة.

حيث سيكون انطلاقها من الجوهر، لا من الركام المقدس، وحيث تكون الأمة تعرضت على قوانين التحضر، لا على نتائجه فحسب، فتصبح عندها القدرة على الخطو بثقة في ميدان الحضارة، وهي غير منبهرة بالركام المقدس، وإنما عاشقة للجوهر متفاعلة معه^٢. ووفق هذا، يرى شبنغلر أن لكل حضارة صيرورة واتجاهاً وزماناً ومصيراً وتاريخاً، وأن الحضارة أسيرة مصيرها، وأن اتجاهاها هو اتجاه لا يمكن أن يُقلب أو يُعكس أو يحوّل، وذلك لأن هذا الاتجاه هو اتجاه وسمه المصير وحددته الصيرورة^٣.

الحضارة: مسار.. وضوابط

وهنا قد يُثار تساؤل: هل للحضارة مسار؟ وإذا كان الجواب بالايجاب.. ما هي الضوابط لتأمين هذا المسار؟ ويأتي الجواب: باعتبار أن الحضارة ممارسة لمجموعة المبادئ والمفاهيم عن الحياة في مكان معين، وفي زمن أو أزمان، وتفاعل الانسان بالأكوان المحيطة به، من أجل سعادة هذا الكائن البشري، وفق تصوّره الايديولوجي الخاص، وجب على (مجموعة المبادئ والمفاهيم) هذه أن تعالج المشكلات المتواجدة في

(١) دراسة في البناء الحضاري؛ م.س: ٩٥.

(٢) المرجع نفسه: ٩٧.

(٣) اسوالد اشبنغلر: «تدهور الحضارة الغربية» ١: ١٢ (المقدمة).

عناصر الحضارة الأساسية فتواجهها بضوابط تكون من جهة قادرة على (حل تلك المشكلات) ومن جهة أخرى على المحافظة على مسار الحضارة التصاعدي.

إنّ الضوابط الحضارية هذه لا تُستعار بل هي ذاتية، تنبع من مجموعة التصورات العقيدية التي هي خلفيات الحضارة.. وبقدر عمق هذه الضوابط بقدر ما تستطيع الحضارة مواجهة التحديات والتغلب عليها.

وباعتبار أن هذه الضوابط لا يمكن أن تتجانس إلا إذا خرجت من مصدر واحد، بحيث تتأمن الوحدة فيما بينها والانسجام... وهما شرطان أساسيان لتفاعل هذه الضوابط فيما بينها تأمينا لمسار الحضارة.. أدركنا سرّاً من أسرار أفول واندثار كثير من الحضارات القديمة التي لم تكن تملك أكثر هذه الضوابط^١.

ولكن ما هي هذه الضوابط ؟

إنّ الحضارة المثلى هي التي تتمتع بضوابط أصيلة ذاتية من عقيدة، ونظم، ودولة، وقيادة، ولغة.. وهذه الضوابط الحضارية تضمن المسار الحضاري في خط مستقيم وتحفظ للحضارة حيويتها وعطاءها، وهذه الضوابط هامة في كل حضارة، فهي كالروح من الجسد، بل هي المناخ الوحيد الذي تتفاعل فيه المفاهيم وتظهر الحضارة، فاذا ما تعطلت هذه الضوابط أو بعضها لسبب أو لآخر، تتزعزع الحضارة ثم يتوقف عطاؤها الكامل^٢.

وإذا كنا نتذكّر في معرض حديثنا عن الحضارات، التي عفا عليها الزمن، فانا نتذكّر هنا الحضارة اليونانية والرومانية وغيرهما من الحضارات التي عاشت في فترات متباعدة، وأدّت دورها في التجربة البشرية، إلا إنّنا لسنا في معرض تشريح مفاصلها، بحيث نقف على كيفية نشوئها وارتقائها وضمورها وانهارها^٣ فيكفي أن نعرف أنها كانت عبارة عن منظومة علاقات وطريقة حياة كاملة عاشتها أمم هذه الحضارات، حتى تقرر أنها حضارات لكن بائدة، كما يقول الأستاذ نجيب نور الدين^٤.

وغني عن القول: أن إشارات عديدة قد وردت في القرآن الكريم - تصريحاً أو تلميحاً -

(١) مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية؛ م.س: ٢٢.

(٢) بشيء يسير جداً من التصرف عن المرجع السابق: ٤٠، ٤٢.

(٣) هناك عديد من الكتب والموسوعات طرقت الموضوع، ونشير في هذا المجال إلى الكتاب القيم: «تداعي

الامبراطورية الرومانية وسقوطها» ليجيون.

(٤) مجلة المطلق؛ م.س - ٦٢: ١٠٤.

إلى أمم أقامت حضارات عظيمة سادت ردهاً طويلاً أو قصيراً من الزمن، ثم سرعان ما نُجِرتْ فهلكت وبادت.. حتى آلت إلى إطلال شاخصة تحكي قصتها للأجيال اللاحقة عبرة وذكرى.

وإذا كانت العبر في القرآن هي مادة تأمل وتدبر، فإن التفكير فيها يحدو إلى دراستها ولم أجزاها وتبويبها حتى توظف كقوة وطاقة بناء في المجتمع والتاريخ.^١ ولهذا وغيره دعينا في القرآن الكريم إلى التنقيب في مصائر الأمم الغابرة، ومن واجب الانسان أن يكون دائم الاتعاظ والاعتبار بالأمم الخالية والأجيال السابقة، ودوياً على التفكير في أحوالهم ومصائرهم، وما حلّ بهم من العقاب والعذاب، ليكون دائماً حي القلب، يقظ العقل، مرهف الحس، فتتم حاسة الاتعاظ واليقظة والاعتبار، ويسيح في الأرض، ليقف على آثار غيره من الداهيين الأولين، ممّن كان أعذل وأقوم، وممّن كان أظلم وأطغى من أصحاب هذه الحضارات القائمة والأمم المعاصرة الحاضرة^٢ وقد قال تعالى: ﴿وإنّه أهلك عاداً الأولى وثموداً فما أبقي. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى، والمؤتفة أهوى، فغشاها ما غشى﴾ (العنكبوت: ٤٠).

وحول هذه الحضارات الهالكة اعترف «كروزيه» بأنه ليس بالامكان استعراض بروزها وتطورها، وفقاً للترتيب الزمني، وتنوّل درسيها، واجالة النظر فيها، وتتبع أحداثها من ذاتها وبذاتها باعتبارها كتلة قائمة.. وراح يتساءل: من أين نأتي بتواريخ صادقة صحيحة لكل هذه المدينيات المتعاقبة، بما فيها مدينيات الهند والشرق الأقصى، وكيف نتمادى التكرار في مثل هذه الحالة؟^٣

ثمة نقطة لا بدّ من الإشارة إليها، أن منحى البحث - هنا - ليس بصدد التوغّل أو حتى التوقف إزاء الحضارات القديمة، إلّا بالقدر الذي يتطلبه المقام. غير أن هذا لا يعفينا بالمرّة عن الإشارة السريعة إلى أهم الحضارات الكبرى التي سادت ردهاً طويلاً من الزمن.

كبريات الحضارات:

هنالك مدينتان من أضخم المدينيات التي ظهرت في التاريخ القديم: المدينية المصرية

(١) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها؛ م. س: ١٧٥.

(٢) المرجع نفسه: ١٧٥.

(٣) تاريخ الحضارات العام؛ م. س - ١: ٢٠.

ومدنية بلاد ما بين النهرين ، وتولفان معاً كتلتين متجانستين بالرغم مما بينهما من فوارق وخصائص مفردة ، استمرت أكثر من ثلاثة آلاف سنة^١ .

وإذا ما تطلعنا شرقاً فهناك الحضارتان الهندية والصينية . أما الأولى فيذهب عديد من المؤرخين إلى أنها قامت على أساس من عناصر من الحضارة السومرية ، نُقلت إلى هناك ، ونمت في البيئة الهندية ، ثم تأصلت هناك ، وازدهرت مرةً بعد مرةً ، وأصبحت من حضارات التاريخ الكبرى^٢ .

أما الحضارة الصينية فقد قامت بعد حضارتي بلاد ما بين النهرين والهند بيضعة قرون .. وربما كان ظهور الكتابة اختراعاً وطنياً يركز على فكرة مستوردة .. وكانت ترسم على شكل صور ، ثم تطورت بالتدرج لتمثل خليطاً من الأفكار والأصوات ، كما هي حال الكتابة المسمارية السومرية .

إن الثقافة الصينية منذ بدء ظهورها كانت تسلك دائماً طرقاً خاصة بها ، حتى حين كانت تتعرض لتأثيرات جديدة .. فالثقافة الصينية إذن ثقافة متميزة^٣ وتتميز حضارة الصين عن غيرها من الحضارات بأنها حضارة صينية خالصة لم تتلق من المؤثرات الأجنبية إلا القليل^٤ .

وقد اقترنت الحضارة الصينية - إلى حد كبير - بأفكار كونفوشيوس ، حتى أن البعض من المؤرخين يطلق عليها الحضارة الكونفوشية . وقد عُرف عن حكيم الصين اهتمامه الخاص بالحكومة والتعليم واتباع طريقة الدراسة والاختبارات الطويلة^٥ .

إضافة إلى ما تقدم ، كانت الحضارة الساسانية بمثابة حلقة وصل بين حضارتي وادي النيل وما بين النهرين من جهة وبين حضارتي الهند والصين من جهة أخرى ، كانت السلطة الشاهنشاهية يلاطها وموظفيها آلهة الأرض على مختلف درجاتهم ، تنتقل الآلهة فيما بينهم ميراثاً دون أية شروط مؤهلة .. وكانت طوال زمن إحدى الامبراطوريتين العالميتين المسيطرتين على الكرة الأرضية ، لكنها رغم عددها وعددها سقطت على أيدي المسلمين ،

(١) المرجع نفسه .

(٢) الحضارة ؛ م . س : ٢٢٤ .

(٣) ما وراء التاريخ ؛ م . س : ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

(٤) الحضارة ؛ م . س : ٢٣٢ .

(٥) ما وراء التاريخ ؛ م . س : ٤٥٦ .

وهم قلة، في العدد والعدة، إنما لأمر واحد هو انهيار الأخلاق والانجذاب إلى الشهوات في كافة صور الحياة^١.

أما الغرب، فقد كانت هناك حضارتان هما: الاغريقية (اليونان) التي لا تخلو من لمسات الحضارة المصرية القديمة، حيث بلغت الفلسفة اليونانية ذروتها على يد عمالقتها الثلاث: (سقراط، أفلاطون، أرسطو) وقد فاخر الأغريق بأنهم انجبوا في عصر واحد ما عجزت عنه بقية العصور والأمم^٢.

أما الثانية فهي الحضارة الرومانية التي قامت على أساس سابقتها الاغريقية. وأضحت روما عاصمة الامبراطورية الرومانية التي عممت هذه الحضارة ووسعت نطاقها حتى شملت إيطاليا وحوض البحر الأبيض الشمالي وامتدت إلى حوض الراين وبريطانيا، وفي هذه المرحلة أصبحت حضارة عالمية، قامت في ظل دولة عالمية هي الدولة الرومانية^٣ التي اندحرت على يد الدولة العثمانية، فيما ورثتها الحضارة الغربية الحديثة التي تستمد جذورها بشكل أساس، من الحضارتين الاغريقية والرومانية، اضافة إلى بعض المؤثرات الأخرى، كما سيتضح في فصل لاحق.

أما الحضارة الاسلامية فلا شك أن جوهرها هو الاسلام. ولا شك إن جوهر الاسلام هو التوحيد. وهاتان مسلمتان بديهيتان. فالتوحيد هو الذي يعطي للحضارة الاسلامية هويتها، وهو الذي يطبع كل ما يدخل اليها من عناصر، فيؤسلمها ويظهرها فتخرج من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها^٤.

وهكذا نفهم إن محور الحضارة الاسلامية هو عقيدة التوحيد والقيم الإيمانية، وهي نسيج متكامل، وبناء مترابط بعضه مع بعض^٥.

وإزاء هذا الطيف الحضاري، ما زلنا نتفق مع «مالك بن نبي» الذي يرى أن الدخول إلى المجال الحضاري يجب أن يكون عن طريق الانسان، ومن باب القيام بالواجب أكثر من

(١) د. محمد الصادقي: «تاريخ الفكر والحضارة»: ١٥٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٧٢.

(٣) الحضارة: م. س: ٢٢١.

(٤) مجلة المسلم المعاصر (بيروت) - ٢٧: ٩.

(٥) لماذا السقوط الحضاري؟ م. س: ١٢.

التركيز على المطالبة بالحقوق^١.

ويبدو أن كثيراً من الجوانب النفسية والعقلية ما زالت لم تكشف كشفاً كاملاً لتوظف قدرات الانسان في البناء الحضاري، ولو أننا وصلنا إلى هذا الاكتشاف، واستطعنا تصحيح معنى الانسان في أذهاننا، لأدركنا مباشرة - كما يرى مالك بن نبي - السبب في أن الانسان يحرك التاريخ أحياناً وأحياناً أخرى لا يحرك ساكناً، في حين أن الانسان، في كل الظروف الاجتماعية والأحقاب التاريخية، هو الانسان ذاته الذي كرمه الله يوم خلق آدم عليه السلام، وهذا يدفعنا إلى أن نقدّر للانسان قيمتين: قيمته كإنسان، وقيمه ككائن اجتماعي، وبعبارة أخرى: إن الانسان يمثل في هذا الاطار معادلتين: معادلة تمثل جوهره كإنسان صنعه من أتقن كل شيء صنعا، ومعادلة ثانية تمثله ككائن اجتماعي يصنع المجتمع ويصنعه، ومن الواضح أن المعادلة الأخيرة هي التي تحدّد فعالية الانسان في الحضارة.

الانسان في جميع الحضارات، وفي جميع أطوار التاريخ لا يتغيّر فيه شيء، ولكن تتغير فعاليته من طور إلى طور^٢.

ولقد حاول الانسان، منذ أقدم العصور، تحليل الظواهر الطبيعية والأحداث الاجتماعية والتاريخية، وإيجاد مبررات ومصوغات لوقوعها، واتخذ في سبيل الوصول إلى ذلك طرقاً وأساليب شتى، وكانت التبدلات والتحويلات التي تطرأ على حياة الشعوب هموماً وتساؤلات ظلت مبعث اهتمام أهل الفكر والتدبّر تؤرقهم في سر هذا التبدّل والتحوّل والاقبال والادبار في حياة الأمم، وجاءت التعليقات والتفسيرات متعددة ولا تكاد تحصى عدداً كلها تسعى إلى بيان هذا السر، وظل السؤال: لماذا تسقط حضارات وتقوم أخرى، وتذهب أمم وتستخلفها أخرى سؤالاً قائماً^٣.

وهو سؤال هام وجدير بأهل العلم والفكر بحثه.. فكيف عالج القرآن الكريم ظاهرة سقوط الحضارات وقيامها؟.

هذا ما سيكون محور الفصل القادم.

(١) تأملات: ٢٧.

(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: م. س: ١٦٧.

(٣) المرجع نفسه: ١٦٢.

الفصل الثاني

الانهيار الحضاري

تزخر صفحات التاريخ بأنباء الأمم الغابرة والحضارات الدابرة، وقد شهدت تلك الأمم وحضاراتها فترات من القوة والازدهار، ثم اعترها ما اعترها من عوامل الهدم والتدهور والانحلال، فأُست أطلالاً دراسة، أو شاحصة.

والحديث عن الأمم الخالية، وما حلّ بها من دمار وبوار، يدفعنا إلى اعتماد النظر والتمعّن والفحص والاختبار، للكشف والابتكار والابداع، من أجل بناء حضارة متوازنة، يحقق بها الانسان رسالة الخلافة في الأرض^١.

وما يرتبط بهذا من دراسات ناقدة، وعناية بالتطور العام ومقوماته الاجتماعية والاقتصادية ودور الشعوب والحضارات النائية أو المنسية فيه.. كل أولئك ممّا يتسع له أفق القرآن. بل ما يدعو إليه القرآن من البحث عن مزيد من المعرفة عبر الزمان والمكان والتنوّع الموضوعي.

وإذا كان الوحي هو المصدر الأعلى للمعرفة حقاً ومنهجاً، فإنّ القرآن يدعو الناس إلى آفاق مفتوحة بلا حدود - إلّا حدود قدراتهم - ليكونوا أقدر على القيام بمهمتهم التي رسمها لهم وهي: خلافة الله في أرضه^٢.

وفي هذا المضمار، طُلب من المسلمين أصحاب الرسالة الخاتمة، أن يتبسّروا بأحوال الأمم السابقة، ويستشفروا التجربة البشرية التاريخية، فينقلوها من ورائهم إلى أمامهم، ليعتبروا، ويحول اعتبارهم دون السقوط الحضاري، وانتقال علل الأمم السابقة إليهم،

(١) محمد هيشور؛ «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها»، منشورات المعهد العالمي للفكر الاسلامي (سلسلة الرسائل الجامعية - ٣٠)، القاهرة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص ١٧٦.

(٢) د. عبدالعزيز كامل؛ «القرآن والتاريخ»، دورية عالم الفكر (الكويت)، م ١٢٠، ع ٤، يناير - مارس ١٩٨٢م، ص ٢٢، ٤٤.

والتعرّف من خلال الأمر بالسير في الأرض، والنظر في أحوال الأمم، على سنن وقوانين النهوض والسقوط.

فالتاريخ العام هو المصدر الأساس للفقّه الحضاري، والمختبر الحقيقي لصواب الفعل البشري، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^١ فاكشاف سنن السقوط والنهوض من لوازم البناء الحضاري، وإن شئت فقل: من لوازم الشهادة على الناس، والتأهل لقيادتهم، والقدرة على اختيار وتمثّل الموقع الوسط^٢.

ولم يكن من أهداف القرآن أن يستغرق الأماكن حصراً وتسجيلاً. وأما اكتفى بأن أورد لنا نمطاً واضحاً من الدراسة، يتمثّل في مركز ودوائر متتابعة في الاتساع ومحاوّر تربط بين القلب والأطراف، ودعوة إلى مزيد من الدراسة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾^٣ وهي بدورها مهدة لتطوير في المجتمعات وبناء أفضل للتاريخ الانساني^٤.

وهكذا قدّم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية، وحدّثنا عن الماضي في جلّ مساحاته، لكي ما يلبث أن يخرج بنا إلى تبيان «الحكمة» من وراء هذه العروض، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشري مستمدة من صميم التكوين الحدّثي لهذه العروض، تلك المبادئ التي سمّاها «سننا»، ودعانا أكثر من مرّة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة، ونزوعنا المستقبلي^٥.

وهنا، نتساءل مع الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله:

هل للتاريخ البشري سنن في مفهوم القرآن الكريم؟

هل له قوانين تتحكّم في مسيرته، وفي حركته وتطوره؟

ما هي هذه السنن التي تتحكم في التاريخ البشري؟

كيف بدأ التاريخ البشري؟ كيف نما؟ كيف تطوّر؟

(١) الروم: ٩.

(٢) عمر عبيد حسنة: «مراجعات في الفكر والدعوة والحركة»، مرجع سبقت الإشارة إليه؛ ص ٤.

(٣) العنكبوت: ٢٠.

(٤) د. عبد العزيز كامل؛ م. س: ٢١.

(٥) د. عماد الدين خليل؛ «التفسير الاسلامي للتاريخ»: ٩٧.

ما هي العوامل الأساسية في نظرية التاريخ ؟
ما هو دور الانسان في عملية التاريخ ؟
ما هو موقع السماء أو النبوة على الساحة الاجتماعية ؟^١

التاريخ؛ سنن وقوانين:

لقد درس السيد الصدر (رضوان الله عليه) هذا كله تحت عنوان «السنن التاريخية في القرآن»^٢، وفيما يتعلّق بموضوعنا يذكر السيد الشهيد: إنّنا نلاحظ، في القرآن الكريم، أنّ الساحة التاريخية عامرة بسنن، كما عمرت كل الساحات الكونية الأخرى بسنن. هذه الحقيقة نراها واضحة في القرآن الكريم، فقد بيّنت هذه الحقيقة بأشكال مختلفة وبأساليب متعددة، في عدد كثير من الآيات بيّنت على مستوى إعطاء نفس هذا المفهوم بالنحو الكلي؛ إن للتاريخ سنناً، وأن للتاريخ قوانين. وبيّنت هذه الحقيقة في آيات أخرى على مستوى عرض هذه القوانين، وبيان مصاديق ونماذج وأمثلة من هذه القوانين التي تتحكّم في المسيرة التاريخية للانسان، وبيّنت في سياق آخر على نحو تمتزج فيه النظرية مع التطبيق. وفي آيات أخرى، حصل الحثّ الأكيد على الاستفادة من الحوادث الماضية، وشحذ الهمم لايجاد عملية استقراء للتاريخ، وعملية الاستقراء للحوادث هي عملية علميّة بطبيعتها، تريد أن تفتّش عن سنّة عن قانون.. وإلا فلا معنى للاستقراء، من دون افتراض سنّة أو قانون^٣.

وقد أكّد القرآن الكريم على ثلاث حقائق، بالنسبة إلى سنن التاريخ، هي باختصار: ١- السنّة التاريخية ليست علاقة عشوائية ذات طابع موضوعي لا تتخلّف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون على السنن العامة. ٢- ربانيّة السنّة التاريخية.

(١) السيد محمد باقر الصدر: «مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن»: ٢٢، ما تجدر الإشارة إليه أنّ الكتاب عبارة عن محاضرات ألّفها المرجع الشهيد أواخر أيامه في النجف الأشرف، وقد صدرت كما هي دون تحقيق أو تشذيب، وحملت أكثر من عنوان، ناهيك عن الأخطاء.

(٢) صدر الكتاب أيضاً بهذا العنوان.

(٣) المرجع السابق: ٤٢، ٤٣.

٣- حقيقة اختيار وإرادة الانسان^١.

فالاسلام يعتمد المنهج الاستقرائي .. يعتمد في كشف السنن ، والقوانين الثابتة .. والمطرده ، التي تحكم الحياة والأنفس ، والآفاق ، الأمر الذي يتأتى منه البصارة واستقراء حركة النهوض والسقوط والتداول الحضاري ، بل لعل البرهان والدليل على ثبات السنن واطرادها هنا ، يتحقق من الاستقراء ، وليس من القياس ، فالسير في الأرض ، واكتشاف السنن الحاكمة لحركة الحياة ، أو فقه الحياة ، نلحمه في قوله تعالى : ﴿ قد خلّث من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا .. ﴾^٢.

وقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾^٣ .. فاكتشاف السنن ، والتواصل إلى الدليل ، الذي يبيّن الحق ، إنّما يتأتى من استقراء التاريخ ، والواقع ، وآيات الأنفس والآفاق^٤.

وطالما يستوقفنا القرآن ، وهو يدعو الناس إلى فتح آفاق النفس والكون والسعي في هذه الأرض ، بحثاً عن حقائق وحضارات سبقت ، ومجالات من العلم تنتظر جهود الانسان .. : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ عَاقَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ . إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾^٥.

و ﴿ عَاقَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ صميم الدراسة التاريخية . و (عاقبة) ربط بين سبب ونتيجة ، لا مجرد رصد لواقع تاريخي . هذه العاقبة تحدث إذا توفرت مقدماتها . وهذا الترابط هو «سنن» أو قوانين الحياة . وفي هذا يقول تعالى : ﴿ قد خلّث من قبلكم سننٌ . فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾^٦ فحركة التاريخ بصريح القرآن سنن وقوانين^٧.

(١) للمزيد يراجع المرجع السابق : ٦٠ - ٧٢ .

(٢) آل عمران : ١٣٧ .

(٣) فصلت : ٥٣ .

(٤) عمر عبيد حسنة ؛ م . س : ٦ .

(٥) فاطر : ٤٤ .

(٦) آل عمران : ١٣٧ - ١٣٨ .

(٧) د . عبدالمزيز كامل ؛ م . س : ٤٤ .

ولا يذهبن الظن بنا إلى أن هذه السنن والقوانين قد سرت على الأمم السابقة وكفى أو أن التذكير بها يتطلب الاهتمام إليها، ومعرفة التعامل معها، والاتعاظ من عبرتها، ليس إلا. فهذا الفهم شائه مبتور. والصواب أن هذه السنن والقوانين هي من السنن الجارية. وليست الخارقة، لا تتبدل، ولا تتغير ولا تحابي أحداً.. وأنها مطردة، تتكرر نتائجها كلما وجدت مقدماتها، ما لم تتخلف بعض الشروط، أو توجد بعض العوائق التي ما على الانسان إلا اكتشافها، لنفي العجز، وإعادة المحاولة: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾^١ ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾^٢.. وأن الانسان لا يمكنه أن يبدلها، أو يخرج عن نسقها، أو يبطلها، وإنما يمكن من خلال ادراكها، والاحاطة بها، أن يقوم بالمداخلة، التي تمكن من التسخير.. وهذه المداخلة، وهذا التسخير، لا يمكن أن يتم بعيداً عنها، وذلك بمغالبة قدر بقدر، أو سنة بسنة.

والأمر الذي لا بد من إيضاحه، أيضاً، هو: إن الله وتعالى، بفضلله، ونعمته، وتكريمه للانسان، ناط نفاذ السنن ونتائجها، وما يترتب عليها من تغيير، بارادة البشر، ولم يجعلها قوانين صارمة، بعيدة عن ارادة وفعل البشر.. فالتاريخ لا يعيد نفسه، وإنما يخضع لسنن مضطردة، متفاعلة مع إرادة البشر، حيث رتب الله كثيراً من سنن السقوط والنهوض، على إرادة وفعل البشر.. ولا يتسع المجال لا يراود الكثير من النماذج على ذلك^٣..

سنة التداول الحضاري:

وقضية السنن، بمعنى القوانين المطردة والثابتة، التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وتحكم حركة التاريخ، وتحكم بالدورات الحضارية، بما يمكن أن نسميه سنن التداول الحضاري، استيحاءً من قوله تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾^٤، والتي تعتبر معرفتها شرطاً أساسياً للتبصر بالعواقب، وتوهُل معرفتها إلى تسخيرها والتمكّن من الانجاز والابداع الحضاري، لا تتأتى إلا من السير في الأرض، الذي فرضه الله على المسلم بقوله:

(١) الأحزاب: ٦٢.

(٢) فاطر: ٤٣.

(٣) د. أكرم ضياء العمري: «قيم المجتمع الاسلامي من منظور تاريخي» ١: ٣٦.

(٤) آل عمران: ١٤٠.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ..﴾^١

من هنا نقول - حسب الأستاذ عمر عبيد حسنة -: إن الكشف عن السنن التي تحكم الحركة الاجتماعية لا يتأتى إلا من السير في الأرض، واستقراء التاريخ، والتعرف على القوانين التي حكمت حركة البشر، للاستفادة منها للحاضر والمستقبل، فالحاضر على كل حال، ليس محلاً كافياً للقراءة والاستقراء.

فقد يكون الحاضر نتيجة لمقدمة في الماضي، وقد يكون مقدمة لنتيجة لا تظهر إلا في المستقبل.. فاستقراء الحاضر وكشف السنن التي تحكم حركته، لا يكون دقيقاً إلا باستصحاب الماضي وما يعطي من حقائق ثابتة لا يمكن أن يخرج عنها الحاضر.. فالاستفادة للحاضر إنما تتحقق بالقدرة على قراءة ما من خلال وضعه في موقعه المناسب من الحركة التاريخية.

بينما يمكننا أن نلمح حدوث التفاعل في المجال المادي، واطراد القانون، في زمن قد لا يعتبر شيئاً في عمر الفرد، بعد انقضاء رحلة الاستكشاف التي قد تطول وقد تقصر. ولعل من الرحمة بالإنسان، والتكريم له، أن تكون للسنن والقوانين التي تحكم حركته ملامح وتوجهات عامة، وبذلك تتضاءل الأخطاء ويمكن تجنبها، وتكون ساحة التفاعل والانفعال والحرية أوسع مدى، ويشبه بعض المفكرين السنن في مجال المادة والكون بقضبان الحديد التي يسير عليها القطار، وتحكم وجهته بصرامة، حيث لا يستطيع أن يعدل عنها، أو يخرج عليها، فإذا حاد عنها تعرض للخطر، بينما السنن التي تحكم قضايا الإنسان هي أقرب لحركة السيارة التي تحدد الاتجاه والهدف، ويمتلك السائق معها حرية الحركة أكثر في الوصول إلى غايته.. وكل محكوم باتجاه، وإن اختلفت طبيعة ومدى حركته.

لذلك نرى علماء وفلاسفة الاجتماع والحضارة، الذين حاولوا وضع قوانين وسنناً للدورات الحضارية، وأسباباً للبناء الحضاري، لم يتمكنوا من الوصول إلى الحتمية على الرغم من إن دراساتهم ذات قيمة علمية رفيعة، إلا أنها لم تتسم بالصرامة والدقة التي خططت للمادة الصماء، ولا نزال نسمع بالتفسير المادي، والنفسي، والسياسي، والاقتصادي، والمذهبي، والقومي، والقبلي، والديني... للتاريخ، والتاريخ ثمرة لذلك كله، وإن تفوق بعض العوامل في بعض الظروف.. ونستطيع أن نقول باطمئنان: بأن سنتهم

وقوانينهم وحساباتهم لم تنطبق تماماً على الحضارة الإسلامية التي كانت ولا تزال عصية على تلك القوانين بشكل صارم، وإن خضعت لها في بعض الجوانب^١. إن الحقيقة التي أكدتها التجارب البشرية المتطاولة، والنتائج التي انتهت إليها تواريخ الكثير من الشعوب، فضلاً عن أن المفهوم الحديث لفلسفة التاريخ يقضي إن التاريخ تحكمه قوانين نوعية تخضع لها كل المجتمعات على السواء، وهي نقطة خلافية. بعض الكتاب يشك في أمر هذه القوانين، وفي قضية التكرار في التاريخ.. ولكننا هنا لسنا بصدد عرض هذه الاتجاهات، وإنما نحاول أن نفهم ما في القرآن من أمر «الفطرة» و«السنن» بمفهومها القرآني دراسة وتطبيقاً^٢ مقتصرين الحديث - لأسباب منهجية تتعلق بسياق البحث - في نطاق الانهيار الحضاري تحديداً.

الانهيار الحضاري:

جدلية الشكل والمضمون:

يؤكد «ابن خلدون» ومن بعده «زوالد شبنغلر» و«آرنولد توينبي» على سقوط الحضارات، وفق الهرم الطبيعي الذي تحدثوا عنه كثيراً في مؤلفاتهم^٣. هذه الظاهرة، ظاهرة السقوط الحضاري، كيف عبر عنها القرآن الكريم، وكيف رصدها فلاسفة التاريخ والحضارة؟ وما هي أسبابها؟ وقبل هذا وذاك ما هو موقعها من موضوع السنن...؟

بادئ ذي بدء، بالامكان تجاوز اشكالية المصطلح الذي يتردد كثيراً في أدبيات الغرب، عبر مشروعية توظيف المصطلح، بغية استجلاء حقيقة انهيار الحضارات، كما يرصدها فلاسفة الغرب، وتشهد عليها الأدلة والشواهد.

وعلى ذكر اشكالية المصطلح، فإن هناك عدّة استخدامات له، وهي أشبه ما تكون بالألفاظ المترادفة (لغويًا)، مثل: الانهيار الحضاري، السقوط الحضاري، التدهور الحضاري، الانحطاط الحضاري... وعلى أية حال نحاول - قدر الإمكان - تجنب ائقال

(١) عمر عبيد حسنة؛ م.س: ١١.

(٢) د. عبدالعزيز كامل؛ م.س: ٤٩.

(٣) محمد إقبال عروي؛ «انهيار الحضارات في الأدب العربي»، مجلة «المسلم المعاصر»، س ١١، ع ٤٤ (شوال

- ذو الحجة ١٤٠٥ هـ)، ص: ٦٧.

الموضوع بالتعاريف وتشابكها، ونقدم على توظيف المصطلحات وندرسها في شمولية معانيها بدون خصوصيات ألفاظها وضيق دلالاتها، على حد تعبير الأستاذ محمد هيشور^(١). والثابت من الناحية التاريخية، أن ظهور أية حضارة لم يكن تلقائياً بل كانت له أسباب وعوامل. هذه الأسباب هي ما نقصده بالسنن. وهو ما اختلفت فيه آراء الفلاسفة والمفكرين. وهناك أمم ومجتمعات لم تعرف التحضر وما زالت تعيش مرحلة ما قبل الحضارة لعدم أخذها بالسنن الربانية في التحضر وعدم توفيرها لعوامل التحضر، وهي ما يطلق عليه مصطلح المجتمعات البدائية^(٢).

الملاحظ أن كثيراً من النظريات الغربية، في مجال الدراسات الاجتماعية التاريخية تخلط بين عوامل قيام الحضارات وتكوينها، وعوامل تطورها وازدهارها، كعامل الاقتصادي والسياسي.

غير أن معظم مذاهب التفسير الغربي للتاريخ تكاد تجمع على القول بحتمية سقوط الدول والحضارات بشكل أو بآخر. فتويني - مثلاً - درس مصير احدى وعشرين حضارة من مجموع ست وعشرين حضارة تضمنت كل منها العديد من التجارب السياسية والدول، وانتهى بها الأمر إلى التدهور والسقوط، لأنها كانت تجد نفسها في نهاية المسيرة عاجزة عن الاستجابة للتحديات الداخلية والخارجية، فتقف أمام مصير محتوم وتنطوي صفحاتها في التاريخ.

أما ماركس فيخضع حركة التاريخ بدولها وحضارتها وتجاربها لحتمية وسائل الانتاج وانعكاساتها على الظروف، وإن كل وضع تاريخي مآله الزوال بمجرد التبدل الديناميكي الدائم. ثم ما يلبث ماركس أن يقع في تناقض أساسي مع نظريته، حينما يقرر الدوام والثبات لمرحلة حكم طبقة البروليتاريا العاملة حيث لا زوال بعدها^(٣).

إن السقوط المريع للبناء الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية، دليل جديد بعد تجربة أكثر من نصف قرن، على سقوط الحتميات وقوانينها التي حاول فلاسفتها

(١) محمد هيشور؛ م. س: ٤٨.

(٢) مالك بن نبي؛ «ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية»: ٥٠.

(٣) محمد هيشور؛ م. س: ١٥٤.

أن يخضعوا البشر لها، كما أخضعت المادة^(١).

وفي ضوء عجز النظريات الوضعية عن تقديم تفسير متماسك ورزين، فإن الذي يحسم الموقف هو التفسير القرآني، لأنه يطرح ازاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ما يمكن تسميته بـ«الحتمية التفاضلية»، ويقرر حتمية السقوط، وفي الوقت نفسه امكانية أية أمة أن تعود باستمرار لكي تنشيء دولة أو حضارة أخرى تمارس تجربة جديدة أو تتولى زمام القيادة الحضارية، بمجرد استكمالها الشروط اللازمة لذلك وهي عملية التغيير الذاتي الداخلي والاعداد الكلي الشمولي.. ولقد تعرضت فكرة الحتمية التفاضلية هي الأخرى لعدة انتقادات^(٢).

ورغم ذلك، فإن ممّا لا شك فيه أن معطيات الوحي، في الكتاب والسنة، تضمنت خلاصة السنن التي تحكم الحياة والأحياء، بما عرضت له من القصص القرآني، عن نهوض الأمم والحضارات وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، بشكل أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية، التي تحكم عالم المادة، ليعتبر أولو الأبصار. لكن إلى أي مدى يمكننا القول: بأن السنن التي تحكم النفس والمجتمع هي بنفس الدقة والصرامة التي تخضع لها المادة الصماء، التي لا خيار لها، كما يخضع لها الحيوان الأعجم المدفوع بالغريزة، والجانب المادي في الانسان نفسه؟ وإلى أي مدى يُمكن أن تتحكم بالانسان الحر المختار، الذي يخضع في مسالكه وحركته لكثير من الظروف والتغيرات والمؤثرات؟

فالانسان والواقع الانساني، يختلف في طبيعته عن الواقع الكوني المادي، من حيث صرامة السنن والقوانين، التي تحكم سيرورته، ولذلك يمكن القول: بأن كشف القوانين والسنن، التي تحكم المادة الصماء والكون المادي تثمر المعرفة اليقينية؟ وعلى ضوءها يتعامل الانسان مع الكون في جهوده التي يبذلها في تسخيرها لمصلحته، لكن الانسان والواقع الانساني ليس منضبطاً كواقع المادة، فالعنصر الروحي في تكوين الانسان والارادة الحرة جعل هذا الواقع يتصف بكثير من الخفاء والغموض في العوامل والأسباب، التي تنشأ عنها الظواهر السلوكية، الأمر الذي يجعله عصياً عن الفهم اليقيني، والاطراد الصارم،

(١) عمر عبيد حسنة؛ م.س: ١١.

(٢) محمد هيشور؛ م.س: ١٥٤.

خاصة وان الانسان هو اداة التحليل ومحله في وقت واحد، بينما في اطار المادة والكون، فالانسان هو اداة التحليل، أما المحل فشيء آخر منفصل عنه.

وهذا لا يعني إن حركة الانسان، ونهوض وسقوط الحضارات، تسير بشكل عشوائي عشبي، خالية من كل قانون ثابت، بل هي محكومة بقوانين عامة تحكم توجهاتها ومساراتها العامة^١ وعلى هذا الأساس، نجد أن عرض القرآن للقطاع الانساني التاريخي السابق، والمعاصر للإسلام، يقوم على «فطرة» و«سنن» و«قوانين». فالتاريخ في الاسلام ليس تدفقاً عشوائياً ولا سلسلة من الآتيات المتتابعة غير المترابطة^٢.

.. ولو قبلنا جدلاً أن خصائص وصفات المادة والحيوان الأعجم، يمكن أن تنطبق على الانسان، لأفقدنا الانسان الكثير من حرية الحركة والاختيار، ووقعنا بلون من القدرية الرهيبة، التي تلغي انسانية الانسان، وعقله، ومسؤوليته، وتمنعه من القدرة على المداخلة والتحكم، وهو أهم ما امتاز به.. لذلك نرى أن الاعتقاد بأن معرفة السنن يحسم قضايا الخلاف في الاجتهاد، والتنوع، والاختلاف في وجهات النظر، ويؤدي إلى وحدة النظر، فيه الكثير من المجازفة والتجاوز والتداخل بين المنهج القياسي والمنهج الاستقرائي.

من جانب آخر، فإن نفاذ السنن، والتحول الاجتماعي والانساني الذي يخضع لها يتم ببطء شديد، وعمر مديد، قد يستغرق حياة الانسان، لذلك يكون من الصعوبة بمكان رصد مساراته، والتعرف على اتجاهاته بدقة في الواقع المشهود^٣.

إن المرور العابر على هذه النقطة الجوهرية، دون التوقف عندها، قد قاد البعض إلى إصدار أحكام متعجلة أو حتى مغلوطة، حول بعض الحضارات، بعيداً عن دورة السنن. وأنه لما يخدع الناس أن يروا - مثلاً - حضارة قائمة، فاجرة، ظالمة، مستكبرة مُمكنة لها في الأرض غير مأخوذة من الله بسننه وضوابطه... ولكن الناس انما يستعجلون. أنهم يرون أول الطريق أو وسطه، ولا يرون نهاية الطريق.. ونهاية الطريق لا تُرى إلا بعد أن تجيء! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث.. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع، ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفردية القصيرة - نهاية الطريق، فيخدعهم ما

(١) عمر عبيد حسنة؛ م.س: ٩ - ١٠.

(٢) د. عبدالعزيز كامل؛ م.س: ٤٥.

(٣) عمر عبيد حسنة؛ م.س: ١٠.

يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق!^١
ولقد يُقال: إن أماً لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل. وهي مع ذلك قويّة ثرية باقية. وهذا وهم. فلا بد من بقية خير في هذه الأمم. ولو كان هو خير العمارة للأرض، وخير العدل في حدوده الضيقة بين أبنائها، وخير الإصلاح المادي والاحسان المحدود بحدودها. فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها فلا تبقي فيها من الخير بقية. ثم تنتهي حتماً إلى المصير المعلوم. إن سنة الله لا تتخلف. ولكل أمة أجل معلوم^٢: ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾^٣، ﴿لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾^٤.

نلاحظ في هاتين الآيتين الكريميتين أن الأجل أضيف إلى الأمة، إلى الوجود المجموعي للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات، أو ذاك الفرد بالذات. اذن هناك وراء الأجل المحدود المحتوم لكل انسان بوصفه الفردي، هناك أجل آخر وميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد، للأمة بوصفها مجتمعاً يُنشيء ما بين أفرادها العلاقات والصلات القائمة على مجموعة من الأفكار والمبادئ المسندة بمجموعة من القوى والقابليات. هذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالأمة، هذا له أجل. له موت. له حياة. له حركة. كما أن الفرد يتحرك فيكون حياً ثم يموت، كذلك الأمة تكون حية ثم تموت. وكما أن موت الفرد يخضع لأجل ولقانون ولناموس، كذلك الأمم لها آجالها المضبوطة، وهناك نواميس تحدد لكل أمة هذا الأجل^٥.

والسؤال المطروح هو: كيف يمكن الوصول إلى نظرة أو رؤية دقيقة لنعلل في ضوءها كيفية سقوط الحضارات وزوال الأمم والامبراطوريات، ونعلل أسباب تقلبات التاريخ؟ إن أقدم نص تطرق إلى هذه المسألة هو القرآن الكريم. ولعل ما يقصد بالسقوط الحضاري، من خلال القرآن، ليس هو دائماً زوال الأمم من الوجود وفناء أفرادها في العدم، ولكن ما يعني بالسقوط الحضاري هو الانهيار الداخلي للمجتمعات وذهاب قوة الأمم

(١) سيّد قطب: «في ظلال القرآن» ١٠٣: ٣ (بشيء يسير من التصرف).

(٢) المرجع السابق: ٤: ٢١٢٦.

(٣) الحجر: ٥.

(٤) الأعراف: ٣٤.

(٥) السيد محمد باقر الصدر: م. س: ٤٥.

وعزّتها وهوانها على الأمم الأخرى، ذلك عندما تذوب في غيرها وتنمحي شخصيتها المعنوية والروحية، وهذا ما هو كائن في حياة الأمم التي سقطت حضاراتها. والثابت في تاريخ الانسانية أن الأمم التي شهدت تلك الامبراطوريات والحضارات الغابرة لم ينقرض نجمها ويندثر كيانها البشري كليّة، وانما ضعفت واستكانت، وغاب تأثيرها المباشر في مسرح الحياة الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فاستوعبتها حضارات أمم أخرى هي أشد وأبقى، حتى صارت جزءاً منها لا ينفصل، وأنشئت على أنقاض كيانها الحضاري حضارات جديدة تسلمت علم الريادة ووساد السيادة.

ولعل أوضح مثال تطبيقي في هذه النقطة، هو حضارة العرب البائدة كعاد وثمود الذين بلغوا شأناً عظيماً في التحضّر، حكى القرآن الكريم بعضه للاعتبار، ودلّت عليه بقايا الدهر وأبحاث التاريخ. والثابت أن هؤلاء العرب العاربة وغيرهم من الامم الهالكة لم يستأصلوا استئصالاً كليّاً تاماً، وأنما أهلك الله الظالمين والكافرين منهم وأنجى رسلهم والذين آمنوا منهم، ليستمروا في عمارة الحياة^١.

وهكذا نجد أن المجتمع الانساني يُصاب بالضعف والمرض والانحلال، كما يُصاب الجسم البشري بمثل هذه العاهات، وأن أول نسيج اجتماعي - في غالب الأحيان - يُصاب بالمرض والانهيار هو النسيج الفكري والعقائدي ثم العلاقات السلوكية والأخلاقية، فالأجهزة والمؤسسات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية كالعائلة والدولة والمدرسة والصحافة... الخ.

وعندما يبدأ الجهاز الفكري، والعلاقات الفكرية التي هي روح الحضارة بالضعف والانحلال تبدأ بنية المجتمع بالفساد والانهيار، كلما اتسع نطاق الانحراف الاجتماعي، وازداد عدد الأفراد الجانحين لهذا الانحراف، ثم يبدأ المرض الاجتماعي يسري إلى الوحدات الاجتماعية الأخرى، ليمتد إلى الأجهزة والمؤسسات الاجتماعية المختلفة التي يساهم الأفراد في بنائها، باعتبارها مجعاً للنشاط الاجتماعي، من جهة، ولأنها تعكس روح الجماعة وطبيعتها الحضارية، من جهة أخرى. وعندما يستفحل المرض في هذه المؤسسات تبدأ بالعمل المعاكس، فتبدأ دورة المرض مسيرتها من المؤسسات إلى الأفراد الآخرين لتصبح الظواهر المرضية في المجتمع تياراً اجتماعياً وسلوكاً عاماً يلف الأفراد

(١) محمد هيشور؛ م.س: ٢١٩.

ويصهرهم، وقد تصاب المجتمعات البشرية بالأمراض الحضارية، وهي في عنفوان رقيها المدني، وقمة تقدمها العلمي^١.

وأفة الحضارات الجانحة التي نقرأ عنها في بطون التاريخ، أو نجد بقاياها وأطلالها منثورة على جنبات الأرض هي الفساد أو الافساد في الأرض بكافة أشكاله وأنواعه:

- فساد العقيدة - الشرك -

- فساد العاقلات بين أفراد الأمة بترك التوادد والتعاون، ممّا يؤدي إلى العداء والتباغض ثم الظلم.

- فساد النفوس بالغرور والتكبر والعجب، وهذا هو الفساد الذي ظل القرآن الكريم يكرّر الحديث عنه، ويكثر التحذير منه، ويلفت نظر الانسان إلى مغبات التورط في أسبابه، وينبه إلى الرزايا والمصائب التي لا بد أن يتحملها الانسان على أعقابها، وما فسدت هذه الارض، يوماً ما، بعادية من عوادي الطبيعة ولا بسوء آخر ألم بها من هياج الحيوانات والوحوش، وإنما استشرى فيها الفساد وألم بها البلاء يوم تاه بنو الانسان وخرجوا عن هداياتهم وطبيعتهم وحقيقة خصائصهم البشرية. فتأله الأقوياء وذلل الضعفاء. وخرج بذلك كل فريق عن حدود انسانيته، ذلك نحو التعالي والتجبر في الأرض وذلك نحو الخنوع، فتمت بذلك قصة الفساد في الأرض، وهي قصة قديمة تتكرر أسبابها أو عواملها في الانسان ذاته.

أما عن كيفية سقوط الحضارات ودمار الأمم والمجتمعات، فنجد أن أدق العلل وأصغرها، قد تؤدي إلى أعظم النتائج وأخطرها، ويعد عدم وجود صلة ظاهرة منظورة بين صغير العلل وعظيم النتائج من أكثر الحوادث نجاحاً في حياة الأمم وتبدل ظروفها الحضارية سياسياً واجتماعياً.

ولذا كان مبدأ العلة أو السببية من أكبر القضايا الفلسفية التي شغلت المفكرين، وفلاسفة التاريخ والاجتماع، والعلّة هي حادث يؤدي إلى حادث آخر أو مجموعة من الحوادث تتراكم في شبكة واحدة ذات اتجاه معيّن، حتى تولّد عاملاً قد يكون له دور في تغيير وجه من أوجه الحياة أو تغيير مسار التاريخ كلّ.

والثابت تاريخياً أنه ما انتصرت أمة أو انهزمت إلا بفعل العوامل والأسباب الداخلية. وما العوامل الخارجية إلا متممة ومكملة للداخلية... وإن كان كثير من المؤرخين والمفكرين

(١) مؤسسة البلاغ: «لماذا السقوط الحضاري»: ٢٠ - ٢١.

يميلون إلى الاهتمام بدور الأسباب المباشرة والعوامل الخارجية الظاهرة في دراسة الاحداث التاريخية والتبدلات الاجتماعية والسياسة والتقلبات الحضارية .
وقليل من أولئك المؤرخين والمفكرين والعلماء الذين غاصوا في أعماق الأحداث ،
وتقصوا أبعادها داخل النفوس ، ليميط اللثام عن الأسباب الداخلية الكامنة والعوامل الخفية
اللامباشرة ، والعوامل الخارجية المباشرة ما هي إلا نتيجة للعوامل الذاتية الداخلية ، ونقطة
أخيرة في سلسلة من الحوادث والتأثيرات ، وهي الحادث المعجل لحدوث الأمر الأخير ،
كما يعمل سقوط عود الثقاب الكبرى على كومة من الحطب هشة قابلة للاشتعال ^(١) .

مدارس تفسير سقوط الحضارات :

ولهذا ، نجد ثمة تبايناً ، في تفسير سقوط الحضارات ، بين مدرسة وأخرى . فهناك
المدرسة الدينية التي تقول أنك بمقدار ما تبتعد عن الله يبتعد الله عنك وتسقط حضارتك .
وهناك المدرسة الاقتصادية التي بدأها انجلز وماركس ثم أسسها لينين . والمدرسة الثالثة
هي ما يُسمّى بمدرسة الابداع ، والمدرسة الرابعة هي مدرسة توينبي في التحدي
والاستجابة ^(٢) ولا مندوحة من استعراض سريع لأبرز هذه التفسيرات :

المدرسة الماركسية :

يتكوّن تصوّر الماركسي للحضارة من شقين أساسيين : «المادية الجدلية» و«المادية
التاريخية» . فبينما تتضمن المادية الجدلية النظرة الفلسفية العلمية للعالم ، فإن المادية
التاريخية هي الفكر الذي يدرس القوانين العامة للتطور الاجتماعي الحضاري التاريخي ،
وأشكال تحقيقه في نشاط الناس .

ويذهب كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) إلى أنه ينبغي ألا نبحث في النظرة المثالية
للتاريخ عن مقولة ، بل تبقى دائماً على الأرض الحقيقة للتاريخ وهي المادة ، فلا نشرح
الممارسة عن طريق الفكرة ، بل نشرح كيف تتكون الأفكار من الممارسة المادية . والثورة
هي القوى الدافعة للتاريخ ، وأنها القوى الدافعة للدين والفلسفة وكل الأنماط

(١) محمد هيشور : م . س : ٢٢١ .

(٢) يُراجع الحوار مع الدكتور عدنان بخيت في مجلة التوحيد (قم) ، س ١٣ ، ع ٧٥ (ذو القعدة ١٤١٥هـ - نيسان
١٩٩٥م) ، ص ١٥٧ وما بعدها .

الأخرى ، وما دام الصراع بين «البروليتاريا» و«البرجوازية» هو صراع طبقة ضد طبقة فإن الصراع الذي يصل إلى أعلى تعبيره هو الثورة الشاملة .

أما عن سقوط الحضارات فيرى كارل ماركس أنه يتم بتسلط طبقي جديد يبلغ ذروته في سلطة سياسية جديدة ، أي أن أول عامل من عوامل سقوط الحضارة عند ماركس هو تسلط طبقة السلطة السياسية على المجتمع ، وليس تاريخ كل مجتمع من قديم العصور حتى يومنا هذا سوى تاريخ صراع الطبقات ، فالحر والعبد ، والسيد والقطاعي والمعلم ، وباختصار المضطهدون والمضطهَدون قد كانوا على مر التاريخ يخوضون غمار حرب مستمرة ظاهرة تارة ومستترة تارة أخرى . حرب انتهت في كل مرة بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره ، إما بدمار الطبقتين المتصارعتين ، وإما بدمار طبقة الجماهير وتسلط الطبقة الغلّة ، وهذا ما نجده في المجتمع الروماني في العصور الأولى من التاريخ ، حيث نرى النبلاء ثم الفرسان يسيطرون على الحياة ، وفي القرون الوسطى نجد الاقطاعيين الأسياد ثم المعلمين ثم الصناع ، والمجتمع البرجوازي الحديث نشأ على انقراض المجتمع الاقطاعي ، فانه لم يقض على هذا التناحر بين الطبقات بل لم يفعل سوى تدمير طبقة وتكوين واقامة طبقات جديدة بدلاً من الطبقات القديمة .

وماركس ليس هو مبدع نظرية الصراع الطبقي التي هي القوة المحركة للتاريخ واحداث التغييرات الاجتماعية ، ولا مكتشف الجدلية التي هي تعبير يتلخص في أن كل شيء يعيش في صراع وتفاعل مع ذاته ، فتتآكل وتفنى بذلك ظواهر الحياة القديمة ، وتنشأ على أعقابها ظواهر أخرى أكثر غناء وتعقيداً ، لا تلبث هذه الظواهر الجديدة أن تبلى وتتلاشى هي الأخرى في رحى هذا الصراع المستمر لتقوم على حطامها ظواهر أخرى أكثر جدّة وقوّة وغناء .. وهكذا دواليك .

ومن السهل علينا أن نتخيّل شيئاً ما أو أشياء كلها تتطور تحت سلطان هذا التفاعل والهيّاج الداخلي متجهة دائماً نحو الأفضل والأرقى ، ولكن ما مدى تطابق هذا الخيال مع الواقع ؟ وأين مصداق ذلك كلّ في التجربة والمشاهدة ؟ وينبغي أن يثبت هذا الادعاء بدليل استقراء كلّ تام أن ظاهرة هذا الصراع تنتهي في السير نحو الأفضل والأرقى ويكون ذلك طابع الموجودات كلّها ، ولعل الثابت حقاً بالمشاهدة الواقعية والمعاشة اليومية هو إن الكائنات تتطور نحو الذبول والانهيّار لا نحو الصعود والبقاء ، فالأمر إذن عكس ما تخيله

أصحاب الفكر الجدلي والثابت كذلك عند علماء الفلك والطبيعة أن مادة الكون الصلبة في مجموعها آخذة في الانحلال والاضمحلال، في أثناء تحولها إلى شعاع، ويصدق هذا القانون نفسه على حياة الانسان وجسمه، وعلى نسيج الخلايا في كل شيء حي، فالأجسام الحية لا تفتأ تقوم بوظيفة الحياة، وتستمر عملية التجديد والتوريث فيه إلى ميقات محدود، ثم لا تلبث أجهزة الجسم أن تتقاصر عن أداء وظيفتها فتتناقص الحرارة فيه، وتعجز الأجهزة عن استخراج الحرارة اللازمة للجسد والخلايا به، ثم ينتهي ذلك بوقوف كل شيء عن أداء وظيفته التي كان دائماً قائماً عليها، حيث لا بد أن يتحقق الموت الذي لا مفر منه. ثم إذا كان الصراع الذي أساسه الحقد والعداء قائماً بين الطبقات والأفراد، فكيف يمكن للناس أن يتجمعوا ليقوموا الحضارة أو المدينة...؟!

ومن هنا غدت فكرة الصراع الطبقي في بناء المجتمعات وتحقيق العدالة فكرة مرفوضة، لأنها لا تقدّم تحليلاً كلياً متناسقاً متكاملًا، كما أنها فكرة لا تستطيع التصدي لتفسير التطور التاريخي، فضلاً على أنه لا يمكن قبولها تاريخياً، لأن التاريخ سجل حافل بالأمثلة والحقائق التي تناقضها^١.

مدرسة الابداع:

ويمثلها الفيلسوف والمؤرخ اسوالد شبنغلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦م)، في كتابه الشهير الذي ذاع صيته بسببه «تدهور الحضارة الغربية»، والذي يعد من أهم بل أهم كتب الفلسفة التاريخية التي ظهرت في القرن العشرين^٢ صدر الكتاب في جزئين بين عامي ١٩١٨ - ١٩٢٢ وبعد نشر ترجمته ١٩٢٦ - ١٩٢٨ حاز على شهرة عالمية واسعة، حيث اعتبرت نظرياته في بعض الدوائر الغربية مساهمة رئيسية في النظرية الاجتماعية.

وذهب شبنغلر إلى القول بأن لكل حضارة روحها المستقلة الخاصة بها، والتي لا يمكن تقمصها أو نقلها إلى حضارة أخرى^٣ فلكل أمة صورتها الخاصة المميزة لها عن بقية الأمم، ولهذا نجد الاختلاف بالتباين بين الأمم وفي الحضارات سواء بسواء، كما أن هناك حواجز

(١) محمد هيشور؛ م.س: ٩٣ - ٩٤.

(٢) صحيفة الحياة: ٩/٣ / ١٩٩٣.

(٣) د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون؛ «موسوعة السياسة»، ٣: ٤٣٧ (مادة شبنغلر).

وفوارق بين الأمم والحضارات^١.

وهنا يقف شبنغلر من الشعوب موقف علم النفس الحديث من الأفراد، فكما أن علم النفس الحديث يؤمن بعلم نفس الفروقات الفردية فإن شبنغلر يؤمن بعلم الحضارات الفردية أو تاريخ الفروقات الفردية للحضارات. وهذا سبق نفسي وحضاري وتاريخي^٢. وفي ضوء رؤيته لفلسفة الوجود العقلي والوجداني أو الروحي للانسان يرى شبنغلر أن العناية يجب أن تتجه إلى الناحية الذاتية في الحضارة وهي الأفراد والشعوب أكثر من اتجاهها إلى المشاكل الموضوعية والآثار الناتجة عن العلوم والفنون.

ومن هنا يخلص شبنغلر إلى التمييز بين الطبيعة والتاريخ، ويرى أن التاريخ مطبوع بطابع الحدوث والاستمرارية. أما الطبيعة فهي ذات نظام ثابت يكون مجموعة حقائق وقوانين، أما التاريخ فيقوم على وقائع وأحداث تتابع في صيرورة نتيجة دوافع أو لعوامل داخلية وخارجية ناتجة عن أفعال الانسان وأخلاقه وتصرفاته، وهكذا تختلف «متى» عن «كيف».

ومن ثنائيات الحياة هذه والمقارنة بين الثابت والمتغير فيها، يستنبط شبنغلر منهجه التاريخي لدراسة الحضارات والأمم، ويرى أنه من التناقض دراسة التاريخ بمنهج الطبيعة الذي هو العلم، وإنما للتاريخ منهج آخر هو ما يسميه شبنغلر باسم «التوسم»، لأن الدارس للتاريخ المعلل لأحداثه يقوم بتوسم الملامح وقراءة «السيما»، فيتخذ من ملامح الحوادث رموزاً للروح التي أبرزتها ومن الآثار الباقية آيات على حياة تركتها، ومن المظاهر المختلفة شاهد حياة تلك الأمة أو المجتمع المدروس، والتوسم أشبه ما يكون بفن تصوير الشخصيات تصويراً روحياً.

ومنهج «التوسم» هذا عند شبنغلر، لعل فيه ما يشبه الدعوة في القرآن، للتأمل والاعتبار، لاستخلاص الحكم والدروس واكتشاف سنن الله في الوجود^٣ مؤكداً أن للحضارات دورة حياة كاملة (نشوء - ازدهار - احتضار)، وعليه فإن بإمكان المؤرخ أن لا يعيد بناء التاريخ وحسب، بل يستطيع أن يتنبأ بالأشكال والبنى الروحية، وبالايقاع والمدى الزمني

(١) محمد هيشور؛ م.س: ٩٥.

(٢) صحيفة الحياة؛ م.س.

(٣) محمد هيشور؛ م.س: ٩٧.

وبالمعنى والنتاج بالنسبة للمراحل القادمة للحضارات التي هي في طور الصيرورة^١. ولما كان شبنغلر يؤمن بالشخصية الحضارية للأمة الواحدة وبفردية الحضارة، فمعنى ذلك أنه لا يمكن أن تنتقل الحضارة من أمة إلى أمة، لأنها تموت مع الأمة نفسها. فحضارة اليونان ماتت مع اليونان، وحضارة العرب ذهبت معهم، وحضارة الفرس ذهبت بذهابهم، وكلمة وراثه حضارية أو أخذ الحضارات عن بعضها أو استمرار حضارة في حضارة أخرى.. كلها عبارات لا معنى لها ولا قيمة لها بالنسبة إلى شبنغلر.

الحضارة تموت كما أن الفرد يموت. وعندما يموت الفرد يأتي بعده أفراد غيره ويزول هو إلى الأبد. أما ما زعم المؤرخون من أن أمة «ما» تراث حضارة أمة أخرى، كما فعل الرومان والعرب باليونان، ففي نظر شبنغلر رأي مغلوط، لأن الرومان والعرب لهما روحهما الحضارية، ولم يرثا الروح الحضارية لليونان، بل ورثا المدنية بمعنى العلوم والتقنيات والأشكال المادية، أما الروح الحضارية لليونان فقد ذهبت بذهابهم^٢.

ويستخلص من تصوّر شبنغلر عن الحضارة أن فكرة المصير الذي يعني به تلك الضرورة الباطنية غير القابلة للوصف هي التي تحرك التاريخ.. وفي رأي شبنغلر أن كل المفكرين قد أساءوا فهم فكرة المصير اساءة كاملة، ولعل السبب كونها فكرة غير قابلة للرؤية، وغير قادرة على الوجود المادي المترجم أمام الناس.

وكانت آراء شبنغلر محل نقد شديد من فلاسفة التاريخ والحضارة في الغرب، فعدل عن بعض آرائه نتيجة لهذا النقد، ولكن صلب رؤيته ظل قائماً، ويمكن أن يتخلص نقده في رأي أحد تلاميذه، عندما ذهب إلى أن هذه الرؤية «الشبنغلرية»... تمكننا من الحكم على مستقبل أية حضارة بدراسة ما قطعته من أطوار حياتها، فتعرف ما بقي من عمرها^٣.

مدرسة توينبي :

آرنولد توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٦م) مؤرخ وفيلسوف تاريخ بريطاني، ولعله أكبر المؤرخين العالميين المعاصرين وأغزرهم علماً وإنتاجاً، وأوسعهم شهرة. وما تجدر الإشارة إليه تأثره بالمؤرخ البريطاني «توماس كارليل»، الذي ركّز على أهمية دور البطل

(١) د. عبد الوهاب الكيالي؛ م. س.

(٢) بشي، يسير جداً من التصرف؛ صحيفة الحياة؛ م. س.

(٣) نقلاً عن سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها؛ م. س. : ١٠٠.

في التاريخ، فيما عارض توينبي كلاً من نظرة «اسوالد شبنغلر» القائلة بأن المجتمعات هي كالكائنات الحيّة، ونظرة «ادوارد غيبون» بأن سقوط الامبراطورية الرومانية كان بفعل الهجمات الخارجية.

درس توينبي تاريخ البشرية دراسة عامة، واستنتج أن التاريخ يتكون من سلسلة من التجارب والأحداث يصل كل منها إلى قمته في صورة حضارة قائمة^١ وقد بدأ توينبي في دراسته من تصحيح وحدة الدراسة التاريخية ومنطقاتها، فيرفض المفاهيم التجزيئية، كالحتمية التاريخية، والدول القومية كوحدات منفصلة، ويعتمد الحضارة كأساس للوحدة التاريخية، وهو يقسم التاريخ إلى ٢١ حضارة متطورة وخمس حضارات «متوقفة» أو «جامدة»، ثم يدرس تطور هذه الحضارات ويقارن فيما بينها، محاولاً اكتشاف قوانين النشوء والنمو والانحلال الحضاري. ويرى توينبي أن بداية النمو الحضاري تظهر على شكل استجابة لتحدي ما في البيئة^٢.

ومن هنا تولدت نظرية التحدي والاستجابة لدى توينبي التي تعتبر أم أفكاره وركيزة آرائه في ميدان الدراسات التاريخية وبحث شؤون الحضارات والأمم^٣ مفسراً بها حركة الحضارات قياماً ونمواً وتدهوراً وسقوطاً وانحلالاً. فحيثما كان التحدي البيئي أو البشري مناسباً في حجمه لمقدرة الجماعة البشرية، وحيثما كانت الجماعة في وضع تاريخي يمكنها من الرد على التحدي، حيثما كان للحضارة أن تتقدم وللحركة أن تواصل مساعيها لإيصال المعطيات الحضارية إلى قمة منحناها. وبالعكس تؤول الحركة إلى التعثر، والحضارة إلى الانتكاس، حيثما جاء «التحدي» دون، أو أعلى، من الحد المناسب، أو عجزت الجماعة عن الاستجابة له والرد عليه بقدر كافٍ من القوة والفاعلية^٤.

وبهذا يُجمل توينبي طبيعة الانهيار الحضاري في ثلاث نقاط:

الأولى: اخفاق الطاقة الابداعية في الأقلية المبدعة، وتحوّل هذه الأقلية - بعد اخفاقها - إلى أقلية مسيطرة.

(١) د. حسين مؤنس؛ «التاريخ والمؤرخون»: ١٧٧ (نقلاً عن المرجع السابق: ١٠٣).

(٢) موسوعة السياسة ١: ٨٣٣ (مادة: توينبي، آرنولد).

(٣) محمد هيشور؛ م. س: ١٠٣.

(٤) د. عماد الدين خليل؛ م. س: ٢٢٢.

الثانية: ردّ الأغلبية على تحكّم الأقلية بسحبها ولاءها والعدول عن محاكاتها.

الثالثة: ضياع وحدة المجتمع الاجتماعية^١.

وعن ارهاصات الانحطاط الحضاري يقول توينبي: «عندما تنحط الأقلية الخلافة في تاريخ أي مجتمع من المجتمعات إلى أقلية مهيمنة تحاول أن تحافظ بالقوة على مركز لم تعد تستأهله، هذا التبدّل الهدّام في طبيعة العنصر الحاكم يحفز البروليتاريا (الأكثرية) على الانفصال عنه والتخلي عن تلقائيتها وحريتها في الانجذاب إليه ومحاكاته، ويدفعها استكراهاها على طاعته، والمنزلة الوضعية الجافية التي أنزلها فيها، إلى الارتداد عليه والثورة ضده. وتنشعب هذه البروليتاريا إذ تنتفض لتأكيد وجودها إلى طائفتين (البروليتاريا الداخلية) و(البروليتاريا الخارجية) المكونة من (البرابرة) الذين أخذوا يقاومون الآن، عبر الحدود، الانضمام إلى الحضارة المنهارة مقاومة عنيفة. وهكذا يشكل سقوط الحضارة طبقة محاربة داخل مجتمع واحد لم يكن كيانه في دور النمو الحضاري منقسماً على ذاته انقسامات حادة ولا منفصلاً عن جيرانه بأبعاد لا يمكن عبورها^٢.

وبيّن توينبي في دراسته كيف أن انحلال الحضارات يرافقه فساد يدبّ في أرواح الناس، وتغيير جذري يطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلّها، ويحل محل الصفات الباهرة والقوى المبدعة التي كانت تزخر بها ذواتهم في دور النمو الحضاري، ثنائية من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة.. وفي هذا الدور يتعرّى الفساد الروحي أيضاً عن فوضوية تعم الأخلاق والعادات، وانحطاط يسود الآداب والفنون واللغات، ومحاولات عقيمة للتوفيق بين الديانات المختلفة^٣.

وفي معرض نقضه لآراء شبنغلر، يقدّم توينبي تصورات مختلفة عن تصورات شبنغلر في شرح قضايا الحضارات والتاريخ مستفيداً من أخطائه، واستخدم توينبي المنهج التجريبي، ووقف على أسباب نشأة الحضارات وأسباب تدهورها، من خلال دراسته لواحد وعشرين حضارة.

(١) تُنظر مراجعة فؤاد محمد شبل لأطروحة آرنولد توينبي: «دراسة للتاريخ» المنشورة في موسوعة «تراث الإنسانية» ٥: ٣٣٣.

(٢) نقلاً عن كتاب «التفسير الاسلامي للتاريخ» م.س: ٨٥.

(٣) المرجع السابق: ٨٧-٨٨.

وبهذا غلبت الواقعية والموضوعية على آرائه ، عندما أدرك أن كثيراً من الحضارات أُنشئت أو تدهورت بأسباب مختلفة ، وتحت عوامل متفرقة . فشبهنغر تغلب عليه النظرة التشاؤمية أو فكرة السقوط الحتمي ، بينما توينبي يرى أن الحضارات تفنى كأفراد ودول ولكنها لا تفنى كقيم ومبادئ وتاريخ . . ويعترف توينبي أن جل الدول والحضارات قد اندثرت بعد عصور ، لما ارتكبت من حماقات وأخطاء ، وأن الدهر لا يشفع للحضارات المنحرفة مهما كان فضلها على الإنسانية ، ما دامت أخذت بعوامل السقوط والتدهور ، وإن استعصت على عوامل الفناء لقوة ذاتية مدّة من الزمان .

وبدیهي أن سقوط حضارة لا يحدث طرفة واحدة بل قد يأخذ فترة من الزمان ، ويمتد دهرًا قد يطول حتى يعد بالقرون ، وهذه ظاهرة معروفة في تاريخ الحضارات .

وقد يكون توينبي هو المؤرخ أو الفيلسوف الوحيد من فلاسفة التاريخ والحضارة في الغرب الذي اعتمد معظم العوامل والبواعث في تفسيره لحركة التاريخ الحضارية ، إلا أنه أساء تطبيق المنهج العلمي التجريبي ، حين ذهب ينتخب مجموعات من الظواهرات من الحضارات التي اختارها لدراسته الضخمة الطويلة في تاريخ البشرية ، فأخذ من كل ذلك ما يخدم افتراضاته وتصوراتهِ الذاتية المتأثرة بعدّة عوامل عقيدية وبيئية واجتماعية وتاريخية ، وعرض الشواهد بالطريقة التي تناسب ما ذهب إليه وفسرها تفسيراً يخدم الفكرة الجاهزة لديه ، مع أنه يمكن أن تكون أفضل محاولة لتفسير التاريخ ونشوء الحضارات وسقوطها لو استطاع أن يتخلص من هواه وميولاته العقيدية التاريخية ، ويلتزم جانب الحيطة والموضوعية^١ .

الى هنا استعرضنا ، بشكل مختصر ، أبرز آراء فلاسفة الحضارة في الغرب ، المتأثرين بالتجربة الغربية وامتداداتها اليونانية - خاصة لدى توينبي - محاولين تعميم استنتاجاتهم ، وتطويع تحليلاتهم لتطور الحضارات الأخرى لتناسب القوالب التي وضعوها مسبقاً . ولكن ماذا يقول المفكرون المسلمون حول سقوط الحضارات ؟

(١) عبدالحليم عويس ، «التفسير الاسلامي للتاريخ : نحو نظرية اسلامية» : ٢١ (نقلًا عن سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، م . س : ١١١) .

ابن خلدون :

يُعد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) مؤسس علم الاجتماع. ولعله كان أول من حاول تفسير وتعليل النتائج والأحداث التاريخية بالعودة إلى أسسها الاجتماعية، ونُظُم تكون الجماعات السياسية وتغيّرها مع تغيّر الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي تنشأ فيها^١.

إنّ «المقدمة» التي كتبها ابن خلدون لتاريخه الشهير «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» والتي هي عبارة عن الجزء الأول منه هي بلا شك أعظم إنتاجه الفكري، بحيث فاقت وبأسواط بعيدة كل مؤلفاته السابقة، بل غطّت عليه وكأن ابن خلدون لم يكتب غير «المقدمة»^٢.

وليست معطيات ابن خلدون أفكاراً مسطحة ذات وجه واحد، إنّما هي تمتاز بطبيعتها التركيبية.. إنّ الرجل يرفض التفسير (الواحدي) للتاريخ.. ويختار الطريق الآخر: الرؤية الشمولية للتاريخ، وتلك - بحق - ميزة من أهم ميزات مقدمته، أنّه يسلّط الأضواء على الأسباب والدوافع كافة، تلك التي تلعب دورها، بشكل أو آخر، في بنية وصيرورة الواقعة التاريخية.

ومن أجل ألا تقع في مظنة المبالغة والتعميم، يجب أن نعتزف مقدماً - يقول د. عماد الدين خليل - بأنه ليس كل ما قاله ابن خلدون صواباً.. فما أكثر الأخطاء التي تضمنتها مقدمته، وما أكثر الثغرات التي يمكن للنقد أن يتسرّب منها إلى قلب المقدمة.

ان مقولة توينبي عن سلفه المسلم في دراسته للتاريخ أمر جدير بأن يبعث الاحترام في نفوسنا للرجلين معاً: «ان ابن خلدون - يقول توينبي - قد ألهم وصاغ فلسفة للتاريخ هي بلا ريب أعظم عمل من نوعه ابتكره أي عقل في أي عصر وفي أي بلد».. ولكن لا توينبي ولا ابن خلدون قد خطر في باله يوماً ما أن بمقدور عقل بشري تقديم (انجاز) كامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. ذلك شأن معطيات الله سبحانه لا معطيات خلقه^٣.

(١) فؤاد إسحاق الخوري؛ «مذاهب الانثروبولوجيا وعبقريّة ابن خلدون»: ٣٥.

(٢) موسوعة السياسة؛ م.س - ٣: ٨١٨.

(٣) د. عماد الدين خليل؛ «حول اسلامية تفسير ابن خلدون للتاريخ»، مجلة المسلم المعاصر العدد (٣٢)،

شوال - ذو الحجة ١٤٠٢ هـ، ص ٢٥ وما بعدها.

نظر ابن خلدون إلى الناس في زمانه فوجدهم مستقطين في فئتين لا ثالث لهما هما : أهل البدو والحضر ، ثم نظر إلى هاتين الفئتين ، فرأى صفات إحداهما مخالفة للأخرى ، فتساءل عن سر هذا الاختلاف وأسبابه ، ومن هنا راح يستنبط قوانين وسنن التطور والتحول في الأمم والدول^١ وغني عن القول أن ابن خلدون كان يرى في حركة التاريخ - وقائع وسنناً - انعكاساً لمشيئة الله سبحانه وقدره في العالم^٢ .

أما عن سنن سقوط الحضارات ودمار الدول وذهاب الملك فهناك مسألتان أساسيتان في نظرية ابن خلدون طالما أكدّ عليهما وعلى ارتباطهما الوثيق بصلب هذه النظرية ، وهما الترف وحتمية السقوط .

ففي الباب الثالث من مقدمته ، الذي يتحدث فيه عن قيام الدول ونموها ثم تدهورها وسقوطها ، يورد تأكيدات مستمرة ، ومن خلال زوايا رؤية مختلفة ومتكاملة ، عن الدور الذي يلعبه الترف في دمار الدول وتفككها وانحلالها .. ويقف ابن خلدون في أماكن أخرى ، لكي يقلّب مسألة الترف على وجوها . ويتبيّن دورها في التفكك والسقوط^٣ .

ثمّة مسألة أخرى تتوجب الإشارة إليها ، وترتبط بسابقتها ارتباطاً بالنتيجة بأسبابها ، فهي ما يؤكدّه ابن خلدون من حتمية سقوط الدول ، وهو يطرح بوضوح في الباب الثالث فصلاً بعنوان (إنّ الهدم إذا نزل بالدولة لا يرتفع) ، وإذا كان الهدم نفسه أمراً طبيعياً ، يحدث في عالم الدول كما يحدث في عالم الطبيعة الحيّة ، تبين لنا أنه ما من دولة في نظرية ابن خلدون ، إلّا وهي مسوقة إلى الشيخوخة والسقوط .. نفس موقف اسوالد شبنغلر ازاء التاريخ .. إنّ الحضارة كالأشجار والحيوانات والناس تماماً مكتوب عليها أن تجتاز رحلة العمر صوب الشيخوخة والذبول .. ما من تجربة في العالم إلّا وهي تتحرك ضمن هذا الاطار المقفل : الميلاد والموت .

والواقع أن معظم مذاهب التفسير الوضعي للتاريخ تكاد تجمع - كذلك - على القول بحتمية سقوط الدول والحضارات بشكل أو بآخر . فهيجل في مثاليته يرى الناس والمجتمعات والدول في ممارساتهم وتجاربهم التاريخية كأدوات مرحلية يستخدمها العقل

(١) محمد هيشور : م . س : ١١١ .

(٢) مجلة المسلم المعاصر : م . س : ٤١ .

(٣) المرجع نفسه : ٤١ .

الكلبي في فترة زمنية محدودة، ثم لا يلبث أن يطيح بها صوب الفكرة الأحسن لكي يجيء ذلك اليوم الذي يكون التاريخ فيه، بشتى معطياته، تعبيراً كاملاً متجلياً لهذا العقل^١. وقد استعرضنا سابقاً معظم مذاهب التفسير الوضعي (الماركسي، التوينبي...) أما شينغلر الذي يمثل حلقة الوصل بين ابن خلدون وتوينبي، فقد ألمحنا إلى موقفه قبل قليل^٢.

مالك بن نبي :

يرى مالك بن نبي (١٩٠٥ - ١٩٧٣م) أن مشكلة أية حضارة تنحل في أولها ثلاث مشاكل أولية هي: مشكلة الانسان، ومشكلة الوقت، ومشكلة التراب، ولكي نقيم حضارة في تصوّر مالك بن نبي ولا نكدّس أشياء ومنتجات فلا بدّ أن تحلّ هذه المشكلات الثلاث من أساسها... ويرى مالك أنّ الحضارة تمر بثلاث مراحل :

١ - مرحلة الروح أو نقطة البداية والانطلاقة في فجر كل حضارة مع ظهور فكرة دينية، ويمكن أن توصف في هذه المرحلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوعَةٌ﴾^٣.

وفي هذه المرحلة يكون الانسان في أحسن حالاته النفسية وذا فعالية اجتماعية وتكون طاقاته الحيوية في أتم استعدادها وتنظيمها، وهذا هو العصر الذهبي للحضارة في أي مجتمع، لا لأنها في أوج ازدهارها، وإنما لأنّ الأمة تتمتع بقوة جماعية حركية.

٢ - في المرحلة الثانية تبدأ بعض المظاهر السلبية تطفو على سطح المجتمع، وتبرز بعض النقائص والانحرافات العقيدية، والعقد النفسية والمظالم الاجتماعية، وتظهر الأنانيّات، وتغلب المصالح الفردية على المصالح الجماعية... وهكذا تستفك القوى وتنقسم الحركة الاجتماعية إلى حركة مضادة وحركة تبقى في خط الاستقامة، خط العمل ومواصلة رسالة التحضّر ولعلها هي القلّة.

٣ - مرحلة التفكك النفسي وانطلاق الغرائز، وهي مرحلة أو فترة السقوط والانهايار الحضاري، وفيها لا تعود العوامل تعمل بشكل منسجم ومتناسق ومتوافق مع سنن التحضّر، بل بصورة فردية، وكلّ يعمل لحسابه الخاص. وبالجملّة فانه من خصائص هذه المرحلة

(١) المرجع نفسه: ٤٦.

(٢) المرجع نفسه: ٤٧.

(٣) الصف: ٣٠.

سيادة النزعة الفردية، وتحرر الغرائز من سلطان الأخلاق والقيم وتفكك العلاقات الشخصية والاجتماعية، وهذا ما يطلق عليه في تاريخ الحضارات مرحلة الأفول^١.

وفي هذا الإطار، يرى مالك بن نبي أننا إذا أردنا معرفة أمراض المجتمعات ودراسة أسباب سقوط الحضارات، فانه جدير بنا دراسة «الأنا» النفسي للأفراد، الذي تتجلى فيه الأمراض الحضارية ومفاسد الأمة، وإن لم نأخذ بهذه الطريقة أو المنهج فان نظرنا لواقع الأمة الحضاري تظل نظرة سطحية وصفية، تصدق على الظواهر والأشياء ولا تنفذ إلى جواهر القضايا وكنهها الداخلي لتجسد الأمراض وترصد العلل والأسباب^٢.

ولذا نجد العلاقات الفاسدة في «عالم الأشخاص» لها نتائجها السريعة والسيئة على «عالم الأفكار» و«عالم الأشياء» والأمة ليست أكثر من هذه العوالم الثلاثة، ذلك أن سيادة المفاسد في عالم الأشخاص، وتفشي أمراضه في المجتمع هو بداية منحني السقوط الحضاري الذي خلقته واستحدثته عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل، والتي تستطيع أن تختزن بطريقة قد تكون لا شعورية من الانسان، وفي غفلة من العقل لتدمم داخل الأمة، وتهيمن على حياتها الاجتماعية والاقتصادية.. ومن سنة الله أنه في الوقت الذي تنكمش فيه تأثيرات الروح والعقل تنطلق الغرائز الدنيا من عقالها، لكي تعود بالانسان إلى مستوى الحياة البدائية^٣.

أبو الأعلى المودودي :

جاء تصور أبي الأعلى المودودي (١٩٠٣-١٩٧٩م) عن قيام الحضارات وسقوطها في كتابين من خيرة كتبه، هما «الحضارة الاسلامية: أسسها ومبادئها» و«نحن والحضارة الغربية». وقد بين كيف تقوم الحضارات وتزدهر ثم تتدهور وتسقط، واستشهد لتصوره قيام الحضارات والحياة الاسلامية كنموذج وتجربة تطبيقية على ما ذهب إليه، وقام تصوره عن قيام الحضارة على أساس الغاية التي بُعث الرسل والأنبياء ولتحقيقها في الحياة. وهذا يكون ضمن خطة أو منهج أوله العقيدة، ثم الجماعة التي تتجسد فيها هذه العقيدة تسعى بين الناس ثم المجتمع الذي تتجسد فيه هذه العقيدة، وتنطلق بالجهاد لتوسيع دائرة

(١) مالك بن نبي؛ م.س: ٧٥-٧٨ (نقلًا عن محمد هيشور، م.س: ١٢٥).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) مالك بن نبي؛ «شروط النهضة»: ٥٣ (بشن من التصرف).

الاسلام وتقليص دائرة الجاهلية.

ويذهب المودودي إلى أن كثيراً ما يخلط المفكرون والفلاسفة بين الحضارة ونتائجها، ويظنون أن الحضارة هي علومها، وفنونها، ومعارفها، وصنائعها، ومناهجها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... والحق أن هذه مظاهر الحضارة وأوراق وثمار لشجرتها، والشيء الجدير بالبحث في الحضارة هو: ما تصور الحضارة عن الوجود؟ وما نظريتها عن الكون؟ وما منزلة الانسان فيها؟ وما علاقته بالله، والكائنات الأخرى من حوله؟ وما غاية هذا الانسان في الوجود، ولأي غرض هو يكدح ويسعى، وما العقائد والأفكار؟ وما الوسائل المعنوية والطرق التي تملكها لتكوين الانسان وتحريكه للعمل؟^١

ومن هذا الباب يلج أبو الأعلى المودودي إلى تعليل أسباب سقوط الحضارات وهلاك الأمم، فيعلل سقوط حضارة الإسلام في الهند بفساد الفلّة من أتباع التابعين الذي لم يكونوا على شيء من خصائص الفاتحين الأولين، حيث فترايمانهم واسترخى الحماس الاسلامي في نفوسهم، وغلب عليهم حبّ المغانم المادية، وطالبوا الناس بطاعتهم بدل طاعة الله، فكانت النتيجة أن ابتليت البلاد بالحركة الباطنية وبقي السواد الأعظم من أهل شبه جزيرة الهند على غير الاسلام، رغم وجود الاسلام في البلاد قروناً عديدة^٢.

وفي معرض نقده لواقع الحضارة الغربية، يذكر أبو الأعلى المودودي قائلاً: وأنا لنرى في التاريخ آثار الأمم السابقة وآيات مدنياتها وروائع حضارتها، وأنها لم تكن أهون من هذه الأمم الراقية اليوم، ولا أقل منها شأنًا، ولقد كان مصير تلك الحضارات الدمار والبوار يوم حادت عن سنن الاستمرارية الحضارية، والاستقامة، وأدبرت بعد اقبال وذلت وهوت بعد عز وتمكين. ولقد كان ظنّ أهلها يوم عزها وقوتها أنهم من الباقيين الخالدين وقالوا مالنا من زوال...^٣

هذا عن تصوّر بعض مفكري الاسلام وفلاسفته، وقد أثرنا الاختصار على ما ذكرنا، لأنّ جلّ آرائهم - وخاصة أبا الأعلى المودودي - هي معانٍ لآيات قرآنية، غير أن بالإمكان القول: إن هذه التصورات تبلور - إجمالاً - نظرية المدرسة الاسلامية حول الحضارة، وهو ما سنتحدث عنه.

(١) نقلًا عن «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها» م.س: ١٣٣.

(٢) أبو الأعلى المودودي: «نحن والحضارة الغربية»: ٢٧ - ٢٨.

(٣) نقلًا عن «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها»: م.س: ١٤٠.

التفسير القرآني للسنن:

سبق وأن مرّ بنا أن معظم مذاهب التفسير الوضعي للتاريخ تكاد تجمع على القول بحتمية سقوط الدول والحضارات، بشكل أو بآخر. وقد اقتربت بعض التفسيرات من التفسير القرآني للسنن. إذ وردت اشارات عديدة في القرآن الكريم عن سنن التاريخ. ومن مجموع الآيات الكريمة التي تطرقت للموضوع يتبلور المفهوم القرآني وهو تأكيد القرآن على أن الساحة التاريخية لها سنن ولها ضوابط، كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الأخرى.. وهذا المفهوم القرآني يعتبر فتحاً عظيماً للقرآن الكريم.. وبحدود ما نعلم - يقول السيد محمد باقر الصدر - فالقرآن أول كتاب عرفه الانسان أكد على هذا المفهوم، وكشف عنه، وأصرّ عليه، وقاوم بكل ما لديه من وسائل الاقناع والتفهيم، قاوم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية بتفسير الأحداث، الانسان الاعتيادي كان يفسر أحداث التاريخ بوصفها كومة متراكمة من الأحداث، يفسرها على أساس الصدفة تارة، وعلى أساس القضاء والقدر والاستسلام لأمر الله سبحانه وتعالى تارة أخرى.

القرآن الكريم قاوم هذه النظرة العفوية، وقاوم هذه النظرة الاستسلامية، ونبه العقل البشري إلى أن هذه الساحة لها سنن ولها قوانين، وأنه لكي تستطيع أن تكون انساناً فاعلاً مؤثراً لا بد لك أن تكتشف هذه السنن، لا بد وأن تتعرّف على هذه القوانين، لكي تستطيع أن تتحكم فيها، وإلا تحكمت هي فيك وأنت مغمض العينين. افتح عينيك على هذه القوانين وعلى هذه السنن، لكي تكون انت المتحكم لا لكي تكون هذه السنن هي المتحكمة فيك. هذا الفتح القرآني الجليل هو الذي مهّد إلى تنبيه الفكر البشري، بعد ذلك بقرون، إلى أن تجري محاولات لفهم التاريخ فهماً عملياً، بعد نزول القرآن بشمانيّة قرون، بدأت هذه المحاولات على أيدي المسلمين أنفسهم، فقام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه، ثم بعد ذلك بأربعة قرون اتجه الفكر الاوروي، لكي يجسّد هذا المفهوم الذي ضيّعه المسلمون، والذي لم يستطع المسلمون أن يتوغلوا الى أعماقه.

هذا المفهوم أخذه الفكر الغربي.. وبدأت هناك أبحاث متنوعة ومختلفة، حول فهم التاريخ وفهم سننه، ونشأت على هذا الأساس اتجاهات مثالية ومادية ومتوسطة ومدارس متعددة، كل واحدة منها تحاول أن تحدّد نوااميس التاريخ. وقد تكون المادية التاريخية أشهر هذه المدارس وأوسعها تغلّلاً وأكثرها تأثيراً في التاريخ نفسه، اذن كل هذا الجهد البشري في الحقيقة هو استمرار لهذا التنبيه القرآني، ويبقى للقرآن الكريم مجده في أنه طرح

هذه الفكرة، لأول مرة، على ساحة المعرفة البشرية^١. وانطلاقاً من هذا الفهم، نستطيع القول بأن القرآن الكريم قد طرح على الانسانية قضية السقوط الحضاري من أوسع الأبواب وأكثرها شمولاً، بصيغ عديدة واصطلاحات كثيرة، كلها تؤدي إلى حالة واحدة بالأمّة، وهي الهلاك والسقوط^٢، ذلك لأن ارادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسنناً لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ ارادة الله وتحق كلمته.. والارادة هنا ليست ارادة للتوجيه القهري الذي ينشيء السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب، الأمر الذي لا مفرّ منه لأن السنّة جرت به^٣. ومن الأمور الهامة التي يجب التنبيه عليها أن الأمام عليّاً عليه السلام في تصويره لانهطاط الأمم ومصارع القرون لا يردّ ذلك إلى أسباب غيبية، وأنما يعرض أسباباً موضوعية لهذا الانهطاط^٤.

السنن .. وحركة التاريخ:

وتبقى سنّة الله ثابتة تعمل عملها في حركة التاريخ، والله يتخذ من الظالمين والمترفين وأهل الشرك والضلال وغيرهم من كل ذوي الفساد والانحراف أدوات ووسائل يسوق بها القرى والدول والحضارات والأمم والمجتمعات نحو الفوابع والمصائر الكالحة^٥، ﴿ألم يَرَوْا كمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾^٦.

ويستوحى الشهيد سيد قطب من هذه الآية الكريمة حزمة ضوء ينغمر في معانيها ومراميها، إذ يقول: (ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة، وقد مكّتهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة؛

(١) السيد محمد باقر الصدر؛ م.س: ٥٨ - ٥٩.

(٢) محمد هيشور؛ م.س: ٢٢٢.

(٣) في ظلال القرآن، ٤: ٢٢١٨.

(٤) للتوسّع في هذه النقطة، يُراجع كتاب: «حركة التاريخ عند الإمام علي»، لمحمد مهدي شمس الدين: ١٠١.

وما بعدها.

(٥) التفسير الاسلامي للتاريخ؛ م.س: ٢٧٥.

(٦) الأنعام: ٦.

وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشيء في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق.. ثم ماذا؟ ثم عصوا ربهم، فأخذهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر، ورث الأرض من بعدهم.. ومضت الأرض في دروتها كأن لم يكن هنا سكان، ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض. ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله، ليلوهم فيه: ايقومون عليه بعهد الله وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده. بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه. أم يجعلون من أنفسهم طواغيت، تدعي حقوق الألوهية وخصائصها، ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف.

إنها حقيقة ينساها البشر. إلا من عصم الله. وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف، ويمضون على غير سنة الله؛ ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون.. حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله.. ثم تختلف النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال -عذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام - ومرة يأخذهم بالسنن ونقص الأنفس والشرع، كما حدث كذلك لأقوام، ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضاً، ويدمر بعضهم بعضاً، ويؤذي بعضهم بعضاً، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً، فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلّط الله عليهم عباداً له - طائعين أو عصاة - يخضدون شوكتهم، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه، ثم يستخلف الله العباد الجدد لبيتليهم بما مكنهم.. وهكذا تمضي دورة السنة^١.

وإذا ما تتبعنا آيات القرآن الكريم، التي تتحدث عن نهاية المجتمعات وهلاكها، فهناك ثمة ملاحظتان:

أولاً: إن الهلاك سنة جارية في كل المجتمعات التي تسيطر فيها المفاهيم والعلاقات المادية على مر التاريخ.

ثانياً: إن الهلاك هو عبارة عن اختتام للمحاولات الجادة لتغيير المجتمع باتجاه الإيمان بعد ارتدادها بالفشل.

(١) في ظلال القرآن ٢: ١٠٣٧.

ومما يتضح لنا في القرآن الكريم، أن جميع مؤشرات الهلاك تبرز كنتيجة حتمية لتغلغل المفاهيم والعلاقات المادية في المجتمع؛ فَمِنْ كُفْرٍ بالرسالات السماوية التي تستهدف تغيير المجتمعات، وإعادة بنائها على أسس إيمانية، إلى كفر بالنعم التي أنعم الله بها على الناس، ثم إلى ظلم يتفشى، وفسوق يعم، وتبذير واسراف، وفرح وغرور، ينفذ من خلالها الشيطان ليزين للناس أن ما بهم من نعمة فلكونهم يستحقونها، حتى تمتلك الغفلة أنفسهم، وينسون ما ذكرهم به الرسل.

كل هذه المؤشرات تدل على قرب هلاك المجتمع^١ ﴿وما كنّا مهلكي القرى إلّا وأهلها ظالمون﴾^٢، ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾^٣.

والآيتان تؤكدان سنّة الله الجارية في اهلاك القرى بالاشارة إلى القرون الماضية الهالكة. فيما الآية الثانية لا تخلو من اشعار بأن سنّة الهلاك إنّما شرّعت في القرون الانسانية بعد نوح عليه السلام. وهو كذلك^٤.

وقضية السقوط هذه، خلال الأمة أو الجماعة الواحدة التي كثيراً ما ترد في القرآن بتعبير «قرية»، انسجاماً مع بنية التقسيم الاجتماعي السائد زمن نزول القرآن، لا يقصر تحليلها على المستوى الحضاري وحده، وانما يتمدد إلى كافة التجارب السياسية والتشكيلات الاجتماعية والكيانات المحلية أو العالمية، والتجمعات المذهبية... الخ.

إن قضية السقوط هذه تأخذ اتجاهات عدّة: سياسية وإدارية واقتصادية وأخلاقية واجتماعية وعقائدية... وعلينا أن نتذكّر أن القرآن هنا لا يطرح تفاصيل وجزئيات، ولا يلامس الأحداث اليومية العابرة، أو الموقوتة المتغيرة، إنّما يطرح مبادئ عريضة وقواعد شاملة في مجالات الحياة المختلفة، ولنا نحن أن نتصوّر ما يمكن أن يتمخض عن هذه المسائل الكلية من فروع وجزئيات.

إنّ منحنى الانجاز الحضاري، بمفهومه الشامل، يرتبط بهذه المسائل جميعاً، والتي

(١) يُراجع مقال: «التفسير القرآني لانهيار المجتمعات»، مجلة المنطلق، العدد الأول، شوال، ١٣٩٧هـ،

ص ٢٤.

(٢) القصص: ٥٩.

(٣) الإسراء: ١٧.

(٤) العلامة محمد حسين الطباطبائي: «تفسير الميزان»، ١٣: ٦٢.

يكتفها القرآن الكريم في مسلّمات وخطوط أساسية عريضة.. وحيثما طغت وتراكت السليبيّات المتمخضة عن هذه الخطوط والمسلّمات حيثما كفّت طاقة الانسان الخلاقة عن مواصلة صعود المنحنى، وآل الأمر إلى الهبوط والتحلل والانهار^١.

وإنّ نحن عدنا إلى القرآن واستعرضنا نصوصه، ووقفنا على كيفية تحليله لمشكلة الحضارة الانسانية لوجدناه يركّز على أهم أسباب السقوط الحضاري، ويحدّد أخطر أمراض المجتمع الانساني في عدّة نقاط أساسية هي:

١- الانفصام الروحي، واضطراب موازنة العلاقة مع الله، والتنكّر للمبدأ الحق مفيض الوجود وخالقه والانحراف عن شريعته ومنهجه، ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمرّ الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾^٢.

فالكفر في منطق القرآن هو التنكّر للحق وهو رفض الايمان بالله، وهو الانفصام عن قوانين الوجود الفطريّة التي يجري عليها عالم الانسان، وتصنع على هداها حياته وأعماله، ولذا فان مؤدّى هذا الاتجاه سيقود إلى السقوط، لأنّه هدم لقوانين الوجود الانساني، وتزييف مسيرة التاريخ البشري، أي التعاكس مع أهداف الحياة، والتعامل المشوّه مع ارادتها، فتراكم هذين السببين في المجتمع الانساني وظهورهما كإفراز عرضي نتيجة للسبب الأعظم؛ التنكّر للايمان بالله، وبإعلان الانفصال تبدأ الحضارة الانسانية بالضعف والانحلال، ومن ثمّ الاتجاه نحو الانحدار فالسقوط والتلاشي.

والسقوط الحضاري، في هذه الحالة، سيكون نتيجة حتمية لأنّ الحياة الانسانية أصبحت تسير عكس أهدافها. وأنّ الروح الحضارية للانسانية لم تكن قادرة على صياغة أهداف الحياة التي تبحث بطبيعتها وجودها وكوامن استعدادها عن طريق النمو والتكامل باتجاه مبدئها الحق - خالقها العظيم.

٢- والسبب الثاني من أسباب السقوط الحضاري هو «العبث الانساني» أو «سوء التعامل مع الوجود» و«عدم استعمال الأشياء في مواضعها» وهو «الانحراف في الاستعمال عن الغاية الطبيعية للشيء»...؟ فإذا ظهر مثل هذا السبب في مجتمع من المجتمعات؛ وإذا استعمل الانسان خيرات الوجود ونعمه وطاقاته استعملاً لأكميًّا، وغائباً وزمنيًّا ومكانيًّا غير

(١) التفسير الاسلامي للتاريخ؛ م.س: ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) محمد: ١٠.

متطابق مع المقرر الطبيعي كما قرره خالقه، فتلك اشارة الضوء الأحمر الرهيبة التي تدل على اضطراب الحضارة، وجنوحها للتآكل والانهيار، وهي سبب فعّال في السقوط والانهيار؛ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُم الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾^١.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَسْخَذُونَ مِصَافِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ. وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعَيْونَ. إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظُ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاغِظِينَ. إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٢.

وهكذا يرسم القرآن صيغة هذا التعامل العاثر مع الحياة بشكل يتجسّد فيه معولاً هداماً يأتي على بنية الحضارة ويعمل على اسقاط وحداتها البنائية، حتى يحيلها انقراضاً وآثراً تحكي قصّة الانسان في سوء تصرّفه وتعامله مع أنعم الله. وقد صوّر لنا القرآن الكريم مرّة أخرى هذا القانون الحضاري الخطير بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^٣، ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾^٤.

بهذا الوضوح كشف القرآن سبباً مهماً من أسباب السقوط وأوضح دور استعمال الثروة، وتوزيع الخيرات والتعامل معها، واستخدام العلم وتسخير وسائله المختلفة في حماية المجتمع أو في انحطاطه وسقوطه، وربط بين وعي الانسان الحضاري وبين مفهومه عن الحياة، وفهمه لها. ولذلك اختلف التعامل مع هذه الأشياء، وكيفية توظيفها والاستفادة منها، من حضارة إلى حضارة، ومن انسان إلى انسان آخر.

فعلى مدى سلامة وعي الانسان الحضاري يتوقّف استخدامه لوسائل المدنيّة، وامكانيات الحياة. لذلك كان استعمال الحضارات المادية الجاهلية - كما حكى عنها القرآن -

(١) الأنبياء: ٩٩.

(٢) الشعراء: ١٢٨ - ١٣٩.

(٣) النحل: ١١٢.

(٤) إبراهيم: ٤٥.

للخيرات والنعم يتسم بالعبث وسوء الاستعمال والتوجيه ﴿ فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ .

ومن هذا التشخيص القرآني نستنتج أيضاً: إن طبيعة هذا التعامل العاثر يؤدي إلى مصيبة الجوع والخوف، الذي يعكس روح البؤس الحضاري ويدفع إلى السطح عوامل الموت والانهيار المغمورة في كيان المجتمعات المتماثل للسقوط . وهذا البؤس والارهاب هو نتاج الظلم الانساني وسوء التعامل الاقتصادي والسياسي الذي قاد إلى الصراع وتدمير الخيرات ، وبالتالي خسران هذه النعم وعدم استحقاقها بسبب سوء استعمالها فيقضي عليها القانون الالهي بالسلب والحرمان الذي يؤدي إلى اختلال بنية المجتمع وتحطيم حضارته وفنائها . ويتضح لنا أيضاً أن كل هذه الظواهر الاجتماعية المنتظمة في هذه الدورة الشريرة هي نتاج الفهم الانساني ووليد وعيه المنحرف البليد لقيمة الحياة وغايتها .

٣- اضطراب المقاييس وضياح الغاية : الثالث من أسباب السقوط هو اضطراب المقاييس وضياح الهدف والغاية وذبول الحضارة عن أهدافها الانسانية فعندما تدخل الحضارة الانسانية مرحلة التعتيم وغياب الرؤية الواضحة ، ويخلط أفرادها بين قيم الخير والشر ، ويسير الانسان بلا هدف وتتوارى القيم ، وتضرر الروح المعنوية لديه ، فيُسقط الحدود والحرمان ويدخل في فوضى الاباحة والانحلال .

عندما تطفو على سطح الحياة الاجتماعية جملة الظواهر الفكرية والسلوكية المعبرة عن اضطراب المقاييس وضياح الأهداف والغايات فذلك نذير هرم الحضارة ، ومؤشر الخطر بدأ يرسل اشارات النهاية المحتومة ، وصدق الله القائل : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها . وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو اذان يسمعون بها فأنها لا تسمي الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور ﴾^١ .

وهكذا يأتي الاستعراض القرآني تشخيصاً للظواهر الانحرافية التي تولد في المجتمع المريض بسبب ضياح القيم وتساقط المقاييس فالظلم والجريمة والعدوان والاستغراق في المنكرات والغفلة وغياب الوعي السليم وغير ذلك من المشاهدات الطافية على سطح

(١) الحج : ٤٥ - ٤٦ .

الحضارات الجاهلية التي استعرضها القرآن في قصّة المأساة الحضارية على شكل افرازات مرضية يطرحها الانسان المنحرف الذي أسقط المقاييس ونزع عقله واحساسه الأخلاقي ليتحوّل إلى قطعان حيوانية تتحرّك في اطار الحضارة المادية الممزقة ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾^١.

هذه هي أهم الظواهر المرضية المنبئة بالسقوط الحضاري، كما عرضها القرآن الكريم وتحدّث عنها بعمق واسهاب، في مواطن كثيرة من نصوصه وآياته، فكلّما شاهدنا بروز هذه الظواهر وأمثالها في الحضارة والمجتمع أيقنا أنهما بدءا يسيران في طريق الانحلال والسقوط، وتأكد لنا عجز الوضع الحضاري والاجتماعي عن الاستمرار باستيعاب حركة الانسان، وصنع تاريخه، وفق منطق الحياة وسير الوجود الأصيل، خصوصاً وأن القرآن الحكيم أبرز لنا صورة الحضارة على شكل نسيج مترابط من وعي الانسان وفهمه للكون والحياة، وتحدّث عنها كتشخيص تاريخي لصيغة الذات الانسانية وصورة محتواه الباطن. لذلك، فان هذه الصيغة الحضارية، وهذا النسيج الحضاري يتمزّق عندما تعبت به عوامل السقوط، وقد بدا هذا الشكل الحضاري بريشة القرآن كالبيت الذي يبنيه الانسان ليحميه، ثم ينهار على رأسه، عندما يبدأ بخلخلة بنائه ليهلكه وينهي وجوده، ثم يكون أطلالاً وآثراً تحكي البلى وتروي قصّة المأساة كما عاشها الانسان، ولا بدّ لمن يرصد التاريخ من خلال منظار القرآن هذا، وهو يلقي نظراته الفاحصة عبر ابعاد الماضي السحيقة أن يقارن بين حضارات جاهلية نمت وازدهرت ثم انكمشت وبادت، وبين حضارة الانسان الجاهلي المعاصر ليجدها مصباً مشتركاً تتحدّر فيه كل جاهليات الأمم البائدة، ومجمعاً آسناً تركد في أعماقه كل جرائم الفناء والابادة التي حكى عنها القرآن آنفاً.

وعندها لا يملك الراصد المتأمل لسير الحضارة المادية المعاصرة، وما تضم بين أطرها وأعماقها من محتوى وظواهر متفسّخة.. لا يملك هذا الانسان إلا أن ينعي هذه الحضارة الجاهلية، وإلا أن يشاهد نهايتها المأساوية المروّعة، وهي تستحث الخطى في طريق النهاية...^٢

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) لماذا السقوط الحضاري؟! م.س: ٢٤ وما بعدها.

الاستبدال :

ولا يتصورنَّ أحد أنَّ العقاب أو السقوط، بمفهوماهما القرآني الشامل هذا، يعقبان اباداة نهائية للجماعة أو تصفية جسدية لا تبقي لها أثراً، كما كان الحال مع عدد من الأقسام البائدة .. إنما هو التمزيق والتفكيك والتشتت الذي يتسبَّب في ارغام جماعة ما على التنازل عن مركزها القيادي، والتراجع إلى الخطوط الخلفية، لكي تمارس التبعية للجماعات الأقوى، بعد أن كانت متبوعة مطاعة : ﴿وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾^١.

ولشدة واقعية القرآن وتأكيده على المسؤولية البشرية، فإنَّه يخاطب الجماعة الاسلامية نفسها، كما يخاطب آية جماعة مؤمنة، بأنها ستلقى نفس المصير بمجرد تخليها عن أداء دورها الفعَّال في العالم، والذي قادها إلى مواقع القيادة المتقدمة والمسؤولية البشرية الشاملة : ﴿.. وإنَّ تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾^٢.

وتبقى علاقة «الاستبدال» الجدلية هذه، ماضية إلى أهدافها، تداول الأيَّام بين الناس، بارادة الله وتضع قوماً وترفع آخرين ﴿كم تركوا من جنَّات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾^٣.

وهذا الاستبدال التاريخي، أو الحضاري، الذي يحدثنا عنه القرآن في أكثر من موضع، لن يجيء وفق أساليب معتسفة ومباشرة، وبمقتضى حدود زمنية صارمة كالأرقام .. إنما هي سنن الله في التاريخ وارادته النافذة من خلال (النواميس) ذاتها، التي تؤول، وفق مساراتها المنطقية المرسومة البعيدة المعقدة غير المباشرة، إلى تحقيق هذا الهدف الخطير : ﴿فأوحى اليهم ربك لنهلكن الظالمين. ولنسكننكم في الأرض من بعدهم. ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾^٤، ﴿وعدَّ الله الذي آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى

(١) الأنعام: ١٣٣.

(٢) محمَّد: ٣٨.

(٣) الدخان: ٢٥-٢٩.

(٤) إبراهيم: ١٣-١٤.

لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا. يعبدونني لا يشركون بي شيئاً. ومن كفر بعد ذلك
فاولئك هم الفاسقون ﴿١﴾.

وهكذا نجد أنفسنا ازاء نظرية «الاستخلاف» الأساسية، والتي طرحها القرآن لحظة
خلق آدم، وازاء «الوعد» الدائم بعودة أبنائه البررة إلى مركز «القيادة» والشهادة..^٢
هذه هي سنة الله في سقوط الحضارات، وهلاك الأمم، واستبدالها..

(١) النور: ٥٥.

(٢) التفسير الاسلامي للتاريخ؛ م.س: ٣٢٢-٣٢٤.

الفصل الثالث

حضارتان في الواجهة

حاول الانسان، منذ أقدم العصور، تحليل الظواهر الطبيعية والأحداث الاجتماعية والتاريخية، وإيجاد مبررات ومسوّغات لوقوعها، واتخذ في سبيل الوصول إلى ذلك طرقاً وأساليب شتى، وكانت التبدلات والتحوّلات التي تطرأ على حياة الشعوب، هموماً وتسؤلات، ظلّت مبعث اهتمام أهل الفكر والتدبّر، تؤرقهم في سرّ هذا التبدّل والتحوّل، والاقبال والادبار في حياة الأمم، وجاءت التعليقات والتفسيرات متعددة، ولا تكاد تُحصى عدداً كلّها تسعى إلى بيان هذا السر، وظل السؤال: لماذا تسقط حضارات وتقوم أخرى وتذهب أمم وتستخلفها أخرى سؤالاً قائماً^١.

وهو سؤال هام وجدير بأهل العلم والفكر بحثه، وقد مرّ بنا تصورات بعض الفلاسفة والمفكرين من الغرب والمسلمين، بما سمح به المجال، وكيف عالج القرآن الكريم ظاهرة سقوط الحضارات وقيامها. وكل حضارة يجب أن تقدّم تصوّراً أو نظرة عن الله والكون والحياة والانسان، لتشيّد على ذلك التصرّو مجتمعاً حضارياً ذا علاقات داخلية وخارجية، وإلا كانت هذه الحضارة امتداداً لحضارة أخرى واستمراراً لأصولها^٢.

ويرى «ألبرت شفييتسر» أن مخرج كفاح الغرب من التدهور والانهيّار الذي بدأت تستعظم أخطاره مرهون بإيجاد نظرية كونيّة لحضارته^٣.

وبهذا تتبيّن ضرورة تكوين التصرّو لقيام الحضارة، شأنها في ذلك شأن أي مشروع يستلزم خطة أو برنامجاً تتجسّد على منواله رغبات العاملين أو المديرين لهذا المشروع^٤.

(١) محمد هيشور: «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها»، ص ١٦٢.

(٢) يُراجع المصدر السابق: ١٦٢، بشيء من التصرف.

(٣) ن.م.س: ١٦٢.

(٤) ن.م.س:

كما أن عبارة «شفيتسر» آتفة الذكر تنطوي على التطلع إلى «النموذج الحضاري» المأمول، وهو ما يتطلع إليه العديدون من فلاسفة الحضارة وعلماء الاجتماع والتربية والمفكرين.

النموذج الحضاري .. والحضارات الباقية:

والمقصود بـ «النموذج الحضاري»، بمفهوم أول: المظاهر الحضارية التي تشكّل - مفردة أو مجتمعة - عينة تختصر الملامح المشتركة الأساس، أو البنيوية للأمة، وتعبّر عنها، بحيث نقرأ الكل عبر الجزء بما هو زاوية كاشفة من زوايا رؤيته.

وبمفهوم ثانٍ: يتخذ النموذج الحضاري بُعداً آخر، إذ يُعبّر به عن مفهوم الحضارة ذاته، عندما يتعلّق الأمر بمجموعة حضارات مختلفة في أصولها وأسسها ومكوناتها، فتصبح كل حضارة منها عبارة عن نموذج حضارة خاص، بما هو فرع من دوحة حضارات الانسان على مرّ التاريخ، أي أن النموذج الحضاري هنا لم يُعدّ جزءاً أو تعبيراً أو مظهراً، إنّما أصبح مرادفاً لهذه الحضارة بكلّيتها^١.

وإذا ما استعرضنا مسار الحضارات، فهناك في رأي المؤرخين اليوم خمس فصائل من الحضارات الباقية إلى اليوم وهي:^٢

١ - الحضارة الغربية الأوروبية المسيحية (بفرعها).

٢ - الحضارة الأوروبية الشرقية المسيحية الارثوذكسية (روسيا وجنوب شرق أوروبا).

٣ - الحضارة الاسلامية، وموطنها الشريط الصحراوي المداري الذي يبدأ عند المحيط الأطلسي ويستمر إلى سور الصين، ويشمل مناطق استوائية واسعة.

٤ - الحضارة الهندوسية في شبه القارة الهندية ومعظمها استوائي.

٥ - الحضارة الشرقية القصوى التي تقوم في وسط الشرق الأقصى الآسيوي المعتدل، وجنوب شرق آسيا الاستوائي (ويطلق عليها الحضارة الكونفوشوسية).

وهم يستعملون لفظ حضارة في هذا التقسيم، والمراد جماعة متحضرة على طراز

(١) د. سمير سليمان: «الإمام الخميني والمشروع الحضاري الاسلامي»، ص ١٥.

(٢) يشير صموئيل هنتنغتون إلى وجود سبع أو ثماني حضارات قائمة ومرشحة للتصادم، بإضافة الحضارتين اليابانية والأمريكية اللاتينية.. وربما الأفريقية إلى ما ذكر من حضارات باقية. يراجع «صدام الحضارات، من إصدارات مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ص ١٩».

خاص بها، لأن الحضارة لا تقوم بغير جماعة، والجماعة الانسانية لا تقوم بغير حضارة فالجماعة والحضارة عندهم مترابطتان بل مترادفتان.

وفي تصوّر اولئك المؤرخين تعتبر منطقة كل حضارة أو جماعة من هذه منطقة حضارة دائمة، تتعاقب عليها الأجيال وصور الحضارات المختلفة، ولكنها تظل محتفظة بطابعها الحضاري العام، فكان الأرض هي موطن الحضارة ومستودع «جذورها»، ثم تتعاقب الشعوب عليها. والجذور عنصر أساسي وفّعال في حياة كل حضارة.

وفي موطن كل حضارة أو جماعة من هذه نجد الصور التي اتخذتها هذه الحضارة، عبر عصور التاريخ، يعقّب بعضها بعضاً، ولكن هذه الصور التي تأخذها كل حضارة تتشابه في طبيعتها وروحها وشخصيتها، لأن الجذور التي أطلعتها واحدة^١.

وفي ضوء هذا يذهب بعض المفكرين إلى أن العالم الآن في طريقه إلى تحقيق وحدته، وفي طريقه إلى التكامل والتشارك في الموارد، وفي الحاجات، فهو بذلك ماضٍ إلى تقرير اتجاه التاريخ.. ووحدة العالم كانت وما تزال الظاهرة الجوهرية في التاريخ، على حين لم تكن التقسيمات السياسية سوى أعراض زائلة، وظواهر سطحية، فإذا غاب هذا عن فكر اصطبغ بالصبغة الديكارتية، فما ذلك إلا لأن الثقافة التي صاغته تجعل بداية التاريخ يوم تأسست روما، كما تجعل بداية الفكر في مجامع أثينا. وانه لَمّا يدعو إلى العجب أن نرى كبار المفكرين الأوروبيين يبدون عاجزين عن أن يتخطوا بفكرهم فيما وراء الفكر الهليني، فإذا تجاوزوا حدود «الانسانيات الاغريقية اللاتينية» أصبحوا وكأنهم يستكشفون كوكباً آخر!^٢.

ومع ذلك فان الحاجة ما تزال قائمة إلى النظرة الأشمل والأعمق. لقد سبق لاقبال وهو يخط للعالم الاسلامي طريق نهضته الروحية أن طالبه بصبغة في التفكير تمكّنه من النظر إلى الأشياء والتنظيمات «لا من حيث نفعها أو ضررها الاجتماعي الذي تعود به على بلد أو آخر، بل من حيث الأهداف العظمى التي يسعى إليها مجموع الانسانية».. فهذا النوع من الفكر الميتافيزيقي الذي قال به اقبال قد يصطدم بالأذهان ذات النزاعة العقلية، تلك التي ترى أن كل ما لا يدخل في نطاق المادة لا يدخل في نطاق العقل. فالمشكلة على هذا

(١) د. حسين مؤنس: «الحضارة»، سلسلة عالم المعرفة، ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٢) مالك بن نبي: «وجهة العالم الاسلامي»، ص ١٩٥.

تستوجب المواجهة، إذ هي تتصل بموقف الانسان في العالم الجديد، كما تتصل بمستقبل الحضارة^(١).

الضغط المتصاعد رغم الهزّات:

إن من الأنسب، أن نطبّق وجهة النظر الكونية، كي ندرك المعنى الكلي للتاريخ، وها هو المؤرخ الفرنسي الكبير غوستاف جيكييه يقول: «...إن الحضارة منذ خُطّ لها طريقها سلكته دون أن تفارقه البتة، بل لم تفلح الانقلابات السياسية أن تخرجها أو تنحرف بها عن الطريق الصاعد الذي قامت عليه، ومع ذلك فإنّ الأزمات التاريخية الكبرى تسمح لنا بتحديد بعض المراحل في تاريخ الحضارة، وتوحيدها في عصور، لندرك ادراكاً جيّداً ضروب التقدم التي حققتها الحضارة خلال القرون».

فهذه إذن نظرة يبدو أنها تضم نوعين من الأحداث المتميزة، وهي تشمل قطاعاً كبيراً من التاريخ، فهي تضم من ناحية حضارة «تتابع سيرها في طريق صاعد»، ومن ناحية أخرى «انقلابات سياسية»، بكل ما يتصل بها من مجموعات بشرية، وبكل ما حدث خلالها من انتصارات، ومهرجانات، وما ضمّت من أحداث ميلاد وممات، ومن آلام. فهناك من جانب خط متوافق يعبر آلاف السنين دون أذى معوّق. وهناك ومن جانب آخر صورة المأساة الانسانية بكل انقلاباتها. هذا التمييز الجلي بين نوعين من الأحداث لا يفسد إلى حد كبير وحدتها، فإن الرابط بينهما ذو صبغة جدلية: وهو إنّ الانسان هو الشرط الأساسي لكل حضارة، وأن الحضارة تؤكد دائماً الشرط الانساني، وهكذا تتعقد أبسط الأحداث كلما أدركناها في توقّعها الانساني الشامل، ولكنه تعقّد ذو مغزى^(٢).

المشروع الحضاري الانساني:

وإذا ما سمحنا أن نتوغل أكثر في هذه الرؤية الكونية، فإننا نستطيع القول أن منظومة الوجود من الكون والانسان والحياة تخضع لسلسلة من القوانين، بحيث يسير كل منها في خطّه المنسجم مع طبيعته إلى غاية الكمال «الكوني» و«الانسائي» و«الحياتي».

وقد كانت الرسائل الالهية المتعاقبة لتنظّم حياة الانسان، من جهة، وتمنحه الرؤية

(١) المرجع نفسه: ١٩٦.

(٢) المرجع نفسه: ١٩٦ - ١٩٧.

للتخطيط العام للمشروع الحضاري الانساني . وهو المشروع الذي يغطي المساحات الثلاث التي يتكوّن منها المجتمع المتكامل أي الفرد والمجتمع والدولة .

والمشاريع الحضارية التي أريد لها أن تكون نماذج عيش للمجتمعات تفاوتت في نظرتها لكل من هذه المساحات ، في مدى رسم اطار وحدود العلاقة بينهم ، ثم تحديد نوعيّة المشروع الحضاري وحدوده لجهة امكانية الشمول كخاصيّة أساسية لديه ، أو الضيق والانكماش ، ضمن حدود معينة لا يستطيع تخطيها لسبب كامن في ذاته .

من هنا ، لا بدّ لنا من تحديد منطلق منهجي أساسي ، وهو أنه هل كل مجموعة بشريّة تتضمّن في معتقدها وتصورها طريقة معينة للحياة تصلح لأن يُطلق عليها أنها صاحبة مشروع حضاري ؟ أم ان للمشروع الحضاري شروطاً ومواصفات لا بدّ منها ، حتى تنطبق عليه التسمية ، ويجب أن تكون من أهم خصائصه أنه قابل للتعميم ، بمعنى أنه انموذج يصلح لكل البشر ، وبالتالي يحمل في ذاته دعوة إلى اعتناقه كطريقة حياة تعمّ البشريّة ؟

نحن نميل - يقول الأستاذ نجيب نور الدين - إلى تأكيد الطرح الثاني ، على أساس أنّ المشروع الحضاري هو المشروع الذي يحمل في طيّاته خاصيتين أساسيتين : الأولى أنه يصلح طريقة حياة للمجتمع المعاش أو بمعنى آخر يملك خاصيّة «الاكتمال الذاتي» ، وخاصيّة أخرى هي «الانتشار» ، أي أنه يصلح لأن يكون دعوة عالمية ، لطريقة العيش المجتمعي عموماً .

ولكي يمتلك هذه الخواص ، لا بدّ أن يستند ، في منطلقاته وتصوراته ، إلى نظرة كاملة ومتماسكة عن الكون والانسان والحياة ، ويعطي تفسيراً لهذه الأنايم الثلاثة ، يبيّن وجه التكامل فيما بينها من جهة ، ويفسّر وجودها كعناصر لا تكتمل الحياة إلّا برؤية واضحة ومحددة لها ، لكي تصبح أي ممارسة حضارية مبنية في أساسها على الرؤية التي تصنع حركة الانسان وطريقة حياته ، ضمن المجموعة (الكون والانسان والحياة) في اطارها وحيزها الطبيعي والواقعي المنسجم معها .

واستناداً إلى ما تقدّم ، نخرج من هذا الاطار المشاريع المغلقة ، بمعنى أن مشاريع المذاهب والطوائف ، على أنواعها ، كدعوات خاصة لأبناء معينين من البشر ، قد اقتصرت عليهم منذ زمن ، أو هي موجهة إلى نوع واحد منهم ، لا تصلح لأن تكون مشاريع حضارية بالمعنى المراد ، في هذا الموضوع ، بل هي بهذا المعنى أشبه ما تكون بحلقة ، فلننسّمها

متطورة، لمشروع محدّد جغرافياً أو عرقياً لجماعة معينة قد تحدّد «بالعائلة» أو «العشيرة»، وقد تنتهي بالمجتمع أو الطائفة.

فالمشروع الحضاري هو مخطط خاص لرسم صورة المجتمع، وتختلف المشاريع الحضارية للأمم باختلاف زمانها ومكانها، كما تختلف في درجة تحققها. فهناك المشاريع الحضارية البائدة، والمشاريع الحضارية المعاشة، والمشاريع الحضارية الناقصة أو العاجزة عن أن تكون طرق حياة كاملة للمجتمع، والمشاريع الحضارية الجاهزة وغير المعاشة كلياً أو جزئياً.

وقد يتّينا كيف أن المشاريع المغلقة لا تصلح لأن تكون مشاريع حضارية، إلا أن ذلك لا ينفي أن هناك مشاريع حضارية وضعت للبشرية، إلا أنه استحالة عليها العيش والحياة، كمشاريع المفكرين الذين دُرسوا على أنهم مثاليون، أو دهريون، أو عقليون أن يؤسسوا لطرق حياة حضارية لم تجد لها صدى في أوساط المفكرين والناس، وبذلك لم يتسنّ لها الخروج إلى حيّز الواقع، فبقيت في إطار التصوّرات المثالية عن المجتمعات «الفاضلة» و«الطبيعية» وغيرها من الأوصاف والمسمّيات.

لن نتطرق إلى المشاريع الحضارية الناقصة أو العاجزة، والتي يكثر تواجدها في البلاد المتخلّفة، دون الدخول في التفاصيل، بل سوف نحصر حديثنا عن المشاريع الحضارية التي تستند إلى رؤية شاملة.

وهنا، لا بدّ من تأكيد مسألة جوهرية، في الحديث عن المشاريع الحضارية، وهي أن غاية هذه المشاريع هي الوصول بالمجتمع إلى الطريقة الفضلى والمثلى في الحياة، وهي بالتالي تتناول العلاقات الاجتماعية بمختلف تفاصيلها ودقائقها وتربطها بشبكة مفاهيم مترابطة عن الكون والحياة، لذلك كانت «المشكلة الاجتماعية» محور حركتها.

وهنا نصل إلى مفارقة هي في صلب المعالجة لهذا الموضوع، وهي التمييز بين المشروع الحضاري المستند، في أساس تصورات، على الرؤية البشرية أو ما اصطلاح على تسميته «الوضعية» وبين المشروع الحضاري المستند إلى رؤية شاملة وكاملة^(١).

وانطلاقاً من هذه المقاربة، فإن بالإمكان تحديد المنطق والمقومات الأساسية التي

(١) يُراجع المقال القيم: «نظرة أولية في الحضارة ومفهومها» للأستاذ نجيب نور الدين، مجلة المنطلق، بيروت، العدد (٦٢) - جمادى الثانية ١٤١٠ هـ - كانون الثاني ١٩٩٠ م، ص ١٠٣ وما بعدها.

تضمن استمرارية الحضارة، والتعايش مع الآخرين، والتفاعل معهم. فإذا ما أريد لأي حضارة الاستمرار، فلا بد أن تتفاعل مع طبيعة منطقتها ومع تركيبها الخاص، فلا توجد حضارة بدون منطق أو مذاق خاص، وأي حضارة لا تقوم على القيم والإخلاص فمصيرها الانهيار والتحلل. كما أن الحضارة عندما تفقد قدرتها على العطاء المتميز وتعبيرها عن ذاتها فانها تصبح مسخاً وعالة على غيرها، أو تصبح نسيجاً من حضارات لا أصالة فيها، وبلا مقومات، وبلا شخصية فهناك حضارات تقترب من الحق، وهناك حضارات تتشكل من نسيج الباطل، وتدافع عنه، وهذه مقطوعة الصلة بالله سبحانه وتعالى^١.

ولعل من المسلمات الأساسية للفكر الحديث اعتباره إن تاريخ البشرية - ككل - لا يحتضن سوى ثلاث حضارات ثقافية منطرة للعالم، هي الحضارة اليونانية القديمة، والحضارة الإسلامية الوسيطة، والحضارة الغربية الحديثة، التي ما زالت ممتدة، منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا. وبعبارة أخرى، إن الفكر الحديث لم يشك في كون هذه الحضارات الثلاث هي وحدها التي قُدر لها أن تتمظهر بمظهر الثقافة المنظمة من التنظير والتفكير بعيداً - نسبياً - عن الرؤى السحرية والاسطورية. فعلى الرغم من ظهور حضارات كثيرة ظلت حية فترات طويلة من الزمن قبل أن تتلاشى وتصبح أثراً بعد عين، على الرغم من ذلك فليس هناك ما يؤكد أنها مارست مهام التنظير المنظم في علومها ومعارفها.

ومع أن حضارات العالم الثلاث لم تتزامن مع بعضها، إذ الحضارة الإسلامية جاءت بعد أقول الحضارة اليونانية، كما أن الحضارة الغربية. أخذت تنمو باطراد وقت تراجع الحضارة الإسلامية وتقهقرها، فالملاحظ أن هناك خطأً زمنياً وراء البزوغ والأقول يدعو الباحث إلى أن يتساءل عن علاقة هذه الحضارات ببعضها^٢.

ولسنا هنا بصدد الاستغراق في إثارة التساؤلات المتلازمة ضمن «إشكالية الحضارة»، بقدر ما نريد التوصل إليه وهو أن البشرية اليوم تنفياً لظلال حضارتين تعيشان حالة من الصراع الحضاري، وتشهدان ارهاصات «التداول الحضاري»، فيما تلوح في الأفق بوادر

(١) يُراجع اللقاء الذي أجرته مجلة الحرس الوطني (السعودية) مع الدكتور يوسف القرضاوي، العدد (١٨٥) - شعبان ١٤١٨هـ - ديسمبر ١٩٩٧م، ص ٧٠ وما بعدها.

(٢) يحيى محمد: «الحضارة العربية بين الحضارة اليونانية والحضارة الغربية»، مجلة «الوحدة»، المغرب، س ٩، العدد المزدوج (١٠١، ١٠٢) - فبراير / مارس ١٩٩٣م - شعبان / رمضان ١٤١٣هـ، ص ١٤٢.

«الاستبدال الحضاري»، وفق السنن التاريخية. وهاتان الحضارتان هما: الاسلامية والغربية.

إشكالية الإسلام.. والغرب:

ويتحدث الكثيرون اليوم عن هذه النقطة، مع تباين حاد في الطرح ما بين مشرق ومغرب، حول طبيعة العلاقة السائدة، ومآلاتها المستقبلية. ورغم الكثير مما قيل، فما تزال العلاقة بين الاسلام والغرب تستقطب اهتماماً واسعاً في الدوائر الغربية السياسية والأكاديمية - على السواء - منذ مطلع الثمانينات، وذلك نظراً للتطورات البارزة التي شهدتها العالم الاسلامي، فيما يتعلق بصعود حركة الاسلام السياسية، وللأهمية الاستراتيجية الكبرى لعالم الاسلام. لقد بدا واضحاً في السنوات الأخيرة أنه رغم الاحتكاك الطويل بين الاسلام والغرب، فإنّ قدراً ضئيلاً من التصورات المعرفية الأولية، قد توافر حتى الآن لدى كل من الطرفين تجاه الآخر. أدّى ذلك بالتالي الى اتساع ملحوظ في برامج الدراسات الاسلامية وشرق الأوسطية في الجامعات الغربية، كما أدّى ذلك - ولم يزل - إلى عقد سلسلة متواصلة من الندوات والمؤتمرات، حول الموضوع على جانبي الأطلنطي^١.

ولكن كيف يمكننا أن نبرر دراسة تقارن بين مفهومين، أحدهما ذو أصل ديني بحث «الحضارة الاسلامية»، والآخر ذو أصل جغرافي بحث (الحضارة الغربية)؟، وهل ما نقصده بهذين المفهومين في وضع المقارنة واضح جلي، يبدو للوهلة الأولى أنه كذلك، ويعود ذلك إلى كثرة تداول وتكرار العبارة بالعربية، وبغيرها من لغات، مما يجعلنا نتوهم أننا مجمعون على معاني واضحة للجميع، ولكن يبدو أن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك^٢.

فالحضارة الغربية - كما يؤكد «بول فاليري» - وليدة تقاليد ثلاثة:

- في المجال الأخلاقي: المسيحية، وبوجه أدق: الكاثوليكية.

(١) ومن بين تلك الفعاليات «ندوة الاسلام والغرب: قراءة معرفية» التي عقدت بمقر المعهد العالمي للفكر الاسلامي بولاية فرجينيا الأمريكية. وللمزيد من الاطلاع على أعمال الندوة تُراجع دورية قراءات سياسية، فلوريدا، ص ٢٠٥، ربيع ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ص ١٨٧ وما بعدها.

(٢) أبو بكر أحمد باقادر: «الاسلام والغرب»، مجلة مستقبل العالم الاسلامي، مالطا، ص ٦، العدد (١٧) - شتاء ١٩٩٦م، ص ١٢٧، بشيء يسير جداً من التصرف وللوقوف على دراسة تحليلية معمقة لهذه الاشكالية يُراجع كتاب: «أوروبا والاسلام»، هشام جعيط، ترجمة د. طلال عتريسي، بيروت، ١٩٨٠م.

- في مضمار الحقوق والسياسة والدولة : تأثير موصول للقانون الروماني .

- في حقل الفكر والفنون : التقليد الاغريقي^١ .

وبصرف النظر عما أبداه «غارودي» من تحفّظ على فصم هذه التيارات الثلاثة عن منابعها التي تعود إلى الشرق^٢ فإن أصول الحضارة الغربية المعاصرة - كما يقول - سواء في ذلك الأصول اليهودية - النصرانية ، أو الأصول الحضارية الاغريقية - الرومانية ، تتحرّك دائماً في اطار متباين ، وإلى حد متمايز . وركّزت على التجريد والمفهوم الصوري لقضايا الانسان ، وكان طبيعياً حينما ظهرت الارهاصات الأولى لهذه الحضارات الغربية ، خصوصاً مع التجريب العلمي لـ «بيكون» اعتبر هذا عملاً هاماً ، وغاب عن الكثير أن «بيكون» هذا نقل بعض الفصول من أحد المفكرين الاسلاميين القادرين من مدرسة قرطبة وهو ابن الهيثم (وهو مشرقي عاش في العراق ومصر ولكن مسائله وتجاربہ درست في قرطبة) والحضارة الاسلامية لم تكن حضارة صورية أو تجريدية ، وإنما حضارة أعطت للتجريب حقه ، وحاولت أن تتفاهم مع قضايا الانسان ، فشّان بين معطيات الحضارة الغربية ودورها ، وبين معطيات الحضارة الاسلامية في كافة الجوانب الروحية والخلقية والعلمية ، التي استقى منها العالم ، والتي ما زالت رغم معاول الهدم المستمر التي تعمل عملها في الأمم وفي النفوس ، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً^٣ .

وإذا ما تسنّى لنا التذكير بما استخلصه بعض الباحثين من مجموعة تعريفات للحضارة ، مؤكّدين أنّها : «مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم ومعارف وفنون وما إلى ذلك ، والترقي بها في مدارج الحياة ومسالكها ، حتى

(١) روجيه غارودي : «حوار الحضارات» ، ترجمة د. عادل العوّا ، سلسلة «زدني علماً» ، ط ٢ ، بيروت ،

١٩٨٢م ، ص ١٧ .

(٢) يرى غارودي : «إن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم (الغرب) إنّما ولد في (ما بين النهرين) ، وفي (مصر) أي في آسيا وأفريقيا» (حوار الحضارات : ١٧) . وهذا ما يؤكده د. محمد عبدالله دراز بقوله : «لم يبق الآن مجال للشك في أنّ القدامى من علماء اليونان وفلاسفتهم تخرجوا في مدرسة الحضارات الشرقية . والحضارة المصرية بوجه أخص» ، (بُرجع كتابه : «الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان» ، دار القلم ، الكويت ، ط ٢ ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ، ص ١١ .

(٣) بُرجع الحوار الذي أجرته كريمان حمزة مع غارودي ، والمنشور في مجلة «منار الاسلام» ، العدد (١١) ،

س ٨ . ذو القعدة ١٤٠٣هـ .

تصل إلى الغاية التي تواتيها بها أحوالها وامكاناتها المختلفة»^(١).. ما نود قوله: إذا ما تسنى لنا استحضار هذه المنطلقات.. فإن الحضارة الاسلامية ذات نسب عريق في الحضارات سبقاً ورسوخاً وشمولاً ومحتوى، لكونها بحكم نسبتها إلى الاسلام عالميةً ومتسمة بالخلود، لا تزال آثارها المادية والمعنوية باقية، واسهاماتها في الحضارة الكونية والنهضة العلمية المعاصرة ظاهرة. قامت الحضارة الاسلامية على ركن شديد من القيم الأصيلة الراسخة، والحارسة وأساليب الرقي البشري، والراعية لكرامة الانسان وحرماته، من التوحيد والعدل والاحسان والمساواة والاصلاح والصدق والعفاف والأمانة والعلم والرحمة والرفق وحسن الخلق والاخلاص والتجرد والعمل الصالح.

ولا عجب، إذ هي وليدة التربية الایمانية فردية وجماعية، فأقامت الحضارة الفكرية التي ظهرت في تأليف العلماء المبنوثة في الأنحاء، وقد سبقت غيرها في أبحاث العلوم الشرعية والاجتماعية والطبيعية واللغوية، مع العناية بالعمران والجمال التوحيدي في المساجد والجامعات والمدارس والقصور، في المدن الاسلامية العريقة في مشارق العالم الاسلامي ومغاربه. وأسست أركاناً وقوائم وقواعد راسيات للعلم التجريبي، اعتمدت عليها المؤسسات والجامعات الأوروبية، وقامت عليها النهضة العلمية المعاصرة.

في المقابل، جاءت الحضارة الغربية في الأساس حضارة صناعية تقنية فاقدة للتقوى، فقد خرجت من دينها عبر مروق السلطة السياسية، ثم الطموح الاقتصادي، ثم النظر العلمي، ثم الانتاج الفني.. بينما تقوم حضارة الاسلام على الجمع بين التقوى والتقانة، دون تعارض أو تعسف.

من ناحية أخرى، تقوم الحضارة الغربية على تمجيد العقل والاعتماد عليه وحده، بل إن الحركة التنويرية الفكرية جلّها قامت تحريراً من الدين الذي جمده الكنيسة بفكرها، بينما تقوم الحضارة الاسلامية على التوفيق بين العقل والوحي، فليس فيها خصام أو فصام بين الدين والعلم، كما كان في أوروبا، بل يتواءم العلم والايمان، الايمان القائم على العلم، والعلم المؤمن الداعي للايمان^(٢).

هذه المفارقة وغيرها، تدخل في نطاق المنطلقات التصورية التي تعيننا على فهم

(١) دورية قراءات سياسية: مرجع سابق: ١٤٣.

(٢) المرجع نفسه.

العلاقة القائمة ومآلاتها المستقبلية بين الحضارتين الإسلامية والغربية والتي تتحكم فيها سنة التدافع الحضاري. وتتضح الصورة أكثر فأكثر إذا ما فهمنا أن الحضارة الإسلامية والغربية والتي تتحكم فيها سنة التدافع الحضاري. وتتضح الصورة أكثر فأكثر إذا ما فهمنا أن الحضارة الإسلامية تقوم على: وحدة البشر لا العرق ولا القوة، ولا القطر يفرق؛ كما تقوم على حرية البشر، والله قد خيرهم: ﴿لا إكراه في الدين﴾^١ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله^٢، و﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾^٣. وفي الحديث النبوي: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^٤ و«المؤمن من آمنه الناس على دماءهم وأموالهم»^٥.

ثم إن حضارة الاسلام ونهضته المادية والسياسية والعلمية والاقتصادية والثقافية، كانت بدافع النهضة الدينية، ولما فتر الدين فترت بل تتجاوز حضارة الاسلام ذلك إلى الاتساق والانسجام والتوافق والتوازن مع نظام الكون والحياة والانسان، حيث أن الحقيقة الدينية في خلق الانسان وتام اسلامه اعمار الكون بالصلاح والفلاح بعد تسخير له: ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾^٦. ثم يتجلى هدي الاسلام في تسخير الكون للانسان ليؤدي شكر النعمة، بينما تسعى الفلسفة المادية لتسخير الانسان، وتعييده للكون وظاهر الحياة الدنيا^٧.

نمطان حضاريان:

ومهما يكن من أمر فإن التدافع بين حضارة الاسلام وحضارات غيره أمر مستمر. وان

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) سورة الأنفال: ٦١.

(٣) سورة الممتحنة: ٨.

(٤) صحيح البخاري ١: ٦٩، وصحيح مسلم ١: ٣٧.

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه ١: ٤٠٦.

(٦) سورة الجاثية: ١٢ - ١٣.

(٧) دورية قراءات سياسية؛ مرجع سابق: ١٤٣ - ١٤٤.

قراءة عمودية لتاريخ الحضارة البشرية قد لا يستدعي كبير عناء للاهتمام إلى أصل وحقيقة هذا الصراع وجوهره. فكلُّ من الحضارتين تصدر عن أصل وتخضع لسنن وقوانين، وتحمل حقائق ومشروعاً مختلفاً عمّا تحمله الأخرى، لأنها ترى كل ذلك بعين خاصة، وتتحرّك في أعضائها وأعماقها روح من سنخ مختلف^١.

فالمشكلة مشكلة أفكار في النهاية، كما يقول مالك بن نبي، والحضارة إذا كانت في عناصرها الأساسية: الانسان، التراب، الزمن، كما يشرح بن نبي في مؤلفاته. والثقافة إذا كانت في مهمتها اسلوب حضارة تحرك الانسان ووسائله عبر القنوات الأربع: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي، التقنية.. فان مسيرة الحضارة هذه تسير بالمجتمع قوّة وضعفاً، دفعاً وهوناً، صعوداً وهبوطاً، تبعاً لدرجة تمحوره حول الأفكار أو الأشياء المحيطة به.

ان لكل حضارة نمطها واسلوبها وخيارها. وخيار العالم الغربي ذي الأصول الرومانية الوثنية قد جنح بصره إلى ما حوله مما يحيط به: نحو الأشياء.. بينما الحضارة الاسلامية عقيدة التوحيد المتصل بالرسول قبلها، سبغ خيارها نحو التطلّع الغيبي وما وراء الطبيعة: نحو الأفكار^٢.

إذن، نحن إزاء نمطين حضاريين، حضارة الغرب بكل ما تحفل به من ماديّة وسعي حثيث وراء عالم الأشياء، وحضارة الاسلام وما تتسم به من روحية وقيم وتمحور حول الأفكار. ومن هنا، فان الحضارة المادية تبدأ من هذا العالم وتنتهي فيه على قاعدة أن «الخير هو أن يكون لك أقوى ما يمكن من الرغبات، وان تجد الوسائل لتحقيقها» وفق القانون اللاأخلاقي «لامبريالية أئينا»، الذي قام عليه صرح الغرب الحديث الذي يقول: «مملكتي في هذا العالم وحده» رداً على النصرانية التي نُسب فيها إلى النبي عيسى عليه السلام: «إنّ مملكتي ليست في هذا العالم».

إنّها الحضارة التي يتحرك فيها كل شيء، ويتغيّر في الزمان والمكان، بحيث لا يُعتبر صحيحاً صحة دائمة وشاملة. واذا كان لا بدّ من اتّباع الدين فللغايات الدنيوية فقط. واذا

(١) د. سمير سليمان؛ مرجع سابق: ١٨.

(٢) تراجع المقدمة التي كتبها المحامي عمر مسقاوي لكتاب «مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي» لمؤلفه

مالك بن نبي، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ٧.

قررت نظرة للجماعات والأمم الأخرى ونظامها وتنظيمها، فعلى أساس التمييز العنصري، والقهر العنفي والعصبية العرقية، والاستغلال الاقتصادي، والاستتباع الثقافي. وما يصل أثينا بروما وصولاً إلى طليطلة، فباريس، ولندن وبون، ونيويورك، وطوكيو أكبر بكثير من التوزع الجغرافي، والقوة الاقتصادية، وبورصة أسعار العملات والنفط، انه فوق كل هذا الانفجار المدمر وتحتة، لأن اليونان والرومان في العصور السالفة وشعوب الغرب اليوم، كلهم يتحدرون من صلب حضارة مادية واحدة^١.

نحن أمام نموذجين حضاريين مختلفين في مفهومهما ومنطلقاتها وأهدافهما ونظرتيهما إلى الانسان والحياة والتاريخ والطبيعة وما وراءهما، ولا تصالح بينهما، فالصراع بينهما هو الذي يحكم علاقتهما: نموذج يشد الأرض إلى السماء، ونموذج يشد الأرض إلى الأرض^٢ وهذا ما نجد تطبيقه في الواقع الملموس، وهو سر هذا التباين بين النزعة التي تسود في العالم الشرقي وتلك التي تتحكم في عالم الغرب. «إذ يختلف الانسان الأوروبي عن الانسان الشرقي اختلافاً كبيراً، فالانسان الأوروبي بطبيعته ينظر إلى الأرض دائماً لا إلى السماء، وحتى المسيحية - بوصفها الدين الذي آمن به هذا الانسان مئات السنين - لم تستطع أن تتغلب على النزعة الأرضية في الانسان الأوروبي، بل بدلاً عن أن ترفع نظره إلى السماء استطاع هو أن يستنزل إله المسيحية من السماء إلى الأرض ويجسده في كائن أرضي»^٣.

مأزق الغرب: شاهدان من الأهل

ولعل أفضل من يلقي الضوء، على هذه النقطة الأخيرة، «شاهد على القرن»، خبر الغرب وعرف كل خباياه، فهو ابن حضارته وينطبق عليه ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ أنه المفكر النمساوي المسلم محمد أسد^٤ الذي رصد هذه المسألة رصد الخبير المطلع عن كثر،

(١) للمزيد يراجع كل من «د. سمير سليمان»، مرجع سابق: ١٨ وما بعدها، وكتاب «الاسلام على مفترق الطرق» لمحمد أسد، بيروت، ط ٨، ١٩٧٤م، ص ٣٢ وما بعدها.

(٢) د. سمير سليمان؛ مرجع سابق: ٢٨.

(٣) السيد محمد باقر الصدر: «الاسلام يقود الحياة»، طهران (د.ت)، ص ٢٠٤.

(٤) ينحدر من عائلة يهودية، وجده كان حاخام مقاطعة بوكوفينا النمساوية وكان يعرف قبل اسلامه بـ «ليوبولد فايس» (١٩٠٠ - ١٩٩٢م). اعتنق الاسلام عام ١٩٢٦م، وحكى في كتابه القيم «الطريق إلى مكة»

فيقول: «ليس هنا مجال التعمق في الصلات الخاصة بين النصرانية وبين المدنية الأوروبية الحاضرة. ولقد حاولت أنا أن أعرض اثنين من الأسباب - ولعلهما أهم الأسباب - التي كانت بها تلك المدنية مناهضة للدين تمام المناهضة في مدركتها وفي طرقها: إن أحد هذه الأسباب وراثته أوروبية للمدينة الرومانية مع اتجاهها المادي التام فيما يتعلق بالحياة الانسانية وقيمها الذاتية، والثاني ثورة الطبيعة الانسانية على احتقار النصرانية للعالم والكره للثبات الطبيعية والطبيعية والجهود المشروعة في الانسان. وقد كانت هذه الثورة ظافرة تماماً، ظافرة إلى حد جعل الفرق النصرانية والكنائس المختلفة مرغمة على أن تلائم شيئاً فشيئاً بين بعض عقائدها وبين الأحوال الاجتماعية والعقلية المتبدلة في أوروبا، (بعد أن شعرت بخطر حقيقي يهددها، ففضلت أن تتنازل عن بعض طقوسها وتتساهل في بعض مبادئها، لئلا تخسر بعد ذلك كل شيء). وهكذا بدلاً من أن تؤثر النصرانية في حياة أتباعها الاجتماعية وتبدل فيها - كما يقتضي الواجب الديني الأول - فانها سكنت عملاً أقره العرف، وكانت في نفسها ستاراً للمشروعات السياسية»^١.

ويعمضي هذا المفكر المسلم: «ثم إن للنصرانية اليوم في نظر السواد الأعظم معنى شكلياً فقط، كما كانت حال آلهة روما، تلك الآلهة التي لم يكن يسمح لها، ولا ينظر منها أن يكون لها نفوذ حقيقي ما على المجتمع. ولا ريب في أنه لا يزال في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني ويبدلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم، ولكن هؤلاء شواذ فقط. إن الأوروبي العادي - سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً، رأسمالياً أم بلشفيّاً، صانعاً أم مفكراً - يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقى المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من ظلم الطبيعة»^٢.

ويخلص «أسد» إلى: إن هياكل هذه الديانة انما هي: المصانع العظيمة، ودور السينما،

تفاصيل رحلته إلى الاسلام. أنشأ عام ١٩٢٧م مجلة «الثقافة الاسلامية» في حيدرآباد الدكن (الهند). كما كتب «الاسلام على مفترق الطرق»، «منهاج الاسلام في الحكم»، ومنذ عام ١٩٦٤م انصرف إلى ترجمة معاني القرآن الكريم التي صدرت عام ١٩٨٠م. (للمزيد تراجع مقالة عن العلامة محمد أسد لكاتب السطور. مجلة التوحيد (قم) العدد (٧١): ذو الحجة ١٤١٤هـ - حزيران ١٩٩٤م).

(١) يُراجع كتابه القيم: «الاسلام على مفترق الطرق»، مرجع سابق: ٤٦ - ٤٧.

(٢) المرجع نفسه: ٤٧.

والمختبرات الكيميائية، وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء. وأما كهنة هذه الديانة فهم؛ الصيارفة، والمهندسون، وكواكب السينما، وقادة الصناعات، وأبطال الطيران. وأن النتيجة التي لا مفرّ منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرّة، وذلك بخلق جماعات متخصصة مدججة بالسلاح، ومصممة على أن يفني بعضها بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة. أما على الجانب الثقافي فتنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي»^(١).

إن هذا الكلام الذي يعود زمنه إلى منتصف الأربعينات من القرن العشرين، والذي تفوح منه رائحة مآسي الحرب وويلاتها.. ورغم مرور أكثر من نصف قرن عليه، وشهد ما شهد من تغييرات واشتباكات في الأيديولوجيات.. إلّا أن ذلك كله لم يبدّل من جوهر الأشياء شيئاً. فالغرب ما يزال هو الغرب، والمنهج هو المنهج؛ اللهات وراء اللذة، والرقي المادي، والانشداد أكثر فأكثر إلى الأرض. «وهذه النظرة إلى الأرض أتاحت للانسان الأوروبي أن ينشئ قيماً للمادة والثروة والتملك تتسجم مع تلك النظرة.

وقد استطاعت هذه القيم التي ترسّخت عبر الزمن في الانسان الأوروبي أن تعبّر عن نفسها في مذاهب اللذة والمنفعة التي اكتسحت التفكير الفلسفي الأخلاقي في أوروبا، فإن لهذه المذاهب بوصفها نتاجاً فكرياً أوروبياً سجل نجاحاً كبيراً على الصعيد الفكري الأوروبي لها مغزاها النفسي ودلالاتها على المزاج العام للنفس الأوروبية.

وقد لعبت هذه التقييمات الخاصة للمادة والثروة والتملك دوراً كبيراً في تفجير الطاقات المخترنة في كل فرد من الأمة ووضع أهداف لعملية البناء والتنمية تتفق مع تلك التقييمات، وهكذا سرت في أوصال الأمة حركة دائبة نشيطة مع مطلع الاقتصاد الأوروبي الحديث لا تعرف الملل أو الارتواء من المادة وخيراتها وتملك تلك الخيرات.

وبنفس الدرجة التي استطاعت النظرة إلى الأرض لدى الانسان الاوروبي أن تفجّر طاقاته في البناء أدّت أيضاً إلى ألوان التنافس الممجوم على الأرض وخيراتها، ونشأت أشكال من استغلال الانسان لأخيه الانسان، لأن تعلّق هذا الكائن بالأرض وثرواتها جعله

(١) المرجع نفسه: ٤٧ - ٤٨.

يضحي بأخيه، ويحوّله من شريك إلى أداة»^١.

إن هذه الاستعمارية التي طبعت المدينة الغربية ليست حديثة العهد أو منبثة الجذور، بل تضرب أطنابها في عمق التاريخ. لقد استلهمت الحضارة المسيحية مزيج الثقافة الهلينية - الرومانية. وبدا ذلك نمطها أو كما قال «ديورانت» في قصّة الحضارة: «فقد كانت المسيحية أروع ما أنتجت الثقافة الرومانية» ثقافة سيطرة وقهر، لا ثقافة احتواء ووعي، كما لاحظ هانز شتيفر المفكر الألماني^٢.

وهذا إرث أوروبا من اليونان والرومان، الذي اصطبغت به صباغاً شديداً. إن اليونانيين والرومانيين نظروا إلى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون. أمّا كل من كان أجنبياً عنهم، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط، فقد كان اليونانيون والرومانيون يُطلقون عليهم لفظ «البرابرة». ومنذ ذلك الحين والأوروبيون يعتقدون أن تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع. ثم إن احتقارهم إلى حد بعيد أو قريب لكل ما ليس أوروبياً من أجناس الناس وشعوبهم قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدينة الغربية^٣.

ولم يتمكن الغرب التخلّص من هذه النزعة حتى وهو في أوج مجابهته مع الذات، إبان عصر النهضة، فرغم كل التحولات الكبرى التي مرّ بها المجتمع الأوروبي ظلت ثقافة التسلّط ونفي الآخر هي الثابت الوحيد والمهيمنة، إن لم تستفحل بشكل مثير لاحقاً في المرحلة الاستعمارية وهكذا بدا العصر الصناعي حلقة من مسيرة الحضارات التاريخية تطرح العلاقات الانسانية في اطار كمّي اقتصادي، لا مكان فيه للقيم الانسانية في مقياسها المطلق.

ولقد انعكس هذا الواقع النفسي والاقتصادي والاجتماعي على مسيرة الانسانية، منذ بداية عصر النهضة، وكانت ظاهرة الاستعمار مظهراً من مظاهر امتداده نحو الآخرين، ليس فحسب في الاطار السياسي والعسكري، بل في الاطار الفكري والتربوي أيضاً^٤.

(١) الاسلام يقود الحياة؛ مرجع سابق: ٢٠٥.

(٢) عمر كامل مسقاوي: «مالك بن نبي والدعوة للانتقال من التكديس إلى البناء»، مجلة العربي، العدد

(٢٨٥)، أغسطس ١٩٨٢م، ص ٦٨.

(٣) الاسلام على مفترق الطرق؛ مرجع سابق: ٥٢.

(٤) مجلة العربي، المرجع السابق ٢٨٥: ٦٨.

على أن القفزات العلمية الباهرة التي تحققت في الغرب، والتي يسجلها البعض بتقدير كبير.. تشير بقلق أكبر إلى خطورة النتائج التي ترتبت عليها في جوانية الانسان، لأنها أنجبت اختزالاً ذا بعد واحد للشخصية الانسانية يتمثل في نموذج الانسان الفرعوني المنعزل عن القيم السامية، فترتب على هذا الانعزال نشوء «عقلانية معاقة تحولت إلى غاية في ذاتها» تعاني، أيما معاناة، من سوء تغذية روحية تمنح البشر سطوة عملاق لكي تلبي حاجات قزم شرير^١.

وبدیهي أن يلتفت إلى الظواهر المرّضية التي تعصف ببنية المجتمع الغربي هم المفكرون من علماء الغرب، باعتبار أن «أهل الدار أدري بمن فيها». وهذا شاهد آخر هو د. «مراد هوفمان» (السفير الألماني المسلم المعروف) يضع أصبعه على بعض مظاهر الوضع المأزوم في الغرب، حيث وصف معظم الشباب في العالم بأنهم «محبطون متبلّدون عاطفياً.. قد تزعزعت ثقتهم في الديمقراطيات المطبقة، وفي مؤسسات الدولة والسلطات العامة والخاصة بصفة عامة.. وأنه لهذه الأسباب وغيرها تحوط نظرتهم للمستقبل شكوك كثيرة»^٢.

كما أشار خلال تحليلاته إلى أن هذه الظواهر «ليست سوى قمة لجبل جليدي، تختفي تحته تمزقات وتفسّخات اجتماعية وثقافية، تنبأ بها المراقبون اليقظون من علماء الاجتماع في هارفارد وغيرها من الجامعات الكبرى». وقد أكد إن التقدم الاقتصادي العالمي الذي يقود العالم الغربي والأمريكي، يكاد ينسف أو يُسمّم نفسه، كما زعم أنه حقق المزيد من النجاح. «إذ كلّما ارتفع مستوى المعيشة وازداد الرخاء العام، اتجه هذا النظام ذاته نحو تقويض الأسس التي تمكّنت حتى الآن من تثبيت دعائمه...»، ففي هذه العملية المعقدة تتجه القيم العريقة نحو الانحراف، ويمكن أن تتحول فيها أو في مناخها الفردية إلى النرجسية، ويندفع تقرير المصير إلى الفوضى، والتسامح إلى تحييد القيم، والمرونة إلى نبذ ورفض التقاليد، والرخاء المطمئن إلى عبادة المتعة العابرة، والسعي الحثيث إلى الافراط في الاستهلاك، والاقتصاد إلى ادمان العمل في تسابق دموي رهيب، والحساسية إلى قلق

(١) د. سمير سليمان؛ مرجع سابق: ٢٠.

(٢) تُراجع مذكرات هوفمان في كتابه المرسوم «يوميات ألماني مسلم»، ترجمة د. عباس العماري، القاهرة،

وَوَشُوسَة، والأخوة إلى عداوة، والمساواة إلى التدنّي والجري وراء دنايا الأمور، وأخيراً: الثقة في الله، إلى عقلية تفتقر إلى الوعي والایمان والعدل والرحمة...^١.

صفوة القول - كما يقول هوفمان -: «إنّي حين قمت في محاضرتي الطويلة، بشرح أعراض النداعى الهيكلى الزاحف على العالم الغربى، وعلى العالم الشرقى التقليدى فى الأغلب الأعم، وحين تساءلتُ عن الحل الحاسم أمام صمت المتحلّقين من مديري الاعلام (لمنظمة «الناٲو» (حف شمال الأطلسى) التى تولّى هوفمان رئاسة مؤتمرها السنوى، وقت اللقاء المحاضرة)... وحدث أن استجمع أحد الشباب شجاعته فتساءل عما اذا كانت هناك فرصة لحدوث صحوة دينية فى العالم الغربى. وأجبتُه بأنى لا أرى هناك فرصة يمكن للكنائس الحالية أن تنتهزها، لاستعادة مصداقيتها بين معظم الشباب، كما نفيت امكانية اضافة صياغة ايديولوجية غربية جديدة، تعتمد على الآليات السوسىولوجية البحتة وحدها. وقلتُ فيما قلتُ «إذا كان الجيل الحاضر من الشباب فى العالم كلّه يحتاج أو يشعر بحاجته الملّحة إلى مقومات ايديولوجية ودينية، فإنّ هذا الاحتمال لا يزال ضائعاً أو مفقوداً فى وقتنا الحاضر.

عندها سألتني أكثر من شاب وفتاة: وما هو الحل اذن؟ وقد أجبت بأنه «ليس من المستبعد أن تجد هذه الحاجة الملحة إلى الالتزام الدينى والرضا الدينى، ضالتها الأخيرة فى اعتناق دين غير أوروبى وغير غربى، يمكن أن يجد فيه الشباب ترياقاً شافياً من شرور المادية السائدة، وتوثيقاً لُغرى الاخوة البشرية، وتخلّصاً من الطبقة السلطوية الدينية، وقادراً بطبيعته على أن يكون دين الفطرة وهو الاسلام...»^٢.

العجيب فى الأمر حقاً هو أن الدكتور هوفمان يقول فى النهاية عندما انتهى من محاضرتِه، أنه لاحظ أن كثيراً من المستمعين «اعتبروا ما قلّته بمثابة مزحة أو دعاية، رغم أننى لم أكن أمزح على الإطلاق!»^٣.

وفى دنيا المسلمين هناك من يُشاطر هؤلاء ويعتبرها أيضاً بمثابة مزحة أو دعاية!..

(١) يُراجع مقال «هوامش على مفكرة السفير مراد» للبروفسور عبدالقادر محمود، مجلة الجامعة الاسلامية (لندن) - العدد (الخامس): كانون الثانى - آذار ١٩٩٥م، شعبان - شوال ١٤١٥هـ، ص ٢٠٧.

(٢) المرجع نفسه: ٢٠٨.

(٣) المرجع نفسه.

ويمضي البعض في طرح تساؤل لا يخلو من سذاجة: إذا كان الأمر كما يُزعم.. فلماذا -إذن- تحجّرت الحضارة الاسلامية وازدهرت الحضارة الغربية؟ بل لماذا تتسع الهوة بين الجانبين بشكل مضطرد.. ففي حين بلغ الغرب شأواً بعيداً في مضمار التقدم المادي.. بينما المسلمون يزدادون تخلفاً؟. وهنا، لابدّ من وقفة، لمناقشة هذه الاشكالية.

التراجع الحضاري للمسلمين:

إنّ التراجع الحضاري للمسلمين وما وقعوا فيه من انتكاس حضاري، بعد أن كانوا بحضارتهم في مقدمة ركب الانسانية.. حقيقة لا ينكرها إلا مكابر وجاهل أو متعصّب لغير الحق. ولقد اعترف بهذا التراجع أعلام من المسلمين ومصلحون مجدّدون لم يجدوا في ذلك غشاضة^١ من أمثال: السيد جمال الدين الأفغاني، الشيخ محمد عبده، الأمير شكيب أرسلان، الإمام حسن البنا، الشيخ أبو الأعلى المودودي، السيد محمد باقر الصدر، السيد أبو الحسن الندوي، المفكر مالك بن نبي، الشيخ جودة سعيد، د. حسن حنفي، د. محمد سعيد رمضان البوطي، والشيخ محمد الغزالي.

من اللافت للانتباه أنّ الأخير (د. البوطي) قد شنّ هجوماً عنيفاً على أولئك الذين يطرحون السؤال آنف الذكر: «لماذا تحجّرت الحضارة الاسلامية وازدهرت الحضارة الغربية؟» زاعماً أنّ «هذا سؤال سطحي جداً.. والمؤسف أنّ الإجابة على هذا السؤال، تأتي في غالب الأحيان، أكثر سطحية من السؤال نفسه..»^٢ بيد أنه يعود، بعد لأي، مضطراً للإجابة!

وقد مرّ بنا في الفصل السابق أن التاريخ سنن وقوانين، ومن هذه السنن: سنّة التداول الحضاري، والانهيار الحضاري.. والاستبدال. والحضارة الاسلامية ليست بدعاً في دنيا الحضارات. فما يجري على غيرها ينطبق عليها، إذا ما توفرت الظروف، وما يعتورها من

(١) د. علي عبد الحليم محمود: «التراجع الحضاري في العالم الاسلامي وطريق التغلّب عليه»، مصر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ٧٥. وللإطلاع على أهم آراء المفكرين والمصلحين حول هذا الموضوع يُراجع كتاب «عملية النهوض الحضاري» للأستاذ كريم جبر الحسن، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٣٥ وما بعدها وفي عام ١٩٨٧ أصدر الفقيه الكبير الشيخ محمد الغزالي كتاباً بعنوان «سر تأخّر العرب والمسلمين».

(٢) يُراجع كتابه «منهج الحضارة الانسانية في القرآن» دمشق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ١٥٧.

أسباب التقدم وعوامل الانحطاط .

وفي منعطفات التاريخ الاسلامي لا نعدم مواقف مشهودة لـ (هُدَاة) قرأوا المسار، حتى النهاية، وشخصوا الداء - الذي أخذ ينخر - منذ وقت مبكر جداً. فحذروا من مغبة الأمور، وفقاً لاستيعابهم مفهوم «السنن التاريخية» ويقف الامام علي عليه السلام ورهطه في طليعة أولئك . وها هو الإمام علي يحذّر أتباعه، في وقعة صفين، من خطورة التحكيم، الذي يعزو إليه سبب البلوى^١ وما يستتبع من تداعيات فتنة بني أمية: «ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة...»^٢، و«فتنة بني أمية راية ضلال قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها...»^٣.

وفي موضع آخر يصف أمير المؤمنين عليه السلام بني أمية بأنهم «مطايا الخطيئات وزوامل الآثام»^٤، وأنهم «لا يزالون حتى لا يدعوا الله محرماً إلا استحلوه ولا عقداً إلا حلّوه»^٥. ولن يطول الوقت حتى يكون المسلمون ازاء «فتن كقطع الليل المظلم تأتي مزمومة مرحولة يحقّزها قائدها»^٦، «تدوس الناس بأخفافها وتطوهم بأظلافها»^٧.. «فتن تقطع فيها الأرحام، ويفارق عليها الاسلام»^٨ بل «ينجذم فيها جبل الدين»^٩.

وفيما يؤكد عليه السلام إن الخلاف يهدم الرأي^{١٠} فإنه يواصل تحذيره من استحقاقات الترف الفاجر^{١١} وما يؤدي إلى شيوع الباطل: «سيأتي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل»^{١٢}. وهنا تنطلق من الإمام علي عليه السلام صيحة الخطر حين تذهب

(١) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، بيروت، ١٣٨٧هـ، ص ٧٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٣٧.

(٣) المرجع نفسه: ١٥٦.

(٤) المرجع نفسه: ٢٢٤.

(٥) المرجع نفسه: ١٤٣.

(٦) المرجع نفسه: ١٤٨.

(٧) المرجع نفسه: ٤٧.

(٨) المرجع نفسه: ٢١١.

(٩) المرجع نفسه: ٤٦.

(١٠) المرجع نفسه: ٥٠٧.

(١١) تُراجع الرسالة (٢١) في المرجع نفسه: ٣٧٧، والخطبة (١٢٨) ص ١٨٥ من المرجع نفسه.

(١٢) المرجع نفسه: ٢٠٤.

بالمسلمين المذاهب، وتتبدل المقاييس، وتنقلب الموازين، وتزأر القيم.. ويُلبس «الاسلام لبس الفرو مقلوباً!»^١.

هذه النبوءات، أو قل النفحات، لم تنطلق من فراغ، بل هي رؤية قرآنية واعية للسنن، ومستمدة من طبيعة التجربة الميدانية الطويلة والمريرة - في آن معاً - بكل ما حفلت به من افرازات ونتائج.. فكانت بمثابة اضاءات اقتفى سناها اللاحقون، ممّن وضعوا اصابعهم على بعض مواطن الخلل. وحينما لم يعبأ القَيِّمون على الأمور بتلك التحذيرات والصيحات.. ولم يحاولوا ايقاف التداعيات، ومعالجة الأزمات قبل استفحالها، فان من البديهي أن تمضي سنن الله في خلقه: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^٢، ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^٣.

وينبغي التنويه، هنا، إلى أن الوهن الذي أصيبت به الحضارة الاسلامية، وما لحق ذلك من تخلف العالم الاسلامي.. لا يمكن - بأي حال من الأحوال - تحميل الاسلام تبعة ذلك، بل المسلمون هم الذين يتحملون بالأساس أوزار ما آلت إليه أوضاعهم، وذلك وفق السنة الالهية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^٤ وقد صدع الامام محمد عبده بأن المسلمين فيما هم عليه لا ينبغي أن يتخذوا حجة على الاسلام، ولكن ينبغي أن يتخذ الاسلام حجة على المسلمين^٥.

إذن، لم يكن موطن الخلل في الاسلام، وأتما كان يكمن في الثقافة الاسلامية، والحضارة الاسلامية. «فالاسلام سليم قوي موفور العافية، ولكن هذين الأثرين اللذين نميا به، وتربيا عليه: الحضارة، والثقافة، هما اللذان كانا يشكوان الألم، ويشكولشكواهما كل صديق صدوق.. كان القريب والبعيد يدركون أن ما نزل بالمجتمع الاسلامي، في حضارته وثقافته، ليس إلا أمراً آتياً من انحراف عن الأصل، وانقلاب في الوضع، وانفلات

(١) للمزيد يراجع المرجع نفسه: ١٥٦ - ١٥٨.

(٢) سورة الأحزاب: ٦٢.

(٣) سورة فاطر: ٤٣.

(٤) سورة الرعد: ١١.

(٥) يُراجع كتاب «روح الحضارة الاسلامية» للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، إصدارات المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فرجينيا، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٤٤.

عن العامل التربوي الأصلي الذي لزم الأصول، وأحكم الأوضاع»^١. إن الذين تقبوا عن أسباب هذا التراجع الحضاري واثقون «بأن الإسلام في جوهره سليم، لم تنزل به الآفة، ولم تنطره العلة، ولكنهم كانوا كلهم مطبقين على أن الذي أقامه الإسلام في المجتمع الذي تكون به، من معالم الحضارة والثقافة، هي التي أصابها من الأوصاب ما زعزع كيانها، اذ عزلها عن صدق الاستمداد من الإسلام، ومتين الاعتماد عليه، حتى مال عمادها، واضطربت أوتادها.

وهم مع هذا الاتفاق والاطباق، مختلفون طرائق قدا، في الجهة التي أتى منها هذا الفساد، فمنهم من يرجع به إلى الفردية المطلقة، ويتككب المجتمع والحضارة والثقافة، وهؤلاء هم الصوفية من السابقين واللاحقين.. ومنهم من يرجع به إلى الفكر كالفرازي في الأحياء، وابن العربي.. ومنهم من يرده إلى السلوك الجماعي، من حيث ما يتصل بالعقيدة كابن تيمية، وسائر السلفيين، أو من حيث ما يتصل بالشرعية كالطروش والشاطبي، أو من حيث ما يتصل بكيان الأمة وصورتها السياسية، كالاصلاحيين أتباع السيد جمال الدين.

وما من هؤلاء كلهم إلا من حاول أن يقوم الوضع، من حيث يرى أن الاختلال قد تطرق إليه، فما كانت تجربة من تلك التجارب لتجدي في ردّ الوضع إلى أصله، وإزالة الانحراف الذي طرأ عليه، والخلل الذي اعتراه»^٢.

وعليه: ليس هناك ثمة شك في أن هذا التراجع الحضاري للمسلمين لم يكن مفاجئاً لأحد، وإنما كانت عوامله وأسبابه تتجمع وينضم بعضها إلى بعض، بل يشد بعضها أزر بعض^٣.

ورغم حشد المتناولين لظاهرة التراجع الحضاري - على الصعيد الإسلامي - فإن مالك بن نبي يظل يتبوأ موقعه الريادي، في ادراك المرامي البعيدة التي طرحها في مختلف كتبه، والتي تتمحور حول محور واحد هو «مشكلة الحضارة».

ففي معرض بحثه الدؤوب عن انطلاقة الحضارة وعناصرها وما يعتورها من عوامل

(١) المرجع نفسه: ٤٠ - ٤١.

(٢) المرجع نفسه: ٤٥.

(٣) التراجع الحضاري: مرجع سابق: ٢٠١.

الانحطاط وما تنطوي عليه من أسباب التقدّم.. انفرد مالك بن نبي بالوقوف أمام واقعة صفين باعتبارها بداية الكوارث التي أَلَمّت بالحضارة الاسلامية، ونراه ينحي باللائمة على أولئك الذين لم يروا في تلك الكارثة إلا ظاهرة ثانوية: «ولعل أعظم زيفنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أنهم يسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية. ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه حيث يسير خبط عشواء»^١.

ويمضي مالك بن نبي بالقول: «ولا عجب، فإن كوارث التاريخ التي تحيد بالشعب عن طريقه ليست بشاذة.. ونحن نجد مثلها في الكارثة التي أصابت العالم الاسلامي في واقعة صفين، فأخرجته من جو المدينة الذي كان مشحوناً بهدى الروح، وبواعث التقدّم، إلى جو دمشق حيث تجمّعت مظاهر الترف، وفتور الايمان»^٢.

ففي نقطة انطلاق الحضارة ليس أماننا - يقول مالك بن نبي - سوى العوامل المادية الثلاثة التي طالما أَلَمَحَ إليها في مؤلفاته: الانسان. التراب. الوقت. وفي هذه العوامل ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي الذي يمدّها في خطواتها الأولى في التاريخ.. وقد سبق أن أشار، من الوجهة النظرية، إلى العامل الذي يمزج هذه العناصر الثلاثة، فيكوّن منها حضارة، ألا وهو الفكرة الدينية^٣.

وقد تجلّى دور الفكرة الدينية حينما تدخل كمركب (Catalyseur) في التركيب البيولوجي في الحضارة الاسلامية، كما هو الحال في بقية الحضارات. وهذا ما رصدّه مالك بن نبي بفكره الثاقب، وهو بصدد الحديث عن الدورة الحضارية بكل ما تنطوي عليه من منحنيات الانطلاق فالتألق.. فالسقوط الحضاري، حيث يقول: «من المعلوم أن جزيرة العرب مثلاً لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الانسان والتراب والوقت راكدة خاملة، وبعبارة أصح، مكدّسة لا تؤدي دوراً ما في التاريخ، حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء - كما تجلّت من قبل بالوادي المقدس، أو بعمياء الأردن - نشأت من بين هذه العناصر

(١) مالك بن نبي: «شروط النهضة»، دار الفكر بدمشق، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ٤٧.

(٢) المرجع نفسه: ٤٧.

(٣) المرجع نفسه: ٥٠.

الثلاثة المقدسة حضارة جديدة، فكأنها ولدتها كلمة (اقرأ) التي أدهشت النبي الأمي وأثارت معه وعليه العالم. فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظلت قروناً طويلاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدن والرقى.

ومما هو جدير بالاعتبار أن هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل، بل كانت بين أناس يتسمون بالبساطة، ورجال لا يزالون في بداوتهم، غير أن أنظارهم توجهت في تلك اللحظات إلى ما وراء أفق الأرض أو إلى ما وراء الأفق القريب، فتجلّت لهم آيات في أنفسهم، وتراءت لهم أنوارها في الآفاق»^١.

نعم، أنه لمن الغريب أن يتحول هؤلاء البسطاء، ذوو الحياة الراكدة، عندما مستهم شرارة الروح، إلى دعاة اسلاميين، تتمثل فيهم خلاصة الحضارة الجديدة، وأن يدفعوا بروحها وثبة واحدة، إلى تلك القمة الخلقية الرفيعة، التي انتشرت منها حياة فكرية واسعة متجددة، نقلت من علوم الأولين ما نقلت، وأدخلت علوماً جديدة، حتى إذا ما بلغت درجة معينة، انحدرت القيم الفكرية التي انتجتها دمشق، وبغداد، وقرطبة، وسمرقند.

ومن هنا ندرك سر دعوة القرآن الكريم المؤمنين إلى التأمل فيما مضى من سير الأمم، وذلك حتى يدركوا كيف تتركّب الكتلة المخصصة من الانسان والتراب والوقت.

ولا شك في أنّ المرحلة الأولى من مراحل الحضارة الاسلامية التي ابتدأت من غار حراء إلى صفين - وهي المرحلة الرئيسية التي تركبت فيها عناصرها الجوهرية - إنما كانت دينية بحتة، تسودها الروح.

ففي هذه الحقبة ظلت روح المؤمن هي العامل النفسي الرئيسي، من ليلة حراء الى أن وصلت إلى القمة الروحية للحضارة الاسلامية، وهي ما يوافق واقعة صفين عام ٣٨ هـ^٢. وحول هذه النقطة يبدي مالك بن نبي استغرابه ممّن تجاهل هذا المنعطف الخطير: «ولست أدري لماذا لم ينتبه المؤرخون إلى هذه الواقعة، التي حوّلت مجرى التاريخ الاسلامي إذ أخرجت الحضارة الاسلامية إلى طور القيصرية الذي يسوده عامل العقل (ولو قال: عامل القهر.. لكان التعبير أدق)، وتزيينه الأبهة والعظمة، في الوقت الذي بدأت تظهر فيه بوادر الفتور الدالة على أفول الروح..»

(١) المرجع نفسه: ٥١.

(٢) المرجع نفسه: ٥٢.

وهكذا وجدنا الحضارة الاسلامية تتوسّع وتنتشر فوق الأرض، تتغلّب أولاً على جاذبيتها بما تبقى لديها من مخزون روحي، حتى اذا ما وهنت فيها قوى الروح، وجدناها تخلد إلى الأرض شيئاً فشيئاً^١.

ذلك هو منحني السقوط، الذي تخلقه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل.. وكذلك كان شأن المسلم، فقد بعث الدين فيه روحاً محرّكاً للحضارة فلم يلبث بعد مرحلة قضاها في الخلافات والحروب أن عاد إلى حيث هو الآن، انساناً بدائياً^٢.

من التآلق.. إلى التراجع:

ومن نافلة القول التأكيد على أن أسباب التراجع الحضاري لم تكن كلها نابعة من داخل الأمة الاسلامية، وأنما كان بعضها وافداً من الخارج.. وذلك إنّ التراجع الذي عاشته الأمة الاسلامية، على فترات من حياتها، قد أخلّ بها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وعلمياً^٣. فذبّ الوهن في أوصالها، وصارت محط أنظار أعداء الأمة الاسلامية، ممّن كانوا يتربصون بها الدوائر. وهذا هو منطق الأشياء، وهكذا تقوم الدول وتنهار، وأساس الانهيار يبدأ من الداخل، وقد يأتي تدخل خارجي ليعجّل بالسقوط، ولكن يظل الانهيار الداخلي هو بداية النهاية وعاملها الأكبر^٤ فحين تفتك الأمراض بالجسد، تضعف مناعته الذاتية، وربما تنعدم نهائياً، فيصاب الجسد بالشلل التام، ولا يقوى على المقاومة. وحينها يكون نهياً للأمراض التي تنهش به نهشاً، وقد تقضي عليه إذا ما استعصى الداء، أو حصل تماهل في العلاج مبكراً.

وهذا ما حصل للأمة الاسلامية بالضبط، حين تخلّت عن مكائنها الحضارية. ونظرة عاجلى لمسار الأمة الحضاري تقودنا إلى اكتشاف الخط البياني لهذه الحضارة، ونرصد من خلاله مؤشرات التآلق ومنحنيات الانحطاط.

والحقيقة - يقول د. البوطي - إنّ الحضارة الاسلامية بقيت في أوج ازدهارها الى صدر من عهد الخلافة العباسية، وإن كانت تقع أخطاء وتظهر منزلقات، هي بين القلّة أنا والكثرة

(١) المرجع نفسه: ٥٢ - ٥٣.

(٢) المرجع نفسه: ٥٣.

(٣) التراجع الحضاري، مرجع سابق: ٢٠١، ٢٤٨.

(٤) محمد الغزالي: «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل»، دار الشروق، ط ٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص ١١٣.

آنآ آخر؁ وبين الظهور حينآ والاختفاء حينآ آخر . ذلك لأن الأخطاء - ما دامت أخطاء فقط - تنطوي عادة وتذوب في تيار الإصلاح الشامل ؛ وكلما كان ذلك التيار أكثر قوة؁ كانت الأخطاء العابرة أسرع إلى الاضمحلال والذوبان . غير أن تكاثرها دون رقيب يجعلها تتجمع وتتماسك؁ ثم تتنامى في قاع ذلك التيار؁ لتظهر في فرص الضعف؁ ولتشكل تياراً يقاوم جبهة الإصلاح؁ وقد يصدعها .

ثم إن الخط البياني لازدهار الحضارة الاسلامية وقوتها بدأ يضطرب؁ بعد ذلك؁ بين الهبوط والارتفاع . فقد مُنيت بالضعف والتخلخل اللذين ظهرا في انقسام جسم الدولة الاسلامية الواحدة؁ إلى ممالك ودويلات ؛ ثم مُنيت بمزيد من الارهاق والضعف؁ بسبب الحملات الصليبية والغزو المغولي .. ولكنها كانت تحتفظ؁ على الرغم من ذلك؁ بسرّ ازدهارها وروح بقائها؁ فما تكبو إلا لتنهض وما تكاد تغفو حتى تستيقظ^١ غير أن هذا النهوض وذلك الاستيقاظ كانا مُثقلين بالانهاك؁ وليس بمقدورهما تجاوز التحديات المتواصلة؁ لاسيما وان هناك انقطاعاً مروّعاً عن مواصلة الابداع الحضاري . فكانت النتيجة الطبيعية هو المزيد من الانحدار ..

صحيح إن الخلافة العثمانية ساهمت في اختفاء قدر كبير من الانقسام .. ولكن هذا وحده لا يكفي لاستئناف الدورة الحضارية . لا سيما وأنها لم تُرس على أسس اسلامية متينة أساساً . فتسلل إليها في أواسط عمرها؁ ما تسلل إلى الدولة الأموية في الاندلس؁ من الافتتان بالمال؁ والركون إلى المتعة؁ والانصراف إلى البذخ؁ واضاعة الوقت فيما لا طائل فيه .. فبدأت تنحدر عندئذ دولة بني عثمان نحو الضعف؁ وظهرت فيما بينها عوامل التنافس فالتصارع؁ وغفل الكل بذلك عن العدو المتربص .. ومنذ ذلك الحين اتخذ الخط البياني للحضارة الاسلامية طريقه نحو الهبوط والانحدار؁ ولا يزال ينحدر إلى يومنا هذا^٢ .

(١) منهج الحضارة الانسانية في القرآن : مرجع سابق : ١٦٧ .

(٢) المرجع نفسه : ١٦٧ . ومن المثير للدهشة حقاً أن نجد مفكراً كالدكتور البوطي - الذي نكنّ له احتراماً عميقاً - وهو ينساق وراء مذعبيات لا تصمد أمام البحث العلمي طويلاً؁ حين يذهب إلى «أن الخط البياني للحضارة الاسلامية بلغ ذروة الصعود في عصر الخليفة العظيم محمد الفاتح .. وازدهرت الحياة في ربوع العالم الاسلامي؁ وجنت الأُمّة ثمار ذلك الازدهار علماً وقوة ووحدة وثناء» .

ولست أدري عن أي علم؁ وأيّة وحدة؁ وأي ثراء يتحدث الدكتور البوطي ؟ صحيح إن الأتراك رفعوا راية الخلافة؁ واستطاعوا في زحف باهر أن يخترقوا شرق أوروبا حتى النمسا؁ لكنّ الأتراك كانوا قوة عسكرية؁ ولم

إنّ الذي وقع هو إن تلك الحضارة تجردت عن سرّها، وانفصلت عن روحها، وما سرّها وروحها إلّا انها كانت تنهض على دعامة من التبصرة القرآنية، بحقيقة كل من الانسان والكون والحياة، وبالسبيل الأمثل إلى التعامل مع كل منها...^١

فالانحراف الكبير الذي طرأ على المسيرة الاسلامية، حين تحوّلت من دولة ربانيّة إلى ملك عضوض على يد بني أمية، وليسفر هذا التحوّل الخطير عن منحى لا يمت للاسلام بصلة من فساد السلطة في قمة هرمها واستهتارها إلى حد الخروج عن منهج الاسلام في نظام الحياة^٢، وما ترتب على ذلك من انقسام المسلمين وتفرقهم، وموت روح الجهاد وضعف أدواته، والجمود والتخلّي عن الاجتهاد، والانغماس في ملذات الحياة، وشيوع الأهواء والبدع والتيارات الضالة والمنحرفة، واهتزاز القيم وانكفائها، وضمور روح الإبداع والمبادرة والبحث العلمي... كل ذلك كان كفيلاً بأن تُعنى الأمة الاسلامية بما مُنيت به من تراجع حضاري مؤسف ومحزن^٣.

وهذا ما أغرى الغرب بالاجهاز على العالم الاسلامي، بكل الوسائل المتاحة عنده، وراح يتحدث علناً، منذ أواخر القرن التاسع عشر، عن «الرجل المريض» وكيفية توزيع تركته! ولا عجب فان الواقع كما لاحظته «غوستاف لوبون» هو ان جميع الوسائل اتخذت لمحو الحضارة الاسلامية من سجل التاريخ^٤.

يكونوا فجراً ثقافياً جديداً، ولو صحبهم جهاز للتربية والتعليم، والبلاغ المبين لكان لهم في الأفطار المفتوحة شأن آخر!!، كما يقول المرحوم محمد الغزالي. (راجع كتابه: ترائنا الفكري في ميزان الشرع والعقل)، مرجع سابق: ٩٣.

(١) المرجع نفسه: ١٦٨.

(٢) للمزيد من الاطلاع على هذه النقطة تُراجع المصادر التاريخية المعتبرة، ومن الكتب القيمة الصادرة حديثاً الجديرة بالمطالعة، في هذا الباب، هو كتاب «الطاغية» تأليف الدكتور امام عبدالفتاح امام، من إصدارات عالم المعرفة، (الكويت)، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، الفصل الثاني من الباب الثالث (الطاغية يرتدي عباءة الدين) ويأخذ العالم الاسلامي نموذجاً، ص ١٧٩-٢٤٢.

أمّا على صعيد الانغماس بالبدخ واللهو والمجون فقد تكفّل بفضح ذلك كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، إذ حوى بين دفتيه الشاردة والواردة عن عبث الخلفاء والملوك والوزراء ورجال الدولة.

(٣) للمزيد يراجع كتاب «التراجع الحضاري»؛ مرجع سابق: ١٩٩-٢٤٩، وكذلك كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» لأبي الحسن الندوي، ط ١٠، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ص ١٤٣-١٥٨.

(٤) نقلاً عن كتاب «شروط النهضة»؛ مرجع سابق: ١٤٨.

واليوم ما يزال ذلك التراجع الحضاري يخل بحاضر الأمة الاسلامية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وعلمياً، وعلى كل مستوى من مستويات التحضر، فالأمة الاسلامية التي تزيد على أكثر من ألف مليون مسلم تعاني سياسياً من التفريق بل الخصومات والتبعية والذيلية.

وتعاني اقتصادياً من الفشل في الحصول على الحد الأدنى من النضج الاقتصادي، وهو أن تكون صاحبة القرار في مواردها، فضلاً عن أن تتغلب على خلافاتها، فتتشيء سوقاً مشتركة تمكنهم من الخروج من سيطرة التكتلات الاقتصادية التي تفرض عليهم ما تشاء - في قصة بالغة التعقيد .

وتعاني اجتماعياً وثقافياً وعلمياً بأنها جميعاً تنتمي إلى كتلة ما يسمى بالعالم الثالث أو النامي أو الفقير أو المستهلك، دافع الفوائد المتفاقمة للدول المقرضة، فضلاً عن أقسى أنواع المعاناة في التخلف التقني الذي يجعل هذا العالم الاسلامي لا يعرف طريقاً للاكتفاء الذاتي، في أمس ما يمس سيادته وهو السلاح والآلة العسكرية، والذي يبلغ قمته المأساوية عندما تحارب احدى دول العالم العربي أو العالم الاسلامي عدواً لها بأسلحة عدو آخر تربطه بالعدو الأول أوتق الروابط، كما حدث في حرب العرب مع إسرائيل، وفي حرب باكستان مع الهند، وغير ذلك من الأمثلة^١.

وفيما العالم الاسلامي يرسف تحت أغلال التخلف كان الغرب في الطرف الآخر ينهض من رقاده الطويل، ولتزدهر في ربوعه حضارة انفردت بتفوقها ولتمسك بزمام الدنيا.. وعودة للشطر الثاني من السؤال الآنف الذكر: لماذا ازدهرت الحضارة الغربية؟

لماذا ازدهر الغرب؟

من الملاحظات الاجتماعية، التي رصدها فلاسفة التاريخ، أن للتاريخ دورة وتسلسلاً... كما إنّ المدنيّات الانسانية حلقات متصلة تتشابه أطوارها مع أطوار المدنية الاسلامية والمسيحية، إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية، ثم يبدأ أفولها بتغلّب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل.

وبتأمل الحضارة الغربية الحالية نجدها تسير سير الحضارة الاسلامية التي سبقتها في

(١) التراجع الحضاري؛ مرجع سابق: ٢٤٨.

الزمن... وقد أشار المفكر «هرمان دي كيسرلنج» في كتابه (البحث التحليلي لأوروبا) إلى فكرة المراحل الثلاثة للحضارة المسيحية التي ظهرت مع الجرمانيين، وهو بصدد دعم فكرة تطور الحضارة، وتنوع العوامل النفسية إذ يقول: «إن مركز الثقل للحضارة تزحزح عن مكانه، وتحول بالنهضة والاصلاح الديني، من مجال الروح إلى مجال العقل».

ولا شك إن ذلك التزحزح الذي يشير إليه «كيسرلنج» إنما يعني المرحلة الجديدة التي دخلت فيها الحضارة المسيحية في طورها العقلي، وإذا لاحظنا عند «كيسرلنج» إشارة إلى المرحلتين الأوليتين لتلك الحضارة، فإننا نجد الإشارة إلى المرحلة الثالثة واضحة عند كتاب آخرين، إذ سادهم شعور بفناء المدنية الأوروبية مثل «اسوالد شبنجلر» في كتابه (أفول الغرب)^١.

فيما يتعلق ببيدات الانطلاقة الحقيقية لحضارة الغرب الحديثة، يجمع المؤرخون على أنها تزامنت مع مرحلة النهضة (Renaissance) التي تحتل مكانة جد بارزة في تاريخ أوروبا، بل في كل التاريخ الانساني.. لما شكلته من نقلة كبيرة في مسيرة التطور البشري. وقد تمخضت النهضة عن احياء القديم، وتطوير ما كان قائماً، وتدشين بدايات رائعة في حقول شتى من المعرفة الانسانية. من هنا لم يكن عبثاً أن أطلق المفكرون اسمها على عصر كامل من تاريخ اوربا، لا يزال المؤرخون وغيرهم يجدون في سبر أغواره^٢.

لقد وضع عصر النهضة أوروبا على مشارف عصر جديد، طوت فيه صفحة قاتمة من تاريخها، حيث عاشت القارة الأوروبية قروناً طوالاً اتسمت إلى حد كبير بالتخلف والظلام والتزمّت، اتفق المؤرخون على تسميتها بالعصر الوسيط (أو القرون الوسطى) والذي امتد، في رأي بعضهم، حتى أواسط القرن الخامس عشر للميلاد، وفي رأي الآخرين منهم إلى أواسط القرن السابع عشر. ومهما يكن من أمر تحديد الاطار الزمني لهذا العصر فان أواخره، التي غطّت فترة زمنية غير قصيرة، شهدت بوادر تغييرات مهمة نقلت القارة الأوروبية إلى عصر حافل جديد وضعتها أحداثه في وضع متميّز عن معظم مناطق العالم

(١) للمزيد يراجع كتاب «شروط النهضة»؛ مرجع سابق: ٥٥ - ٥٧.

(٢) د. كمال مظهر أحمد: «النهضة»، سلسلة الموسوعة الصغيرة (٣٧)، بغداد، ١٩٧٩م، ص ٣-٤ (بشيء يسير من التصرف). وما نود قوله هنا أن عصر النهضة لم يكن - بأي حال من الأحوال - خالياً من السليات، إذ يعتبرها البعض، كما هو الحال مع غارودي فاتحة عهد الاستعمار الجديد، بمعنى أن آثارها الايجابية ظلت مقتصرة على القارة الأوروبية، وحسب، فيما كانت حصّة الآخرين من استحقاقاتها ليس سوى الشرور!

الأخرى التي كان يعيش بعضها حياة بدائية، كما كان عليه الأمر في القارتين الأمريكيتين عند اكتشافهما، ودخل بعضها الآخر مرحلة الاقطاع لتوّه، مثلما كان الوضع في مناطق أفريقية، وحتى آسيوية، وغدا بعضها الثالث، ونقصد به شرقنا العريق، يعيش جزراً حضارياً خطيراً، بعد أن دشّن اللبنة الأولى في أساس الحضارة الانسانية ودفع بعجلتها خطوات كبيرة على درب النمو والتكامل.

شهدت القارة الأوروبية (لا سيما الأجزاء الغربية منها) في فجر عصرها الجديد أحداثاً تاريخية - اجتماعية وفكرية، في غاية الأهمية تحتل النهضة فيها مكانة بارزة. ولم تكن الاستكشافات الجغرافية الكبرى، وحركة الإصلاح الديني، والثورات الجارفة، والتطورات العلمية الخلاقة، وغيرها من المظاهر المهمة الجديدة أقل أهمية من النهضة، فجميعها كانت تشكل حلقات متصلة لسلسلة واحدة تركت آثاراً عميقة على مجمل التاريخ الانساني. وبطبيعة الحال لم تقع كل هذه الأحداث بصورة عفوية أو اعتباطية، بل انها جاءت بمثابة تعبير طبيعي عن تغييرات عميقة بدأت تأخذ مكانها - بحكم عوامل محددة - في قاعدة المجتمعات الأوروبية الغربية قبل غيرها فانتقل اليها الثقل الحضاري، لتبدأ من حيث وصل الشرقيون^١.

وكما انتفع المسلمون بآثار الأمم التي سبقتهم في جوانب عديدة من مظاهر الحياة المادية والعلمية والتقنية.. فان عصر النهضة أفاد - إلى حد كبير - من المعطيات الحضارية، وعلى رأسها الحضارة الاسلامية، كما أكد ذلك كتاب الغرب ومؤرخوه، وبخاصة منهم المنصفون وغير الحاقدين، من أمثال: الفرنسي «غوستاف لوبون» في كتابه: (حضارة العرب) والأمريكي «د. درابر» في كتابه: (المنازعة بين العلم والدين)، والألمانية «زيغريد هونكه» في كتابها: «شمس الله تسطع على الغرب»^٢.

وقد تضمّن الكتاب الأخير استعراضاً جميلاً لمعظم المنجزات الحضارية التي ظهرت في دنيا العالم الاسلامي، أيام كانت حضارته في تفوّق واقبال. وليس هذا فقط، بل الحقيقة أنّها زادت إلى ذلك عقد مقارنة، أقل ما يقال فيها أنها موضوعية، بين تلك المظاهر في

(١) المرجع السابق: ٥، ٦ (بشيء يسير جداً من التصرف أيضاً).

(٢) لأمر ما حوّر المترجمون، مع دور النشر في البلاد العربية، اسم هذا الكتاب إلى «شمس العرب تسطع على الغرب»!

تفوقها العلمي والانساني، وما يقابلها من الواقع الغربي في تخلفه العلمي وتدهوره الانساني^١.

وليس أدل على ذلك من الفاء نظرة سريعة إلى طبيعة الأجواء التي كانت تخيم على كل طرف. ففي الغرب بقي الروح الأوروبي قروناً طويلاً يزرع تحت عبء نظام ديني يطوي في نفسه احتقار الحياة واحتقار الطبيعة.. ومن الجلي أن مثل هذا النظام لا يحث على نشاط الجهود المتعلقة بالمعارف الدنيوية ولا بتحسين أحوال الحياة على الأرض. وفي الحقيقة، إن الفكر الأوروبي قد أخضع زماناً طويلاً في سبيل ادراك سيئ للوجود الانساني. ففي أثناء العصور الوسطى حينما كانت الكنيسة مقتدرة على كل شيء هنالك، لم يكن لاوروبا نشاط ما في حقول البحث العلمي. حتى أنها خسرت كل صلة حقيقية بالنتائج الفلسفية: اللاتيني والاغريقي، ذلك النتاج الذي سبق له أن انبثق من الثقافة الأوروبية^٢.

في المقابل؛ يستبد بالانسان العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث، - كما يقول غوستاف لوبون - وإذا كانت هناك أمم تساوت هي والعرب في ذلك، فإنه لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرية التي روى «بنيامين التطيلي» المتوفى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها في الاسكندرية، وهذا عدا اشتغال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطيطة وقرطبة.. الخ على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية، وكل ما يساعد على البحث العلمي.

وكان للعرب في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمائة ألف كتاب، منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس كما روى مؤرخو العرب.

وقد قيل بسبب ذلك: إن «شارل الحكيم» لم يستطع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة مجلد، يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم «اللاهوت»^٣.

(١) منهج الحضارة الانسانية في القرآن، مرجع سابق: ١٦٠.

(٢) الاسلام على مفترق الطرق؛ مرجع سابق: ٤٠ - ٤١.

(٣) نقلاً عن كتاب «التراجع الحضاري»؛ مرجع سابق: ١٦٩.

وفي هذا الاتجاه يسوق «د. درابر» نماذج رقمية تدل على مدى الثراء الفكري والنشاط العلمي، حيث يقول: «اعتنى العرب كثيراً بجمع الكتب، وبنوا لها الخزائن العظيمة، وقيل إن المأمون استجلب إلى بغداد مقدار مائة حمل جمل من الكتب. وكان من جملة شروط معاهدة له مع الامبراطور ميخائيل الثالث، أن يتخلى له عن أحد مكاتب القسطنطينية. وكانت وجدت في بعض الخزائن رسالة بطليموس في الرياضيات السماوية فأمر المأمون بنقلها إلى العربية باسم المجسطي. وما زال المأمون يُعنى بأمر المكاتب حتى كانت خزانة كتب القاهرة تشتمل على أزيد من مائة ألف مجلد جيدة النسخ والتجليد. وكان منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد في فني الطب والفلك لا غير. وكان قانون هذه الخزانة لا يمنع اعادة الكتب للدارسين المقيمين بالقاهرة.. ثم مكتبة خلفاء أسبانيا (يقصد الأندلس) وكانت تشتمل على ستمائة ألف مجلد، وكان برنامجها وحده في أربعة وأربعين مجلداً، وكان ما عداها في الأندلس سبعون خزانة عامة للكتب وكثير من الخزائن الخاصة. ويقال أن أحد العلماء رفض يوماً دعوة سلطان بخارى للاقامة ببلاطه، معتذراً بأنه يلزمه لنقل كتبه لا أقل من أربع مائة جمل»^١.

ولا ريب أن البون شاسع بين الطرفين. ففيما كان الاسلام هو القوة المحركة والمفجرة للابداع في المشرق.. كانت الكنيسة في الغرب عائقاً كؤوداً أمام أي محاولة نهضوية. لقد ثار الفكر الأوروبي مراراً، ولكن الكنيسة كانت تقهره مرة بعد أخرى. ان تاريخ العصور الوسطى مليء بهذا الكفاح المرير بين عبقرية أوروبا وبين روح الكنيسة. ولم تكتف الكنيسة الرومانية في العصور الوسطى بأن تهيب الجو المناسب للحروب الصليبية، تلك الحروب التي كانت وصمة عار في جبين الانسانية، بل شنت على العلوم والفنون، التي كانت تشع يومذاك من الأندلس، حرباً لا هوادة فيها ولا لين. ان تحرير العقل الاوروبي من القيود العقلية التي فرضتها عليه الكنيسة المسيحية قد اتفق في أثناء النهضة التي كانت مدينة إلى حد بعيد لذلك العامل الثقافي الذي كان العرب ينقلونه إلى الغرب.

(١) بُرّاجع كتاب «حاضر العالم الاسلامي» تأليف لوثرور ستودارد الأمريكي، ترجمة عجاج نويهض، وتعليق الأمير شكيب أرسلان، ط ٤، بيروت، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ص ١٤٩-١٥٠. وهذا العالم الذي اعترفه هو صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة البويهية.

وكل ما كان خيراً في الثقافة الأغريقية القديمة ثم في العصر الهيلاني التالي، فإن العرب بعثوه في علومهم وزادوا فيه في القرون التي تلت تأسيس الامبراطورية الاسلامية الأولى .. ومع كل العقبات التي يمكن أن تكون الثقافة الهلانية قد خلقتها في سبيل تقدم المسلمين بالمعنى الاسلامي الصحيح، فإن تلك الثقافة نفسها كانت باعثاً قوياً عن طريق العرب أنفسهم في سبيل نهضة أوروبا.

ان العصور الوسطى قد أتلفت القوى المنتجة في أوروبا: كانت العلوم في ركود، وكانت الخرافات سائدة، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم. في ذلك الحين أخذ النفوذ الاسلامي في العالم، في بادئ الأمر، بمغامرة الصليبيين إلى الشرق، وبالجامعات الاسلامية الزاهرة في أسبانيا المسلمة في الغرب، ثم بالصلوات التجارية المتزايدة التي أنشأتها جمهوريتا جنوة والبندقية، أخذ هذا النفوذ يقرع على الأبواب الموصدة دون المدنية الاسلامية. وأمام تلك الأبصار المشدوذة، أبصار العلماء والمفكرين الأوروبيين، ظهرت مدينة جديدة، مدينة مهذبة راقية خفاقة بالحياة ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت ثم أصبحت في أوروبا من قبل نسياً منسياً. ولكن الذي صنعه المسلمون كان أكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة، لقد خلقوا لأنفسهم عالماً علمياً جديداً تمام الجدة. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب.

ولسنا نبالغ - يؤكد محمد أسد - إذا قلنا إن العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يُدشَّن في مدن أوروبا النصرانية، ولكن في المراكز الاسلامية: في دمشق، وبغداد، والقاهرة، وقرطبة^١.

وخلاصة القول: أن المدنية الأوروبية قائمة في أساسها على المدنية الرومانية الوثنية، وهي لم تُؤخذ من النصرانية - التي اعتنقتها لأسباب سياسية قاهرة - سوى الطلاء الخارجي فحسب. ثم إن المدنية الأوروبية لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة. من أجل

(١) للمزيد يراجع كتابه: «الاسلام على مفترق الطرق»؛ مرجع سابق: ٤٠ وما بعدها..

والغريب إن الغرب ورغم استمداد مدنيته الواسع من المصادر الاسلامية والعربية على الأخص، لكنّه لم يعترف بهذا الجميل، ولم يقلل من شأ وبغضائه للاسلام.. ليس هذا فحسب، بل إن تلك البغضاء قد نمت مع تقدّم الزمن ثم استحالَت عادة.. ثم أصبح احتقار الاسلام جزءاً أساسياً من التفكير الأوروبي (يراجع كتاب الاسلام على مفترق الطرق: ٥٩ وما بعدها).

ذلك نرى فرقاً عظيماً بينها وبين الاسلام، الذي بُني على الروح والأخلاق والمثل العليا، تلك الأسس التي خلقت في الاسلام مناعة ذاتية جبارة. فلاريب، إذن، في أن هذا الاتجاه (الوثنى المادي) الذي تتميز به المدينة الغربية الحديثة لا يجد قبولاً في التفكير الديني المسيحي، كما لا يجد قبولاً في الاسلام، أو في كل دين آخر، وذلك لأنه لا ديني في جوهره. وهكذا تكون نسبة نتاج المدينة الغربية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخاً عظيماً. إن النصرانية ساهمت في جزء يسير جداً من الرقي العلمي المادي الذي فاق به الغرب، في مدنيته الحاضرة، كل ما سواه. وفي الحق إن ذلك النتاج قد برز من كفاح أوروبا المتطاول للكنيسة المسيحية، ولاستشرافها للحياة^١.

وإذا ما توخينا الدقة، في تشخيص العناصر الأساسية المكوّنة لحضارة الغرب، فإن هناك ثلاثة عناصر تفاعلت فيما بينها وتلاقحت فأنتجت ما يُعرف بالحضارة الحديثة ابتداء من عصر النهضة الأوروبية حتى العصر الحاضر. فاجتمعت في هذه الحضارة؛ العقلية التأملية (اليونانية الأصل) والعقلية التجريبية (الاسلامية المصدر) والأخلاق والنزعة الروحية المسيحية. ولكن المسيحية اذ عجزت عن أن تقدّم صورة صحيحة كاملة عن الكون والوجود، وحين تعارضت في اتجاهها المترمت واصطدمت بالتفتح العقلي وارتقاء الحضارة الصناعية وما قدمته للانسانية من رفاية، فسحت المجال للمذاهب العقلية غير الدينية وللنزعة المادية في الحياة، فانحسرت وتراجعت أمام التيارين العقلي من الناحية النظرية والاعتقادي والمادي من الناحية العملية^٢.

ورغم الانحسار الكبير - الذي يصل حد الانتكاسة - للكنيسة في حواضر الغرب، فإن أوروبا حسمت حالتها الخاصة، منذ بضعة قرون، داخل الاطار المسيحي دون ريب، ولكن مع مبادرات في الميدان الفني، والأدبي، والفلسفي، كانت تذهب إلى ما وراء المبدأ الانجيلي!

فقد تشكّل الفكر الأوروبي المعاصر في جوّ العقلانية (Rationalisme) الفرنسية،

(١) المرجع نفسه: ٤١ - ٤٢.

(٢) محمد المبارك: «مذكرات في الثقافة الاسلامية» دار الفكر، بيروت (د.ت)، ص ١٥، أمّا «أ.ل رانيل» فيؤكد أن «ثقافة العصور الوسطى كانت في الحقيقة اغريقية لاتينية عربية»، يراجع كتابه: «الماضي المشترك بين العرب والغرب» ترجمة د. نبيلة إبراهيم، إصدارات عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ١١.

والجمالية (Esthetisme) الإيطالية. ومع ذلك ففي كل مرة كانت تنتاب فيها هذا الفكر استنارة أو تحدّ وافد من الخارج، كان يرجع من جديد إلى أصله المسيحي^١ كما بيّنت لنا ذلك التصريح الشهير الذي أعلنه الجنرال «غورو» غداة احتلال دمشق من قبل الفرنسيين صيف عام ١٩٢٠، وهو يتوجه إلى المسجد الأموي، حيث استقرّت رفات صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين، ووطأ قبره بقدميه وصاح: «استيقظ يا صلاح الدين لقد عدنا!»^٢. وأياً كان الموقف من الكنيسة فإن الروح الصليبية ظلّت كالشبح يخيم على الأجواء في الغرب، كظاهرة ثابتة تعشعش في اللاوعي الأوروبي. وبهذا الصدد يقول ابن الغرب محمد أسد: «إنّ الحروب الصليبية هي التي عيّنت في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوروبا من الاسلام لبضعة قرون تتلو. ولقد كانت الحروب الصليبية في ذلك حاسمة لأنها حدثت في انتفاضة طفولة أوروبا، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها، وكانت لا تزال في طور تشكيلها والشعوب كالأفراد، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية. وتظل تلك المؤثرات محفورة حفرًا عميقاً، حتى أنه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة، ثم يندر أن تزول آثارها تماماً. وهكذا كان شأن الحروب الصليبية، فإنها أحدثت أثراً من أعماق الآثار وأبقاها في نفسية الشعب الأوروبي»^٣.

ومن السهولة بمكان أن يتتبع أي باحث افرازات هذه الظاهرة التي استوطنت الثقافة الأوروبية، وتكاد تكون الثابت الوحيد في عهد التحولات والمخاضات، بدءاً من مرحلة الحروب الصليبية، ومروراً بعهد الإصلاح، ومن ثم النهضة، فمرحلة الرأسمالية والاستعمار.. وحتى عصرنا الراهن. إن روح الحروب الصليبية - في شكل مصغّر على كل حال - ما زال يتسكّع فوق أوروبا، ولا تزال مدنيّتها تقف من العالم الاسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال^٤.

(١) مالك بن نبي: «القضايا الكبرى»، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ص ٦١.

(٢) وسبق لنظيره البريطاني الجنرال اللنبي أن قال، غداة احتلاله القدس ١٩١٧م: اليوم انتهت الحروب

الصليبية.

(٣) الاسلام على مفترق الطرق؛ مرجع سابق: ٥٥ - ٥٦.

(٤) المرجع نفسه: ٦١.

إنّ الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً.. وفي القرون التي تلت والتي امتلأت بالحروب لم تبق عداوة أوروبا للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب، بل ذات أهمية سياسية، أيضاً. وهذا زاد في اشتداد تلك العداوة^١.

ومما زاد من تمادي المدنية الغربية افتقارها للنزعة الأخلاقية. لقد بلغت أوروبا الغاية في الفن والصناعة، ولكنها ارتدت عن المثل الأخلاقية، فلم تعد تعرف شيئاً من الخير للإنسانية فيما وراء حدود عالمها الذي لا يمكن فهمه إلّا بلغة المادة^٢ واستعباد كل ما هو «آخر» كـ «بربري» ومولود من أجل العبودية^٣.

وهكذا كرس الغرب مدنيته لخدمة الرجل الأبيض، واستعباد الآخرين، فتحوّلت إلى حضارة استكبارية باطشة، تركت الجدل بالحسنى، وجاءت للناس على متن المقاتلات والمدرعات، تمشي بينهم بالتقيل والتشريد والاضطهاد والابادة، ويشهد على ذلك الاستعمار من اجتياح بالقوة وقتل وتشريد وتخريب واستعباد واستغلال وإخضاع للتبعية. وتشهد من بعد ذلك الحرب العالمية الأولى والثانية، وأخيراً النظام العالمي الجديد، والنظام العالمي المعاصر والحضارة الغربية قوة تعبيراتها؛ سيطرة على الاعلام، واحتكار للعلم، واحتكار للثروة (الجنوب والشمال)، واحتكار للسلاح، واحتكار للأمم المتحدة...^٤

الاستعمار؛ نكسة تاريخية:

ولهذا يعتبر الاستعمار، من الوجهة التاريخية، نكسة في التاريخ الانساني، لأننا اذا بحثنا عنه فسنجد أصوله تعود إلى روما، حيث وضعت المدنية الرومانية طابعها الاستعماري في سجل التاريخ، وقد أعقبها العهد الاسلامي الذي كان في الواقع تجربة من نوع جديد في تاريخ علاقات الشعوب «إنّ الواقع التاريخي يشهد، وأقباط مصر ويهودها يشهدون بأنّ الاسلام لم يكن يعم البلاد كدين، بل كحضارة».

وهكذا نجد أن المدنية الحاضرة تخطّت الحضارة الاسلامية (التي تحمل رسالة

(١) المرجع نفسه: ٥٨ - ٥٩.

(٢) وجهة العالم الاسلامي؛ مرجع سابق: ١٩١.

(٣) روجيه غارودي: «وعود الاسلام» ترجمة: د. ذوقان قرقوط، ط ٢، القاهرة - بيروت، ١٩٨٥ م، ص ٢٢.

(٤) دورية قراءات سياسية؛ مرجع سابق: ١٤٣.

الانسانية) لتأخذ من الحضارة الرومانية روحها الاستعمارية، والمعمرون أنفسهم يعترفون بذلك من حيث لا يشعرون، إذ نسمعهم صباح مساء يردون أعمالهم الى عبقرية الرومان، من هنا نرى أن الاستعمار قد رجع بالانسانية في التاريخ ألف عام ما قبل الحضارة الاسلامية^١، وهذه بحد ذاتها جريمة لا تعتفر للغرب ناهيك عن سجله الحافل بالجريمة. ولهذا نرى المفكر الفرنسي المسلم رجاء غارودي يقول: «ان الغرب في منظور آلاف السنين هو أكبر مجرم في التاريخ»^٢.

ومن نافلة القول التأكيد أن من سوء حظ الانسانية أن نسيت اوروبا أو تناسلت التجربة الاسلام الفذّة.. ورغم هذا فان هناك نزراً ضئيلاً من مفكري الغرب من أذعنوا الى الحقيقة واعتبروا بفضل الاسلام وبنيه على البشرية جمعاء، ومن المؤسف أن يكون الملاحظة أكثر انصافاً للحضارة الاسلامية من غيرهم في اوروبا. وهذا فولتير يعقّب حينما ذكر لديه «مارتن لوتر» و«كلفين» على أنهما روّاد نهضة اوروبا الحديثة.. حين خرجا على الكنيسة الرومانية، فقال: «كلاهما لا يصلح أن يكون حذاء لمحمد» يريد أن محمداً ﷺ بلغ من الاصلاح ما لم يبلغا أدناه، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان فجر أنوار اوروبا^٣.

ثمّة ملاحظة مهمة نجد لزماً الاشارة إليها، وهي أن ما حصل في القرنين الأخيرين من احتكاك بين الغرب والشرق لم يكن في الحقيقة بين الاسلام والحضارة الغربية، بل هو بين حضارة المسلمين الخادمة الجامدة المتخلفة وحضارة نابضة بالحركة والحياة.. وكل ما يمكن أن يكون من نتائج هذا الاصطدام بين جانبيين غير متكافئين من حيث القوة والحيوية فهو ظاهر للعيان، وهو إن المسلمين لا يزالون يرجعون على أعقابهم في هذا المضمار ولا تزال حضارتهم تنهزم^٤.

ولعله من الواضح إن مشكلة الحضارة، في العصر الحاضر، لا تخص الشعوب الاسلامية فقط، بل إنها تخص أيضاً الشعوب المتقدمة نفسها، التي تتهدد فيها مدنيّتها بالفناء^٥ وما من ريب في أننا مهما وصفنا الحضارة الغربية بالتألق والازدهار، فان ذلك لا يصدق عليها إلا

(١) شروط النهضة؛ مرجع سابق: ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) وعود الاسلام؛ مرجع سابق: ١٩.

(٣) حاضر العالم الاسلامي؛ مرجع سابق: ١٢٥.

(٤) أبو الأعلى المودودي: «نحن والحضارة الغربية»، دار الفكر، (د.ت)، ص ٤٦.

(٥) شروط النهضة؛ مرجع سابق: ٥٧.

من حيث الطلاء الخارجي لها فحسب . وما يفتتن الناس منها إلا بهذا الطلاء ، وما ينجذبون إليها إلا بسّر من ذلك الطلاء وحده ^١ .

وحول هذه النقطة بالذات ، يقول د . البوطي : « لا أريد أن أسود الصفحات الطوال ، في الاستشهاد بأقوال علماء الاجتماع ، وعلماء النفس الأوروبيين ، والأمريكيين ، الذين يخرجون كل يوم المؤلفات العريضة ، وينشرون المقالات والتحقيقات المثيرة ، عن الهوة السحيقة التي تقف الحضارة الغربية على حافتها . ولا أريد أن أعرض المشاهد التي تبعث على الأسى وتملأ النفس مرارة ، للمصائب التي تطوف بالأسر الأوروبية والأمريكية المعزقة - وقد علمت أن الأسرة هي اللبنة الأساسية الأولى في بناء المجتمع الانساني - ولا أريد أن ألقت النظر إلى السبب الذي جعل العيادات النفسية هناك تصبح ضعفي - وفي بعض البلاد ثلاثة أضعاف - عيادات التطبيب الجسدي » ^٢ .

ويستطرد د . البوطي بقوله : « ولكني أريد أن تعلم مدى الخطورة التي تكمن في احتجاب هذه الحقائق المذهلة الأليمة ، وراء سُتر من دخان المصانع المنتجة ، وأضواء النيون الساطعة ، وشواهد العمارات الضخمة ، وضجيج الملاهي والأندية الفخمة ؛ بحيث لا يرى الناظر من تلك المدنية والحضارة ، إلا هذه القشور والأشكال ، فتتجذب نفسه إليها ، ويشيع الإعجاب في فؤاده بها ، وهو في غفلة تامة عن النيران التي تتضرم خلف تلك الحجب والأشكال كلها ! » ^٣ .

هكذا تواجه البشرية اليوم قدرها المحتوم . وبهذا المأزق الخطير الذي قادت إليه المدنية الغربية تكون الانسانية أمام الخيارات الصعبة ، إن كانت هناك ثمة خيارات . إنّ التاريخ البشري منذ قرون ، وبخاصة منذ ما يُدعى بعصر « النهضة » أي الميلاد المتزامن للرأسمالية والاستعمار ، لم يعد يُصنع إلا من قبل قسم متهم هو الغرب ، باهمال وبازدراء عنصره المكوّن الشرقي ، بهذا النهج إنّ الـ « نمو » الوحيد البديهي يكون نمو بؤس العالم : البؤس المادّي للعالم الثالث ، والبؤس الروحي للغرب ^٤ .

(١) منهج الحضارة الانسانية في القرآن ، مرجع سابق : ١٧٢ .

(٢) المرجع نفسه : ١٧٢ .

(٣) المرجع نفسه : ١٧٢ .

(٤) وعود الاسلام ، مرجع سابق : ٢٠ .

بقي أن نتساءل مع د. مؤنس: إذا كان الهدف من كل الجهود الحضارية هو النهوض بالإنسان نفسه، فإذا بقي على جهالته ووحشيته وضلالته وانتكس وتدهور فيما قيمة الرقي المادي في ذاته؟ وما الفائدة الحقيقية التي نكسبها إذا استطعنا الذهاب من لندن إلى نيويورك في أربع ساعات بدلاً من سبع، ثم ننفق الثلاث التي كسبناها في الطعام والسكر والعريضة وابتذال النفس بغير حساب؟

إن هذه الحقائق زعزعت إيمان الناس بما يسمى بالتقدم، أو شككتهم فيما ظنوه من إمكان استمراره واطراده في الطريق الخير، وأخذ الكثيرون من المفكرين يعيدون النظر في فكرة التقدم كحقيقة علمية، بل منهم من ارتد عنها تماماً^١.
لعل الوعي بهذه المفارقة، والوعي بما يدين به الغرب للثقافات وللحضارات غير الغربية يكون اليوم هو الطريق الوحيد الذي يبقى مفتوحاً أمامنا خارج طريق الموت المسدود، على حد تعبير غارودي^٢.

إن البشرية تقف اليوم على مفترق طرق خطير، وتتجاذبها حضارتان في الواجهة؛ إحداهما أقل نجمها وانحسر مجدها.. لكنها تمتلك مستلزمات النهوض ولها قدرة على استئناف دورها الحضاري، فيما لو تهياً لها الربانة الهداة.. وأخرى تمتلك القوة لكنها فقدت معنى الروح، وتجدها نفسها بدورها على حافة الهاوية^٣ الأمر الذي يستلزم البحث الدائب عن البديل المناسب للحضارة الغربية، التي يرى العديد من المفكرين أن دورها قد شارف على النهاية.. إن لم يكن قد استنفذ أغراضه.

كيف؟

هذا ما سنتناوله في الفصل القادم.

(١) الحضارة للدكتور حسين مؤنس، مرجع سابق: ٣٣٩.

(٢) وعود الاسلام؛ مرجع سابق: ٢٢.

(٣) وجهة العالم الاسلامي؛ مرجع سابق: ١٩٢.

الفصل الرابع

حضارة الأُزمة المظاهر.. والتداعيات

إذا كان من السهل - نسبياً - التحدّث عن مستقبل الأمم والدول ومساراتها العامة، فإنّ الحديث عن مستقبل الحضارات يبدو أكثر تعقيداً. خصوصاً أنّ المؤرخين الذين انكبوا على دراسة الحضارات قد انجذبوا، بشكل ساحر، إلى المراحل التي عرفت فيها الحضارات أوجها، وتناشوا أو أهملوا مراحل انكفائها وانقراضها. الأمر الذي جعل مفهوم العالم عن تاريخ الحضارات يفتقد إلى ملاحظة جزء هام وهو المتعلّق بعوامل الانكفاء ومظاهره وعوارضه.

في الواقع، نادرة تلك الدراسات التاريخية التي اهتمت بما يمكن تسميته بـ «ما بعد الحضارة». كذلك قليلة هي الدراسات التي حاولت فهم النتائج المادية والأخلاقية لانقراض حضارة ما، أو تفسّخ ثقافة ما، كانت قد سيطرت خلال قرون طويلة، على أجزاء هامة من العالم. وما يزال هذا الخطأ الذي كلّف الحضارات القديمة غالباً، ما يزال مستمراً حتى اليوم وبصورة خاصة لدى أرباب الحضارة الغربيّة، الذين ما يزالون مطمئنين إلى رسوخ قواعد حضارتهم، وما يزالون يتطلعون إلى الفضاء وإلى إحداث نقلة نوعيّة في طبيعة حياة الانسان وربّما كيانه بالذات^(١).

وقد تربّت أجيال عديدة، في مختلف بقاع الأرض، على أن الغرب هو المثال الذي يجب الاقتداء به، في كل مجالات الحياة، وأن نمطه سيبقى مهيمناً على كل الشعوب الفقيرة منها والغنيّة.

وكان ربط هذه الأجيال بالنمط الغربي يمر عبر: تقديم صورة ناصعة ومشرقة عن الحضارة الغربيّة، بالتركيز على أسسها النظرية الفلسفية من ناحية، وعلى انجازاتها العلمية

(١) يُراجع مقال: «ملاحم أزمة الغرب: تنبؤات غربية عن قرب الانهيار الحضاري»، مجلة العالم (لندن) - العدد (١١٣)، ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٨٦م - ٤ شعبان ١٤٠٦هـ، ص ٧٦.

والتكنولوجية من ناحية أخرى.

ففيما يتعلّق بالجانب الأول، بقي عالقاً في أذهان المطلعين على الغرب ما أفرزه عصر «الأنوار» والمبادئ التي نادت بها الثورة الفرنسية (حرية ومساواة وأخوة)، وشعار احترام حقوق الانسان، وحق تقرير المصير، وفكرة الدولة الديمقراطية القائمة على مؤسسات وهياكل حديثة، وسلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية مستقلة، بالإضافة إلى الإشعاع الثقافي، عبر هيمنة اللغتين الفرنسية والانجليزية أساساً في المحافل الدولية، ومختلف مجالات التبادل الاقتصادي والتعليمي والثقافي، حتى أن بعض البلدان التي عاشت حقبة استعمارية في تاريخها الحديث تعتمد مثل هذه اللغات كلغة تخاطب وعمل.

والجانب الذي تسرّب من خلاله التأثير الغربي إلى بقية الشعوب يتمحور حول مظاهر القوة وال عمران والرفاه والازدهار العلمي والتكنولوجي. ولا شك أن الهوة الساحقة والتفاوت الكبير، في هذه المجالات، بين العالم الغربي والمجموعات البشرية الأخرى لعب دوراً هائلاً في ترسيخ صورة مضخمة عن «التقدم الحضاري الغربي» إلى حد أن بعض المبهورين بالغرب يرون فيه «جنة فوق الأرض»^١.

من مظاهر الأزمة:

ولا يستطيع أحد انكار الانجازات العلمية والثورة التكنولوجية في الفضاء الغربي، لكن يجب في المقابل عدم التوقّف عند المظاهر، ومحاولة فهم الأسس التي ارتكزت عليها، والطرق التي اعتمدتها عملية البناء الحضاري في الغرب، ومقومات هذه الحضارة والأهم من ذلك افرازاتها على صعيد واقع الانسان والكون، لأنه كما يُقال: «العبرة بالنتائج».

فهذه الحضارة لم تُبنَ من فراغ، وانما استفادت من التجارب البشرية السابقة وعلى رأسها الحضارة الاسلامية وارثها العلمي والثقافي، وطوّرت معارفها حسب منهجية تعتمد على العقل البشري فحسب.

كما أن هذا الصرح الحضاري قام، في جزء منه، على نهب خيرات الشعوب وثرواتها زمن الاستعمار وبعده، وعلى استغلال الانسان الأبيض لأخيه الانسان، خارج الفضاء

(١) محمد النعقي: «أزمة الحضارة الغربية وارهاسات دورة تاريخية جديدة»، مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٠٩٧)، ١٥ ذو القعدة ١٤١٤هـ - ٢٦ / ٤ / ١٩٩٤م، ص ٤٢.

الغربي وداخله، كما يشهد على ذلك واقع المهاجرين إلى الدول الغربية، بحثاً عن الرزق والعلم، نتيجة الخصاصة والحرمان، والتبعية واختلال أنظمة التعليم، وهي مظاهر سائدة في شعوب ما يُسمى بالعالم الثالث... فكم من مهاجر بالساعد شارك، بوعي أو بدون وعي، في عملية التشييد والبناء، وكم من مهاجر بالفكر لم يجد في بلاده الاحترام والتقدير اللائقين فتبنّاه الغرب ووظّف علمه بما يخدم المصلحة الغربية.

أمّا فيما يتعلق بالنتائج، فيكفي طرح التساؤل التالي: هل استطاع النموذج الغربي أن يُسعد الانسان، وأن ينشر في الأرض العدل والسلام؟

صحيح أن الحضارة الغربية ساهمت في تحقيق نتائج ايجابية عديدة مثل فتح آفاق جديدة، عبر الاكتشافات المتنوعة: برّاً وبحراً وجوّاً، وسبر أغوار الجسم والنفس، وطرح مناهج دقيقة في البحث العلمي، وتجارب مفيدة في التسيير الاداري والسياسي... لكن رغم كل هذه النتائج يعيش الانسان في الغرب، وفي البلدان المقلدة للنموذج الغربي، أزمة وقلقاً حضاريين.

ولم يسلم محيطه أيضاً من الاختلال... وتدخل هذه الأمراض فيما يمكن تسميته بالوجه الآخر للحضارة الغربية^١ وما بين مظهر حضارة الغرب المتألق ومخبرها المأزوم تكمن المفارقة، المدهشة، حيث تجتاز الحضارة الغربية مرحلة لانبالغ حين نصفها بالأخطر، منذ ظهورها على وجه الأرض. فهي وشيكة الانهيار اذا نظرنا مشكلاتها حيناً، لكنها حيناً آخر تظهر وكأنها في نقطة البداية، خاصة اذا نظرنا الى انتاجها المادي الهائل^٢. ان روّاد الفكر وعمداء الفلسفة في القرن العشرين يُجمعون على بروز مأزق حضاري، جاء نتيجة، لأنّ إنسان هذا العصر إنسان الحيرة، إنسان القلق، إنسان الاكتئاب، إنسان لا يشبع في استهلاكه، ويبحث عن الرفاهية، وعن الرخاء بأمور يفتعلها ويصطنعها؛ إنسان الحيرة هذا!.. وقد أجادها «يدكر» عميد فلاسفة القرن العشرين في وصف هذا العصر حينما قال: «إنّه عصر يبدو وكفصر شامخ في منظر كئيب، يُعاني سادته من الأرق والقلق، ويُقاسي

(١) المرجع نفسه.

(٢) عبد المجيد احدادن: «الانسان الغربي ميّت انفعالياً وذهنياً بينما يبدو حياً بيولوجياً»، مجلة المجتمع

(الكويت) - العدد (١٤٢٠)، ٥ رجب ١٤٢١هـ - ١٠ / ٣ / ٢٠٠٠م، ص ٤٢.

خدّامه من المرض والجهل والجوع»^١.

وقد أثارت هذه المفارقة انتباه العديدين، وأشار إليها المفكر «محمد أسد»، منذ وقت مبكر من القرن العشرين، وتحديدًا عام ١٩٢٦، حيث كان راكباً مع زوجته في قطار برلين تحت الأرض، في ذات يوم من أيام شهر أيلول، وتركه يسرد ما قرأه بصمت بوعيه الثاقب: «وقعت عيني اتفاقاً على رجل أنيق الملبس جالس قبالي، كان، على ما بدا لي، تاجراً تبدو عليه آثار النعمة والثراء، على ركبتيه حقيبة صغيرة جميلة، وفي اصبعه خاتم ماسي كبير. وأخذت أفكر بتكاسل كيف أن مظهر هذا الرجل الحسن كان يعكس الرخاء الذي كان المرء يقع عليه في كل مكان من أوروبا الوسطى في تلك الأيام.. لم يكن الرجل قبالي خلافاً لغيره من الناس. إلا أنني عندما نظرت إلى وجهه خيل إلي أنني لم أكن أنظر إلى وجه سعيد، فقد بدا لي قلقاً: لقلقاً فحسب، بل شقي بصور حادة، ترسل عيناه نظرات فارغة إلى الامام، وزاويتي شفتيه متقلصتان ألماً.. ألماً غير جسماني. واذ لم أرِد أن أكون وقحاً، فقد أشحت بوجهي فرأيت إلى جانبه سيدة على شيء من الظرف. لقد كان وجهها هي أيضاً يعبر تعبيراً غريباً عن عدم سعادتها، كأنما كانت تعاني أو تفكر في شيء يسبب لها الألم. ومع ذلك كان نغرها يفتّر عما يشبه ابتسامة جامدة لم أشك في أنها لا بد أن تكون عادية لديها. وعندئذ أخذت أجيل بصري في جميع الوجوه الأخرى - وجوه أناس كانوا جميعهم دون استثناء يرتدون الملابس الحسنة ويقتاتون بالغذاء الجيد - وفي كل وجه منها استطعت أن أميز تعبيراً عن الألم الخبيث، إلى درجة أن صاحبه بدا وكأنه لا يشعر به»^٢.

وبعد هذه الجولة «التنقيبية» العابرة في أغوار النفس الغريبة، يعود محمد أسد (ويومها لم يكن قد اعتنق الاسلام)، ليعقب: «الحق ان هذا كان غريباً فأنا لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا العدد من الوجوه النعسة من حولي... أو لعلني لم أبحث من قبل عما كان ينطق فيها بمثل تلك الجهارة؟ كانت الانطباع قوية إلى درجة جعلتني أذكرها لزوجتي، فأخذت هي أيضاً تنظر حولها بعيني رسام حريص اعتاد دراسة القسمات البشرية، ثم استدارت إلي

(١) نقلاً عن مقال «المسلمون وتحديات المستقبل» د. رشدي فكار، المنشور ضمن كتاب «الاسلام والمستقبل»، الكويت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٢٧٥.

(٢) يراجع كتابه القيم: «الطريق إلى الاسلام» تعريب غيف البعلبكي، ط ٥، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

دهشة وقالت: أنت على حق... أنهم جميعاً يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم.. واني لأتساءل هل يعرفون هم أنفسهم ماذا يعتمل في نفوسهم؟».

ويسارع «أسد» إلى الجواب: «لقد عرفت أنهم لم يكونوا يعلمون.. وإلاّ لما كان بأستطاعتهم أن يستمروا في اضاءة حياتهم وتبديدها كما كانوا يفعلون، دون أيّما ايمان بالحقائق الرابطة، دون أيّما هدف أبعد من الرغبة في رفع «مستوى معيشتهم»، دون أيّما أمل غير حيازة المزيد من الملذات المادية والمزيد من الممتلكات، ولربما المزيد من القوة...»^١.

ليس خافياً أن هذه الملاحظة العابرة التي أبداها محمد أسد، وهو في رحلة قطار، كانت معبرة وتنطوي على دلالات ذات أهمية خاصة، بدليل ان الانتباه اليها مثل لدى محمد أسد المحطة الأخيرة، قبيل عبوره وزوجته إلى الضفة الأخرى. أي الاسلام. بعد أن نفّض يديه تماماً من جدوى الحضارة الغربية، والمضي تحت ماديّتها وضياعها واستعبادها.

على حافة القلق الهستيري:

وحين نسمح لأنفسنا اطلاق هذا الاتهام لحضارة الغرب، فليس مردّ ذلك موقفاً نفسياً أو عداًئياً، بقدر ما تعكسه فلسفة الغرب من استغراق في اللذة والمنفعة، وحب الاستئثار بها، ابتداءً من تنافس الأفراد في المهنة الواحدة حتى الصراع المسلح بين الشعوب والكتل^٢ ولهذا نجد الغرب قد بنى حضارته على قيم القوة لا على قيم الحق... وكل القيم عند الغربيين تتأسس على قيمة مركزية هي قيمة القوة. فالحق ذاته - كقيمة - أساسه القوة، واعتبار قيم أخرى كالحرية واحترام الغير... إنّما هو بمقدار ما يخدم مزيداً من امتلاك أسباب القوة^٣ التي تبيح لهم الحفاظ على المصالح الاستراتيجية وتكريسها.

وتكمن الخطورة البالغة في تقديس الغرب لقيمة العلم حينما يتأكد لدينا بأنه «لا يفعل ذلك انطلاقاً من اعتبار ديني أو أخلاقي، وأنّما لأنه أداة لتسخير امكانيات الطبيعة وتطويعها في خدمة الانسان، ولهذا نجده يحيط الكسب العلمي بكل الضمانات، ويؤمن بحرمة

(١) المرجع نفسه: ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٢) محمد المبارك: «مذكرات في الثقافة الاسلامية»، دار الفكر (د.ت)، ص ١٧.

(٣) محمد يتيّم: «التغيير الحضاري بين قيم الحق وقيم القوة»، مجلة الإصلاح (دبي)، العدد (٣١٤)، ١٧ - ٢٣ /

١١ / ١٩٩٤ م، ص ٥٣.

الجامعة، ويضع من القوانين والاجراءات ما يؤدي إلى زجر كل سلوك يحول دون أداء وظيفتها العلمية. ان الغرب يؤمن بالحرية في المجال الجنسي، وهي حرية تصل إلى حد الاباحية: فمادامت العلاقات الجنسية قائمة على الرضى فلا يهم أن تكون منافية للأخلاق أو لآداب اجتماعية أو قيم دينية. ولكن يقف بصرامة في وجه التحرّش الجنسي، اذا كان ذلك سيؤدي إلى الاخلال بالسير العام للتحصيل العلمي في الجامعات! ^١.

ولا تعدم المنظومة الغربية فلاسفة كباراً ومثقفين مرموقين يواصلون (ابداعهم) المعرفي في التنظير لفلسفة القوة، والتوغّل بعيداً في هذا الاتجاه، وخاصة ما ينتسب بعمق إلى أعمال الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤م) بشكل خاص. حيث تتكشف منطلقات متعددة لعل أهمها أن يكون مفهوم جديد للقوة والشبكة الخفية من علاقات القوة التي تنسجها المعرفة ^٢ حيث تحل تكنولوجيا السيطرة محل الأيديولوجيا المسيطرة. فالعلم سلطة، والرأي قوة، ووجهة النظر معركة، ولا مجال هنا للصواب والخطأ بل لميزان القوى ليس الراهن بل في المستقبل ^٣.

هذه المنظومة المعرفية الغربية تقودنا إلى الطريق المسدود، واذا تابعنا نفس الخطة فمعنى ذلك الانتحار لأهل هذا الكوكب. ان نظام التنمية والتطور الثقافي في الغرب قد أفلس، كما يؤكد غارودي وهذا واضح للعيان. لقد صرف للتسلّح على سطح هذه الكرة الأرضية عام ١٩٨٢م مبلغ ٦٥٠ مليار دولار، ولو وزّع هذا المبلغ، على أفراد البشرية، لأصاب الفرد الواحد أربعة أطنان من المتفجرات. في حين نرى أن في نفس تلك السنة، هناك أكثر من ٥٠ مليون انسان، يموتون بسبب الجوع وسوء التغذية...!! ^٤.

فماذا يعني هذا؟!

(١) المرجع نفسه، كما حصل في جامعة كيبيك بمونتريال في كندا التي أصدرت قراراً عام ١٩٨٩م تبنت فيه سياسة ضدّ المضايقة الجنسية، وحق الفرد في الدراسة والعمل في وسط خال من المضايقة الجنسية.

(٢) تراجع مقدمة كتاب «الاستشراق» لأدوارد سعيد، التي كتبها المترجم كمال أبو ديب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٤م، ص ١.

(٣) د. حسن حنفي: «مقدمة في علم الاستغراب»، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٥١٤.

(٤) للمزيد تراجع الحوار الذي أجرته معه مجلة المستقبل (المحتجبة الآن) باريس، العدد (٤٢٨) - ٥ / ٤ / ١٩٨٥م، ص ٥٠-٥٤، وكذلك تراجع نص المحاضرة التي ألقاها غارودي في باريس والمنشورة في مجلة المختار الاسلامي (مصر) - العدد (٤١) - رجب ١٤٠٦هـ - أبريل ١٩٨٦م، ص ٦٠ - ٧١.

لقد كرس غارودي كثيراً من جهده الثقافي لاثارة مكان من الوعي حيال هذا الشبح المخيف المخبى على البشرية ويهددها في أية لحظة. وهنا ينبري غارودي للاجابة: «هذا يعني أن نظامنا قد أفلس تماماً. حين يبدأ أهم مفكري الغرب بنشر فلسفة اليأس والعدم.. وحين تصبح زيادة الانتاج هي «الاله الخفي» لمجتمعات الغرب، أي الانتاج أكثر فأكثر في أي مجال، سواء أكان مفيداً أم غير مفيد، أو ضار أو حتى مميت كإنتاج الأسلحة.. وحين يصبح المجتمع الغربي ليس له هدف سوى ذلك.. فهذا يعني برأيي أن الغرب قد أفلس.. وهذا الافلاس يبدو اليوم واضحاً في ميدان الأدب، والفن، والقيم، والأخلاق.. الخ»^١.

وفي مجال آخر يضيف: «من الصعب أن نسمي خط سير الحضارة الغربية وتوصلها إلى إمكانية تدمير الحياة على سطح الأرض وانتهاء ثلاثة ملايين سنة من تاريخ البشر، لا يمكن ان نسمي ذلك، بحال من الأحوال، تقدماً^٢، وأين هو التقدم.. وهذا «الوحش التكنولوجي» - على حد تعبير أحد الباحثين المغاربة - متوثب لافتراس البشرية جمعاء؟!.

هذه الصورة المفزعة، إلى حد الكابوس، كانت احدى الدواعي الملحة للكاتب الفرنسي «سيرج لاتوش» لكي يتوج مشروعه الفكري بأكثر الاشكاليات توتراً في عالمنا المعاصر، من خلال كتابه «تغريب العالم»، الذي أدان فيه «وحشية الحضارة الغربية» بطريقة عنيفة ترقى إلى درجة «جلد الذات».

وقد تساءل «لاتوش» اذا كانت صفحات كتابه انتقادت إلى تسويد لوحة العالم بفعل الغرب، وانتقاد هو إلى الكراهية للذات التي تدفع إلى اعلان سقوط بابل؟ ويعترف بأن واقع انتمائه إلى أوروبا العجوز بوصفه فرنسياً، يجعله عرضة للتشاؤم والتنبؤ باقتراب نهاية العالم، فمخزون الأسلحة النووية كافٍ تماماً لالانتهاء من هذا الكوكب في غضون ثوان قلائل. ان آلة الغرب الشيطانية تسعى بحماس إلى تدمير البشر والثقافات وسحقهم.

ومع اقراره بأن «الغرب قد حقق بالفعل مدنية ضخمة تكاد تتكلم لغة واحدة، لكنها مدنية مشوهة يسودها الظلم والكراهية والعنف.. فهل انقلب الحلم الى كابوس؟»^٣.

(١) مجلة المستقبل؛ المرجع السابق ٤٢٨: ٥٣.

(٢) مجلة المختار الاسلامي؛ مرجع سابق.

(٣) يُراجع مقال «وحشية الحضارة الغربية كما يراها سيرج لاتوش» لمحمود الورداني، ملحق صحيفة الحياة

إنّ الصيحة التي أطلقها «اوبنهايمر» قبل ست وخمسين سنة (تحديداً: ١٦ / ٧ / ١٩٤٥م): «يا الهي ماذا صنعت؟» عادت تدوي مرّة أخرى في صفحات كتاب صدر مطلع الثمانينات من القرن الماضي، تحت عنوان «مصير الأرض The Fate of the Earth». فقط كانت الصيحة الجديدة تختلف، فالأولى أطلقها «أبو القنبلة الذريّة» عندما توصّل «اوبنهايمر» العالم الأمريكي الألماني الأصل إلى إنتاج أول قنبلة ذرية، ثم وقف يرقبها من بعيد أثناء تجربتها في صحراء ترينيتي بولاية نيومكسيكو، وهاله ما رأى فصرخ! أما الصيحة الثانية فهي لمؤلف الكتاب «جوناثان شيل Janathan Schell»: «يا الهي ماذا صنعوا بنا؟» وقد تصدّر كتابه - حينئذ - قائمة أكثر الكتب مبيعاً، فهو يحمل آخر انذار قد يُنّاح للبشرية الانصات اليه!

وبالرغم من أنه قد يبدو من غير المناسب أن نتحدث عن «الحضارة» بنفس الروح التي نتحدّث فيها عن موت مئات الملايين من البشر، إلّا أنه لا بدّ من الإشارة على الأقل إلى أنه في حالة حدوث حريق نووي، على نطاق واسع، في نصف الكرة الشماليّة، فسوف تنتهي حضارة أوروبا والصين واليابان وروسيا وأمريكا، وستزول تماماً من سطح الأرض. ومما يزيد من حرجة الموقف: أن هذه القوة التدميرية من الصعب أن نقول أنها ملكنا. فهي من الممتلكات الأساسية للمادة. والطاقة النووية من صنع بارئ الخلاق، ولم نفعل أكثر من اكتشافها. أما الذي نمتلكه حقيقة فهو المعرفة التي مكنتنا من استغلال هذه الطاقة. وأما فيما يتعلّق بالخلق فما زالت الأشياء قائمة كما قامت دائماً. ولكن مع مزيد من القوى البشرية التي انجزت المعجزة والتي يجني البشر ثمارها.

وبعد أن يبدي «جوناثان شيل» حماساً يقف على حافة القلق الهستيرى، بسبب ما يراه من جنون جماعي يكتنف الواقع.. وهو جنون لا يتميّز بالصراخ والثورة، ولكنه واضح بالتحديد لأننا لانصرخ ولا نثور في وجه هذا الخطر الساحق، كما لو كنا جميعاً واقعين تحت تأثير مخدّر، وهذا هو الجنون الذي يعنيه.. ليصل إلى الدور الذي يجب أن نقوم به بعد هذا كله: «إن دورنا المتواضع ليس في خلق أنفسنا، ولكن في الاحتفاظ بأنفسنا، لأن البديل هو الاستسلام للظلام الشامل الأبدي.. وهو ظلام لن تبقى فيه أمة، ولا مجتمع، ولا أيديولوجية، ولا حضارة.. لا شيء إطلاقاً.. ظلام لن يظهر فيه الجنس البشري مرّة أخرى

على سطح الأرض، ولن نجد معه انساناً واحداً يذكر بأنه كان هناك بشر على الأرض»^١. هذه النهاية المأساوية المثيرة للהלح الهستيرى هي نتيجة حتمية لأية حضارة غارقة حتى الهام في وحل المادية، كما وان ذلك افراز طبيعي لبربرية هذه الحضارة التي تفتقر إلى القيم، وتغذ السير نحو الكارثة بلا وازع من ضمير.

ومع التسليم بصواب المنهج الذي يتناول دراسة التراث الغربي كوحدة واحدة وكموضوع واحد متجانس، خاصة وأنه يكشف عن بناء واحد للشعور الأوروبي، وإمكانية التعرف على بناء الشعور الأوروبي وتطوره كموضوع فلسفي واحد عن طريق فلسفة الحضارة أو فينومينولوجيا التاريخ، كما عمد «سولوفيف Soloviev» (١٨٥٣ - ١٩٠٠) في رسالته للدكتوراه «أزمة الفلسفة الغربية» ولم يتجاوز بعد سن الواحد والعشرين عاماً^٢. ما نود قوله: لو أتيج لسولوفيف هذا أن يمتد به العمر، ويشهد المأزق الخطير الذي تعيشه البشرية في شبح الأسلحة النووية.. سيجد نفسه مجبراً على إعادة النظر في العديد من متبنياته وأحكامه على حضارة الغرب، وهو يرى منظر الدمار الهائل والمعاناة والموت، خلال الحربين العالميتين، ولا أحد يدري مدى شعوره باليأس والهزيمة الذي سينتابه حين يرى البشرية وهي تواجه هذا القدر الهائل من الرعب.

وإذا ما تعاظمت البشرية، لهذا السبب أو ذاك، عمّا يحيق بها من مخاطر نووية، لأنها لا تريد أن تعترف بأن حياتها قد تؤخذ منها في أية لحظة، وان العالم الذي تعيش فيه سوف يُدمر وينحوّل إلى تراب.. أو ببساطة أنّها لا تريد أن تواجه الحقيقة..!، فإن ذلك لا يغيّر من حقيقة الأمر الواقع شيئاً. وحال البشرية، هنا، لا يختلف شيئاً عن النعامة التي تلجأ إلى دس رأسها في التراب، حينما تواجه خطراً داهماً!!.

إن المخاوف الكبيرة التي تساور العقلاء هي التي دفعت بنادي روما إلى اصدار كتابه الشهير الموسوم بـ «وقف النمو» ومما جاء فيه: «إننا نسير نحو المستقبل كما نسير نحو هاوية ألقينا فيها كل شياطيننا». وفي التقرير الثاني للنادي الموسوم بـ «استراتيجية الغد».. كان الفصل العاشر تحت عنوان مثير «معجزة التكنولوجيا أم ميثاق مع الشيطان؟»، وجاء

(١) للمزيد من الاطلاع على أهم مضامين الكتاب يُراجع التعريف الذي نشرته مجلة العربي (الكويت)، في عددها (٢٨٦) - سبتمبر ١٩٨٢م، ص ١٧٦.

(٢) د. حسن حنفي: «في الفكر الغربي المعاصر» ط ٤، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ١١.

فيه : «إن آخر معجزة للتكنولوجيا - ويشير هنا الى تكنولوجيا الطاقة البديلة ، ممثلة بالطاقة النووية - توشك أن تكون صفقة كصفقة «فاوست» مع الشيطان، من شأنها أن تورث الأجيال القادمة أخطاراً رهيبية».

ان هذا التحالف لا يعني تدمير الحضارة الانسانية فحسب ، بل كل اشكال الحياة على الأرض ، وهذا ما يدفع البشرية ويدفع العقلاء منها للتساؤل عن طبيعة هذا الميثاق وعن جدوى التقدم على الطريق المسدود ، وعن ماهية التقدم التكنولوجي والذي ينحو لأن يختصر تاريخ الحضارة البشرية فيه ، وعن ماهية المجتمع الصناعي والى أين مساره ؟ فلقد غطت التكنولوجيا وجه الأرض ليس فقط بأجهزتها وفباركها الصناعية بل وبالملفوظات والنفايات المعدنية والكيميائية والذرية وأكوام الخردة وما شابهها ؛ صفيح صدىء وعوارض فولاذ ملتوية ، قطع غيار عديمة النفع ، وأدوات غير صالحة مطروحة هنا وهناك ... كأنما هي تذكرة للناظر الواعي باللاديمومة والحياة القصيرة المتلاشية للعملية التي يشهدها هذا القرن (ويقصد القرن العشرين) ، انها تشير الى حقيقة ما يجري والى تقدير مدى التقدم^(١) . وسواء وعت البشرية عمق الكارثة أم لا ، فان الانسان الذي يعيش على هذه الأرض والمهددة في كل لحظة بالفناء ، ينوء كاهله بأمهات الأزمات التي تحاصره من كل الاتجاهات .

أزمة القيم المستفحلة :

وليس أدل على ذلك من الانعكاسات المدمرة التي تتركها التحديات الخطيرة والعديدة ، في آن معاً ، على الصعيد السيكولوجي للانسان ، لاسيما في ظل تدفق التساؤلات الحائرة ، والتي لا يبدو أن هناك جواباً شافياً لها !

ما هي غاية الحروب التي يعيشها الانسان المعاصر اليوم ؟ وما هي حقيقة تأثيراتها السلبية على الصعيدين النفسي والصحي خاصة بالنسبة للأطفال ؟ وكيف يمكننا نحن الكبار البالغين أن نجيب على تساؤلات الصغار ، حول مفاهيم الحرب النووية ومبرراتها ؟ والى أي مدى تؤثر هذه الحرب على حياتهم ، حتى في حالة عدم وقوعها في الوقت الحاضر ؟

(١) تركي علي الربيعو : «مدخل لدراسة أزمة النمط الحضاري المهيمن ، التقدم التكنولوجي على الطريق المسدود» ، مجلة «منبر الحوار» (بيروت) - العدد (٣٠) ، خريف ١٩٩٣م ، ص ٢٣ .

وهل يمكن بالفعل ان نقلل من مخاطرها وتأثيراتها السلبية عليهم خلال أوقات السلم؟ وما هو دور الحكومات والأفراد في هذا الصدد؟ وكيف يمكن لأولياء الأمور تعميق فهم الصغار بصدد حيثيات الحرب النووية؟

كانت هذه التساؤلات وغيرها تمثل المحور الأساسي للمناقشات التي دارت في مؤتمر «الأطفال وخطر الحرب النووية» الذي عقد خريف عام ١٩٨٧م، في مدينة أدنبرة باسكتلندا، تحت رعاية مجموعة من الهيئات المعنية برعاية الطفولة، مثل هيئة اليونسيف العالمية، صندوق انقاذ الطفل والهيئة البريطانية للتعليم الطبي. وقد قام بتنظيم المؤتمر مجموعة من كبار الأطباء وعلماء النفس البريطانيين المنتمين للحملة الطبية المناهضة للأسلحة النووية.

استهدف المؤتمر - الذي يُعدّ الأول من نوعه على الصعيد البريطاني - بصفة أساسية تعميق فهم أولياء الأمور للآثار السلبية المباشرة وغير المباشرة للحروب، فيما يتعلق بالأطفال، وكذلك توعيتهم بأفضل الأساليب العملية للتغلب على مخاوف الصغار ازاء الحرب النووية^١.

وتشير الإحصائيات الواردة عن هيئة اليونسيف العالمية إلى أن الأطفال يشكلون ثلثي العدد الكلي لضحايا الحروب من بين المدنيين، كما انه حتى في وقت السلم واختفاء الحروب التقليدية في بعض البقاع فان ٨٠٪ من أطفال العالم يخشون كابوس الحرب النووية. بل وحتى أطفال الخيام الذي تشردوا تحت وطأة الحرب فانهم يكونوا عادة أكثر عرضة من غيرهم للمعاناة العاطفية والاضطرابات العقلية، وذلك كنتيجة لانهايار عالم المثل والقيم التي ورثوها عن أولياء أمورهم، وظنوا في يوم من الأيام أنهم يستطيعون تخليدها وحمايتها^٢.

(١) من نافلة القول التأكيد بأن المخاوف ليست مقتصرة على الصغار، وإنما للكبار مخاوفهم أيضاً وبشكل أعمق. وهذا الأميرال «ستانسفيلد ترنر» الذي بالاضافة إلى خبرته العسكرية عمل رئيساً للسي. أي. أي. في زمن الرئيس كارتر.. يطلق صرخة تحذير في كتابه «حبس الجنى النووي: تحدّ أمريكي لأمن عالمي» (Caging The Nuclear Genie: An American Challenge for Global Security)، والصادر في ١٩٩٧م، طبعة اكسفورد.. وكثيرون غيره في هذا الاتجاه.

(٢) يُراجع مقال: «حان وقت الاستيقاظ»، بقلم ي. ي. المنشور في مجلة العالم (لندن) - العدد (١٩٧)، ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧م - ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٨هـ، ص ٦٣ - ٦٥.

وفي استبيان خاص قام به فريق من علماء النفس الأمريكي الممثلين لجامعتي جورج واشنطن وهارفارد الأمريكييتين.. اتضح بأن حوالي ٩٣٪ من الصغار يؤمنون بأن وقف التسلّح النووي من واقع الوعي الكامل بمخاطره، أنّما يمثل السبيل الوحيد لانقاذ البشرية من شروء الحرب النووية^١.

يذكر أن هناك أكثر من ٢٦ منظمة مناهضة للتسلّح النووي على الصعيد البريطاني.. وكلها تستهدف مقاومة النشاط النووي من خلال نشر الوعي القومي بين الأفراد^٢.

غني عن القول أن هذا الكابوس المخيم على هذه النسبة العالية من الأطفال، ليس سوى دليل صارخ على مدى الاضطراب والتخبط اللذين ترزح تحتهما حضارة الغرب. ولو أن هذه الفوضى وقفت عند «القيم المادية» لهان الأمر، ولكن خطرها في الحقيقة قد امتد أيضاً إلى «القيم الأخلاقية» فأصبح الغربي المعاصر مسرحاً أليماً للكثير من المتناقضات الحادة. والواقع أن مشكلات العالم الغربي المعاصر لم تعد مجرد مشكلات «تكنيكية» قد يكون التقدم الصناعي هو الكفيل بحلّها على مر الزمن، وأنّما هي قد أصبحت مشكلات أخلاقية عسيرة، هياها لأي مصلح اجتماعي أن يجد لها حلاً. وقد لا نكون مبالغين - يقول د. زكريا ابراهيم - إذا قلنا أن مستويات المعيشة لم تبلغ في يوم من الأيام مثل هذا الارتفاع الذي بلغته في المجتمع الغربي المعاصر، ولكن الفوضى الأخلاقية - في الوقت نفسه - لم تصل يوماً إلى مثل ما وصلت إليه اليوم، في معظم بلاد أوروبا وأمريكا! وآية ذلك أن أساليب الرفاهية في البيت الحديث قد أصبحت ظاهرة عامة تنعم بها معظم الطبقات، ولكن «البيت» Home (بالمعنى الروحي لهذه الكلمة) لم يعد يعني شيئاً بالنسبة إلى الكثيرين^٣.

وقد تزايدت قدرة الانسان الغربي المعاصر على التحكم في بيئته المادية، ولكنه في الوقت نفسه لم ينجح حتى الآن في الاهتداء إلى الطرق الفعالة من أجل التحكم في السلوك البشري تحكماً عقلياً رزيناً. وعلى الرغم من أن العالم الحديث قد أصبح يضع بين يدي الانسان المعاصر الكثير من الفرص لممارسة حريته وتنشيط شعوره بالمسؤولية، إلا أن

(١) المرجع نفسه: ٦٥.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) للمزيد يُراجع مقالة: «أزمة القيم في العالم الغربي المعاصر»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (١٠٤): ربيع الأول ١٣٨٧هـ - يوليو (تموز) ١٩٦٧م، ص ٦٠-٦٦.

فزع الكثيرين من مواجهة مصيرهم بشجاعة ورباطة جأش قد عمل على انتشار اسلوب جديد من المعيشة، الا وهو أسلوب «اللامبالاة» أو «اللامسؤولية». ولا شك أن تزايد اهتمام الناس بأساليب التسلية واللهو وتمضية أوقات الفراغ، قد أسهم -الى حد كبير- في التقليل من احساسهم بضرورة ممارسة حرياتهم، والعمل على اتخاذ تصميمات ارادية تزيد من شعورهم بالمسؤولية.

وقد فطن بعض الباحثين إلى ارتباط فوضى «القيم الأخلاقية» بفوضى «القيم المادية»، فذهب إلى أن التغير الاقتصادي السريع الذي طرأ على الكثير من أنظمة المجتمع الغربي المادية قد عمل على زعزعة الكثير من القيم الأخلاقية التقليدية.. ولما كانت أنماط الحياة الاجتماعية قد تغيرت، فليس بدعاً أن يتغير شكل المشكلات الخلقية نفسها، لدرجة أن الاجابة التقليدية على الاسئلة التقليدية لم تعد تلائم الواقع. ولنضرب لذلك مثلاً فنقول أن مسألتى «الجنس» و «الحرب» -وهما من أهم ميادين الحياة الأخلاقية- قد أصبحتا اليوم مختلفتين تماماً عما كانتا عليه، منذ قرن من الزمان، بل حتى منذ نصف قرن، لدرجة ان الصيغ التقليدية التي كنا نواجه بها هاتين المشكلتين لم تعد تلائم العصر!، وآية ذلك أن مشكلة الحرب -مثلاً- لم تعد مسألة محدودة تهتم أهل التخصص من رجالات الجيش، بل هي قد أصبحت خطراً عاماً يهدد الشعوب بأكملها، بل الحضارة الانسانية بأسرها.

وأما فيما يتعلق بمشكلة الجنس، فان ثمة أموراً كان يجزع لها ضمير الأسلاف، بل كانت في نظرهم مسائل مردولة لا يقرها الرأي العام، ولكنها أصبحت اموراً عادية يقرها الضمير العام، ولا أحد يشكك في شرعيتها. ومن هنا أصبحت «المحرمات التقليدية Traditional Taboos» موضع شك وارتباب من جانب الكثيرين، إن لم نقل بأن كل أو جل القواعد الأخلاقية، في مضمار الحياة الجنسية، قد استهدفت لتغيير جذري حاسم^١. وحسبنا ان نظر إلى مشكلة «التلقيح الصناعي»، لكي نرى إلى أي حد أدى التقدم التكنيكي إلى بلبلة الرأي العام من الناحية الأخلاقية.. وربما كانت أخطر ظاهرة أخلاقية يشهدها اليوم المجتمع الغربي الحديث انما هي ضعف «سلطة الآباء». وقد يكون السبب في هذا الضعف أن الآباء أنفسهم قد أصبحوا عاجزين عن تكوين آراء أخلاقية واضحة عن الخطأ والصواب، أو الفضيلة والرذيلة، بحيث أنهم هم أنفسهم لم يعودوا يعرفون ما هي

المعايير التي لا بدّ لهم من أن يأخذوا أبناءهم بها!

ومن هنا فانا نجد لدى الكثير من الأفراد في عصرنا الحاضر تحللاً من القيم، وانصرافاً عن كل سعي وراء الحقيقة، بدعوى أن لكل فرد قيمه الخاصة وحقائقه الفردية، وكأن الأمر متوقف تماماً على التفكير الفردي أو التأمل الشخصي! وربما كان السبب في انتشار هذه «النزعة النسبية» ما لاحظته البعض من أن جانباً غير قليل من السلوك الذي كان المجتمع الغربي يعدّه «خطيئة» منذ قرن من الزمان، قد أصبح اليوم سلوكاً عادياً لا مطعن فيه ولا جناح عليه! وهكذا أصبح الايمان بقيم مطلقة أو «حقائق أزلية أبدية» ضرباً من التفكير البالي العتيق، وصار الحديث عن أية «مبادئ أخلاقية» عامة أو ثابتة حديث خرافة لا يكاد يصدقه أحد!

وهناك ظاهرة أخرى قد أصبحت، في الوقت نفسه، لسان حال لمعظم أفراد الجيل الغربي الحديث، وتلك هي الايمان بالحظ، والاعتقاد بأن الحياة مجرد «ورقة يانصيب» قد تُكسب أو تُخسر!.. ولكن ربما كانت المحنة الكبرى، التي أصبح المجتمع الغربي اليوم يعاني من ويلاتها الكثير، انما هي محنة «الشك» أو «الارتياب» أو «اللاأدرية»، ومن المؤكد أن عصرنا بلا ايمان انما هو عصر عقيم لن يلبث التاريخ أن يقذف به إلى زوايا النسيان^١.

ولو أخذنا أمريكا كنموذج متألق -اليوم- لحضارة الغرب، على الصعيد المادي، فانا سنصاب بالفرع لما ينخر في أوصالها من مظاهر التفسّخ، وحتى لا تُتهم باننا نتقول على الغرب، نترك الحديث للأمريكي «يوسف دوغلاس كيللي» الذي شرح الله صدره للاسلام، اذ يقول عن محيطه، وأهل الدار أدري بشعابها: «خلال هذه السنوات، ومنذ أن كنت طفلاً، لاحظت أن أمريكا كانت يوماً بعد يوم تفقد عقيدتها بالله لتستبدلها بالعلم والقوة والمال، ربّما انها فقدت ايمانها، فهي بالتالي قد فقدت حياتها الأخلاقية. لقد حلّ الكذب النفعي محل الصدق، والمزاحمة في الحياة محل الحب للناس، والتنافس أصبح من أجل الحصول على المزيد والمزيد، وحلّ الربح مهما تكن تكاليف الوصول إليه محل ما هو مشروع وحق، فأُن تكون غنياً فهذه فضيلة، وإن تكون فقيراً فهي رذيلة، بل حتى جريمة. تبدو أمريكا اليوم قويّة وغنية، ورغم أن هذا مهم إلا أنها في حالة انهيار؛ فالعائلات مفككة، والأطفال

(١) لمزيد من التفصيل يراجع المرجع نفسه: ٦٢ - ٦٥.

يحكمون البيوت، والأزواج والزوجات والأولاد يعانون من تناقص الحب بينهم والعناية بهم. والنساء والأطفال يهجرون ليصبحوا تحت رحمة نظام المعونات أو إلى ما هو أسوأ، حيث يتكون بلا شيء في الشوارع. لقد حلت الرياضة والتلفاز والسينما محل عبادة الله، وأصبحت الحياة فارغة ويائسة، والناس في كل مكان في تراحم مسعور مسارعين لابتعاد الانهيار الأخير عن بقية حياة تركوها لهم، فهم يعملون وينفقون ليعتدوا بأنفسهم عن الآلام والضيق الذي يشعرون به نتيجة المخدرات والمسكرات والجنس...»^١

إن التصاعد الذي تشهده أزمة الفكر المادي، عشية دخول الألفية الثالثة، كان حافزاً قوياً لكي تجري الاستعدادات في كافة الدول من أجل القرن الجديد، حيث تزداد التكهّنات الدينية (المسيحية - اليهودية) باقتراب نهاية العالم، وتندرج بوقوع الكوارث الطبيعية، الأمر الذي أثار انتباه الكتاب والمفكرين والعلماء الذين اتجهوا إلى مراجعة مسار الإنسانية. ويتأمل مئات الفلاسفة والمفكرين في أبعاد هذه المحطة الزمنية الفاصلة من تاريخ البشر... ويرى الأديب الجيكي «فاكلف هافال» أن الأزمة الحقيقية التي تواجه مسيرة الإنسانية اليوم، وخصوصاً في المجتمعات التي تأسست على المادية والاحاد، هي أزمة ضعف القيم في ضمير الإنسان ووعيه والتي يعزوها إلى غياب الإيمان عن وعي الإنسان بوجود خالق وبوجود هدف وراء الخلق وبتحمل الإنسان مسؤولية معنوية إزاء الخلق والخالق. والمعروف أن الكاتب الأديب «هافال» هو ذو ثقافة علمانية أبعد ما تكون عن التربية الدينية وتسلك الشهرة السياسية بسبب آرائه العصرية، وازدادت شهرته بعد أن انتخبه الجمهور الجيكي أول رئيس لبلاده بعد نهاية الشيوعية.

وحينما يردد هؤلاء المفكرون عمق الأزمة القيمية وخطورتها في المجتمعات المادية، فإنهم يشيرون إلى أن موضوع الدين سيحتل مكانة متميزة في جدليات القرن الحادي والعشرين وإلى رجوع البشر إلى الدين من أجل ترسيخ القيم المعنوية المجردة. وهذا ما حدا صحيفة «النيويورك تايمز» الأمريكية إلى القول عام ١٩٩٨م بأن القرن القادم سيكون هو قرن مراجعة الفكر الديني وتجديد الإيمان بالغيب. وفي مقابلة للكاتب والمفكر

(١) يُراجع نص اللقاء معه في مجلة العالم (لندن) - العدد (٦٢٦)، مقال «تصاعد أزمة الفكر المادي في القرن القادم» (من الانترنت)، ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٩٨م - ٢٥ صفر ١٤١٩هـ، ص ٤٠.

«نور من ميلر» أشار فيها إلى قناعته بأن موضوع الدين اليوم هو أعلى درجات الوعي الانساني .

وليست هذه الآراء الجديدة التي ترددها الأقلام الليبرالية في الغرب أو الأقلام ذات الثقافة الشيوعية في الشرق ، هي فعلاً جديدة على المفكرين والفلاسفة المؤمنين الذين طالما كتبوا عن صلة القيم بالجانب الروحي وضرورة الايمان لترسيخ القيم ، إلا أن الجديد في الأمر هو رجوع غير المؤمنين أيضاً إلى الدين وقرارهم بالحاجة إليه من أجل المحافظة على القيم الانسانية ومخاوفهم من أن القيم ستبقى حبراً على ورق ما لم تمد جذورها في وعي الانسان .

إن الليبرالية السياسية والاقتصادية التي نجحت نسبياً خلال القرون الماضية في اجابتهها على الأسئلة الملحة في المجتمع ، تقف اليوم عاجزة عن تقديم أرضية فكرية ومعنوية كافية لتأسيس القيم في مجتمعات القرن المقبل ، وتحوم مجموعة من الأسئلة عند مفكري ما بعد عصر الحداثة والتنوير وهم على أعتاب القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة عن موضوع الجمال ، والعدل ، والخير... والتي بقيت خارجة عن دائرة العقل والسببية وبعد عدة قرون على عصر التنوير وسيادة النزعات العقلية في أوروبا بقيت هذه المدارس العقلانية عاجزة عن تقديم الأسباب الموجبة للايمان بالقيم أو اقناع الانسان بنكران مصالح الذات من أجل مصالح المجتمع أو مصالح الآخر ، ومع نهاية القرن العشرين يقف العديد من رواد مدارس الحداثة ليعلموا عجز مدارسهم الفكرية عن تقديم الاجابات الواضحة لنزعات الانسان الروحية والقيمية والتي كانت السبب الرئيسي للمميز لانسانيته^١.

الى ذلك يشير أحد مؤرخي الحضارات «موريس كروزيه» ، اذ يقول : «وضع تقدم العلوم والتكنولوجيا بين أيدي الاوروبيين طاقة مادية بلغ من شأنها ما أدخل في روعهم تسامي حضارتهم وأفضليتها على سواها من الحضارات الأخرى . وهكذا «أخذ القرن التاسع عشر ينظر إلى حضارته كالحضارة البشرية الفضلى» ، وراح يعتقد أن من حقه فرض هذه النظرية على العالم بالقوة ، حتى تبناها وعمل بها ونهج عليها . إلا أن طمأنينة الضمير الأوروبي لم تتعد هذا القرن ، وقد انتهت أمرها الآن ، كما يستدل من التعابير التي درجوا على

(١) بشي من التصرف نقلاً عن مجلة العالم (لندن)، العدد (٦٢٦)، مقال تساعد أزمة الفكر المادي في القرن القادم، ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٩٨م - ٢٥ صفر ١٤١٩هـ ص ٤٠.

اصطلاحها تشاوماً، اذ كثيراً ما يتردد على شفاة الكتاب عبارات كهذه: «أزمة الحضارة»، و «الحضارة في خطر»، و «الحضارة على المحك»^١.

حضارة الإبادة.. والفضائح:

ان حضارة الغرب لم تعد هي «الفضلى» حتى في نظر أبنائها ناهيك عن الآخرين، لأنها أصيبت بالكساح القيمي، والعقم الروحي، والانحطاط الأخلاقي.. ويكفي دليلاً على ذلك ان هذه الحضارة التي تحكمت في تقاليد القيادة العالمية قد فجرت في أقل من نصف قرن حربين عالميتين دمرت البشرية، فضلاً عن استعبادها واستعمارها لكثير من مناطق العالم مستبيحة لنفسها قنص خيرات الشعوب، بعد أن أباحت قنص السود والقضاء على الجنس الأحمر، ويكفي أن سياسة التمييز في الأجناس والألوان لاتزال معتبرة مع سياسات اجتماعية ودولية حتى اليوم^٢.

وتبرز قضية مسلمي البوسنة والهرسك خصوصاً ومسلمي البلقان عموماً كأهم اداة ثبوتية للحضارة الغربية في نزعتها التدميرية، والتي تأتي فكرة «الإبادة» أو ما تطلق عليه «التطهير العرقي» دليلاً على مدى الهوة السحيقة للانحطاط الذي تتسم به الحضارة الغربية. فبعد نصف قرن من الحرب العالمية الثانية. وفيما كانت البشرية تتوَّج لولوج بوابات الألفية الثالثة.. وفيما كانت مؤسسات دينية - على رأسها الفاتيكان - وفكرية وثقافية وسياسية واعلامية.. منهمة في تدبيح مذكرات الاعتذار لما لحق باليهود من حيف على يد النازية، خلال الحرب العالمية الثانية، ما نود قوله: في هذه الأثناء كانت تدور حرب إبادة للمسلمين - في خاصرة أوروبا نفسها - على مقربة من الأروقة المشغولة بتقديم الاعتذارات لليهود.. وامام مرأى ومسمع الجميع!!

لقد كان الضمير الأوروبي، والطبقة المثقفة فيه يناقش، وباستمرار، المظالم التي حصلت خلال الحرب العالمية للأقليات الدينية والعرقية، وحسب الغرب أنه قد وضع مسؤولية الحرب على ظروفها والأطراف التي أشعلتها، وبالخصوص ألمانيا، ولكن المشكلة المتمثلة بقضية مسلمي البوسنة والهرسك أخذت تطرح، وبعمق، موقع فكرة

(١) تُراجع موسوعة «تاريخ الحضارات العام» بإشراف كروزيه، ط ٢، بيروت، ١٩٨٦م (المجلد الأول، ساهم في ترجمته يوسف أسعد داغر وأحمد عويدات)، ص ١٧.

(٢) محمد علي ضناوي: «مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية» بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ٥٨.

الابادة من اللاوعي الأوروبي.

وقد دخلت فكرة الابادة في صميم وعي أوروبا بذاتها، وكانت أوروبا قد اكتشفت هويتها المسيحية عند الألف الميلادية، ففي هذه الفترة ظهرت تفسيرات للنبوءات المسيحية توحى بنهاية التاريخ واقترب عودة السيد المسيح عليه السلام، وأن قيام امبراطورية مسيحية يسبق ذلك، وكان هذا أساس الحروب الصليبية التي عمقت الهوية الغربية. وانطبعت الهوية الجديدة بالدم الذي خاضت فيه خيول الصليبيين في حملتهم الأولى ودخلهم القدس. ثم أن أوروبا خاضت بعدها معركة تطهير ذاتها المسيحية من اجتهادات الفرق المتنوعة التي لم تخضع للتصورات الثابتة، فقامت فيها معارك طويلة لتصفية الهرطقة والمشعوذين والسحرة، خصوصاً في منطقة الأراضي المنخفضة، وراح ضحيتها المئات والألوف من البشر، وبعضهم لا ذنب له إلا لكونه يتبع نوعاً من المسيحية البدائية التي لم تقبل اطار المؤسسة الثابتة. وقامت في الأندلس مجازر للمسلمين، وتلتها محاكم التفتيش سيئة الصيت التي أحرقت وأعدمت الآلاف، وتولد عنها ما سماه البعض بـ«جنون اصطياد السحرة» في القرنين السادس والسابع عشر.

وإذا كان ذلك جزءاً من تاريخ القرون الوسطى، فإن القرون الحديثة حوّلت الابادة إلى تصوّر نظري علمي مقبول. يقول ماركس عن احتلال بريطانيا للهند: «ان على انكلترا أن تحقق في الهند رسالة مزدوجة: الأولى تدميرية، والثانية احيائية تجديدية: افناء المجتمع الآسيوي وارساء الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا». وكتب انغلز يقول: «ان افناء جميع الشعوب ضيقة التفكير والتي تستحق الرثاء، حتى وان بلغ ذلك محو أسمائهم، ينتج عنه ليس فقط اختفاء الطبقات والسلالات الرجعية من على وجه الأرض، بل وأيضاً شعوب رجعية بكاملها، وان ذلك أيضاً خطوة نحو الامام».

وإذا كان هذا كلام الماركسيين فإن ه. ج. ويلز الليبرالي كتب في مقال له بعنوان «التوقعات»: «ان هذه الهجمات من السود والسمر والبيض القذرين (السلاف) والشعوب الصفراء، الذين لا يتماشون مع المقتضيات الجديدة للكفاءة، عليهم أن يرحلوا». وان «العالم ليس مؤسسة خيرية، واتوقع لهم أن ينقرضوا». وكتب برناردشو يدعو العلماء إلى اختراع طريقة عملية للابادة. وفي رأيه ان «عمليات الابادة يجب أن توضع على أسس علمية اذا ما أريد لها أن تنجز بصورة انسانية وبصورة اعتذارية ولكنها تامة» و«إذا كنّا

نرغب في نوع معين من الحضارة والثقافة، فان علينا أن نبيد جميع أنواع البشر الذين لا موقع لهم فيها»^١.

في الوقت الذي كان فيه هؤلاء المفكرون يطلقون «فتاواههم» بآبادة الآخر، تكون أمريكا قد قطعت أشواطاً بعيدة في تنفيذ هذه المهمة القذرة بل ان حرب إبادة الهنود الحمر شكلت الولادة المسخ للمجتمع الأمريكي. فالعنف والتدمير كانا أساس هذا المجتمع بعد الاغتصاب والاستيطان القسري. ومنذ مطلع القرن الثامن عشر بدأت تتشكل ملامح الولايات المتحدة الأمريكية على أساس إبادة الهنود، والاستفادة من العبيد، والبحث عن الذهب، واستغلال موارد الأرض الجديدة.

لقد كان الأمريكيون الأوائل، الذين بدأوا الهجرة من أوروبا عام ١٦٠٨م، يرون أنهم شعب الله المختار، وان الهنود جنس ملعون يحكمه الشيطان وينبغي إبادة. وفي عام ١٧٠٣ دعا الأب «سلومون ستودارد» إلى استعمال الكلاب لصيد الهنود وقال انه ينبغي عدم الرحمة معهم لأنهم مثل الذئاب.. وقد حكمت نظرهم هذه إلى الهنود وبقية الشعوب الغربية مجمل التاريخ الأمريكي حتى اليوم^٢.

والثير للاستغراب حقاً حين نجد مفكراً لامعاً مثل «كلود ليفي شتراوس» (رائد المدرسة البنيوية في الانثروبولوجيا ومؤسسها)، حين يدين صراحة ما قام به النسق الحضاري الاوروبي (الذي ينتمي إليه شتراوس) في عملية إبادة دموية منتظمة تاريخياً لمجموع قبائل الهنود الحمر، والتي ألهمت شتراوس ما ألهمته في الكتابة عنها، من دهشة واعجاب، مقرونة بالاحساس بالذنب والشعور بالشفقة تجاه هؤلاء.. بينما لا يعتريه أي احساس مماثل تجاه ما تعرّض له المسلمون من ظلم واضطهاد وحيف، قد يرقى في بعض

(١) عبدالرحيم حسن: «أوروبا وفكرة الإبادة»، مجلة العالم - العدد (٤٦٧)، ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣م - ٣٠ رجب ١٤١٣هـ، ص ٤٩.

(٢) للمزيد يُراجع الملف الخاص بالموضوع المنشور في مجلة العالم (لندن) - العدد (٣٩)، ١٦ صفر ١٤٠٥هـ - ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤م، ص ٦٠ وما بعدها. ومن الثير للدهشة أن تصوت المحكمة العليا في كونكتيكت على قرار باعطاء خمسة جنهات ذهبية لكل صائد أبيض يأتي برأس هندي أو بجلد رأسه.. ولحققتها ولاية ماساشوستس بمكافآت تتراوح قيمتها حسب نوع الطريدة: رجلاً أو امرأة.. طفلاً أم كهلاً.. وحتى النساء شاركن في عملية الصيد، و«التاريخ» الأمريكي يروي لنا بفخر قصة إحدى النساء من مدينة هافرهيل التي نالت خمسين جنهاً لشرة رؤوس أحضرتها إلى المحكمة!!.

حالاته إلى مستوى الإبادة! ليس هذا وحسب، بل نراه ينخرط في السياق الأوروبي ويغدو محرّضاً ضد الاسلام!!^(١).

ان عقلية إبادة الآخر تستوطن اللاوعي الأوروبي، رغم كل شعاراتها البرّاقة وهذه أمريكا التي حملت منذ تأسيسها شعار الحرية، واتخذت من «نصب الحرية» معلماً بارزاً لها، اعتمدت القوة منطلقاً في التعامل الدولي. وقد دخلت منذ مطلع القرن العشرين حقبة جديدة من تاريخها، وأصبحت ترسم تاريخ الشعوب بالدم والدمار والحروب^٢ وحتى حينما بشرت بمبادئ ويلسون، واتخذت الليبرالية ايدولوجية لها، كانت هذه الايدولوجية، في روحها، ايدولوجيا استبعاد الأطراف التي لا تمت بصلة الى التقاليد الأوروبية، ومنها تقليد الاستعمار، كما استبعدت الهنود الحمر مثلاً. ولما أتمت أمريكا شخصيتها وظهرت إلى العالم قبل الحرب العالمية كانت صورتها أخلاقية، كما برز ذلك في بنود الرئيس ويلسون الأربعة عشر، ولكن القوة الأخلاقية الليبرالية التي حملتها هذه البنود.. قد تبخرت مع ضرب اليابان بالقنبلة النووية. ولم تبدِ أمريكا احساساً بالذنب تجاه هذه الواقعة إلى يومنا هذا، بل انها شارفت على ادخال العالم حرباً نووية مع الاتحاد السوفيتي في أزمة الصواريخ الروسية في كوبا. وجاءت الحرب الفيتنامية في الستينات لتمحو كل ما علق بالأذهان من توجه أخلاقي واحساس بالديمقراطية.

وقد اثبتت التجربة أن أمريكا ليست ليبرالية مع العالم، وانما هي تستهدف نشر نمط الحياة الأمريكي باعتباره سلاحاً ضد الأيدولوجيات الأخرى، وقد قام نمط الحياة الأمريكي على استلاب خيارات الدول الأخرى بالأساس.. كما أثبت التجربة أيضاً أن أمريكا غير قادرة على تفهم وجهة نظر الشعوب الأخرى أو فلسفتها في الحياة أو في نمط حياتها الذي تسلكه، وسلّم القيم الذي تلتزم به. والحديث عن «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ» هو جزء من ضيق الأمريكيين بوجهات النظر المغايرة.

وإذا كان هناك أساس مادي لكراهية شعوب العالم الثالث لأمريكا فهو متسبب عن سياسات أمريكا ذاتها، ومنها دفاعها عن أنظمة فاشية في أمريكا اللاتينية، وجنوب شرق

(١) لكاتب السطور كتاب تحت الطبع بعنوان «الاسلام والرأي الآخر: تجربة الامام علي (ع) نموذجاً» تضمن الفصل الاول منه مناقشة اتولوجية لهذه النقطة.

(٢) مجلة العالم؛ المرجع السابق ٣٩: ٦٥.

آسيا، وحتى في البلدان العربية. ولم تثبت مصداقية الدعوات التي أطلقتها أمريكا بشأن حقوق الانسان، خصوصاً مع سياسة تجويع الشعوب وارهائها. وإذا كان هناك ما يثير عداة العرب والمسلمين لأمريكا فهو سياستها تجاه الشرق الأوسط، وانتصارها المستمر لاسرائيل، وعملها على اضعاف المسلمين وتمزيق وحدتهم^١.

على أن همجية أمريكا لم تقتصر -اليوم- على الخارج، وانما ينسحب ذلك على فضاءات الداخل الأمريكي ذاته. حيث التعامل القمعي مع رعاياها من الزوج، هذا التعامل الذي يتخذ طابع «الابادة البطيئة». ويطول المقام، هنا، لو سمحنا لأنفسنا الدخول في التفاصيل. ونكتفي بالاستشهاد بنموذج واحد، ينطوي على دلالة ومؤشرات خطيرة، وهو ما عُرف «بفضيحة تاسكيغي». فقد بدأت وزارة الصحة في الولايات المتحدة دراسة في سنة ١٩٣٢م، كان هدفها معرفة تأثير مرض الزهري على جسم الانسان. وفي هذه الدراسة أيضاً تم اجراء الفحص الطبي، على فترات منتظمة، لعدة مئات من زواج الباما وتاسكيغي الذين كان من المعروف أنهم مصابون بالزهري. وبواسطة أطباء وزارة الصحة العامة، ومنذ اللحظة التي بدأت فيها الدراسة، قام هؤلاء الأطباء الحكوميون بمنع علاج المرض عند المفحوصين المشتركين في البحث، لكي يستطيعوا أن يحددوا آثار مرض الزهري على الجسم.

وقد أثيرت الشكوك، فيما بعد، عن سبب عدم اجراء الدراسة على أشخاص من البيض. وتبين أنه كان مقدراً لها في البداية أن تجري على «خنازير غيانا» فعادوا واستبدلوا بها الزوج كحيوانات تجارب تماماً، كما تمت تجربة حبوب منع الحمل على أهالي بورتوريكو الملونين قبل أن يسمح بتداول هذه الحبوب للجمهور العام من سكان الولايات المتحدة الأمريكية. والواقع ان الجمعية الطبية قد فعلت ما هو أسوأ من ذلك في هذه الدراسة الأخيرة عن آثار الزهري. فقد زودت أطباء الحكومة الذي قاموا بهذه الدراسة بقوائم بأسماء الفقراء وغير المتعلمين من الزوج الذين استخدموا في الدراسة بدلاً من «خنازير غيانا» وكانت النتيجة أن الكثيرين من هؤلاء قد ماتوا وأصيبوا بعجز شديد بسبب الزهري الذي أصيبوا به وترك دون علاج!

(١) عبد الرحيم حسن: «تحت نصب الحرية: ديمقراطية الداخل وفاشية الخارج»، مجلة العالم (لندن) - العدد (٦٣٦) ٢٩ آب (أغسطس) ١٩٩٨م - ٦ جمادى الأولى ١٤١٩هـ، ص ٤٢.

والوصمة الأخلاقية في هذا البحث هي أن الباحثين لم يحصلوا على موافقة المفحوصين مسبقاً ولم يخبروهم بما سيجري عليهم من تجارب وما أهدافها.. والغريب في الأمر أن هذه الفضيحة الأخلاقية ظلت خافية عن الضمير العلمي لعلماء الولايات المتحدة منذ بداية الثلاثينات، حتى كشف عنها النقاب في السبعينات^١.

وكما فوجئ أصحاب الضمائر بهذه الفضيحة التي ارتكبتها زعيمة العالم الحر في الثلاثينات، فإن البشرية أمست مشدودة الأنظار إلى أمريكا نفسها، وفي مطلع القرن الحادي والعشرين، حينما تسربت أخبار فضيحة «اليورانيوم المنضب» والذي جرّبته أمريكا في كل من حرب «عاصفة الصحراء» و«حروب البلقان»!!، والأُنكى من كل ذلك هو بقاء الإشعاع المسبب لأمراض خطيرة في مقدمتها السرطان مخيماً في مناطق حقول التجارب.. لمدة أربعة ملايين سنة!! فالحرب كما يصفها مؤرخ للتكنولوجيا العسكرية كانت أنجح شكل من أشكال القتل المنظم، الذي فرضه الإنسان على الإنسان. لذلك ليس غريباً أن نجد أن أكثر من ٤٠٪ من فيزيائيي ومهندسي الولايات المتحدة يعملون في البحث العسكري تحت راية وحش البنتاغون الأمريكي^٢.

وهذا ما يشير السؤال المطروح: هل هناك مكان للأخلاق في حضارة الغرب؟ وهل يمكن قبول فكرة اجراء تجارب معروفة سلفاً بأنها ستؤدي إلى الاضرار بفرد أو جماعة، في سبيل اثبات حقيقة قد تفيد آخرين مستقبلاً؟

لقد سبق للباحث الأمريكي ان طرح، عام ١٩٧٥م، مثل هذه التساؤلات في كتابه «استراتيجية البحوث الاجتماعية (Stratigies of Social Research)» وكشف فيه عن نماذج مخجلة من تصرفات هيئات ومؤسسات كبرى استخدمت علماء كان بعضهم يعرف ما يقوم به في ابحاث كان القاسم المشترك بينها هو: «غيبية الضمير في الهدف

(١) للمزيد من الاطلاع على هذه الممارسات المُدانة يُراجع مقال «علم بلا ضمير»، للدكتور حسن عيسى، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٢٦٣)، أكتوبر ١٩٨٠م، ص ٦٦. وهذه الحادثة ليست اليتيمة، فقد أمسى شائعاً تورط أطباء في تعذيب المسجونين نفسياً أو بدنياً، وفي أرجاء متفرقة من العالم، وهذا ما ينافي آداب المهنة الانسانية. جدير بالاشارة إلى أن أكثر من فضيحة حصلت في ثمانينات القرن العشرين، وكانت دافعا لمقدمتورات وندوات (مجلة العالم ٨٤: ٧٦، ٢١ / ٩ / ١٩٨٥م).

(٢) مجلة منبر الحوار؛ مرجع سابق ٣٠: ٢٤.

والأسلوب»^١.

إرادة الهدم:

هكذا يغدو العلم بلا ضمير. وحين يكون كذلك فإن هذا يعني شيئاً واحداً لا غير.. هو الكارثة!. ولقد اعترف بعض عقلاء الغرب بهذه النتيجة المخيفة، وكان الكسيس كارليل مؤلف الكتاب الشهير «الانسان ذلك المجهول» سباقاً لهذا الاعتراف: «ان التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو احدى الكوارث التي عانت منها الانسانية.. فالبينة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا، ولا بالنسبة لهيئتنا.. إننا قوم تعساء.. لاننا ننحط اخلاقياً وعقلياً.. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها. ولكنها لا تدرك ذلك. اذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها. وحقيقة الأمر ان مدينتنا مثل المدينيات - التي سبقتها - أوجدت أحوالاً معينة للحياة، من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة، وذلك لأسباب لا تزال غامضة»^٢.

ان أزمة الحضارة الغربية لا تنطلق من التقييم السلبي للحضارة، ولا من بؤس المدنية الصناعية ومنظومتها الفكرية والفلسفية فحسب، بل من قدر الحضارة الغربية الذي حولها إلى «مدينة بلاستيكية»^٣ بآسفة في مجتمع استهلاكي يطحن الانسان ويجرده من كل طاقاته الخلاقة، مثلما يجرده من قيمه الروحية والأخلاقية، كما يؤكد الدكتور ابراهيم الحيدري^٤.

ولا يقتصر هذا التقييم على مسلم متخصص بعلم الاجتماع يزن الحضارة بموازين خاصة، وإنما هو حكم مجمع عليه من قبل المتخصصين، على اختلاف موازينهم. يقول

(١) مجلة العربي؛ المرجع السابق ٢٦٣: ٦٢.

(٢) نقلاً عن كتاب «الاسلام ومشكلات الحضارة» لسيد قطب، أوفست طبعة دار الشروق (د.ت)، ص ١١٠.
(٣) «المدنية البلاستيكية» مصطلح يشير إلى المدنية الصناعية الحديثة التي لم تفقد أصالتها ومثانتها فحسب، بل أصبحت غلافاً بلاستيكياً ملوئاً وشفافاً وفارغاً من أي محتوى حضاري كما تبدو لنا في السيارات الحديثة وعارضات الأزياء (التوحيد ٨١: ٢٠٥).

(٤) نقلاً عن مقال: «الأزمة الحضارية في عالمنا المعاصر» لمحمد صادق الإبراهيمي، مجلة التوحيد (قم) - العدد (٨١)، ذو الحجة ١٤١٦هـ - نيسان ١٩٩٦م، ص ٢٠٥.

«ادغار موران»: «إن سيادة التكنولوجيا تدمّر اليوم كل خصوصية حضارية، وبهذا فقد انتج الغرب، ولأول مرة في التاريخ، مقومات فئاته بسبب الانحلال والضعف، وبمعنى آخر بسبب «ارادة الهدم»... حيث سببت المدينة الصناعية «اجتثاثاً حضارياً» هو رديف للمغامرة والموت^١.

إن تاريخ الحضارة البشرية هو شاهد على تزايد اللاعقلانية، والتي تتزامن مع القدرة التكنولوجية التدميرية الحديثة. فالوجه الآخر للتقدم الحضاري هو التدمير والإبادة. هكذا كان على البشرية أن تقدّم قرايينها على مذبح التقدّم التكنولوجي، فالإبادة كما يقول «ماركيز» هي ضريبة التقدم، كما هو الموت ضريبة الحياة^٢.

ومما تقدم، فإن النتيجة التي يصل إليها الباحثون هي: أن أزمة الحضارة الغربية ليست أزمة تمدّن، وإنما هي أزمة «أخلاق» و«معنوية» و«دين»^٣ ولعل الأزمة العالمية التي نعيشها، في هذا العصر، يمكن أن تكون نتيجة من نتائج التخلف الحضاري، بين التقنية وبين القيم الأخلاقية التي تلائم هذه التقنية المتقدمة المحلقة، وما يزال جعل المدينة الصناعية ذات طابع انساني رسالة هذا العصر الذري^٤.

غير أن هذا لا يعدو كونه أمنية تداعب خيال الحريصين على مستقبل البشرية التي تُدفع دفعاً نحو الهاوية. إذ ما يزال المفكرون والقادة الغربيون يندرون مواطنيهم من عواقب التحلل والتفسخ الذي يكتنف حضارتهم.. وهناك من يذهب إلى المقاربة بين انهيار الامبراطورية الرومانية والانهيار المرتقب بل الوشيك لحضارة الغرب، ويقف في مقدمة هؤلاء المؤرخ الشهير «آرنولد توينبي»، فيما يواصل «غارودي» صيحاته التحذيرية، بشكل مكثف: «وكما حدث في اثناء انهيار الامبراطورية الرومانية، نعيش اليوم مرحلة «تعفن التاريخ» التي تمتاز، من دون سواها، بالهيمنة التقنية والعسكرية الساحقة

(١) جريدة الحياة: ١١ / ٨ / ١٩٩٥م (نقلًا عن المرجع السابق).

(٢) نقلًا عن مجلة منبر الحوار، المرجع السابق، ٣٠: ٣٨، هامش (٣٥).

(٣) للمزيد يراجع مجلة التوحيد: المرجع السابق ٨١: ١٩٩ - ٢٠٥، وتحضرنى هنا مقولة للمهاثما غاندي، وهو يوجه الخطاب للغربيين، حيث يقول ما معناه: «لقد تمكّنت من التحليق في الأجواء كالطيور، وأفلحت في الغوص في البحار كالأسماك.. ولكنكم أخفقت في السير على الأرض كبشر»!!.

(٤) د. محيي الدين صابر: «التغير الحضاري وتنمية المجتمع»، صيدا (د.ت)، ص ٩٦.

لامبراطورية ليس لها مشروع انساني يمكن أن يعطي معنى للحياة وللتاريخ»^١. وهكذا... يكاد يتفق علماء الفكر الغربي - سواء على المستوى الفلسفي أو التقني - على أن الحضارة الغربية، بالرغم مما وصلت إليه من تطور، تتجه إلى طريق مسدود وتتقود البشرية إلى حضارة الانسان المتأزم، في قوته وليس في ضعفه، الأمر الذي يندر بأزمة خطيرة قد يدمر الانسان فيها نفسه، ذلك أن التطور المعاصر يقوده في اتجاه واحد هو اتجاه الأزمة، بينما يقتضي الأمر أن يكون هذا التطور شاملاً^٢.

ان الأزمة العالمية تأخذ كل يوم أشكالا جديدة، فلم تدع منحى من مناحي الحياة إلا ونفذت فيه، وهكذا تضاعفت المآسي وضروب البؤس^٣ ذلك لأن كل ما أقيم على الفساد فهو فاسد وإن طال أجله. ومصير الحضارة الغربية المبنية على أساس الشك أصبح ظاهراً. الحضارة الغربية متصدعة، مقبلة على انهيار تام، كما يقول عظماء مفكرها مثل «توينبي» و«ماكنيل» و«فان لفين»، لالضعف في قوتها بل الفساد أساسها. وهذا «وليم ماكنيل» رئيس دائرة التاريخ في جامعة شيكاغو وابن العلامة اللاهوتي الشهير يقول في نهاية كتابه: «ازدهار الغرب The Rise of The West»: «ان الحضارة الغربية اليوم، وفي الطور الأخير من أطوار حياتها، لأشبه بالضبع الذي بلغ في فراسته وانتهاكه لكل ما هو معنوي، واعتدائه على تراث السلف، على كل مقدس ومحرم... لأشبه بالضبع الذي أغاص مخبله في أمعائه فانتزعها من مكانها وأخذ يفترسها ويعضها ويلوكها بين فكليه، بمنتهى البغض والغيظ والتشقي»^٤.

واذا ما ألقينا نظرة عابرة على بعض مفردات «الملف الاجتماعي» في الغرب، فأننا سنلاحظ، منذ البداية، مظاهر عديدة تنم عن مدى وهددة الضياع الضارب أطنا به في ثنايا

(١) يُراجع مقال: «تفسخ الحضارة» المنشور في مجلة التوحيد (قم) - العدد (٦٣)، رجب - شعبان ١٤١٣هـ - شباط ١٩٩٣م، ص ٧٠ - ٧٥.

(٢) يراجع اللقاء مع د. رشدي فكار في مجلة الأمة (قطر) - العدد (٦٧)، رجب ١٤٠٦هـ - آذار (مارس) ١٩٨٦م، ص ٤٠ - ٤٧.

(٣) د. محمد عبد الرحمن مرحبا: «الانسان وحضارة العصر»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٤٥)، ربيع الأول ١٣٨٢هـ - آب (أغسطس) ١٩٦٢م، ص ٢٩.

(٤) د. إسماعيل راجي الفاروقي: «نحن والغرب»، مجلة المسلم المعاصر (بيروت) - العدد (١١)، رجب / رمضان ١٣٩٧هـ - يوليو / سبتمبر ١٩٧٧م، ص ٣١.

المجتمع. وقد بدأ علماء كبار يتحدثون عن الخطورة التي تهدد المجتمعات الغربية، مؤكدين على أن العالم الصناعي لابدّ سائر نحو مزيد من التفسّخ والتمزّق على صعيد العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، وما تبقى من خيوط واهية تربط الناس ببعضها سوف تختفي في السنوات القادمة، بعد أن تحل وسائل الاتصال الألكترونية مكان الانسان.

وهناك نظريات علمية تقول بأن الناس أيام العطل تلجأ إلى الطبيعة الساحرة فتعجّ المنتزهات العامة برؤاها، وتزدحم الشواطئ بالعبّاة (ويجد الناس على رمال البحر الراحة والاستجمام بعد أيام العمل المضنية)، كذلك فإن المقاهي والمطاعم والبارات التي هي الأخرى تشكل ما يسمى بدائرة التسلية والترويح عن النفس (وهذه الدائرة كما يصفها علماء الاجتماع تقع خارج دائرة المنزل والعمل حيث كُتب على الانسان أن يكون)، والعامل الزمني يقيد المرء في دائرة الراحة والاستجمام، فسااعاتها محدودة في قاموس أعمال الفرد اليومي، ولذا فإن الهروب من المدينة، وكل ما يمت إليها بصلة، يبقى هروباً مؤقتاً، اذ أن الشعور بالخيبة والحسرة يعاود المرء، كلّما تذكر يوم عملة في مطلع الاسبوع. هذا الهروب إلى أحضان الطبيعة ليس هروباً من الآلة ونتاجها فقط، انما هو هروب من الانكماش الذي عصر قلب الفرد في المجتمع الغربي، وهروب من الانزواء الذي حطّم مشاعره وقضى على انفتاحه وانطلاقه «فكلما ازداد الانسان بعداً عن بني جنسه كلّما ازداد كرهاً لهم وكلما نمت الضغينة والاحقاد في نفسه». ولذلك يعتبر الاتصال من أهم عوامل توطيد الصلة وتمتين العلاقات بين الأفراد في المجتمع، من هنا نشأت شركات «الصدّاقة» و«الحب» و«الزواج» في أحضان الحضارة الصناعية^١.

فالجميع هنا تحوّل إلى مجرد آلة، تتحكّم به قوى شيطانية.. تقبع وراء ستار آلات العصر الالكتروني، وبهذا قد تحوّل إلى مجموعة هائلة من «الخلايا» المنفصلة عن بعضها البعض والمتصلة فيما بينها بواسطة قنوات «الاتصال»!

هذه القنوات منها ما ينقله الاعلام عبر الشاشة المرئية والصحافة المكتوبة، ومنها ما يؤدي إلى الاتصال المباشر عبر التلفون والأجهزة الأخرى.. كذلك فإن قنوات الخدمات

(١) يُراجع مقال: «البحث عن الفانوس السحري لإنقاذ الانسان الغربي من عزلته»، مجلة العالم (لندن) - العدد (١٩)، ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٨٤م - ٢٣ رمضان ١٤٠٤هـ، ص ٤٥.

تصل عبر خطوط شركات الكهرباء والغاز والتدفئة .. حتى ان الدراسة الجامعية، وإدارة المصنع، أو ري الأرض وسقايتها بات بالامكان القيام بها مجتمعة، بواسطة أجهزة الكمبيوتر التي دخلت المنزل فلا حاجة بعد اليوم للذهاب الى الجامعة أو الحقل أو المعمل^١.

الانسان المعلّب!

أدت هذه «القفزات» في التطور الصناعي من جهة أخرى إلى مزيد من التدهور الاجتماعي على صعيد الأفراد والجماعات. لقد بات المرء بعد هذه «النقلات» الحضارية يقدّس كل ما يوحى إليه بغير هذا العالم الغارق في دخان المصانع وضجيج الآلات. لذا فقد ظهرت اسطورة جديدة نمت وتغذت في المجتمع الغربي. أنها اسطورة «المضاد للمدينة» التي سادت المجتمع الاوروبي. وقد بدأ الاعلام يستخدمها للتأثير في نفوس الأفراد في الخضوع لشركات السياحة التي تدغدغ أحلام الهروب من المدن «الضيقة» إلى الطبيعة الساحرة والجنات «الخالدة»!

هذه الأسطورة الحديثة توحى بكل ما ينأى عن المدنية المعاصرة وقد أصبحت الطبيعة النقيض الحتمي الذي يتبادر إلى الأذهان عند الحديث عن ضوضاء المدن وضجيجها، خصوصاً أن الانسان في الغرب لا يعرف الأصدقاء والاخوان إلا عن طريق النوادي وعلب الليل والشركات .. هذه المجتمعات التجارية ذات شهرة واسعة في «توطيد عرى الصداقة» بين الأفراد. وهذا البيع يبقى محدوداً وخاضعاً، في معظم الأحيان، للعامل المادي فإذا ما أراد أحد التعرف على شاب أو فتاة فانه لا بد أن يدفع أموالاً قد تكون طائلة وقد لا يحصل على ما يريد.

وترى صحفاً ومجلات عدّة تطرح على صدر صفحاتها رغبات القراء في الزواج أو الصداقة والمعاشرة الجنسية، وتصل بهم الجرأة إلى تحديد الشروط المطلوبة، كالسن، والمهنة، والجمال .. ولو لجأت إلى تحليل النصوص لوجدت في طياتها آثار الجروح التي يعاني منها الانسان في مجتمع الوحدة والعزلة. ودعوات الخروج من التقوقع التي اتخذتها الشركات التجارية (لبيع الصداقة) ما هي إلا دليل على الداء الذي دبّ في جسد

(١) المرجع نفسه.

الحضارة الغربية المصّرة بعناد على تصنيع الانسان وتعليه^١.

كان الانسان دائماً هو صانع الآلة.. ولكن الانسان صنع بعض الآلات والأجهزة، التي لم يلبث أن أصبح الانسان نفسه «من صنعها»! فماتت في نفسه كرامة العمل وكرامة الانسان، وضعف شعوره بذاته، فأصبح دمية «بين» الدمى، وقطعة «من» القطع في مجموعة آلية متشابكة الحلقات، لا حول لها، ولا معنى لوجودها، ولا خيار لها فيما تعمل!.

وهكذا طغت المادة وحضارة المادة على الانسان الحديث، حتى لم يعد أمامه قيم روحية، يرسي عليها سلوكه ومعاملاته. فجميع القيم الروحية أخذت تتأرجح كما تتأرجح الأسهم المالية في سوق البورصة، وأصبحنا نعتقد أنه يمكن شراء كل ما في الحياة بالمال، وأنه ما من شيء مهما كبر يصعب التعبير عنه بالنقود. وهذا ما يفسّر لنا بكل وضوح تقدم الانسانية العظيمة في العلم والمعرفة والصناعة بمقدار تقهقرها في الأخلاق والفسن. فالمشكلة الكبرى في عصرنا أن المأساة التي نعاني منها هي قبل كل شيء مأساة أخلاقية، وكفى بذلك لنا نذيراً.

ان نظام الحياة في المدن يتميز بالتكديس والحشد، والاختلاط، والآلية.. فالناس يتقاربون ولكنهم لا يتعارفون. لقد كان الجار في الزمن القديم معدوداً من ذوي القربى في المدن أو القرى على حد سواء. أما اليوم فكلمة «جار» لا معنى لها في المدن، ولا سيما في العواصم الأوروبية والأمريكية الكبرى. فالسكان هناك متراصون جنباً إلى جنب في ناطحات السحاب، ويقطن بعضهم بحذاء بعض، ومع هذا لا يعرف بعضهم بعضاً، ولا يزور بعضهم بعضاً ولا يتسامرون بعضهم مع بعض، ولا يستعير بعضهم متاع بعض. لقد فقدت الحياة لديهم دفئها ومتعتها، ولم يعد لها نفس المعنى الذي كان لها بالأمس.. ألا فتنياً لها من حياة!^٣

إنّ هذه النفثة التي أطلقها بأسى «الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا» استاذ الفلسفة المعروف، قبل أربعين عاماً، في مقال يحمل عنوان «الانسان وحضارة العصر»، لهي أجلى

(١) المرجع نفسه.

(٢) أحمد بهاء الدين: «رحل نبي العصر الإلكتروني»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٢٦٧)، فبراير ١٩٨١م،

ص ٧.

(٣) د. محمد عبد الرحمن مرحبا؛ المقال المنشور في مجلة العربي؛ مرجع سابق ٤٥: ٢٤.

تعبير عن مدى تبرمه من حضارة العصر، وسخطه عليها، ويأسه من انجازاتها.. ولسنا ندري ما عساه يقول لو كان قد امتد به العمر، وهو يرى كل هذا الجموح في «بناء الغابة التكنولوجية والتي تسرح في أرجائها قوى هائلة، ووحوش مفترسة لا تعرف القناعة ولا الاكتفاء^١ في زمن الانترنت.. والعولمة.. والسوق الحرة!.

أنها أيام التحوّل تلك التي نعيشها في هذا الجيل: تحوّل في القوى، تحوّل في الاقتصاد، تحوّل في الأخلاق والعادات والتقاليد، تحوّل في الأزياء وأنماط الحياة وطرق المعيشة، تحوّل في المفاهيم والأفكار والآراء والمعاني، تحوّل في الأسس والمبادئ والأصول، تحوّل في كل شيء.. إن الأيام تجري سراعاً مليئة بالهزات. لقد أصبحت الحياة الحديثة شبيهة بسباق ضد عقارب الساعة.

لقد أخذ التاريخ يقفز في هذه الأيام، وأخذ كل شيء يمضي بسرعة، ولم نعد نحيا إلا في السرعة. فليست السيارات والطائرات والصواريخ وحدها هي التي تنطلق بسرعة جنونية لم يحلم بها أسلافنا، بل نحن نطلق بهذه السرعة أيضاً، بل عاداتنا وأخلاقنا وأفكارنا.. لقد انقلبت وتيرة الحوادث في هذه الأيام، فكل شيء يمكن أن يحدث بين حين وآخر.

إن الحوادث تسبقنا مع أنها من صنع أيدينا، وتنقلب نتائجها علينا دون أن نستطيع لها دفعا. فلا أحد يستطيع السيطرة على الأوضاع الشاذة التي يساهم كل إنسان في وقوعها^٢ وكانت هذه هي الفكرة المركزية التي طغت على كتاب «بريجنسكي» مستشار الأمن القومي الأمريكي في عهد كارتر، والموسوم «Out of Control» أي «انفلات بدون ضوابط» أو «خارج نطاق السيطرة»... حيث حذّر فيه الغرب مطالباً آياه أن يصلح نفسه، قبل فوات الأوان، وحلول الكارثة. ومما جاء فيه: «إن العالم الآن هو مثل طائرة بدون طيار، يسيّر ملاح آلي.. وسرعتها في ازدياد مستمر وليس لها وجهة معينة، وفقدان الأسس الأخلاقية والفلسفية تجعل الملاح الوحيد الموجود حالياً، يعني الولايات المتحدة الأمريكية، غير صالح تدريجياً لقيادة هذه الطائرة.

ويرتكز «بريجنسكي» في فكرته هذه على واقع الغرب نفسه. الغرب الذي فقد الضوابط والكواحيم فيما إنسان الغرب الآن مسير بالطمع والجشع والأنانية وفقدان القيم الأخلاقية،

(١) مجلة منبر الحوار؛ المرجع السابق ٣٠: ٢٤.

(٢) مجلة العربي؛ م.س - ٤٥: ٢٨.

وهذا ما يجعل الولايات المتحدة الأمريكية غير صالحة لقيادة العالم^١.

إن التشاؤم الذي يخيّم على لهجة بريجنسكي هو السائد وهو المهيمن على عقول مفكري الغرب وخبرائه، وأن المخاوف هي التي تورق حياتهم، فالإنسانية وقد أصبحت فريسة اختراعاتها وأسيرة آلاتها تحلم في عصر ذهبي تزول فيه جميع المنغصات، ولا تعدو فيه عوادي الهلاك والفناء.

فالحضارة الحديثة تخلق للإنسان حاجات تتجدد باستمرار، ثم تحاول أن تلبي هذه الحاجات بصنع ما هو كفيل باشباعها. وهكذا دواليك إلى غير نهاية. فإذا بالإنسان يدور في حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر: حاجات لا غنى عنها يجد في طلبها، فلا يكاد يحصل عليها حتى يطلب سواها!^٢. فالاقتصاد توجهه فكرة النمو والزيادة. فهم يطلبون زيادة الانتاج سواء كان مفيداً أو ضاراً، أو حتى مميتاً^٣.

إن الخوف الذي يستبد بالإنسان العصر خلق منه كائناً مذعوراً، متوتراً، مضطرباً. خائباً. غريباً حتى عن نفسه، ساخطاً، يثور لأتفه الأسباب، كئيباً، متمرداً منفلاً منطوياً على نفسه، يؤثر العزلة.. يلهث وراء اللذة، ويشرب كأسها حتى الثمالة، دون أن يرتوي!، وكل ذلك مظهر للتخبط الحضاري في عصرنا الراهن.

الانحطاط الأخلاقي.. والقيمي:

ولئن كانت مظاهر انحطاط الحضارة تستمر حتى نهايتها، فإن مظهر الانحلال الخلقي يعرف من وقت لآخر نوعاً من اللجم الاجتماعي العام. وقد لاحظ المؤرخون المعنيون بمسارات الأمم؛ سواء في حالة الانتصارات أو التراجعات، أن ثمة انهياراً شديداً في الأخلاقية، تواجه تلك الأمم التي تعاني الشيخوخة. وهو انحطاط ناتج عن انحراف المجتمع، في طبقاته العليا وفي لحظة محددة، عن الدين. وبالتالي عن كل القيم المتفرعة عن ضوابط هذا الدين. وكي لا نبعد كثيراً في التاريخ، نعود إلى ما حدث في كاليفورنيا في سنوات الستينات (من القرن العشرين). ثار الشباب الأمريكي على الثقافة التي تربي

(١) مجلة الايكونومست الأسبوعية البريطانية، الصادر بتاريخ ٣١ تموز (يوليو) - ٦ آب (اغسطس) ١٩٩٣م،

ص ٨٣.

(٢) مجلة العربي؛ م.س - ٤٥: ٢٩.

(٣) مجلة المختار الاسلامي؛ م.س - ٤١: ٦٢.

وترعرع في أحضانها. هذه الثورة التي أطلق عليها علماء الاجتماع يومئذ تسمية «المضاد الثقافي». وقد امتدت هذه الموجة إلى جميع أنحاء أمريكا ثم اجتاحت بلدان الغرب. وثورة أيار (مايو) ١٩٦٨م في فرنسا تمتد جذورها إلى هذه الحركة المنتفضة ضد التقاليد الراسخة، والتي ولدت - مثل كل شيء في الغرب اليوم - في الولايات المتحدة^١.

أطلق المضاد الثقافي جماع الخيال واللاوعي والبدائية والغرائبية والصوفية واللامعقول وقاد إلى نوع من الحذر إزاء العلم والعقل والمنطق، إلى رفض التقدم والعودة إلى الطبيعة وحمايتها. هذه الحالة الروحية التي ما زالت حية، رغم أن حركة المضاد الثقافي قد اختفت، قد أحدثت تباطؤاً في وتيرة التجديد في العالم الغربي. المضاد الثقافي يؤدي إلى إهمال القيم والعادات والتقاليد. الحياة الجنسية اعتقت من الضوابط الأخلاقية، وراحت تمجد الشذوذ والاغراء الجنسيين. نوادي العراة وجميع أنواع الانحراف والفساد أصبحت مقبولة ومشروعة في المجتمعات. الفسق أصبح من قواعد الشرف. وكذلك الفجور والتحلل من جميع القيم. أما الحديث عن الايدز فيدفع الدماء إلى الوجوه الخجلة الواجمة في معظم طبقات المجتمع. لكن هذا التشوش، الذي تعاني منه الشبيبة اليوم، كان موضوع تبرم الاخلاقيين في مراحل مختلفة من التاريخ.

كثير من المجتمعات التي ظنت نفسها، في لحظة ما، محصنة ضد هذا النوع من الانفلات عانت في مراحل معينة من تاريخها من هذا الانعتاق المجنون من العادات والتقاليد. مَنْ كان يعتقد أن بريطانيا، بعد بضعة أجيال من العهد الفيكتوري الذي كان شديد الاحتشام، ستغرق في هذا الانفلات الاجتماعي الذي تعاني منه اليوم؟ مَنْ كان يعتقد أن «البيتلز» سيصبحون أشهر المواطنين الانجليز في العالم؟ من الممكن أن تكون السنوات الأخيرة من عمر الامبراطورية البريطانية قد أنتجت موسيقى «البيتلز»، كما أنتجت السنوات الأخيرة من الامبراطورية النمساوية - الهنغارية موسيقى الفالس^٢.

حتى الهجمة الضارية على العلوم لم تكن جديدة. ففي عام ١٩٧٦م انعقد في باريس مؤتمر لمجموعة من علماء الغرب ومؤرخي العلوم لدراسة التحديات التي تواجه العلم

(١) عن ثورة الطلاب التي اجتاحت باريس ربيع عام ١٩٦٨، تُراجع موسوعة السياسة ١: ٩٠٦.

(٢) تراجع الحلقة الثانية من «تنبؤات غريبة عن قرب الانهيار الحضاري»، مجلة العالم (لندن) - العدد (١١٤)،

١٩ نيسان (أبريل) ١٩٨٦م - ١١ شعبان ١٤٠٦هـ، ص ٧٧.

انطلاقاً من موجة المعاداة للعلم ونتائجها التي تعم شريحة هامة من الشبيبة الغربية. وقد توصل المؤتمرون إلى أن مثل هذه الحالة قد حصلت أكثر من مرة في التاريخ. وبدا للبعض بأنها تتكرر بصورة دورية حسب قوانين ودورات الحضارات التي يؤمن بها كثير من المؤرخين. وهي القوانين التي تحدد لكل حضارة أو قفزة حضارية عمراً محدداً في التاريخ. كذلك لاحظ المؤتمرون أن آخر هجوم على العلوم ومناهجها شنته الحركة الفنية والأدبية التي عرفت بالحركة الرومانسية^١.

وعلى ذكر الرومانسية فإن بعض المفكرين الغربيين يرون أن الرومانسية زرعت في المجتمع عند تبشيرها باللاوعي وتمجيدها الحالات المرضية والصوفية و «الفانتازيا» والغربة، قد زرعت جرثومة روحية انتجت فيما بعد «النازية» خصوصاً في ألمانيا. ويعتقد هؤلاء المفكرون أن «أدولف هتلر» هو أكبر رومانسي بامتياز في العالم المعاصر. ذلك أن الفن بالنسبة للرومانسي يشكل ملجأ من الاحباط النفسي، والنازية ملجأ الاحباط القومي الذي أصاب ألمانيا، في مواجهة جميع الأمم الأوروبية، التي تعاقبت على سيادة الحضارة في الغرب. كذلك يرى المؤرخون المعاصرون أن معظم الكتاب الفرنسيين، الذين تعاونوا مع الاحتلال النازي أو سكتوا عنه، هم أولئك الذين تعود جذورهم الحديثة إلى عصر الرومانسية والذين روجوا لاستقلالية الفن عن السياسة والأخلاق والرأي العام.

هكذا يبدو أن هذا «المضاد الثقافي» الرومانسي هو الأب الشرعي للمضاد الثقافي المعاصر في بلاد الغرب. كلاهما يناهض المجتمع. الأول من خلال حياة بوهيمية والآخر من خلال الأزياء الغربية والموسيقى العجيبة والحضور المنفّر الذي يهدف أحياناً إلى النضال ضد المجتمعات الغربية، وأحياناً أخرى لصدمها بصورة سلبية. رومانسيو القرن التاسع عشر ومضادو الثقافة الحاليون أطلقوا شعورهم ولحاهم. وكلاهما لجأ إلى المخدرات. هكذا ربط «تيودور روزاك» بين «نادي الحشيش» الذي كان يرأسه «تيوفيل غوتييه» في منتصف القرن التاسع عشر، وبين هيبي سنوات الستين من القرن العشرين. كذلك «بودلير» مجّد المخدرات في كتابه: «من النبيذ والحشيش» الصادر سنة ١٨٥١م، و «الفردوس المصطنع» الصادر سنة ١٨٦٠م.

ولعل من أطرف مظاهر انحطاط الثقافة والفن هو ظهور مجلة «Le decadent» في

(١) المرجع نفسه: ٧٧.

فرنسا سنة ١٨٨٦م، واسم المجلة يعني بالعربية «المنحط» أو «المتفسخ». أسس هذه المجلة «انطوان باجو» وساهم فيها «مالارميه». وقد فسّر باجو مفهوم الأدب المنحط المتفسخ على صفحات مطبوعته بقوله: «مرحلتنا متعبة.. والأدب المنحط يأخذ على عاتقه أن يكون مرآة»، تعكس صورة هذا العالم السوداوي المسلول.. لا يصف الأشياء بذاتها.. بل يقدم للقلب الاحساس بالأشياء اما عن طريق أبنية جديدة واما عن طريق الرموز التي تحت الأفكار»^١.

وتأسياً على ما تقدم فان المقولة التي شاعت في أعقاب بروز الظاهرة الهيبية في الستينات من القرن الماضي: «تمخّضت حضارة الغرب فولدت هيبياً» لا تجافي الحقيقة إن لم تصبها في كبدها.. لتصل الأزمة بعد عقدين إلى مديات بعيدة حيث أختزلت الحضارة الغربية، من الناحية الأخلاقية، بوباء الايدز!!

وهذا يعني، فيما يعني، أن كل فلسفات العدم ومظاهر الموت في الروح، كما تبدو في الفن، إنما تعبّر عن أزمة دفينّة في الوعي الأوروبي أعمق من مظاهرها وأشكال تعبيرها، عبّر عنها «هوسرل» في آخر «أزمة العلوم الأوروبية» بقوله إن أزمة العلوم الأوروبية، إنما هي في حقيقة الأمر أزمة الوعي الأوروبي بالانسانية، لقد تجلّت هذه الأزمة في المذاهب السياسية، وفي الأيديولوجيات، وفي القيم، وفي الاقتصاد، وفي الطاقة، وفي الانتاج والتسويق، وفي التضخم، وفي سباق التسلّح والخطر النووي^٢.

وكنموذج على هذه الأزمة الدفينّة المستحكمة في الوعي الأوروبي، يأتي زعيم دولة عظمى متبجحاً فيقول: «أستطيع أن أدمّر الأرض أربع عشرة مرّة بالذرة وبالحرّوب البيولوجية والصواريخ الهيدروجينية!» وكان الأولى به أن يعلن انه بمقداره ان يعمرّ الأرض أربع عشرة مرّة، ليعمّها الخير أكثر. وتصبح أقدر على العطاء للبشرية أربع عشرة مرّة أكثر ممّا هي عليه الآن!.. ان الحضارة الغربية حضارة بلا قلب ولا وجدان ولا مشاعر. فهي حضارة الانسان في غيبة الانسان، حضارة تتحرك على حساب الآخرين، كما يقول فلاسفتهم^٣.

(١) المرجع نفسه: ٧٨.

(٢) د. حسن حنفي؛ مقدمة في علم الاستغراب؛ مرجع سابق: ٥١١.

(٣) مقال د. رشدي فكّار المنشور في كتاب «الاسلام والمستقبل»؛ مرجع سابق: ٢٧٤.

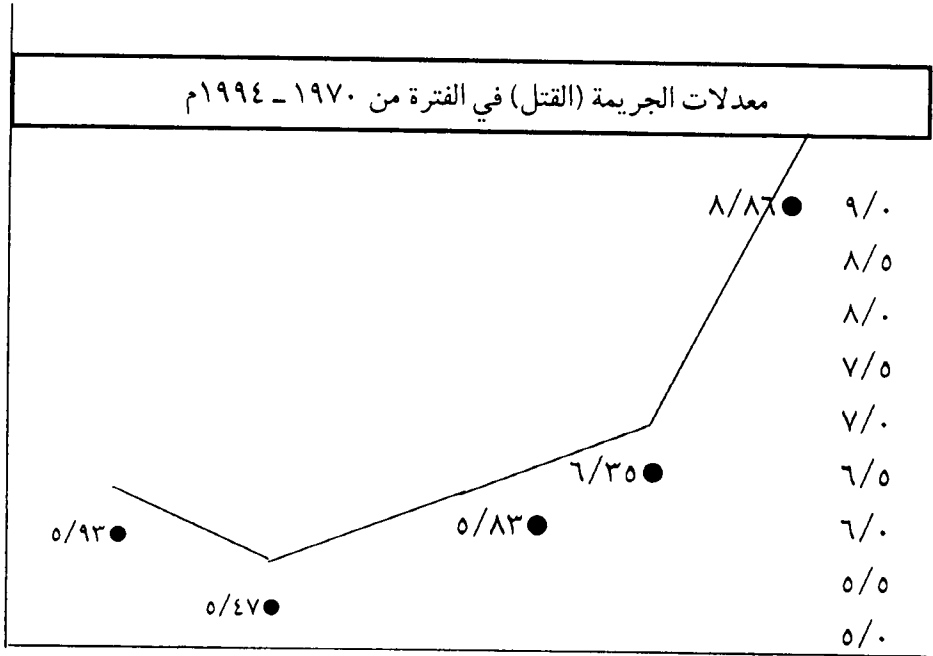
وحين نسمع عبارة من قبيل: «عالم بلا قلب» فلا يذهبنّ الظن بنا ان هذا اسم لفيلم سينمائي من أفلام الحركة، أو ما يعرف بالأكشن، ولكنه ترجمة لمحتوى مقال نشرته مجلة «السياسة الخارجية الأمريكية» «Foreign Policy» عن دموية العالم الذي نعيش فيه (العيش في عالم أكثر عنفاً Living in A more Violent World).

ويشكّل العنف احدى سمات العصر البارزة -إن لم يكن الآفة الأبرز- اضافة الى بقيّة المظاهر الخطيرة الأخرى، والتي تعتبر بمثابة الدعائم الأساسية لأزمة الانسان المعاصر. وسنكتفي بالتوقّف أمام أبرز هذه الآفات، وهي: العنف والجريمة، المخدرات والادمان، الإيدز والشذوذ الجنسي، الكآبة والانتحار..

حضارة العنف .. والجريمة:

وللعنف أشكال متعددة منها: الاعتداء الجنسي (الضرب -التعذيب) والاعتداء النفسي (الاهانة) والقتل، ولأنه لا توجد مقاييس يمكن الرجوع اليها لقياس ذلك، فان القتل يعد المرجعية الوحيدة المعتمد عليها في قياس مدى انتشار العنف في العالم، لأن احصائياته يصعب التلاعب فيها، فالقتلى لا يعودون إلى الحياة. وإذا ما اعتمدنا القتل كعامل قياس للعنف في العالم فسوف تصدمنا بعض الحقائق:

- ١- في الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٧٤م كانت النسبة ٥,٩٣ لكل ألف نسمة.
 - ٢- من ١٩٧٥ - ١٩٧٩م كانت النسبة ٥,٤٧ لكل ألف نسمة.
 - ٣- ومن ١٩٨٠ - ١٩٨٤م كانت النسبة ٥,٨٢ لكل ألف نسمة.
 - ٤- ومن ١٩٨٥ - ١٩٨٩م كانت النسبة ٦,٣٥ لكل ألف نسمة.
 - ٥- ومن ١٩٩٠ - ١٩٩٤م كانت النسبة ٨,٨٦ لكل ألف نسمة.
- أي أن معدل الزيادة في الفترة من ١٩٩٠ - ١٩٩٤م على الفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٤م كانت ٤٩,٢٤ ٪، راجع شكل رقم (١).



١٩٧٠-٧٤ ١٩٧٥-٧٩ ١٩٨٠-٨٤ ١٩٨٥-٨٩ ١٩٩٠-٩٤

وإذا ما ألقينا نظرة تحليلية، على ما جاء في تقرير الأمم المتحدة عن العنف والجريمة لعام ١٩٩٩ م، لوجدنا أن الزيادة في معدلات العنف (القتل) ما بين السبعينات والتسعينات (النصف الأول منها) قد بلغ درجة لا يصدقها العقل، فعلى سبيل المثال؛ تضاعفت النسبة في:

١- فرنسا: إلى ١٠٠.٨٪

٢- الدانمارك: ٦٠.٣٪

٣- النرويج: ٥٦.١٪

٤- اليونان: ٤٠.٩٪

٥- سويسرا: ٣٩.٦٪

٦- كولومبيا: ٣٩.١٪

٧- السويد: ٣٠.٩٪^١.

وطبقاً لما تقوله الصحافة الأمريكية، فإن واشنطن العاصمة تصدرت -وعلى مدى أربع سنوات من حكم بوش الأب- المرتبة الأولى من عواصم العالم في عمليات القتل، وإن نسبة القتل في أمريكا غير قابلة للقياس، حتى مع نسبة القتل في البلدان الأوروبية^٢، وليس أدل على شيوع الجريمة بشكل واسع النطاق في أمريكا، من الأرقام المفزعة التي تذكرها الإحصائيات الأمريكية نفسها، إذ تقول تلك الإحصائيات لعام ٨٢-١٩٨٣م أن ١٣ مليون شخص يتعرضون لجرائم اعتداء واغتصاب وسرقات مسلحة سنوياً، كما ورد في مجلة «شؤون سياسية Political Affairs» نقلاً عن تقرير لمؤسسة الأبحاث الإحصائية في نيويورك^٣.

وقد سبق لدراسة أجريت في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨م، أن حذّرت في تقرير «فيغي» عن الخوف من الاجرام: «إن الأمريكيين أصبحوا يخافون اليوم من بعضهم البعض. وإزاء هذا التحدي الجديد المخيف أصبحت مقدرة الأمريكي على العمل غير فعّالة. ويبدو أن الخوف من الاجرام العنيف قد جعل البلاد غير قادرة على الخروج من المأزق وعاجزة عن التعامل مع جذور خوفها» والأهم من ذلك هو أن التقرير يقول بأن الخوف «قد يكون أحد الأسباب التي تمنع المجتمع عن مواجهة مشاكله بنجاح».

أما الخوف فيقاس بالطرق التي يتبعها الأمريكيون للتآلف مع الوقائع الجديدة للاجرام؛ بشراء الأسلحة النارية، صفوف تعليم الكاراتيه، التهافت على شراء المزايلج الحديدية ضد خلع الأبواب والنوافذ، وعلى أجهزة الانذار العادية منها والمتطور. كما يُقاس بالطرق التي ينتهجها الأمريكيون والتي غيّرت بوضوح طرق عيشهم. فرجال الأعمال الأثرياء يسلكون بسياراتهم إلى عملهم طرقاً مختلفة كل يوم خوفاً من الاختطاف، والمواطنون العاديون يسبّرون في الشوارع متلفتين لمعرفة من يتبعهم. والرياضيون الذين يحملون معهم عشرين دولاراً على الأقل لا عطاءها إلى من يعترضهم في الطريق خوفاً على حياتهم.

(١) نقلاً عن مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٤٢٠)، ٥-١١ رجب ١٤٢١هـ / ٣-١٩ أكتوبر ٢٠٠٠م، ص ٣٢.

(٢) زهراء الأنصاري: «من مظاهر الانحطاط الاجتماعي في أمريكا»، مجلة الطاهرة (طهران) - العدد (٦٦)، ربيع الأول ١٤١٦هـ - آب ١٩٩٥م، ص ٢٠.

(٣) للاطلاع على مزيد من الأرقام الإحصائية يُراجع مجلة العالم (لندن) - العدد (٣٨)، ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤م - ٩ صفر ١٤٠٥هـ، ص ٦١.

جميع المواطنين أصبحوا يشعرون بأنهم معرّضون للاعتداء، خاصة كبار السن، وكما يقول «جيمس جيلسينان» وهو أخصائي في علم الاجرام في جامعة سانت لويس: «ان كبار السن والراشدين يشعرون بفقدان القوة والسيطرة واتخاذ القرار في معظم أوجه حياتهم. ان الخوف من أن يكونوا ضحايا في مناطق ليست بمناطقهم جعلهم لا يخرجون كثيراً، وعندما يفعلون فهم يفضلون الخروج في جماعات، اذ أن ذلك، وفقاً لجيلسينان، يقلل من امكانيات تعرضهم للاعتداء»^(١).

ولأن أمريكا البلد الوحيد في العالم الذي يُعدّ فيه حمل السلاح الشخصي حقاً دستورياً، ممّا أدّى إلى ظهور مجتمع يفور بأحداث العنف، ولذلك فأمريكا هي أول دولة في العالم من حيث انتشار الأسلحة، وتشير الاحصائيات إلى انتشار (٢٠٠) مليون قطعة سلاح شخصي على امتداد ولاياتها. ويبلغ عدد محلات ومتاجر بيع السلاح المسجلة أكثر من (١٠٠) ألف محل ومتجر، وقد أثبتت تحقيقات وكالة أمريكية سنوية لاستخدامات (٧٠) ألف قطعة سلاح، خلال عام واحد، أن (٥٠) ألفاً منها أستخدمت في الاعتداء والهجوم على الغير والبقية كانت سبباً في أعمال إجرامية كالقتل والسرقة واعتداءات أخرى متعلقة بالمخدرات وغيرها، وقد أدّى انتشار الأسلحة بين السكان إلى وقوع الكثير من الضحايا الأبرياء^٢ بمن فيهم الأطفال الذين تأسست «جمعية ذوي الأطفال المقتولين» دفاعاً عن ذكراهم، ولها حوالي عشرون فرعاً في مدن وولايات أمريكا^٣.

وتشير الاحصائيات الأمريكية إلى أن أكثر من (٣١) ألف شخص يلقون حتفهم كل عام برصاص الأسلحة الفردية، أو يلقي أكثر من ٨١ شخصاً مصرعه بحادثة مرتبطة باستخدام الأسلحة الشخصية كل يوم.. وتقلّ عن احصائيات وزارة العدل الأمريكية فان (٦,٣) مليون أمريكي وأمريكية كانوا - حتى نهاية عام ١٩٩٩م - قيد الاعتقال، أو الاحتجاز المؤقت والتحقيق، أو السجن، أو أطلق سراحهم بشروط أو بكفالة^٤.

(١) المرجع السابق.

(٢) صهيب جاسم: «الانتهاك المروع لحقوق الانسان داخل الولايات المتحدة»، مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٤٤٤): ٦ محرم ١٤٢٢هـ - ٣١ / ٣ / ٢٠٠١م، ص ٢٣.

(٣) حول هذه الجمعية يُراجع كتاب: «عالم التيه والضياغ» للدكتور نجيب عبدالله الرفاعي، الكويت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ٢٢.

(٤) للمزيد تُراجع مجلة المجتمع؛ المرجع السابق (١٤٤٤: ٢٤).

ويقول باحثون في المعهد الأمريكي لبحوث السياسات القانونية أن أكثر من مليوني أمريكي كانوا خلف القضبان بتاريخ ١٥/٢/٢٠٠٠م، أي بنسبة زيادة قدرها ٧٥٪ مقارنة بما كان عليه عدد السجناء قبل ١١ عاماً، حيث كانوا يبلغون (١،١٤) مليون سجين وسجينة، وهو ما يجعل الولايات المتحدة أكثر الدول سجناء، وتضم سجونها ربع عدد سجناء العالم، كما تقول وزارة العدل الأمريكية أن نسبة من يتعرض لأشكال السجن أو الاحتجاز من السكان قد ارتفعت مع نهاية عام ١٩٩٩م، لتبلغ (٦٩٠) شخصاً من كل (١٠٠) ألف مواطن، وأعلاها في ولاية لويزيانا (٧٣٦ من كل ١٠٠ ألف) وهي أعلى نسبة في العالم أيضاً.

ولما كانت السجون مكتظة بالمساجين، فقد قُتل عام ١٩٩٨م (٥٩) سجيناً من قبل السجناء الآخرين، وتسبب الاعتداء والضرب والاغتصاب في جرح وإصابة (٦٧٥٠) سجيناً و (٢٣٣١) موظفاً حكومياً. وتشير إحصائيات منظمات غير حكومية في ولاية كاليفورنيا إلى أن (١٠) آلاف حالة اعتداء جنسي تُرتكب في السجون الأمريكية كل يوم!!!.

وهذا العنف المتزايد ليس سوى انعكاس للنواحي السياسية والعلاقات التي تحكمها والمصالح التي تتحكم بها. فالعنف هو الذي يسيّرنا، أي مصالح الأشخاص والطبقات والكارتلات التي تتصارع فيها صراعاً رهيباً^٢ كما أن لوسائل الاعلام، خاصة التلفاز، دوراً أساسياً في الترويج للعنف، في مجتمع تقوم فلسفته العملية على العنف!، وترصد الدراسات الأكاديمية بمزيد من القلق دور الاعلام والتقنيات الحديثة التي نقلت عنف هوليوود إلى المنازل، وعبر الانترنت، إلى الأطفال في المنازل.

وطبقاً للأبحاث المختلفة، فإن واحدة من محطات التلفاز الأمريكية تبث، خلال الأربع والعشرين ساعة، حوالي (١٢٠٠) مشهد سينمائي في حال عنف. فأعمال العنف التي تعرضها أفلام الكارتون المعدة للأطفال، والأفلام السينمائية، وحتى الاعلانات التجارية، هي التي قادت المجتمع صوب أعمال العنف وروّجت الفساد، حيث أصبح القتل والعنف ظاهرة مألوفة وطبيعية في أمريكا! وإلى الحد الذي بات فيه مجموع القتلى بالرصاص

(١) المرجع نفسه : ٢٤.

(٢) مجلة المختار الاسلامي؛ مرجع سابق ٤١ : ٦٣.

(٦٠) ألف شخص خلال عامين، يفوق عدد القتلى الأمريكيين خلال حرب فيتنام التي استمرت ثمانية أعوام!، كما ان معدل من يُقتل يومياً من الطلاب في المدارس هو أربعون تلميذاً، من جرّاء استخدام الأسلحة النارية من قبل زملائهم^١.

والمثير أن العنف تمدد على مساحات أخرى ما كان ينبغي أن يقتحمها، كما هو الحال مع ملاعب كرة القدم التي من المأمول أن تكون فضاءً للشفافية والروح الرياضية، غير أنها أمست ميداناً مكشوفاً للاشتباكات، كما حصل أكثر من مرّة في الملاعب الرياضية البريطانية والفرنسية والإيطالية... وقد قُتل ذات مرّة، خلال أحداث عنف، ١٠٦ أشخاص في بريطانيا، وجرح نحو عشرين شخصاً وتم اعتقال ١١٢ مشاغباً، عام ١٩٨٩م، وذلك في أعقاب مواجهة عنف بين أنصار فريقين متنافسين.. فيما قام المشاغبون بمهاجمة مطاعم ومتاجر، في طريق عودتهم، وعبثوا بكل ما وجدوه من مؤن وأوانٍ وأثاث^٢.

أما على صعيد الأفلام الغربيّة -والأمريكية بالذات- فإنّها تواصل عروضها التي تتسم بالعنف والغطرسة والتفوّق ولا يكاد يخلو فيلم واحد من لقطات عديدة للعنف والجريمة وكأنّها أصبحت من ثوابت السينما الغربيّة. ما تجدر الإشارة إليه ان «سيلوستر استالونة» ممثل أفلام العنف الأمريكي المعروف استسلم أمام انعدام الأمن الاجتماعي في أمريكا، وأعلن عن هزيمته مقابل الحالة المرضية التي ساهم في خلقها.. وأعلن عن رغبته في مغادرة أمريكا، لأنها غدّت من كل النواحي خطرة وعديمة الأمن بالنسبة للنساء والبنات «لذلك أنوي أن أغادرها إلى الأبد، لأنني أرغب أن تواصل ابنتي نشأتها ودراساتها وبالتالي عملها في أجواء نظيفة سليمة».. وقد سبق لممثلين مشهورين أمثال: «أنطوني كوين»، و «مارلون براندو» و «باربارا سترايسند» أن حذروا الآباء والأمهات من خطورة الوضع الاجتماعي الأمريكي على أطفالهم^٣.

المخدرات.. والإدمان:

مما لا شك فيه ان ظاهرة الادمان على المخدرات والعبودية لها أصبحت جائحة تعم

(١) مجلة نور الاسلام (بيروت) - العدد المزدوج (٣٩ - ٤٠)، ربيع الأول وربع الثاني ١٤١٤هـ، ص ٩٧.

(٢) للوقوف على بعض جوانب الشغب خلال مباريات الدوري يُراجع مجلة العالم (لندن) - العدد (٢٧٦) - ٢٧

آيار (مايو) ١٩٨٩م - ٢٢ شوال ١٤٠٩هـ، ص ٥٩.

(٣) صحيفة كيهان العربي - العدد (٣٧٩٩)، ٢٥ رمضان ١٤٤٧هـ - ٤ شباط ١٩٩٧م.

العالم، ولم تعد تقتصر على بلد دون آخر، بعد أن زالت الحدود، وأُلغيت المسافات، ورفعت الحواجز، وأصبح العالم دولة واحدة، وعمّت البلوى، وأخذ كل بلد نصيبه من الوباء.^١ وهناك علاقة وثيقة بين العنف والمخدرات. وعلينا أن نتخيل عالماً بلغت فيه تجارة المخدرات حجماً كبيراً، ووصلت إلى (٤٠٠) مليار دولار، أي ٨٪ من حجم التجارة العالمية (حسب إحصائيات عام ١٩٩٥م)، ماذا يمكن أن تمثل له الجريمة والعنف، إلا أن تكون وسائل طبيعية للحفاظ على هذه الثروة المحرمة.

كما أن نمو هذه التجارة زاد بنسبة تصل إلى ثلاثة أضعاف خلال عقد التسعينات، ولو عدنا إلى أرقام المتعاطين في العالم لوجدنا أن هناك ٢٠٠ مليون متعاطٍ (بين مدمن ومستخدم) الغالبية العظمى منهم تعاني من اضطرابات نفسية وعصبية تدفعهم إلى الجريمة، ويكفي أن نعلم أن نصف حوادث السرقة والنهب في بريطانيا يقوم بها مدمنون ومتعاطون للمخدرات^٢ ومن هنا أمست بريطانيا تواجه مشكلة حادة في ازدياد انتشار تجارة المخدرات واستهلاكها بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ المجتمع البريطاني. ويعزو الخبراء انتشار هذه الآفة إلى سببين رئيسيين؛ الأول تدهور أخلاق المجتمع الانجليزي خصوصاً على مستوى الشباب والمراهقين. والسبب الآخر هو انخفاض أسعار الحشيشة والمخدرات لغرض توسع أسواقها.

وتشير إحصائيات الحكومة البريطانية إلى زيادة كبيرة في استعمال المخدرات الخطرة خاصة في فترة الثمانينات. ورافق ذلك أيضاً ازدياد عدد الموتى بسبب الاستعمال المستمر للمخدرات^٣.

ولم يكن المجتمع البريطاني وحده هو الذي ينوء تحت هذه الآفة القاتلة، فإن كل عواصم الغرب ومدنه الكبرى والصغرى ليست بمنأى عن هذا الخطر المخيف. فقد تزايد الادمان على الهيروئين في الغرب، منذ صيف عام ١٩٦٩م، ومن الصعب اليوم إعطاء إحصائيات رقمية دقيقة، نظراً لعموم البلوى وتنوع المخدرات.

(١) د. محمد محمود الهواري: «المخدرات من القلق إلى الاستعباد»، كتاب الأئمة (قطر)، شوال ١٤٠٧هـ،

ص ٨.

(٢) مجلة المجتمع؛ مرجع سابق ١٤٢٠: ٣٤.

(٣) د. أياد أحمد: «المجتمع البريطاني ينوء تحت آفات قاتلة»، مجلة العالم (لندن) - العدد (٢٦٣)، ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٨٩م - ١٩ رجب ١٤٠٩هـ، ص ٦٠.

وقد نشر مكتب المخدرات في الولايات المتحدة عام ١٩٦٥م بأن عدد المدمنين على المخدرات بلغ (٥٧١٩٩) حالة كان منها (٥٢٪) فقط في مدينة نيويورك و(١٣٪) في شيكاغو (١٢٪) في كاليفورنيا.. وكانت نسبة النساء فيهم كنسبة (١/٥)!!

وتبعاً لدراسة بادن «M. Baden» المفتش العام للصحة في نيويورك كان الهيروين السبب الرئيس للوفيات لدى المدمنين الشباب الذين لا تتجاوز أعمارهم (٢٠) عاماً. وقد بلغت الوفيات في عام ١٩٨٥م حوالي (٥٤٨) مراهقاً^١، فيما بلغ عدد المتعاطين للمخدرات في أمريكا، أواخر الثمانينات، (٣٨) مليون شخص، من بينهم (١٢) مليون يتعاطون الكوكايين وهو أخطر أنواع المخدرات على الإطلاق^٢ وتؤكد الاحصائيات الأمريكية لعام ٨٢-١٩٨٣م أن هناك خمسة آلاف أمريكي يدمن على المخدرات كل يوم^٣، وهناك واحد من كل ثلاثة طلاب أمريكيين يتعاطى المخدرات!!

ولاستفحال ظاهرة الادمان على المخدرات في المجتمع الأمريكي، أضحى الآلاف من الاطفال -ممن يتعاطى آباؤهم أو أمهاتهم، أو كلاهما معاً، المخدرات- ضحية هذا الوباء الفتاك. ولمعالجة انتشار ظاهرة الكآبة أو الحد منها، في صفوف أطفال المدمنين على المخدرات أو الكحول، أنشئت مؤسسة أطفال المدمنين لرعاية الآلاف منهم^٤.

أمّا في بريطانيا فقد أحصيت (١٢٧٢) حالة ادمان ما بين عام ١٩٤٧م و ١٩٦٧م، كان منهم (٨٩٠) فقط في عام ١٩٦٧م. ولوحظ اليوم أن العدد بدأ يتضاعف كل (١٦) شهراً تقريباً. وذكر «بادن» أن الوفيات في الشباب (٢٤ سنة) هي أكبر بـ (٢٨) مرة منها في بقية قطاعات الشعب^٥ ويصرّح رئيس شرطة «يوركشاير» في إنجلترا أن من بين كل عشرة شباب انجليز هناك (٩) متورطين بنحو أو آخر في قضايا المخدرات!!

وفي فرنسا سجلت السلطات القضائية تزايداً في حالات الادمان. فقد بلغت الحالات التي وقفت عليها السلطات القضائية والصحية (١٠٩٥٨) حالة في عام ١٩٨٠ و (١٣٨٥٠)

(١) المخدرات من القلق إلى الاستعباد؛ مرجع سابق: ٥١.

(٢) صحيفة القيس الدولي: ٢٨/٦/١٩٨٩م (نقلاً عن كتاب عالم التيه والضياح؛ مرجع سابق: ٨) فيما تذهب إحصائيات أمريكية معتبرة إلى أن عدد الذين يدمنون الكوكايين يبلغ (٢٠) مليون شخص (العالم ٣٨: ٦١).

(٣) مجلة العالم؛ مرجع سابق ٣٨: ٦١.

(٤) مجلة القيس: ٢٥/٣/١٩٨٩م.

(٥) المخدرات: من القلق إلى الاستعباد؛ مرجع سابق: ٥٢.

حالة في عام ١٩٨١م، والفرق ما بين العامين (٢٩٠٠) حالة يكافئ مجموع الحالات المشاهدة خلال عام ١٩٦٩م و ١٩٧٠م. ولدى مقارنة الجداول الإحصائية المتعلقة بالهيرويئين من عام ١٩٧٠م تبين أن عدد المرضى لم يتجاوز (٥٪) حتى عام ١٩٧٥م، ثم ارتفعت النسبة حتى وصلت إلى (٣٦/٣٧٪) من الحالات في عام ١٩٨١. ولوحظ أن النسبة مرتفعة في المدن الكبرى كباريس: فهي تمثل (٤٧٪) من الحالات أي بزيادة (٧٠٪) من الحالات المشاهدة عام ١٩٨٠م، وبينما تتصاعد نسبة الإدمان على المخدرات، فإن نسبة الوفيات بسببها، هي الأخرى تتصاعد، وبشكل طردي^١.

وبينما تطارد كل أو معظم دول العالم مدمني المخدرات ومروجيها، تشذ سويسرا عن هذه القاعدة، حينما غدت «واحة المدمنين في أوروبا» وتحولت ساحة البرلمان في العاصمة «برن» إلى ملتقى المدمنين وتجار المخدرات، وعلى بعد خطوات من حدود القصر الفيدرالي الضخم في وسط العاصمة، حيث تقع مقار الوزارات والنواب!

وإذا ما أصبحت طرقات المبنى الرئاسي وساحاته مرتعاً خصباً لمتعاطي المخدرات في العاصمة السياسية، فإن العاصمة الاقتصادية «زيورخ» أقدمت على تجربة فريدة من نوعها هي رعاية مدمني المخدرات!، وكانت البداية عام ١٩٨٧م حينما حددت سلطات زيورخ مكاناً معيناً يسمى «ليتن» على ضفاف نهر ليمات، تحت جسر كورنها وزبروك كساحة رسمية يلتقي فيها مروجو ومدمنو المخدرات تحت رعاية الشرطة وحراستها. وكانت فلسفة السلطات في ذلك الوقت هو حصر أعداد المدمنين، وإقامة عالم خاص بهم يفصلهم عن غير المدمنين، وسرعان ما تحولت الساحة إلى مسرح مكشوف يرتاده السياح من كل مكان، حيث كان المئات يتوافدون على مدار الوقت من كل مكان، ويقفون على الجسر لمشاهدة صورة حيّة لا تتوفر في أي مكان في العالم لمروجي ومدمني المخدرات الذين كانت تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٣٠ عاماً، -أي زهرة الشباب ونضارته- وهم يتعاطون المخدرات بحرية تامة ويعيشون في عالمهم القذر الخاص بهم، فقد كانت الأرض التي يعيش عليها هؤلاء حياتهم الكاملة عبارة عن مزبلة تضم عشرات الآلاف من الأبر والأكياس الفارغة والعوازل الطبية، حيث كانوا يمارسون الجنس مثل الحيوانات في هذه

(١) لمزيد من الاطلاع على الإحصائيات بهذا الخصوص يُراجع كتاب: «المخدرات من القلق إلى الاستبعاد»،

مرجع سابق: ص ٥٣.

الساحة المكشوفة، أو تحت الجسر وسرعان ما تحولت هذه الساحة إلى بؤرة ليس لمروجي ومدمني المخدرات في سويسرا وحدها، وإنما في أوروبا عموماً، وخاصة لمدمني ألمانيا والنمسا القريبتين من زيورخ، ووصل عدد المدمنين الذين يلتقون بصورة شبه كاملة في تلك الساحة إلى ما يزيد على ألفي مدمن يومياً، وعشرين ألف مدمن بشكل عام.

ومما يبعث على السخرية هو قيام بلدية زيورخ - مساهمة منها في تيسير الادمان لهؤلاء الذين انتشرت بينهم الأمراض الفتاكة وعلى رأسها الأيدز - بتوفير ١٢ ألف حقنة معقمة يومياً يتم توزيعها على المدمنين.. وبدأت الخطوة الأولى في هذا الجانب عام ١٩٩٢م، حيث أنشأت الحكومة السويسرية في زيورخ ستة مراكز لرعاية المدمنين تقدم لهم القهوة والحساء والجرعات المخدرة مجاناً ثلاث مرات في اليوم^١.

أما في قلعة الكاثوليكية (إيطاليا) فإن تجارة المخدرات مزدهرة هناك، كجزء من تنامي تجارة الجريمة عموماً، اذ يصل إجمالي مكاسب الجريمة هناك إلى نحو (٣٠) تريليون لير (٢٣ مليار دولار) سنوياً، مما يضعها في المركز الخامس للأرباح في البلاد. وقال المعهد القومي للإحصاءات في دراسة اعتمدت على أرباح عام ١٩٩٠م أن نحو (١٧٠) ألف شخص حصلوا على مكاسب من وراء الجريمة. وكتبت صحيفة «ال سول ٢٤» المالية تعليقاً ساخراً قالت فيه: «شركة الجريمة المحدودة.. في المرتبة الخامسة» بين الأعمال المربحة. وأوضحت أرقام المعهد أن معدل أرباح تاجر المخدرات السنوي يصل إلى ما يتراوح بين (١٦٠) و(٣٠٠) مليون لير (١٢٠ - ٢٣٠) ألف دولار وقال المعهد: إن إيطاليا قد تحصل على عائدات تصل إلى مليار دولار تقريباً إذا فرضت ضرائب على الاتجار بالمخدرات^٢.

وتمضي المأساة إلى ذروتها، حين يتورط رجال الكنيسة في المتاجرة بالمخدرات والقيام بتهريبها، كما حصل مع قسيس يبلغ من العمر ٧٧ عاماً، الذي أُلقي القبض عليه بالجرم المشهود، وهو تهريب تسعة كيلوغرامات من الكوكايين إلى سويسرا، الأمر الذي

(١) يُراجع المقال الاستطلاعي عن الموضوع: «سويسرا واحة المدمنين في أوروبا!»، مجلة المجتمع - العدد (١٢٢٤)، ٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٧هـ - ٥ / ١١ / ١٩٩٦م، ص ٣٤ - ٣٦.

(٢) نقلاً عن مجلة نور الاسلام؛ مرجع سابق، العدد (٣٩ - ٤٠): ٩٦.

أودى به إلى السجن ليقتضي عقوبة لمدة ثماني سنوات، بعد تقديمه الى المحاكمة^١. فيما يتعلق بظاهرة الادمان على الكحول.. فقد أخذت المشكلة تأخذ طريقها بالازدياد والتوسع، منذ مطلع القرن العشرين، مع تعقد المجتمعات خصوصاً الصناعية. بل وأخذت هذه المشكلة تعتبر بحق واحدة من أعقد المشاكل المرضية بما تنطوي عليه من تعقيدات طبية ونفسية واقتصادية واجتماعية^٢، وتفيد صحيفة الصحة العالمية أن (٧٠ - ٩٠ ٪) من سكان البلدان الصناعية يتعاطون الكحول التي تعتبر من أبرز أسباب حوادث السير والانتحار والسقوط من شاهق والغرق!!

ففي المجتمع الأمريكي - على سبيل المثال - احتلت مشكلة الادمان على الكحول المرتبة الرابعة بعد السرطان، وأمراض القلب، والأمراض العقلية. وتقدر نسبة المدمنين هناك بأكثر من (٦) ملايين شخص (حسب احصائيات عام ١٩٨٣م). أما في أوروبا فان هذه المشكلة تُعد الثالثة بعد السرطان والأمراض القلبية^٣.

ولو استنتقنا الأرقام، في هذا الصدد، لوقفنا على حقيقة الوضع المزري الذي يعيشه المجتمع الأمريكي: فهناك ما يزيد عن (١٨) مليون أمريكي يدمنون المشروبات المسكرة، وما يزيد عن (١٠) ملايين منهم لا يرجى لهم شفاء من الادمان. فيما تدخل المشروبات المسكرة كأحد العوامل المسببة لما يزيد عن ٥٠ ٪ من جرائم القتل والانتحار الفجائي! كما تؤدي إلى وفاة ما يزيد عن (١٠٠) ألف شخص سنوياً أي ما يعادل ٢٥ ضعف عدد الذين يموتون من كل العقاقير المخدرة مجتمعة!

اضافة إلى ذلك؛ هناك اثنان من كل ثلاثة من البالغين يدمنون المسكرات، وهناك اثنان من كل ثلاثة من طلاب المدارس الثانوية يشربون الخمر مرة واحدة في الاسبوع على الأقل، و ٥ ٪ يشربون يومياً، و ٤٠ ٪ من طلاب المدارس المتوسطة جرّبوا الشرب ولو لمرة واحدة.. أما الطفل الأمريكي فيشاهد قبل بلوغه الثامنة عشرة، ما يعادل (١٠٠) ألف اعلان دعائي يزيّن له المشروبات المسكرة!

(١) مجلة العالم (لندن) - العدد (٢٤٧): ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨م - ٢٦ ربيع الأول ١٤٠٩هـ، ص ٢٩.

(٢) مجلة العالم (لندن) - العدد (٢١)، ٧ تموز (يوليو) ١٩٨٤م - ٨ شوال ١٤٠٤هـ. مقال «إدمان الكحول مرض

حضاري». ص ٥٣ - ٥٤.

(٣) المرجع نفسه.

تكلّف المشروبات المسكرة الأمريكية ما يعادل (١١٧) مليار دولار سنوياً، منها (١٨) مليار دولار بسبب الموت المبكر، و (٦٦) مليار دولار بسبب التباطؤ في العمل أو تعطيله و (١٣) مليار دولار لعلاج المدمنين .. وهناك عائلة واحدة من كل أربع عائلات أمريكية تعاني من المشاكل بسبب المشروبات المسكرة^١.

وإذا ما تركنا أمريكا السكرى هذه، وألقينا نظرة على بريطانيا العجوز، فسنجد أن الداء قد استفحل حتى في صفوف الأطفال البالغ عمرهم ما بين التاسعة والحادية عشرة، حيث يتناول ربعهم تقريباً الكحول بانتظام. هذا ما قالته دراسة نشرت في لندن وأثارت ضجة في الأوساط السياسية والإعلامية والشعبية على حد سواء.

وجاء في الدراسة التي أجرتها جامعة اكستر عام ١٩٩٢م، وشملت (٣٧٠٠) طفل أن أكثر من ربع الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ٩-١١ سنة اعترفوا بأنهم يتناولون الكحول في الخارج وأحياناً في منازلهم. أما الفتيات من هؤلاء فيتناولن الكحول كالذكور، ولكن بنسبة أقل^٢.

وفي تقرير لهيئة الصحة العالمية (W.H.O) جاء فيه: ان ٥٠٪ من جميع جرائم الاغتصاب تمت بتأثير الخمر، وان ٨٦٪ من جميع جرائم القتل ارتكبت تحت تأثير الخمر^٣.. وليس هذا بمستغرب عمّا تجلبه «أم الكبائر» من آثام وتداعيات.

الشذوذ الجنسي .. والأيدز:

ثمة ظاهرة أخرى، لعلها الأخطر والأبشع. تلك هي ظاهرة التحلل الأخلاقي، وما يترتب عليها من تفسّخ يهدد الحياة الاجتماعية والنظام الاجتماعي كله. ولم يعد سراً ما تعاني منه حضارة الغرب اليوم من تدهور مخيف، على هذا الصعيد. إن هذه الأزمة العميقة التي تحفر أخاديدها العميقة في المجتمع الغربي لا تقف تداعياتها عند حد أو مظهر محدد. وها هي تعبّر عن نفسها بواسطة بعض المظاهر السلبية كالانتحار، والحياة العبيثية، والمجون، والامعان في الجريمة والفوضى.. وهكذا تفرز حضارة الغرب كل يوم من التقاليد

(١) القيس: ٥ / ٢ / ١٩٨٩م (نقلًا عن كتاب عالم التيه والضياغ: ٧-٨).

(٢) مجلة نور الاسلام؛ مرجع سابق ٣٩-٤٠: ٩٦.

(٣) المرجع نفسه.

اللااخلاقية والصراعات المجنونة ما يجعل بنهاية هذه الحضارة الآثمة. والشواهد على ذلك تكاد تكون لا حصر لها...^(١).

إنّ المجتمع الغربي محاصر اليوم، أكثر من أي وقت مضى، بشبكة من الأزمات الأخلاقية المشيرة للذعر، خاصة وأنها تتفاقم يوماً بعد آخر، دون أن يلوح في الأفق بصيص حل أو علاج، وأتى للغرب ذلك.. وقد أمسى، بانغماسه في الرذيلة، مشكلة مستفحلة قائمة.. فلم يعد - والحالة هذه - جزءاً من الحل أو طرفاً فيه؟!.

إنّ القاموس الأخلاقي في الغرب، كما هو الواقع المعاش، يحفل اليوم بمصطلحات من قبيل: الشذوذ الجنسي، اللواط، البغاء، الاغتصاب، الاجهاض، العزوف عن الزواج وتفضيل العزوبة.. وأخيراً الأيدز!!، في حين اختفت مصطلحات العفة، والفضيلة والشرف والمروءة والنبيل.. والانسانية!.

فمنذ أواسط الستينات من القرن الماضي، وتحديدًا من عام ١٩٦٥م، والخط البياني في تصاعد مخيف للتدهور الأخلاقي. وحينها قرعت بعض الأوساط الغربية أجراس الخطر، بسبب تفشي هذه الظاهرة، وما تمخّض عنها من طوفان جنسي محرّم، برزت بعض معالمه وملامحه. إذ أفادت التقارير الرسمية حينئذ أن عدد عمليات الاجهاض للطالبات في المدارس الثانوية وحدها - في أمريكا - بلغ (٢٥٠) ألف عملية.. وان أكثر من (٦٠٪) من اللواتي تزوجن منهن، دون التاسعة عشرة، ذهبن إلى بيوت عرسانهن ليلة الزفاف، وفي بطن كل منهن جنين لم يكتمل تكوينه، ولا يعلم إلّا الله من هو أبوه!!^(٢).

وتفيد الاحصائيات الرسمية الأمريكية، ان (٧٠٠) ألف امرأة تتعرض سنوياً الى أنواع الاعتداء الجنسي، وتجري هناك حوالي مليون ومائتي حالة اجهاض، وتتعرض امرأة واحدة كل (٨) ثوانٍ إلى سوء المعاملة، بينما تتعرض امرأة واحدة كل (٦) دقائق للاغتصاب!! في منتصف التسعينات. وتشير الاحصائيات في مدينة نيويورك وحدها أن هناك ما يزيد عن (٣٠٠) طفل يولدون شهرياً لأمهات مدمنات الكوكايين والحقن المخدرة، بل ان الاحصائيات الأخطر من ذلك تشير إلى أن مليون وثلاثمائة ألف طفل

(١) لمزيد من الاطلاع على أوجه الابتذال الأخلاقي يراجع كتاب «الاسلام والغرب: الوجه الآخر» لكاتب السطور، ص ٤٨ وما بعدها.

(٢) مجلة الطاهرة: مرجع سابق ٦٦: ٢٢.

يولدون سنوياً من مراهقات صغيرات^١.

وفي سنة ١٩٨٤م تعرّض ما يقارب (٥٠٠) ألف طفل أمريكي للاعتداءات الجنسية الشاذة، بينما يشير «دايف فينكلهور» من أسرة برنامج الصنف في جامعة نيويورك مبشر في بحثه ان ما نسبته ١٩٪ من مجموع النساء الأمريكيات و ٩٪ من مجموع الرجال الأمريكيين هم ضحايا اعتداءات جنسية ارتكبت بحقهم وهم أطفال^٢.

وأمریکا ليست الوحيدة، في هذا المضمار، ففي أوروبا بلغ عدد النساء اللواتي يرغمن على البغاء حوالي نصف مليون امرأة.. وثلاث النساء في النرويج وهولندا ونيوزيلنده، اضافة إلى أمريكا، يتعرضن للعنف الجنسي. كما تموت (١٠٠) ألف امرأة سنوياً نتيجة الاجهاض السري، وتعرّض ٨٥ - ١١٤ مليون امرأة وفتاة سنوياً لمختلف ألوان العنف الجنسي ويضاف إلى هذا الرقم (٢٠٠٠) حالة كل عام!، كما ان واحدة من كل ثلاث زيجات تنتهي بالطلاق في ألمانيا!

وفي فرنسا تعيش أكثر من عشرة ملايين امرأة وحيدات، وأكثر من ثمانية ملايين رجل وحيد، وتوقعت مؤسسة «سوفراس» الفرنسية عام ١٩٨٩م، بأن تشمل العزوبية في فرنسا عام ٢٠٠٠م، ٣٥٪ من الفرنسيين والفرنسيات في سن الزواج. أما في الدنمارك والسويد فقد صار عدد العزّاب والعازبات (عام ١٩٨٩م) هو الأغلبية، أي بنسبة ٥٥٪^٣. فيما تتزايد نسبة الاحجام عن الزواج، تتسع ظاهرة الشذوذ الجنسي، وبأقصى درجات الانحطاط، وإلى الدرجة التي تقدم فيها مليونيرة تبلغ من العمر ٤٣ سنة على الزواج من ابنها البالغ من العمر ١٧ سنة!!^٤ أو زواج الأخ بأخته!!، وقد عرض التلفاز البريطاني في صيف ١٩٨٧م مقابلة مع أزواج ذكور وأناث لديهم أطفال، وهي من أغرب المقابلات ويعلق مقدم البرنامج قائلاً: حلقة هذا اليوم ظاهرة في المجتمع البريطاني وهي زواج الاخوان بالأخوات، ولدينا في هذا اليوم مجموعة من هؤلاء. ويتكلم أحد هؤلاء فيقول: لقد أحببت

(١) نقلاً عن كتاب عالم التيه والضياح؛ مرجع سابق: ٩٢.

(٢) مجلة نيوزويك: ١٤ / ٥ / ١٩٨٤م (نقلاً عن المرجع السابق).

(٣) عن تفشّي ظاهرة العزوبية يُراجع مقال: «هل أصبحت العزوبية موضة عند الأوروبيات؟»، مجلة المجتمع - العدد (٩٢١)، ٧ ذو القعدة ١٤٠٩هـ - ٢٠ يونيو ١٩٨٩م، ص ٥٠ - ٥١.

(٤) كتاب الاسلام والغرب؛ الوجه الآخر، مرجع سابق: (نقلاً عن مجلة منار الاسلام الإماراتية، ع ٤٠، ص ٢٠،

ربيع الآخر ١٤١٥هـ، ص ١٢٨).

أختي حباً كبيراً منذ الصغر، وأنا أعاشرها منذ زمن بعيد، ولم أجد خارج أسوار البيت من أعشقه، وحينما تقدمت للزواج بها رفضت المحكمة، إذ مثل هذا الزواج غير مسموح في بريطانيا لأسباب صحية - وليس لأسباب دينية - ولكنني مع ذلك صممت على أن تكون زوجتي، رغم عدم اعتراف المحكمة بزواجنا ولدي منها طفل.. ثم نادى على الطفل، ليثبت بطلان زعم المحكمة أن الأطفال الذين يولدون من مثل هذه الزوجات يكونون معاقين!^١

وفي أواسط الستينات ذكرت صحيفة «سبكتيتير» البريطانية أن عدد الأطفال غير الشرعيين في إنجلترا بلغ في عام واحد (٦٣) ألف طفل، وأن مثل هذا العدد كان من الأطفال الذين ولدوا قبل مرور ثمانية أشهر من الزواج!!^٢

والذي يُقال عن طالبات المدارس الثانوية، يُقال أكثر منه عن طالبات الجامعات! وهذا كله بالرغم من استعمال حبوب منع الحمل التي لا تكاد لا تخلو منها حقبة يد إحدى الفتيات، والتي أصبحت تتداول في الغرب كما تتداول السجاير و«البنبون» والأسبرين!.. وتضيف تلك التقارير إلى ذلك أن الأمراض التناسلية، وخاصة السيلان، قد تفشت بين طلبة المدارس والجامعات المذكورة وطالباتها، بصورة وبائية^٣.

كان هذا أواسط الستينات، من القرن الماضي، وقبل مضي عقدين من الزمان على تلك التقارير، أصيب المجتمع الدولي بالهلع والرعب جرّاء ظهور مرض «الأيديز» حتى أصبح بالامكان القول: إن الحضارة الغربية تمخّضت.. فولدت الایدز!^٤

إن المجتمعات الغربية تعيش اليوم عصر الایدز وباء العصر والثمرة اللعينة لشجرة الشذوذ والمخدرات.. وأنه لأمر لا يصدق أن يعقد قران بين رجلين، ويحظى المنحرفون جنسياً بحماية القانون واعترافه، كما هو الحال في الدنيمارك وغيرها، وكما هو معمول به في بريطانيا التي يسمح قانونها بالواط لمن بلغ الحادية والعشرين، وفي فرنسا فإن السن المسموح لممارسة الجنس هو السادسة عشر بغضّ النظر عن الميل الجنسي!.. وفي

(١) كتاب عالم التيه والضياح؛ مرجع سابق: ٧٨.

(٢) مجلة العربي (الكويت) - العدد (٩٤)، جمادى الأولى ١٩٨٦م - سبتمبر (أيلول) ١٩٦٦م، ص ١٤١.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) مجلة الظاهرة؛ مرجع سابق: ٦٦: ٢٢.

بريطانيا جمعية اللواط والمساقيات البريطانية تدافع عن هؤلاء المنحرفين. أما في فرنسا فان «مايكل تورينيه» وهو من اللواط البارزين في فرنسا وكاتب روايات أيضاً يشن هجوماً شرساً على القوانين المقيدة لحريات المنحرفين جنسياً^(١).

هذا الطوفان الجنسي المحرّم وهذه العلاقات الآثمة لم تظل حبيسة الجدران الخاصة، أو صالونات المجتمع المخملي، بل أصبحت حديث الصحافة.. والأفلام السينمائية التي تصوّر تلك العلاقات الآثمة، بل وتنقل لقطات كاملة عن نوادي العراة!، وتتقف هولود في طليعة المؤسسات المحرّضة على الفجور. ففي عام ١٩٧٩م انتجت ستين فيلماً يشيد بنكاح المحرمات، وعرضته عرضاً صريحاً فاضحاً، بينما لم تنتج هولود إلا ستة أفلام من هذا النوع عام ١٩٢٠م^(٢).

من هذه الأجواء الآسنة الموبوءة التي تفوح منها رائحة الرذيلة والانحطاط والقذارة.. خرج قمقم «الايدز»، الذي بلغ حصاده، وفق مصادر منظمة الصحة العالمية، أكثر من (٢٥) مليون مصاب، أغلبهم من أمريكا وأوروبا وأفريقيا. وتشير النتائج الأولية لدراسة وضع طلاب الجامعات الأمريكية إلى أن طالباً من كل (٣٠٠) طالب هو مصاب بفيروس الايدز!، وهناك اعتقاد رائج ان العدد الحقيقي للأشخاص المصابين بعدوى الايدز يقترب من المليون أمريكي^(٣) حتى عام ١٩٩٣م. في حين بلغ عند بدايات الاكتشاف عام ١٩٨٢م، حوالي (١٢) ألف مصاب. كان ٧٠٪ منهم من ذوي الشذوذ الجنسي، أو من المدمنين على المخدرات في شكل حقن في الأوردة.

في البداية حاولت الجهات المعنية في أمريكا التكتّم على المرض، غير ان استفحاله من جهة، واعتراف الممثل السينمائي «روك هدرسن» بأنه مصاب بمرض «الايدز» ومواساة الرئيس السابق «ريغن» له على الهاتف في المستشفى من العوامل التي ساعدت إلى حد كبير على ازالة السرية ورفع الستار عن هذا المرض.. وليصبح -بعد فترة وجيزة- هو القاتل الرئيس بالنسبة للرجال في نيويورك الذين هم ما بين العشرين والثلاثين سنة من العمر، فهو

(١) يراجع مقال: «الشذوذ الجنسي في الصحافة الغربية»، مجلة المجتمع - العدد (٩٤١)، ١٥ ربيع الثاني ١٤١٠هـ - ١٤ نوفمبر ١٩٨٩م، ص ٤٠.

(٢) مجلة نور الاسلام؛ مرجع سابق ٣٩ - ٤٠: ٩٦.

(٣) نقلاً عن مجلة الطاهرة؛ مرجع سابق ٦٦: ٢١.

أكثر فتكاً من ظاهرة القاتلين عمداً، وهي من المشاكل الأبدية في نيويورك، حسب تعبير صحيفة «ذي نيويورك بوست»!

وبانتشار الايدز.. يكون الشعور بالذعر، وارتفاع نوبة الخوف البالغة درجة الجنون «الهستيريا»، هو الجو المخيف السائد^١.

على ان التفسّخ الذي أصاب المجتمع الغربي لم تسلم منه حتى الكنيسة، اذ تناقلت بعض الأوساط الخبرية أن مشكلة القساوسة المغرمين بممارسة الجنس مع الغلمان واسلوب معالجة الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية وصلت إلى نقطة الغليان.. وفي هذا المجال أشار الأسقف «اندروي غريلي» وهو متخصص في علم الاجتماع وروائي إلى أن ما بين (٢٠٠٠-٤٠٠٠) أمريكي انتهكوا أحدًا جنسياً، وأن الضحايا الأمريكيين لانتهاكات القساوسة الجنسية ربّما يفوقون (١٠٠) ألف شخص، وهناك مؤسسة شبكة الناجين من انتهاكات القساوسة ومقرها شيكاغو، وهي واحدة من جماعات كثيرة ظهرت لدعم ضحايا الانتهاكات التي يقوم بها رجال الكنيسة^٢.

والكنيسة التي تسمح لنفسها أن تصبح بلا مبادئ لن تكون في مأمن من الفضائح الأخلاقية، وهذا مرض العصر، إفراز حضارة الغرب.. لم تسلم منه حتى الاديرة! اذ تمّ اكتشاف اصابات بالايديز لأكثر من راهب، منذ عام ١٩٨٦م^٣.

ولم يكن الايدز خطيئة الغرب وجريمة العصر الوحيدة.. فحضارة الغرب تحفل بالعديد من شواهد الزيف الحضاري وشذوذه.. بل وعهره!

(١) يُراجع مقال: «وداعاً للمجون والخلاعة» بقلم و.ج. وثرابي، ترجمة الدكتور سيد محمد منور نينار، مجلة الأئمة (قطر) - العدد (٦٢)، صفر ١٤٠٦هـ - تشرين الأول ١٩٨٥م، ص ٥٠.

(٢) مجلة الطاهرة؛ مرجع سابق ٦٦: ٢٣، وبهذا الصدد أشار الشهيد سيد قطب في كتابه «أمريكا التي رأيت» الى عدد من مظاهر انحراف الكنيسة هناك في الابتذال الأخلاقي والحث على إحياء الليالي الحمراء، ومن قبل «الأب» نفسه. ومما قاله سيد قطب: «إذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة في العالم المسيحي كلّ، فإنها في أمريكا مكان لكل شيء إلا العبادة، وأنه يصعب عليك أن تفرّق بينها وبين أي مكان آخر، معد للهو والتسلية أو ما يسمونه بلغتهم (Fun) ومعظم قصادها يعدونها تقليداً اجتماعياً ضرورياً، ومكاناً للقاء والأنس، ولتمضية وقت طيّب..» (أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب، تأليف د. صلاح عبدالفتاح الخالدي، ط ٦، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ١٠٨ وما بعدها).

(٣) الاسلام والغرب؛ الوجه الآخر؛ مرجع سابق: ٥١.

الكآبة .. والانتحار:

تُعرف الكآبة بأنها أزمة نفسية حادة تؤدي إلى الشعور بالحزن، وفقدان الأمل، والفراغ الداخلي للنفس^١، أما البروفيسور «لويس وولبرت» فيطلق عليها اسم «الحزن الخبيث»، وذلك في كتابه الذي يحمل العنوان ذاته: «الحزن الخبيث: تشريح الكآبة The Malignant Sadness: Anatomy of Depression». والحزن، كما هو معروف، نوعان؛ أحدهما طبيعي لا يستمر كثيراً. أما الحزن الثاني فهو الحزن المؤذي الذي يتخذ شكل الاستمرارية، وكأنه مزمن، لهذا سمّاه «وولبرت» بالخبيث تشبهاً بالمرض الخبيث كالسرطان. ولعل الباعث لاختيار هذا العنوان المثير والمؤثر هو تأثيره بمرض زوجته بالسرطان، وبسبب اختصاصه كاستاذ للعلوم الحياتية الطبية^٢.

وتعاني الكثير من المجتمعات العالمية من مرض الكآبة الذي تتباين قوته وضعفه، حسب طبيعة الشخص والمجتمع الذي يعيش فيه. فالإنسان الشرقي قد يعاني من الكآبة، بسبب الفقر والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الصعبة. أما الإنسان الغربي فانه يعاني من أنواع متعددة من الكآبة منها الكآبة الموسمية التي تحدث في موسم الشتاء عموماً، بسبب طول فترة الليل، وقصر فترة النهار، وعدم تعرّض الإنسان للضوء لفترات طويلة. والفراغ الروحي والعاطفي الذي يعيش فيه الإنسان الغربي يؤدي هو الآخر للإصابة بالكآبة. وتعاني الدول الاسكندنافية من مرض الكآبة المربع الذي غالباً ما يدفع بضحاياه إلى الانتحار للتخلص من البؤس القاتل. وتكون النساء أكثر عرضة للإصابة بالكآبة من الرجال إذ تبلغ نسبة اصابتهم بالكآبة مقارنة مع الرجال ستة إلى واحد^٣.

ولما كانت الكآبة البوابة الواسعة للانتحار، فقد حظيت هذه الظاهرة باهتمام علماء الاجتماع والفلسفة والأخلاق والنفس والدين والقانون. ولعل أول دراسة سوسيولوجية شهيرة هي التي وضعها دوركهيم، تحت عنوان «الانتحار Le Suicide عام ١٨٩٧م. بعد

(١) د. أياد أحمد: «الكآبة تزيد من مخاطر الإصابة بأمراض القلب» مجلة العالم (لندن)، العدد (٦٣٣)، ٨ أغسطس (آب) ١٩٩٨م - ١٥ ربيع الثاني ١٤١٩هـ، ص ٥٠.

(٢) نشرت مجلة العالم تعريفاً مختصراً بالكتاب في عددها (٦٦١) - ٦ مارس (آذار) ١٩٩٩م - ١٨ ذو القعدة ١٤١٩هـ، ومن المثير أن المؤلف - وهو ذو مكانة علمية مرموقة - حاول الانتحار عدّة مرات، بسبب حالته السيئة وشعوره بالمرض، ناهيك عن أنه دخل مطب الكآبة..

(٣) مجلة العالم؛ مرجع سابق ٦٣٣: ٥١.

أن لاحظ وجود تزايد منتظم وقوي لمعدل الانتحار في كل البلدان الأوروبية^١ خلال القرن التاسع عشر بكامله، وقد شرعت العديد من دول أوروبا، منذ النصف الثاني للقرن نفسه، تبديون احصاءات رسمية للانتحار^٢.

ان كتاب الانتحار لدوركهايم هو بالتأكيد المؤلف الأساسي الصادر عن تيار الاحصاء الأخلاقي، فدوركهايم يحاول أن يبرهن، مستعملاً مجموعة هامة من المعطيات، أن الانتحار لا يمكن اختزاله إلى ظاهرة نفسية أو نفسانية مرضية.. كما لا يمكن أن يُختزل إلى التأثير الفيزيولوجي للعوامل الجوية والمناخية، رغم وجود دورات فصلية للانتحار.. ولكن ينبغي أن تدرك الأسباب حسب دوركهايم بصفقتها أثراً لمتغيرات اجتماعية وأزمات سياسية^٣.

ويعتبر الأطباء مرض الكآبة من الأمراض السريرية التي تتعدى حدود الحزن واليأس المعروفين والتي قد يُصاب بها معظم الناس في بعض مراحل الحياة. والكآبة من الأمراض الشائعة بين الناس ولا تعرف حدوداً لطبقات المجتمع، إذ أنها تصيب الفقير والغني على حد سواء^٤ بيد أن الدول الغنية أكثر ابتلاء بظاهرة الانتحار. ففي دراسة أجريت في عام ١٩٨٤م في ٤٣ دولة من دول العالم، وجد ان ارتفاع مستوى المعيشة ممثلاً بالتعليم والصحة وتحسّن أوضاع المرأة والحالة الاقتصادية والسياسية الثابتة عادة ما يكون مقرونًا بارتفاع في نسب الانتحار وانخفاض في نسب القتل.

وفي تقرير لمنظمة الصحة العالمية فإن مليون شخص قد تخلصوا من حياتهم في عام ١٩٩٨م، وان نسبة الانتحار قد زادت بمقدار ٦٠٪ في عالم اليوم، عمّا كانت عليه في الخمسينات من القرن العشرين^٥ حيث لوحظ وبشكل مذهل تزايد أعداد الأشخاص المقبلين على الانتحار، على مستوى العالم، إذ يقدم ١٠ - ٢٠ مليون شخص على الانتحار

(١) كريستيان بودلو وروجيه استابليه: «دوركهايم والانتحار» تعريب أسامة الحاج، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ١٢.

(٢) للمزيد تُراجع مادة «الانتحار» في المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تأليف ر. بودون وف. بوريكو، ترجمة الدكتور سليم حداد، بيروت ١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ، ص ٦١.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) مجلة العالم: مرجع سابق ٦٣٣: ٥١.

(٥) مجلة المجتمع (الكويت): مرجع سابق ١٤٢٠: ٣٣.

سنوياً، يفلح منهم مليون في محاولاتهم^١ فيما كان عدد محاولات الانتحار (حتى سنة ١٩٩٠م) ثلاثة ملايين !!.

وفي عام ١٩٨٢م أصدر كاتبان فرنسيان هما «كلود جيلون» و «وايف لوبوبتيك» كتاباً مشيراً للجدل يحمل عنوان «فن الانتحار» وصف بأنه «الكتاب القنبلة» في فرنسا. انفجر في باريس، وتناثرت شظاياه في كل مكان، وترددت أصدااء الانفجار فيما بين أوروبا وأمريكا. الكتاب سجّل أعلى توزيع خلال شهر، فقد نفذت الطبعة الأولى فور صدورها وتلتها الثانية.. ثم الثالثة. ومع ذلك صاحب انتشار الكتاب موجة هائلة من السخط العام بين الأطباء ورجال القانون وعلماء الاجتماع، بل وأيضاً رجال الشرطة أثر البلاغ الأول الذي تلقوه من البروفيسور «مورو» المسؤول عن غرفة الانعاش بكلية طب «تولوز» والذي يطلب فيه التحقيق مع مؤلفي الكتاب، حيث استقبل بنفسه ثلاث حالات انتحار، اتّبع فيها المنتحرون بدقّة وصفات الكتاب التي لا تخيب.. تلاها انتحار شاب في الرابعة والعشرين من عمره، وجد ميتاً في حجرته وإلى جواره الكتاب مفتوحاً على بابه العاشر،.. أو ذلك الباب القاتل الذي ضمنه المؤلفان وصفات حقيقية أكيدة المفعول، عن طريق جرعات محسوبة من الأدوية التي يمكن الحصول عليها بسهولة من الصيدليات، وتستخدم في علاج أمراض القلب والضغط وضدّ الألم أو المنومات^٢!

يحكي الكتاب أن بداية الهمس عن تزايد حالات الانتحار لم تأخذ شكلها العلني حتى بعد تناثر حالات الانتحار في أنحاء فرنسا حتى بين الأطفال الذين قد لا يتجاوزون الثالثة عشرة.. لكن اعلاناً صغيراً في جريدة «ليبراسيون» شدّ الانتباه إلى أن الانتحار أصبح ظاهرة تستحق الدراسة، فقد نشر أحدهم اعلاناً بدون توقيع في الاعلانات المبوبة في ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٩٧٧م، يدعو إلى «حفلة انتحار» بكلمات تقول: «إنّ الموت بشكل ثنائي أو مع مجموعة قد تحوّل إلى احتفال»، ولم تمضِ ذات السنة حتى ظهر اعلان آخر يتساءل: «من يدلنا على ميتة هادئة؟، ان من حقنا الرغبة في الموت ولكن ليس بالقاء أنفسنا من الطابق العشرين، أو اطلاق الرصاص على رؤوسنا، هيّا أيّها الأطباء تخلّوا عن

(١) د. نادية العوضي: «الانتحار.. هروب من المواجهة»، عن الإنترنت، موقع أجراس: ٢١/٦/٢٠٠١م.

(٢) يُراجع التعريف بالكتاب في مجلة العربي (الكويت) - العدد (٢٨٨)، نوفمبر ١٩٨٣م، ص ١٧٤، تقديم

الدكتورة ليلي إبراهيم شلبي.

أنانيتكم وارشدونا إلى ميتة سهلة.. رائعة» التوقيع بياتريس!. ويتساءل المؤلفان ببراءة شديدة مع هذا البياتريس: إذا كان الموت حقيقة يومية واردة.. فلماذا لا يكون الطريق إليه واضح المعالم.. سهلاً لكل راغب فيه؟..

ويمضي الكتاب في سرد حقائق مذهلة عن الطريق السهل للموت في بلاد أخرى.. فيذكر أن أول مؤسسة وجدت للدفاع عن حق الانسان في الموت (EXIT) تأسست في بريطانيا عام ١٩٣٥، وأنها وزعت (٧) آلاف نسخة من برنامجها للموت في عام ١٩٨١م وحده.. ضمته أحدث ما جادت به قريحة علماء الانجليز من وصفات شهية للموت في نعيم.. ولم تنس الجمعية أن تطبع دليلاً خاصاً للقتل.. نعم لقتل من تحب! لكنها ولأسباب انسانية بحتة حددت نطاق استخدامه في حالة الأمراض الميؤوس منها أو التي تسبب آلاماً.

أما الموت على الطريقة الأمريكية فتحفظ بأسراره «مصلحة الموت» والتي تضم (٢٥٠) ألف عضو- ليس مفهوماً حقاً لماذا هم من الأحياء!- ولا تبوح بها إلا لمن تتأكد من أنه راغب لا محالة في الموت..

وهذه الجهود ليست حكراً على الدول الكبرى، فجمعيات الموت منتشرة في جنوب أفريقيا، وأستراليا وبلجيكا والدنمارك ونيوزيلندا والسويد والنرويج وسويسرا وزيمبابوي ممثلة للقارة الأفريقية.

كما يحكي الكتاب أسرار مؤتمر «الموت حق لكل انسان» والذي عقد في اكسفورد في الفترة ما بين ١١-١٤ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٨٠م، بحضور عشرين وفداً يمثلون خمس عشرة دولة، والذي انتهى بموافقة جماعية على التجمع تحت لواء اتحاد عالمي شعاره «إذا لم تكن الحياة اختياراً.. فليكن لنا في الموت خيار»!!، لذا يعلو صوت الكتاب مؤيداً الشعار «في عالم اللا معقول المهدد بالموت النووي.. من يريد الموت لا ينتظر القانون.. ولا تكيف التهمة».

آخر وأخطر فصول الكتاب بعنوان «دليلك إلى الموت» وهو يقع في (٥٧) صفحة، كتبت بطريقة يحسد عليها المؤلفان، ويضم أسهل الطرق إلى الموت بالعقاقير التي تبدو أنها الوسيلة المفضلة للفرنسيين مرتبة في مجموعات يسهل الحصول عليها من الصيدليات^١.

(١) المرجع السابق.

إذن أسمى الانتحار «فتناً» حضارياً في الغرب... يمارسه قطاع لا يُستهان به. فمثلاً ينتحر ٣٥ شخصاً يومياً في ألمانيا، وهناك واحد من كل خمسة طلاب أمريكيين يرى الانتحار طريقاً للخلاص من مشكلات الحياة. وقد أشارت الإحصائيات الأمريكية إلى أن عدد الذين ينتحرون في أمريكا أكثر من (٣٠) ألفاً سنوياً (إحصائية عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م)، ليصل عدد الأشخاص المنتحرين بسبب الكآبة يبلغ من نصف مليون إلى (٧٠٠) ألف شخص سنوياً (إحصائية عام ١٩٩٧ م) وأصبح الانتحار ثاني سبب وفاة رئيسي في أوساط الطلبة الأمريكيين. ويبلغ عدد النسوة في أعمار ٢٠ - ٢٤ اللاتي يحاولن الانتحار في الولايات المتحدة إثنين لكل رجل^١.

ويتخذ الانتحار، أحياناً، الطابع الجماعي، كما حصل في الحادثة التي شهدتها غويانا، عام ١٩٧٨ م، والتي ذهب ضحيتها أكثر من تسعمائة شخص، على خلفية هلوسة دينية^٢ لتتجدد عام ١٩٩٣ م، ظاهرة مشابهة، عرفت بمجزرة أتباع ديفيد كورش، في تكساس والتي راح ضحيتها ثمانون شخصاً بينهم النساء والأطفال، وكورش هذا كان من المتحمسين للانتظار وقوع معركة «هرمجدون» في جبل الكرمل بفلسطين، وكان يرى أن مهمته تقوم بتطهير الأرض تمهيداً لانبعاث قدس جديدة، ومن أجل ذلك لا بد من الانتظار في تكساس ريثما تقع معركة يهاجم فيها الجيش الأمريكي الشرق الأوسط ويحمل النهاية إلى هذا العالم الدنيوي.. ولكن أتباع ديفيد كورش أقاموا كرملمهم وفلسطينهم في واكو في ولاية تكساس^٣.

وفي السابع والعشرين من شهر آذار (مارس) ١٩٩٧ م، أقدمت مجموعة دينية مسيحية

(١) مجلة العالم، مرجع سابق ٣٨: ٦٦، ٦٣٣: ٥١.

(٢) حيدر عبد الكريم العذير: «المسلمون والبديل الحضاري»، إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٢، فرجينيا، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ص ٢٥. ولعل الجميع لا يزالون يذكرون جادة انتحار قرابة ألف أمريكي في إحدى دول أمريكا اللاتينية.. من الشباب والشبان الذين اندفعوا وراء شخص مخبول بحجة استحضر الأرواح وغيرها، وهناك وضع لهم السم، وحمل الجميع أكوابهم ليتجرعوها في وقت واحد. وقد عرض التلفزيون الأمريكي الطائرات الأمريكية، وهي تنقل جثث المنتحرين إلى ذويهم المصعوقين!.

(٣) ما تجدر الإشارة إليه هي أنه ليس من المستغرب في هذه الولاية أن يحمل المرء السلاح ويذهب إلى الكنيسة، وهي بلاد الوعاظ والحظاة، بلاد الكتاب المقدس والمسدسات، هناك لكل مواطن أربع أسلحة نارية، حيث يوجد ٦٨ مليون بندقية ومسدس لـ ١٧ مليوناً هم عدد سكان ولاية تكساس! مجلة العالم (لندن) - العدد

(٤٨٢)، ٨ أيار ١٩٩٣ م - ١٦ ذو القعدة ١٤١٣ هـ، ص ٣١.

مؤلفة من (٣٩) رجلاً وامرأة على الانتحار جماعياً في قصر بكايفورنيا، تؤمن بتعاليم تمزج المسيحية بالخيال العلمي وتفسيرات لنبوءات العهد القديم. وتعرف بجماعة «بوابة الجنة» مرشدها «مارشال ابلوايت» أين أحد الكهنة، وكان متهماً بأقامة علاقة شاذة مع أحد الطلبة في جامعة سان توماس الكاثوليكية في هيوستن، وفصل على أثرها عام ١٩٧٠ من عمله كمدرس للموسيقى في الجامعة.. وليصاب بالكآبة ومن ثم يؤسس الجماعة مع رفيقته الروحية «بوني ناتلز» التي التقاها في أحد مستشفيات الأمراض النفسية عام ١٩٧١، والتي كان يتلقى فيها علاجه.. وليرأساً احتفال الانتحار الجماعي على أمل اللحاق بالمذنب هالي !!.

وليس الجنون وفقاً على أمريكا، فقد اكتشفت أوروبا حالة واحدة على الأقل مشابهة لحادثة «بوابة الجنة»، كما إن اليابان ما تزال تعاني من الفرق المتطرفة و«المجنونة» التي تمتلك أسلحة كيميائية^١. وعلى خلفية اختراق الحضارة الغربية والأفكار المادية للثقافة اليابانية التقليدية، تزامنت المأساة المتواصلة للثقافة اليابانية. ومنذ عام ١٨٩٥م أقدم على الانتحار ثلاثة عشر روائياً وكاتباً يابانياً بمن فيهم «كوباتا» الحائز على جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٦٨م^٢.

أما السويد فتتفرد بالرقم القياسي في الانتحار ومدمني المخدرات والأمراض العقلية، بينما هي تقف على رأس العالم من حيث الدخل القومي، وفي الالمام بالقراءة والكتابة، والعمالة وفي الضمان الاجتماعي، ومع ذلك فقد سجلت في السويد سنة ١٩٦٧م (١٧٠٢) حادثة انتحار بزيادة ٣٠٪ عن سنة ١٩٦٠م. وقد نشرت منظمة الصحة العالمية في جنيف سنة ١٩٦٨م قائمة مقارنة لنسب حوادث الانتحار في عدد من الدول، وكانت الدول الثماني التي تصدرت القائمة هي: ألمانيا الغربية، والنمسا، وكندا، والدنمارك، وفنلندا والمجر. في هذه الدول كان الانتحار هو السبب الثالث من أسباب الوفاة للرجال بين سن ١٥ - ٤٥ سنة، ثم تأتي بعد ذلك أمراض القلب والسرطان!^٣

(١) مجلة العالم؛ مرجع سابق ٦٣٣: ٤٢.

(٢) علي عزّة بيغوفيتش: «الاسلام بين الشرق والغرب»، ترجمة محمد يوسف عدس، من إصدارات مؤسسة بافاريا، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ١٢٨.

(٣) المرجع نفسه: ١٢٣.

وفي تقرير للمنظمة سنة ١٩٧٠م، يبرز بوضوح «أن هذه الظاهرة تتوازي مع التصنيع والتحصّر وانهيار الأسرة». وإذا نظرنا إلى الظاهرة نفسها في نطاق دولة أو مجتمع معين، فسنجد أنها تزداد وضوحاً مع درجة التقدم والتعليم.. وطبقاً لبحث أجراه «د. انتوني ريل» مدير الخدمة الصحية: ان عدد حالات الانتحار في الجامعات البريطانية أكبر ست مرات عن المتوسط القومي، بينما عدد حالات الانتحار في جامعة «كمبريدج» بالذات أكبر عشر مرات من عدد حالات الانتحار بين الشباب البريطاني من السن نفسه، وهي حالة تستدعي القلق، حيث ان جميع الطلبة البريطانيين إمّا أنّهم جاءوا من أسر ثرية، أو على منح دراسية من الحكومة^(١).

وفي المستخلصات الإحصائية للولايات المتحدة سنة ١٩٨٤م، ورد جدول عن الانتحار في العالم ونسبته بين كل مائة ألف، فاحتلت الدانيمارك المرتبة الأولى، ثم النمسا، فألمانيا الغربية، فسويسرا، فالسويد، ففرنسا، فكندا، فبولندا، فالولايات المتحدة الأمريكية.

والملاحظ ان هذه الدول، يعيش الناس في معظمها في مستويات اقتصادية عالية، وبعضها يصل في الرخاء إلى درجة الرفاه، ومع ذلك نجد فيها من ينتحرون، وبنسب متزايدة، ممّا يجعل أي دارس يتساءل بالحاح: لماذا ينتحرون؟^(٢) خاصة وإنّ العديد من المشاهير يتصدرون قائمة المنتحرين.

ولعل الوقوف عند ظاهرة الانتحار في الغرب، يقَدِّم مؤشراً ذا أهمية خاصة يدل على حال اليأس والاحباط الذي يتردّى فيه كثير من المشاهير هناك فضلاً عن العاديين^(٣)، وهناك العديد من العوامل التي يمكن أن تضيف إلى خطورة اقدام شخص ما على قتل نفسه. أحد هذه العوامل هو الاضطرابات النفسية. فحسب تقرير لمنظمة الصحة العالمية فإن ما بين ٦-١٥% من مرضى الاضطرابات النفسية - خاصة الاكتئاب - يقدمون على الانتحار، بالإضافة إلى ٧-١٥% من مدمني الكحوليات، و ٤-١٠% من مصابي انفصام الشخصية

(١) المرجع نفسه.

(٢) المسلمون والبديل الحضاري؛ مرجع سابق: ٢٥.

(٣) المرجع نفسه.

«Schizophrenics»^١ فعلامات التوتر والقلق، وفقدان الطمأنينة والراحة والأمان، تزايد الانتحار، ومحاولات الانتحار من المظاهر التي جلبتها الحضارة المادية الحديثة، لكن وسائل الإعلام لا تركز إلا على انتحار المشاهير^٢.

وتطول قائمة المشاهير الذين أقدموا على الانتحار، وسنكتفي هنا بنماذج منتقاة:

- في سنة ١٩٤٢م انتحر الروائي الكبير «ستيفان زفايغ» في البرازيل، إذ تناول السم مع زوجته في إحدى ليالي (الكرنفال) الصاخبة التي تحتفل بها «ريودي جانيرو».

- في سنة ١٩٤٩م انتحر الأديب الألماني «كلاوس مان» ابن الكاتب المشهور «توماس مان» في مدينة «كان» الفرنسية.

- في سنة ١٩٥٠م انتحر الأديب الايطالي «سينزر بافيزه» في مدينة «تورينو»، بعد أن وصل إلى قمة الأدب الايطالي أثر نشر روايته الطويلة «مهنة الحياة» التي تفوح منها رائحة الموت والانتحار.

- وفي سنة ١٩٦١م اهتز العالم لانتحار الأديب الأمريكي الشهير «آرنست همنغواي»، الذي أنهى حياته بوحدة من أحب بنادقه الثمينة التي صوّبها بل وضعها في فمه، ليسدل الستار على حياته معزّزاً ما كان يقوله: «إنّ الحياة ليست إلا لعبة قذرة»^٣، ومن الصدف الغريبة أن يعثر على حفيده «مارجو همنغواي» ميتة في منزلها بمدينة سانتومونيكا يوم الثاني من تموز ١٩٩٦م (وهو نفس اليوم الذي انتحر فيها جدها عام ١٩٦١م)؛، فهل هي مجرد مصادفة.. أم ماذا؟^٤.

- في سنة ١٩٧٨م انتحر الكاتب الفرنسي «جان اييري» الذي التزم طوال حياته بأدب الموت مقتفياً آثار ملهمه الفكري «هاينريش فون كلايست» الذي انتحر سنة ١٨١١م. ويمكن أن يُعد «جان اييري» أقدّر الكتاب والأدباء الأوروبيين في التعبير عن أدب

(١) د. نادية الموضي؛ مقال «الانتحار.. هروب من المواجهة»: مرجع سابق.

(٢) أشرف سلامة: «إذا غاب الإيمان... حضر التوتر»، مجلة المجتمع - العدد (٩٦١)، ٣ أبريل ١٩٩٠م - ٨ رمضان ١٤١٠هـ، ص ٤٧.

(٣) د. محمود السمرة: «آرنست همنغواي»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٥٢): آذار (مارس) ١٩٦٣م، ص ١٠٨.

(٤) كانت الحفيدة ممثلة وعارضة أزياء، وتُعدّ من أشهر عارضات الأزياء في العالم. أما آخر أفلامها فكان «السجن داخل النفس» عام ١٩٩١م. وحين انتحارها كانت تبلغ من العمر (٤١) عاماً.

الانتحار الذي أطلق عليه «امتياز الانسان»، وعندما كان طلبته يوجهون إليه سؤالاً ساخراً عن السبب الذي يجعله يحجم عن الانتحار وهو ألف كتاب «محاضرات حول الانتحار» كان يجيبهم بقوله: «صبراً أيها الرفاق صبراً». وفي يوم افتتاح معرض للكتاب الدولي في مدينة فرانكفورت سنة ١٩٧٨م انتحر «جان ايمني» وطبق على نفسه ما يقوله من قبل . - وفي سنة ١٩٨٠م بالغ الشاعر الألماني الدكتور «هانز باير» في الاحتفال بانتحاره، فقد عمد في ذكرى ميلاده الحادية والستين، إلى تناول كمية كبيرة من الحبوب المنومة، بعد أن ارتدى حلته الجديدة، ونثر الزهور على سريره الذي استقبل عليه الموت . ولم ينس قبل موته أن يرسل بطاقات نعيه إلى أصدقائه !.

- وفي سنة ١٩٨٣م دخل خادم الكاتب البريطاني المعروف «آرثر كوستلر» غرفة جلوس سيده فوجده جالساً على أريكته المفضلة التي كان يطالع فيها، وبجانبه زوجته، وكان الاثنان ميتين بعد أن عمدا إلى الانتحار^١.

- وفي ١٣ آذار (مارس) ١٩٩٠م انتحر «الدكتور برونو باتلهاييم» أكبر محلل نفسي في القرن العشرين ورائد علم نفس الطفل والمؤسس لهذا العلم . كان باتلهاييم يتآكل، كل يوم يسقط منه شيء عزيز له حضور مادي، كل يوم يموت له صديق، كل يوم تنهار ذكرى ما، وهو .. يبقى داخل فراغ الذاكرة التي لا تستطيع أن ترمم الأشياء الماضية .. داخل «القلع الخاوية» .. لذلك أفضى إلى جميع أصدقائه الحميمين برغبته في الانتحار .. وهو ما أقدم عليه^٢.

- وفي العشرين من شباط (فبراير) ١٩٩٦م انتحرت الشاعرة الإيطالية «اميليار وسللي»، حيث ألقت بنفسها من نافذة منزلها في منطقة «فياديل كورالو» وسط روما . وهي تعد من أبرز الشعراء الإيطاليين في العصر الحديث^٣.

(١) نقلًا عن كتاب «المسلمون والبديل الحضاري»: مرجع سابق: ٢٣. وقد ربطت مجلة (تايم) الأمريكية بين انتحار «كوستلر» وبين كتابته مقدمة دليل صغير عنوانه «مرشد تحرير الذات» أصدرته سنة ١٩٨٣م جمعية بريطانية تضم أكثر من ثمانية آلاف عضو، ويحوي الدليل وصفات عديدة للانتحار، وهذا الدليل الغريب كما تقول المجلة، واحد من أدلة عديدة مشابهة بدأت تنتشر في أوروبا وأمريكا بمختلف اللغات مع انتشار جمعيات تشجيع الانتحار الذي زاد عددها على ثمانية عشرة جمعية!

(٢) صحيفة الحياة (لندن) - ٤ / ١١ / ١٩٩٦م.

(٣) ملحق صحيفة البيان (الإمارات العربية) حول أهم أحداث عام ١٩٩٦م، ص ١١٦.

.. وأخيراً وليس آخراً.. انتحرت زوجة المستشار الألماني الأسبق هلموت كول بعد معاناة طويلة مع مرض جلدي^١.

هذا غيض من فيض، إذ من العسير حصر حالات الانتحار في حضارة كل شيء فيها يحث الخطي نحو الانتحار..

إنه.. الوباء الأخير:

بعد هذه الجولة غير الكاملة في مظاهر التردّي الحضاري للغرب، إذ اكتفينا ببعضها، فإنّ الانطباع العام حول هذه الحضارة يتلخّص بما يأتي:

أولاً: إنّها حضارة مفلسة أخلاقياً، إلى حدّ الانحلال

وحول هذه النقطة يقول «الكسيس كاريل»: «ما جدوى الراحة والفخامة والجمال وأسباب تعقيد حضارتنا، إذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع؟ حقاً أنّه لمّا لا يستحق أيّ عناء أن نمضي في تجميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الأخلاقي وتودّي إلى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة»^٢.

ثانياً: منحلة اجتماعياً.. حتى الضياع

وهذا ما يؤكده «روبرت هي» الاستاذ المساعد للتاريخ في جامعة «ماركويت» الأمريكية، حيث يقول عن أمريكا -عصارة حضارة الغرب ونموذجه المتألق-: «إن أمريكا.. مفككة إلى حد لا يطاق، ونحن في أمسّ الحاجة إلى الإحساس بالحياة الاجتماعية، ومن السهل أن نفهم أمريكا الضائعة الأرواح حيث لا يرتبط الفرد بشيء، فهو يبحث عن هويته، يبحث في العمل وفي المهنة، وفي التقدم الصناعي عن علامة تميّزه، وتخبره من هو»^٣.

ثالثاً: مأزومة نفسياً.. حد الخبط

ولم يتحرّج «نيكسون» الرئيس الأمريكي السابق من أن يعلن في أول خطاب رسمي له

(١) د. نادية العوضي؛ مرجع سابق.

(٢) نقلاً عن كتاب «المسلمون والبدل الحضاري»؛ مرجع سابق: ١٥.

(٣) أيضاً؛ ص ٢٨.

بعد انتخابه رئيساً في أمريكا: «إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع، ولكن ممزقين في الروح، ونصل بدقة رائعة إلى القمر، وأما على الأرض فتخبّط في متاهات ومتاعب كبيرة»^(١).

رابعاً: عدوانية نزعة.. بل همجية

ويعلن ذلك بصراحة متناهية رائد البنيوية «كلود ليفي ستراوس» إذ يقول: «إنّ الغرب كان ولا يزال همجياً إلى أبعد الحدود. بل ولربما لم يكن ثمة الآن سوى همجي واحد هو هذا الغرب المسؤول عن كل انحطاط وصل إليه عالم اليوم»^(٢).

خامساً: حضارة فقدت إنسانيتها

ويعترف بهذا رئيس فرنسا الأسبق «ديغول» حيث يقول: «ان مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئاً ثميناً جداً تحت وطأة تقدمها الضخم، وهو الإنسانية وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا، فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض. لقد جف شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت»^(٣).

سادساً: حضارة مهددة بالفناء

وبهذا الصدد نشرت الطبيعة الاسترالية «هيلين كالدلي كوت» مقالاً تؤكد فيه أنّ الحروب الذرية لن يكون فيها غالب ولا منتصر، لأن بعض مناطق المعمورة سيتلاشى نهائياً، وبعضها الآخر سيبقى فيه بعض البشر معرضين لأكبر الأخطار والحروق، وبقاؤهم سيكون أكبر بلية عليهم. وقد أطلقت على الحروب الذرية المحتملة الوقوع «الوباء الأخير الحاطم»، علماً بأنها تعمل مع أطباء آخرين ضد استخدام الأسلحة الذرية^(٤).

إنّها باختصار شديد: حضارة مريضة.. وهذا المرض ليس عابراً، وإنما هو من قبيل الأمراض المستفحلة وشديدة الخطورة، وبشكل تصاعدي. حتى أمست وكأنها قلعة خاوية، تستوطنها عاهات مزمنة. إنّ الانسان الحديث انسان مريض، وإن مرضه لا يشبه

(١) المرجع نفسه: ٢٦.

(٢) صحيفة الحياة (لندن) - ٢١ / ٤ / ١٩٩٢ م.

(٣) المسلمون والبدل الحضاري، مرجع سابق: ٢٦.

(٤) المرجع نفسه: ٢٠.

في شيء تلك الأمراض التي للانسان عهد بها، بل هو مرض من طراز جديد، فعدم الشعور بالأمن قد أصبح لسوء الحظ أمراً راسخاً فيه، له جذوره في الانسان وفي الأشياء على السواء، ان هذا المرض العضال يلخص حقيقة عالم يفقد انسانيته، وتنهشه حضارته، وينحدر إلى نهايته، كما يقول الدكتور «محمد عبد الرحمن مرجبا»^١.

فالخطاب التكنولوجي الذي يربط التقدّم الحضاري للبشرية بالتقدّم التكنولوجي، وفق رؤية قدرية متعصبة للتقدّم التكنولوجي الأعمى، يصرّ على مخاطبة البشر على أنهم مرضى، عليهم أن يتكيفوا مع عصر التكنولوجيا القادم^٢، ومصيبة هذا العصر، كما يؤكد «أيريك فروم» -وهو من كبار علماء التحليل النفسي- هي أنّ الفرد المريض لا يشعر بشذوذه وحالته، لأنّ عامة الناس تشترك فيها، ولأنّ الثقافة لها دور مهم في حماية النقص المرضي للأفراد. زيادة على ذلك، فان الحضارة الغربية قد وفّرت أساليب وحيلاً تخفي على الناس ما بهم من أمراض فلا يحسّون بها. وتعتبر هذا الحيل (كالتلفزيون وكثير من النشاطات الثقافية) مخارج يهرب إليها المرء من واقعه، ومن أهميتها لا يتصور الاستغناء عنها في المجتمع الغربي، دون أن يتسبب ذلك في انهيار عصبي لألوف البشر^٣.

وهكذا نجد الانسان في عصر التكنولوجيا، هو واحد من حالات عديدة، إمّا مريض، وإمّا مستلب، وإمّا مهووس^٤ وممّا يؤكد هذا المصير ما سبق وأن استشهدنا به في مقدمة الكتاب، وهو ذلك الشعار الذي طرح أمامنا منذ عقدين، في مؤتمر عقد في باريس، والذي أشار إلى أن نصف المجتمعات الغربية سوف تعاني بعد ربع قرن -وربما أقل- في أسرة المرضى، بينما ينتظر النصف الآخر دوره في غرفة الانتظار^٥.

ويبقى التساؤل الحائر مطروحاً: هل هذا الغرب «المريض» فعلاً.. قابل للعلاج أم لا؟..

(١) مجلة العربي؛ مرجع سابق ٤٥: ٣٠.

(٢) مجلة منبر الحوار؛ مرجع سابق ٣٠: ٣٥.

(٣) مجلة المجتمع؛ مرجع سابق ١٤٢٠: ٤٣.

(٤) مجلة منبر الحوار؛ مرجع سابق ٣٠: ٣٥.

(٥) مجلة الأئمة؛ مرجع سابق ٦٧: ٤٥.

الفصل الخامس

ماذا لو انهارت حضارة الغرب؟

صحيح انّ البشرية أحرزت انتصارات ضخمة في عالم الصحة والعلاج؛ وحققت ما يشبه الخوارق في عالم الصناعة والانتاج وانتصارات باهرة في كشف الفضاء والأقمار الصناعية، ولكن ما أثر هذا كلّ في حياتها النفسية؟ هل أوجدت السعادة والطمأنينة والسلام؟ لقد أوجدت الشقاء والقلق والخوف، لأنها لم تتقدّم في تصوّر أهداف الحياة الانسانية وغاية الوجود الانساني في مضمار الحضارة المادية، وحسبها الرعب والفرع اللذان تعاني منهما من مثل الرعب النووي أو مرض «الايدز»^١.

إنّها الحضارة العرجاء، إذا صحّ التعبير، تلك التي أنجزت تقدماً مذهلاً في مجال الماديات.. تتقدماً تجاوز أكثر الأحلام جموحاً في بداية النهضة الصناعية الحديثة.. ولكنه تتقدّم ترافق مع تأخّر مأساوي في مجال المعنويات^٢ ومن هنا يقع المبهورون بالحضارة الغربية في التسطيع المخل، حينما ينظرون إليها بعين واحدة، ومن ثم لا يتوقعون عن الهذيان حول التقدّم، دون الالتفات إلى أن هذا المفهوم عن التقدّم البشري ناقص ومبتور، لأنه يمثل جانباً واحداً من الوضعية الانسانية. وقد كان من أكبر الأخطار الفكرية التي وقع فيها انسان الحضارة الحديثة نتيجة الخطأ نظره الى التاريخ والى المستقبل، فإنّ الوضعية الأخلاقية للانسان ذات صلة وثيقة وأساسية بكونه متقدماً أو متخلفاً، وهذه حقيقة وجدت سبيلها أخيراً إلى الادراك في داخل الحضارة الحديثة، وهذا، على الرغم من أنه لا يزال في نطاق ضيق نسبياً، باعث على الأمل^٣.

(١) حيدر عبد الكريم القدير: «المسلمون والبديل الحضاري»، ص ١٤.

(٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «التاريخ وحركة التقدم البشري ونظرة الاسلام»، مجلة المطلق

(بيروت)، العدد الثامن، ربيع الأول ١٤٠٠هـ، ص ٣٤.

(٣) هذا الصدد يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «وفقاً لهذه النظرة المتوازنة يكون من الخطأ تقسيم عالم اليوم إلى عالم متقدم وعالم متخلف. إن عالم اليوم كلّ - وفقاً لهذه النظرة - متخلف، فإنّه إذا كان العالم الثالث متخلفاً

فحتّى الساعة ما يزال يحلو لبعض أرباب الحضارة الغربيّة مواصلة الحديث عن رقيّها وتفوّقها على بقية الحضارات، كما عبّر رئيس الوزراء الايطالي «بيرلسكولي»، في اعقاب تفجيرات نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م، وقد نال في كلامه من الاسلام، رغم أنه أبدى أسفه لاحقاً، فيما يشبه الاعتذار!، لمّا سبّه تصريحه ذاك في امتعاض لدى المسلمين، زاعماً أنه لم يكن قاصداً به أية اساءة!، أو يتّخذ الحديث عن رقيّ الحضارة الغربيّة لدى بعض المفكرين طابعاً أكثر بُعداً، حين يذهب «فرنسيس فوكوياما»، مثلاً، إلى أن الحضارة هناك قد وصلت ذروتها النهائية، وأن هذا بحد ذاته يشكل نهاية التاريخ!

إلّا أنه مع ذلك، هناك عدد من المفكرين الذين ظلوا يطلقون التحذير تلو الآخر، منذ بدء صعود نجم هذه الحضارة. انها أصوات خافتة لكنها شديدة الدلالة والفعاليّة، وسيكون ثمن عدم الاستماع اليها انقراض الحضارة الغربيّة، ورّماً في وقت ليس ببعيد. قد يبدو هذا الكلام مبالغة كبيرة. إلّا أنه يستند إلى مؤشرات دقيقة وإلى أرقام لا تقاوم. كذلك يستند بصورة أساسية إلى دروس التاريخ وعوامل انقراض الحضارات وعوارضه في الحضارة الغربيّة المعاصرة^١.

صيحات الخطر:

منذ عقود عديدة، والصرخات تتعالى من أبناء هذه الحضارة الذين أدركوا خطورة انحدار البشرية إلى الهاوية، في ظل معطيات تلك الحضارة، متنبئين بسقوطها بعد أن أصبحت على شفا جُرفٍ هارٍ^٢، ذلك لأن الأزمة الاجتماعية، في هذا المجتمع بلغت حدّاً أصبحت تهدده - حسب أقوال الخبراء فيه - بالدمار الكامل، وستنتهي به إن استمرت إلى ما انتهى إليه مجتمع الرومان من قبل. فالصيحات تتوالى من علماء الاجتماع والنفس، ورجال الدين، ودوائر الأمن، ومؤسسات الإصلاح الاجتماعي، معترفة بالفشل، منذرة من سوء

على مستوى المادة وأساليب التنظيم والإدارة، فإنّ العالم الآخر متخلف من حيث الوضعية الأخلاقية والعلاقات الانسانية والصفات الانسانية في أفراد وجماعاته ومجتمعاته»، المرجع السابق: ٣٥.

(١) مجلة العالم (لندن) - العدد (١١٣)، ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٨٦م / ٤ شعبان ١٤٠٦هـ، ص ٧٦.

(٢) المسلمون والبديل الحضاري؛ مرجع سابق: ١٥.

المصير، والانسان غريب حائر مرعوب يفترسه الخوف والضياع والانحلال^١، فيما طفق مفكرو الغرب يعبرون عن هذه الأزمة بعبارات: انهيار الغرب، سقوط الغرب، انتحار الغرب، نهاية الغرب.. الخ، وكأن الغرب قد قام بدورته الأخيرة منذ الإصلاح الديني إلى النهضة إلى العقلانية إلى التنوير إلى الثورة الصناعية ثم إلى الأزمة في النهاية.

وظهر مفكرون لا همّ لهم إلا التنبيه على أزمة الغرب من مختلف التيارات الفكرية والمذاهب السياسية. وشاعت كتاباتهم داخل أوروبا وخارجها. وتلقفتها الدوائر الدينية والمحافضة، الوعي الأوروبي قبل بدايته، والتي كانت «المهماز» - حسب تعبير د. حسن حنفي - على نشأة الوعي الأوروبي في بدايته واكتشاف عالم الذاتية وتحديد مشروعه المعرفي والأخلاقي، تجد فيها شاهداً على صحة العقائد وضرورة العودة إلى الإيمان، كما هو الحال في التوماوية الجديدة^٢.

لقد انصبّ العديد من الدراسات على تناول الحضارة الغربية المعاصرة. هذه الحضارة التي أقلق تدهورها المفكرين وعلماء الاجتماع والمؤرخين كثيراً، وخاصة أهل الغرب، لاعتقادهم بأن الفناء قد دبّ إلى كيانه فجاءت مؤلفاتهم منذ القرن التاسع عشر مليئة بالأمثلة المتشائمة عن هذه الحضارة ومصيرها، وخاصة المفكرين الألمان^٣ وفي مقدمتهم الفيلسوف «هيجل» الذي سار الكثيرون على إثره في تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة، فهو صاحب الفكرة القائلة بأن كل شعب هو (فرد في سيرة التاريخ)، وهو بالتالي خاضع ككل فرد لقوانين النمو والازدهار ثم السقوط الحتمي، على أن «هيجل» في الوقت نفسه كان يظن أن الحضارة الأوروبية هي قمة التاريخ التي ليست وراءها قمة، ولو حاولنا أن نطبق نظريته الجدلية، في تعاقب الحضارات، لأدركنا أنها انتهت أو ستنتهي في المستقبل، تحت ضغط القوانين الحتمية بما فيها الحضارة الأوروبية المعاصرة^٤.

أما الفيلسوف والمؤرخ الألماني أوزوالد شبنغلر، فينطلق في رؤيته للحضارة الغربية، من نظريته القائلة بأن للحضارات دورة حياة كاملة (نشوء - ازدهار - احتضار)، وعليه فقد

(١) يُراجع فصل «رسالة المسلم في المجتمع الأمريكي» د. ماجد عرسان الكيلاني، المنشور ضمن كتاب «مقالات في الدعوة والاعلام الاسلامي» سلسلة كتاب الأمة (الدوحة)، ١٤١١هـ، ص ١٢٧.

(٢) د. حسن حنفي: «مقدمة في علم الاستغراب»، بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٥١١.

(٣) محمد هيشور: «سنن القرآن في قيام الحضارات أو سقوطها»، مرجع سابق: ٩٩.

(٤) نقلاً عن كتاب «المسلمون والبدل الحضاري»، ص ١٧.

رأى ان الحضارة الغربية قد جاوزت مرحلة الازدهار، ودخلت في مرحلة الترف الحضاري والانهيار.. وهو انهيار حتمي لا مفر منه^١، ويمضي «شينغلر» في اعادة مقولة «هيجل» الآتفة، حين يؤكد «ان كل حضارة تمر بمراحل العمر ذاتها التي يمر بها الفرد الانسان. فلكل حضارة طفولتها وشبابها ورجولتها وشيخوختها»^٢.

وتأسيساً على هذه الرؤية يخلص شينغلر إلى «أن هذا الاكتمال الباطني والظاهري، الخاتمة، التي تنتظر كل حضارة حيّة، هو مغزى جميع الانحطاطات التاريخية، بما فيها الانحطاط اللاكلاسيكي الذي نعرف به معرفة تامة، وبما فيها انحطاط آخر يشابه تماماً الانحطاط الكلاسيكي في مجراه وديمومته، هذا الانحطاط الذي سيشغل القرون الأولى من الدورة الألفية القادمة من الأعوام، لكننا نرى الآن طلائعه ونحسّ به حولنا، وأعني به انحطاط الغرب»^٣.

كانت هذه الآراء محل نقد شديد من فلاسفة التاريخ والحضارة، كما أشرنا في الفصل الثاني، ولعل ما زاد حدة النقد ضد شينغلر أنه حاول اسقاط أو تطبيق آرائه على الحضارة الغربية، واعتقد أنها دخلت مرحلة التأمل والاستمتاع المادي، وهي مرحلة النضج والكمال التي تُعد آخر طور في أعمار الحضارات، ولم يبقَ للغرب إلا التنحي عن كرسي قيادة البشرية، لفسح المجال أمام أمة أخرى لقيام حضارة جديدة تكون أكثر استجابة لحاجات الانسان في أحسن حالاته، وذهب شينغلر إلى أن اعادة الشباب للحضارة الغربية غداً مستحيلاً استحالة اعادة الشباب إلى الانسان أو الحيوان الذي أدركته الشيخوخة، وكل محاولة ستبوء بالفشل وجاءت في فترة متأخرة، بعد استفحال الأدواء بالغرب^٤.

وغضب المفكرون الغربيون على شينغلر غضباً شديداً، بسبب هذه النبوءة السوداء بمستقبل حضارتهم.. ومع ذلك كان لآراء شينغلر تأثير عميق في مفكري الغرب، بعد الحرب العالمية الثانية كتوينبي وكولن ولسن.. اللذين أصبح أكبر شغلها مصير الحضارة

(١) د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون: «موسوعة السياسية»، الجزء الثالث، ص ٤٣٨ (مادة شينغلر)، بيروت، ١٩٨٣ م.

(٢) اسوالد شينغلر: «تدهور الحضارة الغربية»، ترجمة أحمد الشيباني، الجزء الأول، بيروت (د.ت)، ص ٢١٨.

(٣) المرجع نفسه ١: ٢١٨.

(٤) سنن القرآن في قيام الحضارات أو سقوطها، مرجع سابق: ١٠٠ - ١٠١.

الغربية وأزمات الانسان والانسان الأوروبي بالذات، ولعل كثرة الآراء والاجتهادات تثري هذا الموضوع، فيتوصل إلى حل مشكلة أو ظاهرة مصير الحضارات، والحضارة الغربية، بالخصوص، فيكون لشبنغلر فضل اثارة القضية لاحتساسه الروحي^١.

لقد قرأ آرنولد توينبي كتاب شبنغلر وأخذ بما فيه، وكانت تدور في ذهنه فكرة انشاء دراسة للتاريخ، على نمط ما كتب شبنغلر، ولكنه تردد وتساءل عما اذا كان شبنغلر قد ترك بعده ما يكتب... ولكن توينبي، في آخر الأمر، ليس متفائلاً ولا هو يميل إلى التفاؤل بالنسبة للغرب، وانما هو يرى نهايته محتومة ولا مفرّ منها، كما قال شبنغلر، وإن كانت رؤيته قد كانت عن طريق منظار آخر وعدسات أخرى^٢، اذ يحدثنا توينبي في بحثه الضخم «دراسة في التاريخ» كيف أن الحضارات البشرية تنشأ وتتطور في أعقاب استجاباتها لسلسلة من التحديات البيئية أو البشرية المناسبة وتغلبها عليها^٣، وقد تحدثنا فيما سبق عن مذهب توينبي في دراسة التاريخ وما انتهى إليه من القول بنظرية التحدي والاستجابة، واتخاذها اياها مفتاحاً لتفسير حركة التاريخ^٤، وما أسفرت عنه أبحاثه عن انهيارات الحضارات وانحلالها.

ما يهمنا هنا أن نعرض لموقف توينبي من الحضارة الغربية، فنقول أنه من البديهي أن يذهب إلى أنها في طريق الزوال، لأن دراسته للحضارة الاحدى والعشرين الأخرى قامت على أساس نمو الحضارات، نتيجة لاقتدارها على مواجهة التحدي، الذي اعترضها مواجهة ايجابية فاصلة، ثم توقفها في النمو وأخذها في الانحدار نتيجة لعجزها عن الرد الايجابي على التحديات التي اعترضت طريقها، بعد أن وصلت مرحلة النضوج^٥، وبهذا يرى توينبي -كشبنغلر- أن الحضارة الأوروبية قد تقدّمت كثيراً في دروب الانحطاط «فعظمة أوروبا، التي لم تكن لتُنازع سابقاً في العالم، تكشف أنها لم تعد إلا فضولاً تاريخياً، محكوماً عليه بالاعدام... ولا يمكن الخطأ في الأمر: فعقب الحرب العالمية الثانية أصبح

(١) المرجع نفسه ١: ١٠١.

(٢) د. حسين مؤنس: «الحضارة»، مرجع سابق: ٣٥٣.

(٣) د. عماد الدين خليل: «موقف إزاء التراث»، مجلة المسلم المعاصر، العدد التاسع، محرم - ربيع الأول

١٣٩٧هـ يناير - مارس ١٩٧٧م، ص ٤٠.

(٤) يُراجع كتاب الحضارة؛ مرجع سابق: ٣٥٣.

(٥) المرجع نفسه: ٣٥٤.

أقول نجم أوروبا واقعاً ناجزاً»^(١).

وتطبيقاً لنظريته، نجد توينبي يقول ان الغرب في انحدار، لأن حضارته بلغت أوجها، ولم يعد في ميسورها مواصلة الصعود أو التغلب على التحديات الجديدة. وإذا كان شبنغلر قد قال ان الانحدار بدأ من القرن العاشر الميلادي، فان توينبي يقول انه بدأ من عصر النهضة، ومقياس الانحدار عند كليهما هو عجز الحضارة الغربية عن مواجهة تحدي الوجود بنفس القوة التي كانت تواجهها في شبابها، وهذا أمر يحيرنا نحن البعيدين عن صميم حضارة الغرب، على حد تعبير د. حسين مؤنس، لأننا نراها في قوة وازدياد كل يوم، ولكن العبرة عند شبنغلر وتوينبي ليست بالمظهر المادي للحضارة من آلة ومتاع، وإنما العبرة بالروح، والقوة الكامنة، والاقدام على مواجهة المصاعب^(٢).

ان لبّ المشكلة التي تواجه عالم القرن العشرين الذي طبعه الغرب بطابعه، يتمثل في الاصطدام بين العقل والدين، حسب رأي توينبي، ومن هنا فانه يرى أن أزمة المجتمع الغربي روحانية وليست مادية، اذ رغماً عن بلوغ هذا المجتمع الذروة في تقدمه المادي، إلا انه يحسّ «بجوع روحاني». وإذا كانت النفوس الغربية قد استبدّ بها قلق الفراغ الروحي فألزمها بفتح الباب لشياطين مثل النازية والفاشية، وما إليها، فإلى متى تحتل العيش بدون عقيدة دينية؟.

هنا يقول توينبي: «إن التائهيين في بيداء المجتمع الغربي، قد انصرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذي آمن به أجدادهم. أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الاقليمية - مثل الكنائس الطائفية - أو ثائن تجلب عبادتها الحرب، لا السلام. وهذا ما يجعل التائهيين يندفعون صوب التعلق بهدف بديل هو: النظم السياسية الشاذة»^(٣).

وفي نهاية بحثه الطويل، يبدو توينبي وكأنه يستنتج أن حضارتنا مآلها، كغيرها من الحضارات التي سبقتها إلى الزوال، ولكن هذه الرؤية لا تروعه، لأنه يعلم أن المسيحية سوف تعلو فوق انهيار الحضارات^(٤)، وبهذا... وذاك يتضح موقف توينبي من الحضارة الغربية

(١) جان توشار: «تاريخ الفكر السياسي» ترجمة د. علي مقلد، بيروت ١٩٨٧م، ص ٦٣٢.

(٢) الحضارة؛ مرجع سابق: ٣٥٤.

(٣) للمزيد يراجع العرض العام لكتاب توينبي «دراسة للتاريخ» بقلم فؤاد محمد شبل، موسوعة تراث

الانسانية الجزء الخامس، ص ٣٣٣ - ٣٤٧، القاهرة (د.ت).

(٤) تاريخ الفكر السياسي؛ مرجع سابق: ٦٣٢.

بشكل جلي وصريح، خلافاً لمن زعم أنه أثر الحياد ولم يصدر حكماً أو رأياً قاطعاً في هذا الاتجاه، رغم ظهور أعراض التصدّع في الحضارة الغربية^١.

البشرية المحاصرة بمخاوف المستقبل:

وعود على بدء؛ فإن ثمة مفكراً ألمانياً بارزاً قد خاض في هذا الموضوع، بعد خمس سنوات من صدور كتاب شينغلر «تدهور الغرب» الذي صدر بمجلدين عام ١٩١٨م، أنه «البرت اشفيتسر» (١٨٧٥ - ١٩٦٥م)، صاحب كتاب «فلسفة الحضارة» الذي نشره عام ١٩٢٣م، في مجلدين أيضاً، يحمل كلُّ منهما عنواناً خاصاً، الأول بعنوان: «سقوط الحضارة وإعادة بنائها»، والثاني بعنوان: «الحضارة والأخلاق» وعُرفاً معاً بعنوان: «فلسفة الحضارة»، وقد ترجمه عن الألمانية د. عبد الرحمن بدوي.

من الوهلة الأولى، وفي مقدمة الكتاب يقرر اشفيتسر مبدأه الأساسي المتمثل في توقير الحياة، مؤكداً أهمية النزعة الأخلاقية ودورها العميق في الحضارة: «فلما بحثت في ماهية الحضارة وطبيعتها تبين لي، في ختام المطاف، أن الحضارة في جوهرها أخلاقية، بمعنى أن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية»^٢.

في الفصل الأول يفتتح اشفيتسر كلامه بالقول: «نحن نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة. وهذا الوضع ليس نتيجة الحرب؛ إنما الحرب مجرد مظهر من مظاهره. ولقد تجمّد الجو الروحي في وقائع فعلية ينعكس أثرها عليها انعكاساً له نتائج مدمرة من كل ناحية. وهذا التفاعل بين ما هو مادي وما هو روحي قد اتخذ طابعاً مضرّاً كل الأضرار. اننا نمخر بالسفينة في تيار مليء بالأمواج العاتية تحت شلال هائل، ولا بدّ من مجهودات جبّارة لاتقاذ السفينة، سفينة مصيرنا، من المجرى الجانبي الخطير الذي سمحنا لها بالانطلاق فيه، ومن اعادتها إلى المجرى الرئيسي إن كان ثمّ أمل في ذلك أبداً. بعد هذا، يُنحي باللائمة على أولئك المخدوعين عن حقيقة أنفسهم خداعاً لم يبدده شيء، بعلو قيمة الحضارة، بينما

(١) ورد هذا الحكم الغريب في كتاب «سنن القرآن في قيام الحضارات أو سقوطها» نقلاً عن كتاب «الحضارة» لأحمد حمدي محمود، ص ٤٤، دار المعارف بالقاهرة (د.ت)، سلسلة «كتائب».

(٢) تراجع مقدمة كتاب «فلسفة الحضارة»، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ط ٢، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م،

ص ٣.

(٣) المرجع نفسه: ١١.

الحقيقة تثبت عكس ذلك: «ومن الواضح الآن لكل ذي عينين أن الحضارة بسبيل الانتحار. وما بقي منها لم يعد في أمان: أنها لا تزال قائمة لأنها لم تتعرض للضغط المدمر الذي طغى على التبعية، لكنها كالبقية بُنيت على شفا جرف هارٍ، ومن المحتمل أن يجرفها أي انهيار جديد»^١.

وفي موضع آخر يقول: «لقد أفلست الحضارة دون مقاومة ودون شكوى. وتخلّفت أفكارها، وكأنها بلغت من الاعياء ما جعلها لا تستطيع السير معها»^٢ ليخلص إلى «أن حضارتنا تمر بأزمة^٣ شديدة» وأن مخرج كفاح الغرب من التدهور والانهيار الذي بدأت تستعظم أخطاره مرهون بإيجاد نظرية كونية لحضارته، يضمن لها البقاء^٤.
أما «كولن ولسن» فيعد كتابه «سقوط الحضارة» كتاباً جريئاً في نقد حضارة الغرب، وهو كتاب يتحدّث صاحبه عن هدفه منه قائلاً: «يبدو أن الغرض من هذا الكتاب أن أقول شيئاً عن حاجة هذا العصر إلى دين جديد يلوح في أن الكنيسة قد فقدت كل صلة لها بالمشكلات التي تواجهها فيه».

ويرى «ولسن» أن أية حضارة تصل لحظة أزمتها يوماً ما، وأن الحضارة الغربية قد بلغت هذه اللحظة، وأن هذه الأزمة تهدد بالدمار أو بالسمو إلى أشكال أعلى، والمعروف حتى الآن أنه لم تواجه أي حضارة هذا التحدي إلا وكانت تخفق في مواجهته، والتاريخ هو دراسة للهيكل العظمي التي خلفتها الحضارات المخففة، تماماً كالهياكل العظمي التي خلفتها الحيوانات المنقرضة كالديناصور، ويقرر أن الدين وهو العمود الفقري للحضارة قد تيبس في الكنيسة^٥، وفي هذه الظروف يكون من السخف، حسب «ولسن» أن نتحدّث عن «العلاجات».. فمن المستحيل تقريباً الاهتداء إلى وصفة تفيد الحضارة^٦.

وإذا كان «كولن ولسن» يعلن عن خيبته في الحضارة الغربية والكنيسة - على حد سواء - فإن الفيلسوف الانجليزي الشهير «برتراند رسل» يعلن عن اضطراب الحضارة الغربية إلى

(١) المرجع نفسه: ١٢.

(٢) المرجع نفسه: ١٣.

(٣) المرجع نفسه: ١٠٦.

(٤) للمزيد يُراجع آراء المفكرين الذين استعرضهم اشفيتسر في هذا الاتجاه، المرجع نفسه: ٣٠٧ وما بعدها.

(٥) نقلاً عن «المسلمون والبدل الحضاري»؛ مرجع سابق: ١٨.

(٦) كولن ولسن: «سقوط الحضارة»، ترجمة أنيس زكي حسن، ط ٢، بيروت، ١٩٧١م، ص ٣٩٨.

اخلاء موقع قيادة البشرية، ونهاية تسلط الرجل الأبيض - ممثل الحضارة الغربية - على مصير البشرية فيقول: «لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض، وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانوناً من قوانين الطبيعة، وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياماً رضية كذلك التي لقيها خلال أربعة قرون»^١، وليس الرجل الأبيض إلا رمزاً للحضارة الغربية التي بدأ أفول نجمها، ويتحدث «رسل» عن شقاء الانسان في ظل الحضارة الغربية المادية فيقول: «إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة، ولكنهم محرومون من نعمتها في العالم الحديث، واليوم أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة والسعادة»^٢.

وهذا الفيلسوف الألماني المعاصر «كارل ياسبرز»، من أبرز الذائدين عن كرامة الانسان والمنددين بضلال العصر. يدرك بعمق أزمة هذا العصر، ورأى الخطر المحدق بالانسان، بعد أن اغترب عن ذاته، وأصبح «ترساً» في «ماكينة» أو «قطعة غيار» في جهاز، ولا يُحسب له في ذاته حساب.. وازاء تقاقم التحديات التي تواجه البشرية، على أكثر من صعيد، لا سيما مخاطر الحرب النووية، فان «ياسبرز» لم يفتأ لحظة وهو يدق ناقوس الخطر محذراً ساسة العالم وعلماءه من عواقب الاسترسال في سليبتهم أو اخماد صوت ضمائرهم، والاعتصام بصمت يشبه صمت القبور، أمام هذا الخزي الويل^٣ الذي يواجه البشرية ويهددها بالفناء والدمار !.

الاحتضار الكوني :

وعلى خطى الفلاسفة، انبرى العديد من المفكرين، والمؤرخين، وعلماء التربية والاجتماع، والساسة، والأدباء.. وهم يحذرون من سوء مصير البشرية في ظل هذه الحضارة المادية الخاوية خواءها من الروح الانساني، على حد تعبير سيد قطب^٤، وما تزال تحذيراتهم بل نبوءاتهم تتواصل حول السقوط الوشيك لهذه الحضارة التي استنفدت أغراضها.

(١) نقلاً عن «المستقبل لهذا الدين» للشهيد سيد قطب، بيروت، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ص ٥٥.

(٢) نقلاً عن «المسلمون والبدل الحضاري»؛ مرجع سابق: ١٦.

(٣) للمزيد يُراجع مقال: «كارل ياسبرز.. يحذر ساسة العالم ويدق ناقوس الخطر» د. عثمان أمين، مجلة

العربي (الكويت) - العدد (٥٢)، آذار (مارس) ١٩٦٣م، ص ٣١.

(٤) المستقبل لهذا الدين؛ مرجع سابق: ٧٠.

فهذا «الكسيس كاريل» في كتابه «الانسان ذلك المجهول» يدين الحضارة المادية، ويرى أنها وليدة خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم، وأن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجمد لم تجن منه البشرية سوى القلق والهموم... ويتساءل عن جدوى الحضارة التي لا تجلب إلا الشقاء والتعاسة والانحطاط الخلقي فيقول: «أذا ما جدوى الراحة والفخافة والجمال وأسباب تعقيد حضارتنا اذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع؟ حقاً أنه لمّا لا يستحق أي عناء أن نمضي في تجميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الخلقي، وتؤدي إلى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة»^١.

أما عالم الاجتماع الفرنسي «ادغار موران» فلا يتردد في استخدام عبارة «الاحتضار الكوني» على الواقع الذي تعيشه البشرية، وهي تخوض المعركة الأخيرة قبل الموت، أو تمارس عملية التدمير الذاتي^٢، وقد سبق لرائد المدرسة البنيوية أن أشاع مفهوم «التدمير الذاتي»، خلال هجومه العنيف على الحضارة الغربية التي اعتقدت أن فيها للآخر هو وسيلتها الوحيدة لتوكيد ذاتها، فاذا بها تدمر ذاتها عبر تدميرها للآخر! (وهذا ما دعاه إلى ادانة الغرب وتحميله المسؤولية عمّا حدث ويحدث: «ربّما لم يكن ثمة الآن سوى همجي واحد هو هذا الغرب... هذا الغرب المسؤول عن كل انحطاط وصل إليه عالم اليوم»^٣).

وفي هذا السياق، يقول الفيلسوف الأميركي الشهير «جون ديوي»: ان الحضارة التي تسمح للعلم بتعطيم القيم المتعارف عليها ولا تثق بقدرة هذا العلم في خلق قيم جديدة تدمر نفسها بنفسها^٤.

وقد لا يكون هناك أدنى مبالغة عند التأكيد على أنه لا يوجد كاتب أوروبي معاصر احتلت المسألة الحضارية حيزاً مهماً في أعماله مثلما هو الحال في أعمال الكاتب الفرنسي المعروف «اندرية مالرو» النظرية والروائية. فالانتاج الذي خلفه «مالرو» يكشف عن وعي حاد بحضارته وما يكتنفها من تحديات، ففي كتابه «غواية الغرب» الذي صدر عام ١٩٢٦م يرى ان الغرب ينقصه البعد الروحي الضروري لكبح جماح القدرة العلمية، ونجد الصدى

(١) نقلاً عن: «المسلمون والبديل الحضاري»؛ مرجع سابق: ١٥.

(٢) عيسى مخلوف: «تحالف البربرية التاريخية والبربرية الصناعية يهدد العلاقات الانسانية»، آفاق الملحق الثقافي لصحيفة الحياة: ٢١ نيسان (أبريل) ١٩٩٧م - ١٤ ذو الحجة ١٤١٧هـ / العدد (١٢٤٧٠)، ص ١١.

(٣) آفاق، أيضاً (الحياة): ٢١ نيسان (أبريل) ١٩٩٢م - ١٩ شوال ١٤١٢هـ / العدد (١٠٦٦٥)، ص ١٤.

(٤) المسلمون والبديل الحضاري؛ مرجع سابق: ١٨.

ذاته للتساؤلات التي تحاكم الحضارة الغربية، خصوصاً في فترة ما بين الحربين العالميتين . يقول: «المشكلة التي تطرح نفسها اليوم، بالنسبة إلينا، هي معرفة ما إذا كان الانسان على هذه الأرض الأوروبية العتيقة قد مات أم لا؟» .

وينتهي «مارلو» إلى أنه «ليس مؤكداً تماماً أن الأوروبي قد مات، المؤكد أنه تم التخلي عنه، وأنه تخلى عن قيمه، وأنه يمهّد نفسه للموت بالطريقة التي تحدث لأي طبقة حاكمة أو امبراطورية قديمة، تقرر الموت لنفسها انطلافاً من اللحظة التي لم تعد لها مبررات للحياة»^١.

في السياق نفسه، في كتاب «مقابلات» يقدم لنا «مارلو» اضاءة أخرى: «ينبغي أن لا ننسى أن الحضارة الأوروبية هي الحضارة الأولى التي لا تعرف شيئاً عن معنى الانسان، وأنها الحضارة الوحيدة التي لم يعد فيها للانسان هدف، بينما كل الحضارات الأخرى ارتكزت، بصفة عامة، على الأديان...»، وبقي «مارلو» في كتاباته الرئيسية، ومعظمها تم تأليفه في ما بين الحربين العالميتين، لا يكف عن توجيه نقده الحاد للحضارة الأوروبية، لأنها لم تعد تفي بالمتطلبات الحقيقية والعميقة للانسان، ويستغرب ويتساءل: أي مفهوم للانسان يمكن أن ينبثق من قلق حضارة العزلة والوحدة هذه؟! وهو الذي قال أيضاً أن الحضارة الغربية هي الحضارة الأولى التي تفقد كل احساس بهذا التواصل الذي يلجأ إليه الانسان دفاعاً عن نفسه ضد أشكال القدر الحديثة والموت!

هذه النظرة المتشائمة لم تنبعث من فراغ، اذ لها أسبابها ومبرراتها. ويوضح «مارلو» أن «التفاؤل الذي ساد انطلافاً من قدرة العلم، وسيادة السلام، والبحث عن الكرامة لم يعد يجد ما يبرره في الواقع الملموس، فالعلم انتهى إلى انتاج القنبلة الذرية، والسلام غائب...»^٢. وعندما يتحدث في «أصول الصمت» عن الوسائل التي يتخذها الانسان للدفاع عن نفسه ضد أشكال القدر الحديثة، باللجوء إلى تواصل رحب، مع كل أشكال الحياة بدءاً من اخاء الانسان مع أخيه الانسان القريب منه!، ومع المعذيين في الأرض، أو عبر أشكال التواصل الميتافيزيقية، فانه يواصل نقده العنيف للحضارة الغربية: «أما الحضارة الغربية

(١) يُراجع مقال: «اندريه مارلو وغواية الغرب» لأحمد الشيخ، آفاق (الحياة): ٢٦ أيار (مايو) ١٩٩٧م - ٢٠

محرم ١٤١٨هـ / العدد (١٢٥٠٥)، ص ١١.

(٢) المرجع نفسه.

فهي أول حضارة تفقد كل احساس بهذا التواصل: بل لقد فقدت ثقتها بالعقل نفسه، لأن هذا العقل لم يعد يستطيع التحكم والسيطرة على اللامعقول. وحين ارتد الانسان إلى نفسه أدرك ضآلته وتحقق من تفاهته في مقابل الأشكال الجديدة من التنظيم (الأمة والدولة) التي تسحق فرديته سحقاً وتدوس على حريته «ان الحضارة القائمة على الانسان بوصفه وحدة منعزلة لا تدوم طويلاً، ولقد أدّت النزعة العقلية في القرن الثامن عشر إلى انفجار ذلك الأمل العنيف الذي ترك بصماته على التاريخ، بيد أن ثقافة ذلك القرن بعثت إلى الحياة كل ما يؤيد نزعتها العقلية من تراث الماضي، على حين يبعث القرن الحالي كل ما يبدو أنه يؤيد النزعة اللاعقلية»^(١).

لهذا نجد «مالرو» ينفذ يده من حضارة الغرب: «انني بدأت أفقد ايماني بأنه لا يوجد الآن عصر من النهضة، لأنني أؤمن بأنه اذا استمرت أزمتنا الانسانية بغير حل فان نهضتنا الثقافية مستحيلة. ان هذه الحضارة التي بدأت مع نابليون هي الآن في أزمة ما في ذلك شك»^(٢)، وهكذا أصبحت المشكلة الحقيقية، لدى مالرو، هي معرفة ما اذا كانت حضارة قد عرفت كيف تبتعث الشياطين، من خلال انتشار مصانع أحلام الوهم التي تبيع الجنس والدم والموت، يمكنها أيضاً في الوقت نفسه أن تبتعث الآلهة؟. ولهذا المفارقة الحادة حدس مالرو: «القرن الواحد والعشرون سيكون دينياً أو لن يكون!».

السؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف يمكن لمثل هذه الدورة الحادة القاطعة أن تكشف عن امكانية تواصل الحضارة الغربية مع الحضارات الأخرى؟ وكيف يمكن لحضارة مهددة بالزوال أن تتواصل مع غيرها؟ أو كيف أمكن لها مثل هذا التواصل، إذا كان قد تحقق فعلاً في الواقع، قبل أن تصل إلى مثل هذا المصير المأساوي الذي ينتظرها؟.

لم يفقد نقد الحضارة الغربية، كما مارسه مالرو، قوته ومصادقيته في أعماله المتأخرة نسبياً مقارنة بأعماله الأولى المبكرة، فهو يصور دائماً الحضارة الأوروبية منهارة، أو في طريقها إلى الانهيار، وشخصياته هاربة من واقعها دائماً^(٣).

(١) المرجع نفسه.

(٢) نقلاً عن مقال «المسلمون في المهجر» لسالم نجم، مجلة الأمة (الدوحة) العدد (٤٧): ذو القعدة ١٤٠٤ هـ.

آب (أغسطس) ١٩٨٤م، ص ١١.

(٣) آفاق؛ مرجع سابق: ٢٦ آيار ١٩٩٧م.

أما «ديستان» رئيس فرنسا الأسبق فقد قال وكأنه ينعى نفسه ودنياء كلها: «لقد بدأنا نعيش الآن في دنيا غير سعيدة بل تعيسة، لأنها لا تعرف إلى أين هي ذاهبة، ولو قُدر لها أن تعرف فانها سوف تكتشف أنها تتجه إلى كارثة. وهكذا فاننا سوف نرى خلال السنوات القادمة نوعاً من السقوط والتدهور في أوروبا بينما دول أخرى سوف تتجه إلى أعلى»^(١).

تحليلات .. ونبوءات:

وإذا ما وجَّهنا أنظارنا صوب الشاطي الآخر للأطلسي، فاننا سنجد العجب العجاب، في هذا الاتجاه. وأوّل ما يطالعنا هو مقولات المستر «جون فوستر دالاس» وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق (في الخمسينات من القرن الماضي)، حيث أشار في كتابه «حرب أم سلام؟» إلى الخلل القائم في الحضارة الغربية قائلاً: «إن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطي في أمتنا، وإلاّ لما أصبحنا في هذا الحرج، وفي هذه الحالة النفسية». وهو يرى أن التقدم المادي والمبالغة في وصف معطيات الحضارة الغربيّة يقابلها الافلاس الروحي الذي يشكو منه أبناء تلك الحضارة فيقول: «ونستطيع كذلك أن نتحدّث ببلاغة عن التقدّم المادي الذي حققناه، وعن روائع الانتاج الصناعي، وعدد السيارات وأجهزة الراديو والتلفزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا، ولكن المبالغة في وصف الماديات تعطي فكرة بأننا أفلسنا من الناحية الروحية».

ويرى أن الحضارة الغربيّة قد فقدت بريقها ولم يعد لديها ما تقوله للعالم الذي يبحث عن مخرج من عنق الزجاجة فيقول: «لن تكون هناك فائدة من انشاء محطات «أصوات أمريكا» أخرى عالية الصوت، إلاّ اذا كان لدينا شيء نقوله يكون أكثر اغراء ممّا قيل حتى الآن»^(٢).

وبعد عقدين من الزمن، يعترف الرئيس الأمريكي نيكسون -كما ذكرنا- في أول خطاب رسمي له، بعد انتخابه رئيساً عام ١٩٦٨، بمدى الهوة السحيقة بين ثرائهم المادي وتفوقهم العلمي وبين افلاسهم الروحي، الأمر الذي يجلب لهم مزيداً من التخبّط في متاهات ومتاعب كبيرة^(٣) فيما الفكرة المركزية لدى «بريجنسكي» مستشار الأمن القومي في عهد

(١) مجلة الأئمة؛ مرجع سابق ٤٧: ١١.

(٢) المسلمون والبديل الحضاري؛ مرجع سابق: ١٥.

(٣) المرجع نفسه: ٢٦.

الرئيس كارتر تتلخص في تحذيره الغرب من المستقبل البائس ، والذي أشرنا اليه في الفصل السابق ، وفيما يتعلق ببلاده يقول : « ليس لأمريكا الآن ند ولا منافس في العالم كله ، إلا أن التحدي الذي يواجهها هو من داخلها وليس من الخارج ، فالثقافة الأمريكية السائدة تؤدي إلى يأس المواطنين في الولايات المتحدة وتفسد - رغم جاذبيتها - العالم الخارجي وتبعده عنها في نهاية الأمر ، ورغم أن لأمريكا الامكانيات المادية وبعض الامكانيات السياسية اللازمة لقيادة العالم ، إلا أن زعامتها تتآكل وتلغم ، لفراغ رسالتها من المضمون الأخلاقي ، ويقتبس الدرس من التاريخ الذي يسجل أنه من المستحيل لدولة عظمى أن تبقى مسيطرة ما لم تكن حاملة لرسالة ذات قيمة عالمية ، ويعطي بريجنسكي مثلاً على ذلك بانهياء الامبراطوريتين الرومانية والبريطانية^(١) .

ومن بين أكبر الشخصيات الفكرية الأمريكية في الوقت الحاضر ، وممن تسنم ذروة الهرم الثقافي في أمريكا ، يبرز «نجوم تشومسكي» المعروف بأفكاره الثورية ومنهجه الفكري والسياسي الحاد ، في انتقاده للحضارة الغربية ، ولآثارها على الحضارة الانسانية . وعلى الرغم من أن اختصاص تشومسكي الأصلي هو علم اللغة ، فانه قدم العديد من الكتب والأبحاث التي تعرّي الوجه الكالح للحضارة الغربية ، وتكشف الخطط والممارسات الهابطة التي ارتكبتها الانسان الأبيض ضد البشرية .

ففي كتابه الموسوم : «العام ٥٠١ : الفتح المستمر YEAR 501: The Continues Conquest» تطرق إلى موضوع النظام الدولي القديم وانتهائه وبداية النظام الدولي الجديد (الخمير المعتقد في قوارير جديدة) . وهو صورة مجسدة لنظام استمر ٥٠٠ عام ، كانت أهم صفاته صراع الفاتحين مع سكان البلاد المفتوحة على مستويات عالمية وشاملة . وكان الانسان الأوروبي هو صاحب السيادة والحظوة في التمكّن من سياسات العالم ، بعد التمكن من الاستيلاء على الثروات ومصادرها وتقوية الجيوش القادرة على فتح بلدان جديدة ، وازافة ثرواتها إلى ما تمّ نهبه من ثروات .

إنّ «تشومسكي» يرى أن عصر «فاسكوداغاما» أو «كولومبس» الذي بدأ باكتشاف القارة الأمريكية قبل ٥٠٠ عام شارف على النهاية ، وكانت فاتحة هذه النهاية انهيار الاتحاد

(١) د. نبيل صبحي الطويل : «صراع الحضارات» ، مجلة الخيرية (الكويت) - العدد (٤٥) ، شعبان ١٤١٤ هـ ،

السوفياتي الذي حدث بعد اكتمال دورة الخمسمائة عام^١، وهذا يعني أن «نعم تشومسكي» قد جعل من انهيار الاتحاد السوفياتي بداية انهيار الحضارة الغربية ككل. وقد حدد ذلك رقمياً بنهاية القرن العشرين^٢، وكأنه يستحضر نبوءة «جيبون» الذي يُعد من سدة الدراسات التاريخية الحديثة، والذي تنبأ منذ مائتي عام تقريباً بانحلال الحضارة الأوروبية وزوالها الحتميين في نهاية القرن العشرين^٣.

وفي ما يبدو أنه ردٌّ غير مباشر على «نعم تشومسكي» الذي أصدر كتابه في مطلع نيسان عام ١٩٩٣م، نشر «صموئيل هنتنغتن» مقالته الشهيرة «صدام الحضارات» في صيف العام نفسه، ليصدرها بعد توسيعها كتاباً عام ١٩٩٧م يحمل العنوان نفسه «The Clash of Civilizations»، ويذكر «هنتنغتن» أن القرن العشرين هو المحطة الزمنية الحاسمة للحضارة الغربية، ففيه وصلت إلى أقصى مدى من قوتها، وفيه أيضاً بدأت مظاهر التراجع. ويقران الحضارة الغربية استغرقت أربعة قرون حتى وصلت إلى أوجها، وإن هذا الصعود التدريجي في نشوء الحضارات واكتمال قوتها هو قانون يسري على جميع الحضارات، كما أن التردّي الحضاري لا يمكن أن يكون عملية رتيبة، بل يتم بصورة متنوعة وقابلة للتوقف بل للتجدد^٤، كما أنه يذهب إلى أن صراعات عصر ما بعد الحرب الباردة تنسم بالطابع الحضاري وليس الايديولوجي أو الاقتصادي، متوقعاً تطور صدام الحضارات خلال العقدين الأول والثاني للقرن الحادي والعشرين، وبذا يتجاوز النظرية التي طرحها «فرنسيس فوكوياما» المفكر الأمريكي الياباني الأصل، والقائلة بنهاية التاريخ عند الواقع الكوني الراهن، بعد انتصار قيم الغرب الليبرالية والديمقراطية واختفاء الشيوعية.

إن «هنتنغتن» يؤمن مثل «فوكوياما» أن التاريخ مات، والمقصود هنا هو تاريخ الحرب الباردة والجدل القائم، منذ سبعين سنة بين الاشتراكية والليبرالية، لكنه يعلن عن صراع جديد، لا بين العقائد السياسية، وإنما بين الحضارات^٥، وهذا هو مفترق الطرق بينه وبين

(١) يُراجع التعريف بالكتاب في مجلة العالم (لندن) - العدد (٤٧٧): ٣ نيسان (أبريل) ١٩٩٣م - ١١ شوال ١٤١٣هـ، ص ٢٦، وآخر ما كتب تشومسكي، في حدود علمنا، هو كتابه «ماذا يريد العم سام؟».

(٢) المسلمون والبديل الحضاري؛ مرجع سابق: ١٩.

(٣) مجلة العالم (لندن) - العدد (٥٦٥).

(٤) د. أحمد القديري: «الاسلام وصراع الحضارات»، سلسلة كتاب الأئمة (الدوحة)، ذو الحجة ١٤١٥هـ،

ص ٥٦.

تشومسكي .

وإذا ما حاول «هنتنغتن» بثّ الأمل في نفوس الغربيين ، لأن أمريكا ما تزال تمتلك ركائز القوة والهيمنة وهي رائدة الحضارة الغربية والممثل الأبرز لقيمها ، فإن المؤرخ الأمريكي الشهير «آرثر شليزنجر» يتناول في كتابه «الولايات المتحدة الأمريكية» فشل التجربة الأمريكية في صهر العناصر الثقافية المتعددة ، دون أن ينسى التنديد بالقيم الغربية التي أفرزت انساناً أكثر عرضة للعزلة والوحدة والخوف وانعدام الاحساس ، كما يؤكّد العالم الألماني الأصل والأمريكي الجنسية «ايريك فروم» (١٩٠٠ - ١٩٨٠م) ، أحد ركائز الثالوث التحليلي من خريجي المدرسة الفرويدية ، مع «ماركوز» و «رايخ» ، اذ ينتقد «فروم» الحضارة الغربية الحديثة من الجانب الانساني ، وذلك نظراً لاختصاصه في علم النفس والتحليل النفسي^١ ويؤكد ان الغرب يعاني أمراضاً غاية في الخطورة .

بكائيات على أطلال الحضارة:

ان ما ينتاب الحضارة الغربية من مخاطر محدقة لم يعد موضع انكار حتى غلاة المدافعين عن الشخصية الاوروبية ، وهذا «دينس دورجمون» من أشد المتفائلين باستمرار الحضارة الغربية إلى الأبد ، يشكو من الأصوات التي تعلن عن سقوط حضارته ، يقر أن القرن العشرين الذي شهد معالم الحضارة الغربية وسلطانها يمتد عبر الكرة الأرضية ، ويحمل معها شرورها ومنتجاتها ثم في حالات نادرة قيمها ودائماً تفاهتها !.

وقد شهد في الوقت نفسه من القائلين بسقوط الحضارة الأوروبية والمتنبئين به عدد يتضاعف بصورة مستمرة ، وما يلفت النظر أن معظم المتنبئين أوروبيون ، وهم بدلاً من أن يتحدثوا باعجاب عن انتشار العبقورية الأوروبية في العالم كله ، وأن ينبهوا إلى أهمية هذا الانتشار .. يفضلون الحديث عن كسوف الحضارة الأوروبية^٢ .

وعديدون هم أولئك الذين أعلنوا عن خيبتهم المريعة في حضارة الغرب على امتداد القرن العشرين . فهذا «بول فاليري» الشاعر الفرنسي الذي كان له تأثير كبير في تيارات الفكر الأوروبي قد هتف ، بعد الحرب العالمية سنة ١٩١٩م بعبارة الشهيرة :

(١) عبدالمجيد احداد: «الانسان الغربي ميّت انفعالياً وذهنياً بينما يبدو حياً بيولوجياً» ، مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٤٢٠) : ٥ رجب ١٤٢١هـ - ٣ / ١٠ / ٢٠٠٠م ، ص ٤٢ .

(٢) نقلاً عن كتاب «المسلمون والبديل الحضاري» : مرجع سابق : ١٦ .

«... فمن الحضارات الأخرى نعرف الآن بأننا ميتون» ثم يضيف «ولندرك الآن أن هوة التاريخ هي من الاتساع بحيث تستوعب العالم كله، نحن نشعر أن في الحضارة من الضعف والتهافت ما في حياة الفرد»^١.

أما «فولني» وهو أحد رجال الفكر الأوروبيين فقد ترك وراءه تأملات حول مصير الحضارة الغربية تلتقي مع وجهة نظر «فاليري» ويقول: «ماذا أصاب تلك البدائع الرائعة التي حققتها يد الانسانية؟ أين هي حصون نينوى، وجدران بابل، وقصور برسيبوليس؟ والمؤسف أنني زرت الأماكن التي كانت مسرحاً لكل هذه العظمة الرائعة ثم لم أرَ غير الضياع والوحدة. وما يدريني لعل مسافراً مثلي في المستقبل يجد نفسه عند السين والتايمز يجلس باكياً فوق بقايا الفئات التي تحولت إليه معالم الحضارة الكبيرة حول هذه الأنهار»^٢.

وهناك كتب وأعمال أدبية كثيرة تعرّضت لموضوع الحضارة الغربية مثل: «الأماكن المسمومة» لـ «ترومان كابوت» و«المهزلة البشرية» لـ «وليم سارويان» و«الغزو المجهول» لـ «ميشيل رونالد» و«أوروبا بعد المطر» لـ «ألان بوزنسن» و«الساعة الخامسة والعشرون» لـ «كونستانتان جيورجيو»^٣، وتنفرد الرواية الأخيرة التي أحدثت ضجة في الغرب كله لم يُحدثها كتاب مماثل من قبل، بأنها غاصت في أعماق المجتمع الغربي الغاطس بالوحل حتى الهام، وما نلاحظه سوى مساحيق.. حيث يعالج المؤلف أخطر تحوّل قيمي في تاريخ البشرية، تحوّل الانسان من المجتمع اليدوي إلى المجتمع التكني ودور صانع الآلة في عبوديته لما أبدع وصنع، وهذا الخطر المريع والقائم يزداد تجسّداً وخطورة كل يوم. وحتى عنوان الرواية مشير للتساؤل والحيرة: لِمَ الساعة الخامسة والعشرون؟ انها تلك التي تأتي بعد الساعة الأخيرة..

وفي معرض نقده اللاذع لحضارة الغرب، التي لم تعد تأبه للانسان وآدميته، فيما تغذّي السير المجنون إلى الهاوية، يقول «كونستانتان جيورجيو» على لسان أحد أبطال روايته: «لقد خلق الغرب مجتمعاً مشابهاً للآلة. انه يرغب بني الانسان على العيش في صميم هذا

(١) أيضاً، نقلاً عن المرجع السابق: ١٧.

(٢) المرجع نفسه: ١٧.

(٣) رواية «الساعة الخامسة والعشرون» نالت شهرة واسعة، لا في أوروبا وحسب، بل خارجها، وترجمت إلى أكثر اللغات الحيّة، وأعيد طبعها في فرنسا وحدها أكثر من خمسين مرّة، ما بين الأولى عام ١٩٤٩م حتى عام ١٩٦٥م. توفي مؤلفها مطلع التسعينات.

المجتمع ويضطره إلى الانسجام مع قوانين الآلة.. ومتى بلغ بنو البشر في تشبههم مبلغ الآلات حتى يماثلونها، فعندئذ لن يبقى بشر فوق سطح الأرض»^١.

وفي غمرة انسحاق الانسان من قبل هذا الاصرار الهائل يركن المؤلف إلى الأمل: «وفي النهاية، يشفق الله على الانسان كما قال من قبل مرات عديدة، كما حدث في سفينة نوح فوق الأمواه، فيطفو ذلك البعض من بني الانسان الذين ظلوا على انسانيتههم، فوق دوامات ذلك الخراب الجماعي الهائل»^٢.

ولئن كانت هذه الكلمة هي الاشعاع الوحيد الضئيل الذي يلتصق في ثنايا هذا الكتاب اليبائس العظيم فان هذا الأمل يغدو أضغاث أحلام في عمل أدبي آخر نال شهرة واسعة في الغرب وخارجه أيضاً، اذ يظل انتظار المنقذ انتظاراً لا طائل تحته، لأنه لن يجيء، كما صوّرت ذلك أفضل مسرحيات القرن العشرين «في انتظار غودو» لصموئيل بيكيت؛ أشهر كتاب مسرح اللامعقول.. الذين يرون أن المجتمع الانساني في الغرب هو في وضع لا معقول، لأنه مجتمع لا غاية له، وفي مثل هذا المجتمع يكون المرء ضائعاً، ويكون كل ما يصدر عنه لا معنى له، ولا فائدة ترجى منه. كما أن أدب اللامعقول لا يصور لنا الواقع الخارجي، بل الحقيقة النفسية: فهو يعكس مخاوف الناس في الغرب وكوابيس أحلامهم، ولا تقدّم حلولاً لمشاكل الانسانية. ولهذا فاننا نجده يسير في حلقة مفرغة، فتنتهي حيث بدأت..^٣

ويظل الكاتب الفرنسي «جان جينيه» (١٩١٠-١٩٨٦م) الأكثر حداثة في نقد حضارة الغرب والأشد سخطاً عليها، حتى كانت حياته الصاخبة بالمجون والتمرد والشذوذ والألم والغربة والتّرحال.. تجسّداً عملياً لا لرفض الغرب وادانته وحسب.. بل للحقد عليه. ومضى في حياته البوهيمية مشدوداً إلى حياة الصعلكة، فلم يحاول اقتناء غرفة واحدة، وظل ينتقل من زقاق شعبي إلى زقاق شعبي، في كافة المدن التي أقام فيها، تماماً كما هو الوضع في السجون التي كان بمثابة نزيلها الدائم.. وحين مات في باريس نقل جثمانه إلى

(١) تراجع الرواية، ترجمة فائز كم نقش، دمشق (د.ت)، الصفحات: ٧، ١٥، ١٧.. على التوالي.

(٢) المرجع نفسه: ١٩.

(٣) بشيء يسير من التصرف عن دراسة نقدية للمسرحية، بقلم د. محمود السمره، مجلة العربي (الكويت) - العدد (١٣٩): ربيع الأول ١٣٩٠هـ - يونيو (حزيران) ١٩٧٠م، ص ١٥٢، علماً أن المسرحية قد حصلت على لقب أهم مسرحيات القرن العشرين بالانكليزية في استطلاع أجراه المسرح الملكي البريطاني، عام ١٩٩٨م.

المغرب بحسب وصيته في محمل كتب عليه «عامل مهاجر»^(١).

وما فتئ الروائيون الغربيون يعبرون، بشكل وبآخر، عن اداناتهم الصريحة أو الضمنية للحضارة الغربية، وعلى سبيل المثال الكاتب الأمريكي «دون ديليلو»، خاصة في آخر رواياته «العالم السفلي UNDER WORLD» التي تتحدث عن لعبة الموت التي تتحكم في المجتمع الأمريكي، وقد أعطت القنبلة الذرية اطار ذلك، ثم ان الحرب الباردة كثفت الشعور، فما كان على الناس إلا أن يقضوا أنفسهم.. في تخوُّف لا بد أن يكون هناك سبب وراء الحدث، لا بد أن يكون هناك تآمر أو استغلال وراء ما يحدث.. وما أكثر ما يمر على هذه في عجالة، ليلتقط خيوط النسيج الاجتماعي في ردود الفعل: المخدرات وتفكك الأسرة، استغلال الجنس، الانترنت، انتشار التلوث.. انها باختصار ادانة كبرى للحلم الأمريكي اذ يتشظى^٢ ومحاكمة لحضارة «الضجيج الأبيض» وتحكُّم الاعلان والاستهلاك في ارادة الناس.

وغني عن القول التأكيد ان هذه الكتب والأعمال الأدبية تنطوي على ادانة للحضارة الغربية، أو اعتراض على جوانب منها أو تنبيه على مخاطر تحيط بها، أو حكم عليها بأنها في طريق الانحلال^٣، وفي عمل غير مألوف في الرواية المعاصرة، يقدم الروائي الألماني «غنتر فالراف» على خطوة جريئة في ادانة حضارة الغرب، ولكن من زاوية أخرى هذه المرة. ففي روايته «في الحضيض» التي صدرت عام ١٩٨٧م^٤ يتعقَّب حياة العمال الأجانب في ألمانيا، وما يواجهونه من ممارسات عنصرية، بأسلوب روائي جديد يجمع فيه بين أسلوب القص والسيرة الذاتية، ويرصد في ذات الوقت أحداثاً ووقائع موثقة وحوادث مبهمة وشهادات مصوَّرة، في محاولة لتعرية واقع مزيف، وفضح علاقات اجتماعية، ومصالح اقتصادية، وأهداف سياسية لمجتمع صناعي متمدن ذي تكنولوجيا متقدمة، والوشاية بأشكال من القمع وممارسات التمييز العنصري الخفية، عن طريق رفضها للآخر، ومن خلال الكشف عن أشكال السلوك السياسي المبتذل.

(١) عبده وازن: «خدعة القديس جيني»، آفاق (ملحق الحياة: ١٠ / ١٠ - ١٩٩٣م - العدد ١١١٩٧).

(٢) تُراجع الدراسة النقدية عن الرواية بقلم الطيّب زاك، آفاق (ملحق الحياة: ١٢ / ١ - ١٩٩٨م - العدد

١٢٧٣٤).

(٣) المسلمون والبديل الحضاري؛ مرجع سابق: ٢٠.

(٤) ترجمها إلى العربية نزار عبدالله، دمشق، دار المتنبي، ١٩٩٧م.

في هذه الرواية يكشف «فالراف» تناقضات علاقات الانتاج الرأسمالية في مجتمع صناعي متقدم، وهو يقف على أعتاب القرن الحادي والعشرين، ويحاول فيها تعرية الحضارة الغربية وتعارضات الكهنوت، ين تسامحه الديني وعنف ممارساته للأخلاقية ضد الأجانب. واذ دخلنا «فالراف» في صراع مع التخلف والبؤس والاضطهاد السياسي، يعرّي في ذات الوقت ايديولوجيات الدول الشرقية المستبدة - كما في تركيا - التي جعلت مواطنيها مجرد هاربين ومنفيين عن وطنهم بحثاً عن لقمة العيش والأمان، ليقعوا في براثن التشرد والضياع والاغتراب الذي يستلب كرامتهم وانسانيتهم، ويصبحوا مجرد آلات في سلسلة الانتاج الصناعي، بعد أن وقعوا ضحايا بأيدي مقاولين وسماسرة أترك وألمان وغيرهم، ليسيءوا كرامتهم بأبخس الأثمان^١.

ورغم أهمية الشخصيات التي استعرضناها، فان ثمة صوتاً متميزاً ينبغي الوقوف في ساحته الفكرية أكثر من المعتاد، انه الفيلسوف «رجاء غارودي»، أحد رواد الحضارة الغربية، والشخصية السياسية والثقافية الشهيرة، لا في بلده فرنسا فقط، بل في الساحة العالمية. وتكمن أهميته الاستثنائية، في هذه النقطة بالذات، في كونه أحد أبرز شهود القرن العشرين، وعاش حياة خصيبة غنيّة، اذ تنقّل بين فلسفات مادية وتيارات فكرية، حتى قادته تجاربه الثرة إلى أن يرسو على شاطئ اليقين واعتناق الاسلام عام ١٩٨٢م، وبدل اسمه الفرنسي «روجيه» باسم اسلامي «رجاء».

وليس ثمة شك أن تجربة «غارودي» التي تتسم بالتنوع والثراء والتجرد تفوق - وإلى حد كبير - تجربة معاصرة «اندرية مالرو»، ناهيك عن أن غارودي قد تجاوزه - وإلى حد كبير أيضاً - في مسألة الاهتمام باشكالية الحضارة المعاصرة. فغارودي يعتبر من المنظرين الذين كونهم الجهد الصادق والعمل الدؤوب والصبر المثمر... كان باحثاً تعرف باستيعاب على أكثر من حضارة، وجاب الفكر الانساني ماضياً وحاضراً، وتعدّد في مصادره. وحينما

(١) في هذه الرواية، يقوم مؤلفها «فالراف» بتجربة فريدة، إذ يتقمّص شخصيّة علي (عامل تركي بسيط) واستبطانها، ويختفي تحت شكله ولون عينيّه، ويمثل دوره باتقان: يفقد عمله، ويأخذ يطرق أبواب مكاتب العمل والمصانع والشركات والمختبرات والتجارة والسماسة، ويفتّش عن عمل، أي عمل، حتى لو كان مذلاً، غير أن الجميع يغلّقون الباب في وجهه، بل يرفضونه بعصية وامتهان، فور معرفتهم بأنه أجنبي أولاً، وتركّي ثانياً، ومسلم ثالثاً، أو رؤية بشرته الداكنة، وسماع لهجته الألمانية الركيكة! (يراجع مقال: «عذابات الهجرة إلى الشمال» لإبراهيم الحيدري، مجلة العالم (لندن) - العدد (٦٢٨)؛ ٤ تموز (يوليو) ١٩٩٨م - ٩ ربيع الأول ١٤١٩هـ ص ٤٤).

طرح أزمة الحضارة الغربية أعطى لطرحة تبريراً موضوعياً، وكيف أنها حضارة سخرت في ابعادها الرئيسية لتفريغ وتدمير الانسان بدلاً من الارتقاء بانسانيته. هذا الطابع الاناني لحضارة ذات طابع واحد، قاده إلى اختيارات جديدة يجد فيها قناعته، وما يرضي تطلعاته الفكرية التي لا تقبل الارتضاء بما هو مقنع، وتحاول أن تكون نزيهة في عطانها، نزيهة في اشراقها، وفي تأزمها^١.

لقد خاض غارودي تجربتين عقيمتين مع تيارتي الحضارة الغربية، بكل تفصيلاتهما، وقطع رحلة فكرية شاقة، تزيد على النصف قرن قبل اسلامه، من البحث والتفتيش عن الانسان والحضارة الأوروبية المادية، واستجداء الهدف الذي يستأثر بنشاطه، وينتظم فاعلياته، فرجع بالخيبة المريرة، ورأى بارقة الأمل تلوح بالشيوعية كحل للخروج من الأزمة الاقتصادية العالمية، باعتبارها طُرحت كتنقيض للصورة الرأسمالية، لكنه تبين بعد ان وصل إلى عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أن الشيوعية جاءت لتعالج الانحراف الرأسمالي المادي فعالجت الانحراف بانحراف أشد، لكن في الاتجاه المعاكس، ولم تخرج في حقيقتها من أن تكون الوجه الآخر للحضارة الأوروبية^٢.

وفي فترة بحثه المضني عن بديل، كتب «غارودي» عدّة كتب من بينها «البديل» و «مشروع الأمل»، و «المرض الأبيض» و «حوار الحضارات»... وفي الكتاب الأخير يفتتح غارودي كلامه بصيحة مفزعة: «ماذا يحدث اليوم لحضارتنا الغاربة؟»^٣ ولم يتردد من اطلاق عبارة «الشر الأبيض» على هذا الجانب من الدور المشؤوم الذي نهض به الانسان الأبيض في التاريخ^٤، وان تنمية الغرب كما حدثت ما هي إلاّ عثرة في التاريخ، استثناء ملعون سيقود العالم إلى الانتحار، اذا ما واصل العالم السير في طريقه^٥ وليس مردّ ذلك إلاّ لأن «مجتمعاتنا الاوربية - ومجتمعات العالم الثالث التي صيغت على شاكلتها أو قلدها -

(١) يُراجع الحوار الذي أجرته معه مجلة منار الاسلام (أبو ظبي) - العدد (١١)، ذو القعدة ١٤٠٣ هـ.

(٢) لمزيد من الاطلاع على تجربة غارودي ورحلته إلى الاسلام، يراجع كتاب: «الاسلام والغرب: الوجه الآخر» لكاتب السطور، طهران، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ص ١٨٩ - ١٩٣.

(٣) روجيه غارودي: «حوار الحضارات» ترجمة د. عادل المولا، ط ٢، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٧ (سلسلة زدني علماً).

(٤) المرجع نفسه: ٨.

(٥) يراجع الحوار الذي أجرته معه مجلة العربي (الكويت) - العدد (٢٦٤): نوفمبر ١٩٨٠، ص: ٥٨.

لم تتوقف عن التآرجح، منذ أربعة قرون بين فردية شريعة الغاب وبين استبداد الجماهير العشوائية^١ واليوم «أليس العالم مهدداً بدخول زمن الانحطاط بسبب سيادة الولايات المتحدة العالمية وتوحيد السوق؟».. فبعد حرب الخليج وتفكك الشرق، أصبحت سيطرة الولايات المتحدة العالمية شاملة لدرجة أن وضعها الحالي يجسّد وضع الدول الأخرى إذا ما استسلمنا للانجراف الحالي باتجاه «فساد التاريخ».. وتمثل الولايات المتحدة عوارض الانحطاط الأعظم من الانحطاط الروماني^٢.

ويردّد غارودي، في مناسبة وغير مناسبة، مقولاته عن افلاس الغرب وبربريته والكارثة التي بانتظاره: «منذ خمسة قرون والغرب يسيطر على العالم، دون أن يواجه أي تحدٍّ. وكان الافلاس نتيجة هذه الهيمنة...» وحين يذكر بأن ما يسمى بالدول المتطورة قد قامت - حتى الآن - بتكديس قبائل، يعادل تدميرها مليون مرّة ما فعلته قبيلة «هيروشيما»، فانه «لا يمكن تصوّر ادارة لكوكبنا هذا وللجهد البشري فيه أكثر شؤماً من هذه الادارة التي تهيمن عليه».

والسبب الأساس لهذا التخاذل الانتحاري - كما يسميه غارودي - أنه خلال القرون الخمسة المنصرمة لم تعد الحضارة الغربية الحاديّة وحسب، بل أصبحت تتصف بالشرك؛ فالنمو، والجنس، والعنف، والمال، والقومية، غدت غايات بذاتها. وتعتبر آخر أصبحت آلهة مزيفة لها^٣.

ومنذ أواخر السبعينات من القرن المنصرم.. يوجه «غارودي» التحذير تلو الآخر، من أن حضارة الغرب مؤهلة للانتحار^٤، ولكن أي انتحار هذا؟ انه الانتحار النووي! وهذا ما يحثّه على بذل المزيد من الجهد لتحذير البشرية من مغبّة الكارثة: «هذه الأزمة بشرائها للطاقة وأوجه العنف فيها، التي تدفعها إلى الانتحار النووي وإلى تفتيت مجتمعاتنا وتفكيك

(١) روجيه غارودي: «الاسلام دين المستقبل»، ترجمة عبدالمجيد بارودي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٦٨.

(٢) يُراجع كتابه: «حفارو القبور.. نداء جديد إلى الأحياء»، تعريب زانيا الهاشم، بيروت ١٩٩٣م، ص ٥٤.

٥٥.

(٣) يُراجع فصل «البديل هو الاسلام» بقلم غارودي، المنشور ضمن كتاب «الاسلام والمستقبل»، الكويت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص ١٢١.

(٤) حوار الحضارات؛ مرجع سابق: ٤٢.

ايدولوجياته، هي أخطر أزمة اجتازتها حضارة. انها تتطلب جهداً نادراً من التأمل والأمل»^١.

«حضارة في مأزق»..

بهذه العبارة صَدَّر «غارودي» كتابه «نداء إلى الأحياء»، وراح يتساءل بفرع عن عالم تسكنه آلات، أعمال باهرة لم يسبق لها مثيل: (مفاخر الذرة، والهبوط على القمر، والنواظم الآلية، واختبار علم الوراثة) .. فأَيّة مقلّاع قذفت بهذا النيزك عبر تاريخ ومجتمعات يفتت نسيجها؟ نحو أي مرمى مجهول يُوجّه، في حين ان جريه يتسارع وما من أحد يبدو بعد أنه قادر على كبّح جماح مداره..؟!

ويمضي «غارودي» بالقول: «نحتاج إلى تخيّل بسيط لكي نتصور موتنا: يكفينّا أن نطيل، بالتتقيط، انحرافات زماننا. فان جميع استطالات خطوطها تتلاقى وتتطابق حوالي بداية الألف الثالثة»^٢، وهذا يعني أننا بصدد قتل أحفادنا.. وبدون تغيير أساسي حاسم، قد لا يكون هناك القرن الحادي والعشرون في تاريخ البشر^٣ في ظل هذا التلاعب بالنار النووية!

ان هذه الحضارة تتوغل في جحيم الرعب النووي، واذا ما أفلتت من يدها حبل النجاة، كما يقول أحد الأدباء الاسلاميين، فسيتعذّر عليها انقاذ البشرية من دروب الشوك والانسطار. ولقد أدرك أبنّاؤها هذه الحقيقة ادراكاً عميقاً، فها هو «غارودي» ممّن تربّى في أحضانها يؤكد في صراحة منقطعة النظير بأن «الغرب عَرَضَ، وثقافته شوهاء، انها انعزلت عن أبعاد جوهرية» ويضيف: «إن الغرب يعتبر، خلال ألف سنة مضت، أكبر مجرم في التاريخ، إنه اليوم وبالنظر إلى سيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية - بلا مزاحم - يفرض على العالم كل نموذج التنمية الذي يؤدي في الوقت ذاته، إلى انتحار عالمي»، وليس الانتحار العالمي - بما أنه اختياري - إلّا مظهراً من مظاهر الانهيار والسقوط .. ولقد «شهد شاهد من أهلها»^٤.

(١) غارودي: «نداء للأحياء»، ترجمة د. ذوقان قرقوط، دمشق، ١٩٨١م، الغلاف الأخير.

(٢) المرجع نفسه: ٧.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) يُراجع كتابه «وعود الاسلام»، ترجمة د. ذوقان قرقوط، ط ٢، بيروت - القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٩.

وهنا، لا يفوت «غارودي» أن يعيب على أولئك المبهورين بحضارة الغرب واللاهجين بانجازاتها وتطورها وتقدمها: «من الصعب أن نسمي خط سير الحضارة الغربية، وتوصلها إلى امكانية تدمير الحياة على سطح الأرض، وانهاء ثلاثة ملايين سنة من تاريخ البشر.. من الصعب أن نسمي ذلك بحال من الأحوال تقدماً»^١.

وفي ظل الحديث المتكرر عن امكانية محو أي أثر للحياة على الأرض، وهو ما يحدث لأول مرة في التاريخ، فإنّ هذا ان دل على شيء فانما يدل على ان العالم يسير في طريق ضال دون تفكير في العاقبة. ان القضية - كما يراها غارودي - هي كيف ننجو بالعالم؟ كيف نتخلص من حضارة الغرب؟ كيف نختار الطريق الحكيم حتى يمكن للانسان أن يعيش بتوافق مع الطبيعة من ناحية، ومع الانسان الآخر من ناحية ثانية، ثم بتوافق تام مع الله سبحانه وتعالى؟ ان الوصول إلى الجواب هو الغرض الرئيسي من حوار الحضارات^٢.

ولما كانت «نجاة البشرية» متوقفة، إلى حد بعيد، على نجاة الحضارة الغربية من مأزقها الحاد، وأزماتها المزمنة، وأمراضها المستفحلة.. وعليه فان الحديث الأكثر أهمية والحاحاً، لا بدّ أن ينصبّ حول محور محدّد هو: امكانية العلاج.

هل هناك إمكانية علاج؟

هذه هي المسألة التي سنقف عندها، بشيء من التفصيل، نظراً لأهميتها البالغة، باعتبارها تمثّل أبرز أبعاد مفترق الطرق، وأخطرها، على حد سواء. خاصة وأن البشرية لا تمتلك خيارات مفتوحة.. فهناك خياران لا ثالث لهما: أمّا العلاج (سواء من الداخل أو الخارج).. وإمّا الكارثة!.

ولئن كان تشخيص المأزق، والتنبيه إلى خطورة الخلل القائم، والكارثة المرتقبة.. موضع اتفاق الجميع تقريباً، من مفكرين، وساسة، ورجال دين، وعلماء اجتماع ونفس وتربية، وأدباء.. استعرضنا نماذج منتقاة لهم، غير أنهم يتباينون في «وصفات» العلاج، وأحياناً في جدوى العلاج!، وهذا ما يزيد الموقف حرجاً، فتعدّد (اجتهادات) المعالجة لا تعني، هنا في هذه النقطة بالذات، تنضيحاً أو أثراء أو حتى تقليلاً من مخاطر الداء، بقدر

(١) نقلاً عن مجلة الأئمة (الدوحة) - العدد (٦٦): جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ / فبراير (شباط) ١٩٨٦م، ص ٨٦.

(٢) كتابه: «الاسلام وأزمة الغرب» نقلاً عن: «المسلمون والبديل الحضاري»؛ مرجع سابق: ٢٨.

ما تعني تشتيئاً للجهد، واربكاً للموقف، واضاعة لفرصة العلاج، إن كانت قد بقيت ثمة فرصة !، فالحال هنا حال المريض الذي يتكاثر أطباؤه... وتتقاطع تشخيصات الداء، وقد يذهب ضحية تعدد الاجتهادات !، ويبقى التساؤل المطروح: هل من طريق للخلاص؟. فيما يتعلق بالعلاج الداخلي (الغربي)، بالامكان رصد ثلاثة اتجاهات على هذا الصعيد:

الأول: إمكانية العلاج

برزت نخبة من المفكرين والكتّاب والعلماء، وهي تنادي بضرورة الاسراع في معالجة الأزمة الخطيرة، على أمل تجاوزها، قبل فوات الأوان. لقد حاول البعض احياء الحضارة الغربية عن طريق الروح والايمان مثل: برجسون، وياسبرز، ومارسل، وأونامونو، وبرديائيف، وسولفييف، وشستوف...^١، ولسنا بحاجة إلى التذكير أن بعضاً آخر من هؤلاء قد حاول أن يدلي كلٌ بدلوه، حسب رؤيته ومنطلقاته، واهتماماته.

فعلى الصعيد الفلسفي يبرز الفيلسوف الألماني المعاصر «كارل ياسبرز» في مقدمة أصحاب القلق الحضاري، إن صحّ التعبير، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وهو لا يكف -في مقالاته وأحاديثه ومحاضراته- عن التنديد بما تنطوي عليه حماقات المغامرين من رجال السياسة ودعاة الحروب من نكر وشناعة. وفي سنة ١٩٥٧م ألقى الفيلسوف محاضرة عنوانها «القبلة الذرية ومستقبل الانسان» كانت نواة لكتاب صدر لاحقاً، يمضي المؤلف فيه باحثاً عن مصير الشخصية الانسانية، ملتمساً السبيل الأمثل لا يقاظ الضمير العالمي، حتى يواجه الخطر الداهم الذي يتزايد يوماً بعد يوم: فالقنابل الذرية تكدّس هنا وهناك بكميات هائلة، والقواعد العسكرية تنفق عليها أموال طائلة، وباسم الاستعداد للحرب تُكبّت الحريات وتكتم الأفواه. وليس بمستبعد أن يُساق الناس سوقاً تحت ضغط الدعايات المضللة إلى حرب ذرية شاملة، تبيدهم عن بكرة أبيهم، وتقضي على كل أثر يذكر في حضارة الانسان !.

إزاء هذا الخطر المحدق بالبشرية.. يهيب «ياسبرز» بكل واحد من الساسة أصحاب القرار وعلماء الذرة.. أن يتجه إلى قلبه أولاً، فيعمل على تغيير ما بنفسه حتى يتيسر تغيير العالم من حوله، مؤكداً أن هذا التغيير «الجواني» هو وحده الأمر الذي يستطيع ان يدفع

(١) مقدمة في علم الاستغراب؛ مرجع سابق: ٥١١.

الكارثة عنا، ويقدم الفيلسوف آخر الأمر مقترحات محددة، تذكرنا بمشروع مشهور للفيلسوف «كانت» نشره أواخر القرن الثامن عشر، ويجوز إذا حسنت النيات أن تحقق أمل الإنسانية في السلام. ويمكن تلخيص هذه المقترحات في النقاط التالية:

- إنشاء رقابة مشتركة على الأسلحة الذرية، تمهيداً لالغائها الغاء تاماً.
- اعتبار المعاهدات القائمة صحيحة بقوة القانون، ما لم تتغير الظروف التي دعت إلى عقدها.

- التنازل عن مبدأ السيادة المطلقة لكل دولة، والتمهيد لإنشاء هيئة دولية «فوق الوطنية» تُخول لها سلطات لم يسبق لها مثيل في التاريخ.
- تبادل وسائل الإعلام ومواجهة تيارات الأفكار ومواجهة علنية حرة دون ما رقابة عليها.

- اعتبار الشؤون الداخلية لكل دولة أموراً تهّم الدول الأخرى: وهذا يقتضي أن تتدخل الهيئة «فوق الوطنية» لدفع الظلم أينما اقترب، ورعاية حقوق الإنسان في كل مكان.
- تعديل المعاهدات المجحفة بحقوق الدول الصغيرة، وتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها أو الخاضعة لغيرها، متى جازت برغبتها في ذلك.

ويختتم الفيلسوف مشروعه ببناء يوجهه إلى جميع المخلصين في أنحاء العالم، مهيباً بهم أن يتخذوا في هذا الأمر الخطير موقفاً إيجابياً صريحاً، يقضي على بواعث القلق والفرح، ويقوي أواصر المحبة والتواصل بيننا وبين سائر بني آدم، ما شاء الله أن يديم علينا نعمة الحياة، ويعيننا على أن «نوجه خواطرننا ونزعائنا وجهودنا نحو الانتصار على أنفسنا الأمارة بالسوء والغلبة على الكارثة الأخيرة التي تتهدد البشرية جميعاً»^١.

الكاتب الألماني «رالف داهر نروف» أصدر كتابه «الصراع الاجتماعي في العصر الحديث» عام ١٩٨٨م، وهو في حقيقته بحث اجتماعي مطوّل عن أزمة المجتمعات الغربية الحديثة كما يراها المؤلف. وقد أتيح له أن يتبوأ مواقع عدّة سواء كانت أكاديمية أو سياسية، حيث درّس في جامعات عديدة بألمانيا، كما كان عضواً في البرلمان الألماني الغربي، ووزيراً بعد ذلك، كما أمضى سنوات في منصب المندوب الأوروبي المفوض في بروكسل، وشغل مناصب أكاديمية في أكثر من جامعة في بريطانيا، فهو بهذا المعنى شخصية قادرة

(١) مجلة العربي؛ مرجع سابق ٥٢: ٣٠-٣١.

على تشخيص أمراض المجتمعات الأوروبية التي يعرفها جيداً، وقادر على تصوّر العلاج لهذه الأمراض أيضاً.

ورغم كل ما يُقال عن مزايا المجتمع الغربي الحديث، فإن الكاتب يعتقد أنه لمّا يصل بعد إلى العدل الاجتماعي، وهذه هي الفكرة المركزية التي تتفرع منها بقية المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية البارزة في المجتمعات الغربية.. ولهذا فإن الكاتب ينتهي إلى المطالبة بعقد اجتماعي جديد، فالوضع القائم يقترب من خط النهاية، وهناك قائمة طويلة يجب أن تدخل على التشريعات القائمة من أجل اصلاحها. ويخاطب الكاتب الشباب فيقول: «لو قدّر لي أن أوجّه نصيحة للشباب في الأربعينات لقلت لهم: حاربوا من أجل الحفاظ على حرياتكم التي منحتها لكم الطبيعة بأسنانكم وأظافركم. أما في الخمسينات فكنت سأقول لهم: اعملوا بجد من أجل الحفاظ على حرياتكم، فاعمل الجاد هو الذي سوف يوصلكم إلى مبتغاكم، عليكم بالبحث عن العمل الذي يناسبكم. أمّا في السبعينات فكنت سأقول لهم: لا تجعلوا الرفاهية المادية هي مطمحكم الوحيد، فهناك أهداف أسمى وأنبى.. أما في الثمانينات فأنني سأقول لهم: لا تضعوا اللوم على القدر، بل على أنفسكم...»^١.

ولا ندري ما عساه يقول لهم في عقد التسعينات من القرن الماضي والعقدين الأولين القادمين من القرن الحادي والعشرين.. بيد أنه من الواضح أن الكاتب يبحث عن عقد اجتماعي جديد لانقاذ المجتمع الغربي ما بعد الصناعي من أزمته.. لا سيما وأنه ينتهي إلى القول بأن كل التشريعات التي تبناها المجتمع الغربي ما بعد الصناعي قد فشلت حتى الآن في تكوين المجتمع المندمج، بل خلقت وراءها مجتمعات أكثر فتوية وأعمق اختلافاً ممّا كانت عليه في السابق، مجتمعات تفقد لأول مرة منذ أكثر من قرنين من الزمان قدرتها على تقديم حقوق مواطنة أفضل أو عدل اجتماعي أوسع^٢.

وفى ما يُشبه أنها محاولة للإجابة على ما فات المفكر الألماني «داهرنروف»، ينبري المفكر الأمريكي «بول كيندي» لاستباق الزمن، ونحن على أبواب القرن الحادي

(١) انظر دراسة عن الكتاب للدكتور محمد الرميحي في حديث الشهر لمجلة العربي (الكويت) - العدد (٣٦٣):

فبراير (شباط) ١٩٨٩م، ص ٨، ٩، ١٨.

(٢) المرجع السابق: ١٨.

والعشرين، والتهيب بما يستلزم من استعدادات، وذلك في كتابه «الاستعداد للقرن الحادي والعشرين (Preparing for the Twenty First Century) الصادر عام ١٩٩٣م. وقد اشتهر المؤرخ البريطاني الأصل «كيندي» بتحليلاته التاريخية الواسعة والمعمقة. وكان أبرز كتبه وأكثرها رواجاً: «صعود وانهيار القوى العظمى» الذي تناول فيه تحليل عوامل رقي الدول لتكون قوى عظمى والأسباب الكامنة وراء انهيارها. ولقد حقق هذا الكتاب رواجاً كبيراً وترجم إلى لغات عدّة منها اللغة العربية. وأثبت فيه أن الأمم التي تعتمد في قوتها على قاعدة اقتصادية قوية تتمكن من الاستقرار والرقى. وإذا فقدت قدرتها الاقتصادية انحدرت نحو السقوط والزوال.

أما كتابه «الاستعداد للقرن الحادي والعشرين» فهو كتاب استقرائي واستشرافي للمستقبل، اعتماداً على معطيات الواقع الحالي العلمية والاقتصادية والانسانية. ومثلما كانت توقعات «كيندي» حذرة وهو يحلل تاريخ العالم في ٥٠٠ عام، فانه يبدو أكثر حذراً حينما يحاول ايجاد رؤية معينة للمستقبل. ولم يتغير سلوك «كيندي» المؤرخ ليتحول إلى «كيندي» المنجم أو المتنبئ فهو لا يدّعي ذلك لنفسه، ولكنه يؤكد بأن خوضه في قضايا المستقبل عبارة عن عملية استكمال لتحليل الماضي، وهو عملية تعقب التاريخ في سرعته المذهلة، فالتاريخ - لديه - لم ينتهِ، كما يعلن بعض المؤرخين الأمريكيين، وانما يسير سريعاً قد نتعب في اللحاق به.

ان محاولة اللحاق بالتاريخ محاولة محفوفة بالأخطار. و «كيندي» حينما يخوض غمارها يدرك ذلك، ربما بقدر يفوق غيره، بسبب خبرته بتقلّب الحضارات والقوى وتعاقب الدول المهيمنة على سياسات العالم. واعتمد كيندي في كتابه على أحدث المعلومات الاحصائية، وأدخل معظم التطورات العلمية والتكنولوجية ضمن كتابه ليدرس الحالة التي عليها العالم اليوم وليعرف طبيعة المشاكل التي يعاني منها، وهي كثيرة وأبرزها: زيادة السكان، مشاكل البيئة، البعد السلبي للتطور التكنولوجي..

رغم ادراك «كيندي» لهذه الصعوبات والمشاكل المستعصية التي يعاني منها العلم اليوم، وستعاني منها أجيال المستقبل، إلا أنه حاول اعطاء خطوط عامة تساعد على فهم المصاعب والتحديات التي تواجه العالم في المستقبل. وأكد بصورة جازمة أن حل مصاعب المستقبل يبدأ من وقتنا الراهن، وهذه مسؤولية كبرى يحاول «كيندي» تسليط

الأضواء عليها.. بطريقة جذابة في استخلاص العبر والدروس أو اصدار الأحكام على الظواهر التي تبرز تشابهاتها وربما تتوارى أوجه التباين فيما بينها. ومثلما أراد «كيندي» وضع الناس على حقائق مستقبلهم، دون اللجوء إلى التنبؤات الغامضة، وأنما من خلال النظرة التاريخية، فانه أراد من قارئه أن يمر بأحداث عالمه مرور الناظر المسترشد لا مرور المترف الغائب عن الوعي^١.

بحثاً عن طريق جديد للخلاص:

في دنيا علم الاجتماع والانثروبولوجيا يدور جدل طويل حول ما نشره «ليني شتراوس» وخاصة في مقاله الشهير: «النظرة إلى أبعد» الذي دعا فيه إلى تجاوز مفاهيم عصر الاستعمار والخروج من مأزقه بالدعوة إلى مثل أعلى جديد أطلق عليه اسم «الحد الأمثل من التنوع» الذي اذا تجاوزه المجتمعات الانسانية لم تستطع البقاء دون أن تتعرض للأخطار. ليس هذا فحسب بل ان «شتراوس» ذهب إلى أبعد من هذا حين أكد على ضرورة تجاوز الحجب القديمة التي طغت على النظريات الانثروبولوجية، وان نتبنى نتائج المكتشفات العلمية الحديثة في هذا الباب، ولا سيما تلك التي تنتسب إلى ميدان جديد من ميادين الانثروبولوجي بدأ بالظهور حوالي عام ١٩٥٠م، ويعني به ما يسمى «علم نسل السكان» فهذا العلم الجديد من شأنه - في نظره - أن يقضي نهائياً على فكرة «العرق» (الذي لا يتعدى أي معيار بيولوجي على تحديده)، بل من شأنه أن يقلب الصلة التقليدية التي تربط بين العرق والثقافة. وذلك إن علم نسل الشعوب يجعل مما هو بيولوجي متغيراً من متغيرات عديدة في «الثقافة» أو بتعبير أوضح؛ ليست خصائص الصبغيات والموروثات في جماعة بشرية معينة هي التي تولد منظومة معتقداته وعاداته، وبالتالي حضارته، بل إن هذه المنظومة الاجتماعية هي التي توزع عن طريق وسائل متعددة الصفات الموروثة وتضمن الرقابة الاجتماعية عليها. وهكذا تعود الثقافة فتحمل موقع القيادة الذي كان لها والذي انتزعت منه النظرية الداروينية الجديدة^٢ وبذا يعتقد «ليني شتراوس» ان الانثروبولوجيا هي طريق الخلاص الجديد، إن لم تكن سفينة نوح التي تحمي البشرية من الطوفان!

(١) يُراجع عرض الكتاب في مجلة العالم (لندن) - العدد (٤٧٩): ٧ نيسان (أبريل) ١٩٩٣م - ٢٥ شوال

١٤١٣هـ، ص ٢٦.

(٢) مجلة الثقافة العالمية (الكويت) - العدد (١٣): محرم ١٤٠٤هـ - نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٣م، ص ١٨٠.

ولكن من الواضح ان «شتراس» لم يفلح بمسك حبل النجاة، ويبقى التساؤل عما تمثله أفكاره هذه دعوة إلى استنهاض تاريخي لمتقفي بلاده فرنسا أو لمتقفي أوروبا أو لمتقفي الغرب أو العالم برمته؟، هذا التساؤل مشروع في ظل الاخفاق الذي تعيشه الساحة الثقافية في فرنسا خاصة والغرب عموماً. فالذي يعايش الحركة الثقافية والسياسية في فرنسا في الآونة الأخيرة يرى أنها قد تحولت نحو التفاهة الثقافية والضحالة، فبعد سنوات الاشعاع جاءت سنوات البوار الثقافي وأصبحت فرنسا مستهلكة لأتفه ما في مظاهر الغرب الأمريكي من «حضارة وثقافة»^١ والتي يشير اليها غارودي ساخراً بأنها ثقافة الكوكاكولا! وفي وجه هذا الانهيار (أزمة الأخلاق والفكر والسياسة وموت الابداع وسكون النقد) برزت ثلاثة اتجاهات؛ الأول: هو تيار اليمين الجديد، وهو اتجاه ثقافي - حضاري، أي أنه يطرح المسألة بالعودة إلى الحضارة الأوروبية التي هي شيء آخر مختلف ومتعارض مع الغرب.. وهذا الاتجاه يفرق في الثقافة إلى حد الفلسفة والتتظير المثالي، ويترك الساحة لفراغ سياسي يملؤه تيار اليمين المتطرف.

أما الاتجاه الثاني: فهو اتجاه تقني - سياسي ينظر إلى الأمور من زاوية تقنية عسكرية (ضباط الجيش وخبراء الاستراتيجية) أو تقنية دبلوماسية (خبراء الخارجية والاقتصاد والعلاقات الدولية).. وهذه الزوايا في النظر إلى المسألة تقود إلى السياسة من باب المناورات والصفقات الرخيصة والتحالفات والانقلابات الصغيرة.

ويبقى الاتجاه الثالث، الذي يحمله «ريجيس دوبريه»، والذي ينظر إلى المسألة من زاوية ثقافية - سياسية، أي من زاوية مشروع ثقافي - سياسي يستطيع أن يشمل الحضاري والتقني في آن معاً^٢، وفي حمأة الدعوة إلى العولمة وقف «دوبريه» في وجهها باعتبارها غطاءً فاضحاً للأمركة. وقد كان في طليعة الشاجبين للعولمة ممن حضروا إلى الدوحة، أثناء انعقاد مؤتمر فيها، حول العولمة في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١م.

وإذا كان هذا هو حال الطروحات الثقافية العاجزة، كما يبدو، عن الحلول الجذرية. للمأزق الحضاري.. فماذا في جعبة العلماء في هذا المضمار؟.

(١) سعود المولى: «ريجيس دوبريه: منقذ السلطة وسلطة المنقذ»، مجلة العالم (لندن) - العدد (٦٩): ٨

حزيران (يونيو) ١٩٨٥م - ١٩ رمضان ١٤٠٥هـ، ص ٦١.

(٢) المرجع نفسه: ٦١.

هناك محاولات عدّة، منذ أن استشعر العلماء خطورة الموقف الذي يساهمون في تأزيمه ودفعه نحو الهاوية. ونكتفي بهذا الصدد من المحاولات بملتقى «سيريزي لاسال» الذي عقد في شهر حزيران (يونيو) ١٩٨١م، حول «التنظيم الذاتي» والذي ضم نخبة من الباحثين في ميادين متفرقة. كان هدف الملتقى هو البحث عن مخرج للانسان ومصيره عن طريق العلم. والتساؤل إلى أي مدى يستطيع العلم أن يقدم حلولاً لمشكلات الانسان، بعد أن حلّت فيه الأزمة، كذلك فالعلم الكلاسيكي وضع موضع التساؤل والشك حيناً من الزمن، وأدرك الباحثون أن المبادئ التي وضعها «غاليلو» و«نيوتن» و«انشتاين» لم تعد قادرة على تفسير طائفة من الحوادث: من مثل الكوارث والتحويلات المفاجئة، وظهور النظام وسط الفوضى والعماء، وكل ما له صلة بالتكوين والتنظيم والاستقلال والتاريخ. فهل يعني هذا أن علينا من أجل انقاذ الانسان وحرية وكرامته أن ندير ظهرنا للعلم؟ أم أن علينا على العكس، كما يرى «جاك مونو» في كتابه الشهير؟.

الأبحاث التي قدمت للملتقى على هذا التساؤل، وكثير من أصحابها يرفضون هذا الخيار الأخير ويحاولون البحث عن طريق ثالث. يقودهم الاقتناع بأن صعوبات العلم المعاصر وتطلعات الانسان الحديث لا يقوم بينهما من الفراق والطلاق إلا ما هو ظاهري، وان كليهما يكشفان عن أدوية واحدة ومبادئ واحدة للعلاج. ويبينان أن عصرنا في حاجة خاصة إلى نماذج عصرية جديدة^١ وليس خافياً أن الرهان على العلم في حل المعضل الحضاري ليس في محله، لسبب غاية في البساطة والوضوح، وهو أن العلم (بقفزاته وتطوره التكنولوجي) أمسى جزءاً أساسياً من المشكلة بل الكارثة الوشيكة التي تهدد البشرية.. وليس بمقدوره، والحال هذه، أن يصبح جزءاً من الحل. والعودة إلى الدين هو الحل الطبيعي للخروج من الأزمة، لكن البعض يكابر حينما يشغل نفسه بالبحث عن حلول أخرى.

يقول الكاهن الأمريكي المشهور «جيرى فلور» في كتابه: «اسمعي يا أمريكا Listen America»: «لديّ إحصاءات مرعبة عن حوادث الطلاق، وتدمير الأسرة، والاجهاض، وجنوح الناشئة، والفوضى الجنسية، وتعاطي المخدرات، وجرائم القتل.. انني اشاهد حطام الانسان والأرواح المهدورة بأكداس تفوق الإحصاءات. إن أمريكا بحاجة إلى

(١) مجلة الثقافة العالمية؛ مرجع سابق: ١٨٠.

الاتقاذ الروحي والأخلاقي اذا كانت تريد أن لا تهلك في القرن العشرين^١، ويصطف مع هذا الاتجاه أحد أبرز علماء النفس والتحليل النفسي «ايريك فروم» الذي سبقت الإشارة إليه، حيث يمكن تقسيم الانتاج النقدي لحضارة اليوم عند هذا العالم النفساني الشهير إلى محورين أساسيين هما: الجانب النفسي والجانب الاجتماعي. يلخص «فروم» أبرز المشكلات النفسية للحضارة الغربية بما يلي: ١- الوحدة والخوف، ٢- انعدام الشخصية، ٣- الخضوع للتحكم، ٤- العجز عن التفكير بأصالة، ٥- التنازل عن التلقائية، ٦- اللاشفقة. ويذهب «فروم» الى أن هذا العجز الذي تتسم به شخصية الانسان الغربي جعلت منه ميتاً انفعالياً وذهنياً بينما هو يبدو حياً بيولوجياً^٢.

ومن بين المشكلات الاجتماعية التي تعرّض لها «فروم» مسألتان اساسيتان هما: السلطة المجهولة التي لا تكشف عن ديكتاتوريتها وانما تخفيها بطرق ملتوية، وشيوع الأمراض الاجتماعية التي تفتك بالملايين. يقول «فروم» في كتابه «المجتمع السليم»: «ان اشتراك الملايين في رذيلة من الرذائل لا تجعل من هذه الرذيلة فضيلة. كما ان اشتراكهم في خطأ من الأخطاء لا يجعل من هذا الخطأ صواباً. واشتراكهم في حالة عقلية معينة لا يدل على سلامة عقولهم»^٣.

ومصيبة هذا القرن - عند فروم - هي أن الفرد المريض لا يشعر بشذوذه وحالته، لأن عامة الناس تشترك فيها، ولأن الثقافة لها دور مهم في حماية النقص المرضي للأفراد. زيادة على ذلك، فان الحضارة الغربية قد وفرت أساليب وحيلاً تخفي على الناس ما بهم من أمراض فلا يحسون بها. وتعتبر هذه الحيل «كالتلفزيون وكثير من النشاطات الثقافية» مخارج يهرب اليها المرء من واقعه، ومن أهميتها لا يتصور الاستغناء عنها في المجتمع الغربي، دون أن يتسبب ذلك في انهيار عصبي لألوف من البشر!

انطلاقاً من ذلك، يقترح «فروم»، بعد تشخيصه للداء الحضاري، مشروعه الاصلاحى الذي يركز على محورين أساسيين هما: الجانب الروحي والجانب الأخلاقي - النفسي.

(١) نقلاً عن كتاب «مقالات في الدعوة والاعلام»: مرجع سابق: ١٢٨، هامش (٢).

(٢) نقلاً عن مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٤٢٠): ٥ رجب ١٤٢١هـ - ١٠/٣ / ٢٠٠٠م، ص ٤٣ (هامش).

(٦).

(٣) أيضاً نقلاً عن المرجع السابق، هامش (٨).

على الصعيد الأول يلاحظ «فروم» أن ظهور الصناعة والآلة كديانة، وتحول الزعماء والمؤسسات، ولا سيما الدولة، والأمة والانتاج والقانون والنظام إلى أصنام يعبدها إنسان الحضارة الحديثة أدت إلى حركة تنديد ومطالبة بالرجوع إلى القيم الروحية الأوروبية. فقد كان من نتائج انكار الدين، فقدان القيم الانسانية الرفيعة. ويدعو «فروم» إلى العودة إلى الدين، والذي يعتبره مصدر الترابط الروحي والتماسك النفسي بين أفراد المجتمع، وهو الذي يكون وحدتهم الداخلية ويصونها من التفتت والضياع. كما يؤكد على ضرورة اقام الدين في المجال السياسي والاجتماعي.

فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي - النفسي؛ يتساءل «فروم» عن امكان تغيير الطبع الانساني لتفادي كارثة سيكولوجية واقتصادية. ويوجب بالايجاب مشروطاً ما يلي: ١- أن يعترف الغرب بأنه يعاني أمراضاً (وهذا الشرط على بداهته يعتبر من أصعب الشروط) وبالتالي فانه يعي ما هو فيه، ٢- أن يبحث على أصول حالته المرضية ومن ثم يتيسر له معرفة الدواء، ٣- أن يقبل باتباع بعض القيم والمعايير لتغيير واقع الحياة المعاصرة^١. واهتم «فروم» أيضاً بالجانب الأخلاقي للعلم الحديث، والذي يجب أن يوظف لخدمة الانسان ورفع مستوى الانسانية كلها. أما العلم بصفة عامة فيجب أن يوجه الى هدف النمو الانساني وليس التقدم الصناعي. وعدم توظيف العلم لخدمة الانسان يظهر جلياً في العجز المتزايد عن التخطيط الجدّي للتغلب على مشكلات الانسان؛ كالتلوث، المجاعة في البلدان الفقيرة، وخطر السلاح النووي.. الخ^٢.

نهاية الوعي الأوروبي:

هذه الدعوات المتنامية في الغرب للمراجعة ونقد الذات، لم تعد حكرًا على رجال الكنيسة وعلماء الاجتماع والنفوس والمفكرين والمؤرخين والفلاسفة، بل أخذ يتحمس لها حتى كبار رجال السياسة. وهذا «بريجنسكي» يعتقد أن الحل هو في عملية «مراجعة طويلة» لثقافة الغرب السائدة واعادة تقييم الفلسفة التي استندت اليها^٣، وقد سبقه إلى هذه المراجعة كاتب فرنسي معروف اسمه «جورج سوفير» في كتابه: «عندما يستيقظ الغرب»

(١) المرجع نفسه: ٤٣ هامش (١١).

(٢) المرجع نفسه: ٤٤.

(٣) مجلة الخيرية؛ مرجع سابق: ١٩.

الذي صدر مطلع عام ١٩٨٠م. ومما قاله الكاتب يومئذ: «ان العالم يجتاز اليوم مرحلة مزروعة بالعقبات. ومنذ مطلع عام ١٩٨٠م أخذ الناس يدركون أن وقوع حرب عالمية لم يعد أمراً مستحيلاً. انهم يتساءلون هل يمكن تفادي الفاجعة الكبرى، وقد تفاقم التضخم النقدي، وتوقف النمو الاقتصادي، وارتفع سعر النفط، وازداد تسلح الاتحاد السوفياتي، وأخذت الولايات المتحدة تغيب عن المسرح الدولي، وظهر رجل مثل الخميني لا يمكن معه التنبؤ بتطورات الأحداث؟ أجل ازاء هذه الأحداث يتساءل الناس عن امكانية وقوع حرب. وهل يمكن تفاديها؟ وما هو الثمن؟^١.

وفي معرض جوابه، يقدم الكاتب اقتراحات يعتبرها أساساً لنهضة اوربية حديثة وللسلام العالمي، وان كانت لا تبعد شبح الدمار والكارثة نهائياً، أو تعيد الأمل الطموح إلى النفوس. إنه يعترف صراحة بأن لا أحد يعرف طريقة للخروج من المأزق، بيد أنه يختزل محاولة الحل أساساً في انشاء نقد أوروبي مستقل تمهيداً لخلق نقد أوروبي واحد سيكون المرحلة الحاسمة والنهائية في بعث اوربا وبنائها. وينبغي التنويه -هنا- إلى ان هذه الدعوة تلتقي مع تيار النهضة الأوروبية أو ما يسمى بمدرسة اليمين الجديد في فرنسا، التي تدعو إلى الحرب ضد موسكو وواشنطن، وإلى التمسك باصالة اوربا واستقلالها، كما ترى ان اوربا شيء والغرب شيء آخر مخالف تماماً ومسيطر أو محتل لأوربا، ولهذا تطالب هذه المدرسة بعدم الرضوخ لمنطق الغرب^٢.

وفي سياق الدعوة إلى المراجعة والتقييم لا نعدم بعض المحاولات الرامية إلى الخروج من المأزق، غير أنها تظل أسيرة الاطار المأزوم نفسه، ولا تستطيع الفكك من ربقة!! فإذا كان حلول الآلة محل الانسان، وانتقال الطاقة العاملة، بالتالي، من قطاع الزراعة والصناعة إلى قطاع الخدمات، ييسّر في نظر الاقتصاديين -أمثال «فوراستييه» الفرنسي- بولادة حضارة ألصق بحاجات الانسان وأبعد عن الحضارة الصناعية التي استعبدته زمناً، فان مثل هذه النبوءات المتفائلة إن صحّت لن تكون إلّا على المدى البعيد، وذلك المجتمع الانساني المنشود الذي يقوم فيه الانسان بما هو جدير بالانسان من نشاط فكري وفني وفلسفي وسواه، وتقوم فيه الآلة بما هو جدير بالآلة من عمل أوتوماتي، ومن جهد شاق (كما يرى

(١) يُراجع عرض الكتاب في مجلة المستقبل (باريس) -العدد (١٦٤): ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٨٠م، ص ٦٦.

(٢) مجلة العالم؛ مرجع سابق ٦٩: ٦١.

أصحاب النبوة)، ذلك المجتمع لن يتم الوصول إليه قبل المرور بمرحلة انتقالية طويلة صعبة، تغيير فيها الموازين وتقلب الحاجات في سوق العمل انقلاباً قلقاً، قبل أن تصل الأمور إلى مستقرها المأمول^١.

لكن فسحة الأمل هذه تتضاءل يوماً بعد آخر، في زحمة المغامرة الانسانية المجهولة، هذه المغامرة التي لا أحد يدرك اليوم إلى أين يمضي بها العلم، وهل سينتج عنه الخير أم الشر. لا أحد يعرف إلى أين تمضي التقنية. ما من أحد تمكن من التنبؤ باكتشاف علمي.. وثمة هوة تزداد اتساعاً بين التقدم التقني والتكنولوجي من ناحية، ونوازع الانسان التي لا تزال مشدودة إلى الوراء من ناحية ثانية.

إن العديد من الكتاب الغربيين أخذوا لا يترددون عن الاعراب عن مخاوفهم الكبيرة على حاضر الانسانية ومستقبلها، حتى ان البعض يستعمل عبارة «الاحتضار الكوني» كما هو الحال مع عالم الاجتماع الفرنسي «ادغار موران»، باعتبار ان ما تعيشه البشرية اليوم هو احتضار فعلي، فيما يرى المفكر الألماني «أرنست جونغر» انه قد يكون مرحلة انتقالية ونوعاً من التحول الشبيه بحية تغير جلدها^٢. وأياً كان الأمر فإن ممّا لا جدال فيه ان البشرية تقف اليوم على عتبة تحوّل لا يستطيع أحد أن يتنبأ بشكله! وان الحلول المطروحة ليست بمستوى عمق ازمة الحضارة الغربية الكبرى، رغم تواتر التشخيصات وتواصل النداءات والاستغاثات المتلاحقة!

فلم يعد خافياً أن الحضارة الغربية تتعاطى دفعات مركزة من أمصال تكنولوجية تحاول أن تستعيد بها شبابها، دون جدوى. وليس بعيداً عن الأذهان ما لجأت الاسعافات العصرية لأزمة اغتراب الانسان الغربي إلى استعمال وسائل تكنولوجية، وأبحاث فسيولوجية للدعاية لأديان جديدة تناسب منطق العصر (مثل التأمل التجاوزي بمركزه في سويسرا والولايات المتحدة الأمريكية).. ولم يعد خافياً أن الفكر المادي يتسع في تحايل اذ يحاول أن يحتوي الدين.. وحتى الخرافة.

وهكذا تتأكد ضرورة الدين من غير أهله، ويتحتم الايمان جوهرًا لتكامل الانسان

(١) د. عبدالله عبدالدايم: «مطالب الطلاب وعصر القلق والتغير»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (١٢٣) مرجع سابق ١٣٠.

(٢) آفاق (ملحق الحياة؛ مرجع سابق: ٢١ / ٤ / ١٩٩٧ م، ص ١١).

الحق^١، ولكن ما مدى امكانية حضارة الغرب من مراجعة نفسها، والكف عن أخطائها وخطاياها.. فتؤوب إلى واحة الايمان ودوحة الأمان؟ للأسف ان هناك أكثر من مفكر لا يتفأل بهذه الامكانية، فالتاريخ - عنده - لا يعود إلى الوراء. وان الايمان بالتقدم في الوعي الانساني - كما هو الحال عند «ليون برنشفيج» - يجب الايمان بكل شيء آخر سواء.. فيما أن الظواهر كلها تعبر عن أزمة أعم هو افلاس المشروع الغربي بأكمله القائم على تحقيق أكبر قدر ممكن من الانتاج، لأكبر قدر ممكن من الاستهلاك، للحصول على أكبر قسط ممكن من السعادة. ثلاث مقدمات بدأت تتحطم في نهاية الوعي الأوروبي، تعبر عن رومانيتها وجرمانيته ويهوديته ووثنيته أكثر مما تعبر عن مسيحيتها ومثاليته^٢.

وليس ثمة شك؛ أن حضارة مثقلة بأوزار الماضي وأدران الحاضر لا بد أن تكون على موعد مع مستقبل قاتم ومآلها إلى الدمار وفقاً لسنن الله في الخلق ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض..﴾ (الأنعام: ٦)، ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ (ق: ٣٦)، ﴿فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ (الأنعام: ٦) ..

إن الحديث الذي تتداوله بعض المنتديات حول «نهاية الأيديولوجيا» و «نهاية التاريخ» و «نهاية العالم».. الخ، لا يعدو كونه افرازاً متقيحاً للمأزق الذي انتهت اليه حضارة العصر. واذا ما أخذنا الولايات المتحدة الأمريكية نموذجاً ريادياً لحضارة الغرب، فان هناك أكثر من مؤشر على أنها تقترب من النهاية المحتومة، رغم سطوتها العسكرية وهيمنتها الاقتصادية ونفوذها السياسي، وأن الزمن لا يسير لصالح أمريكا، خلافاً لما أعلنه الرئيس الأمريكي السابق بل كلينتون بأن «القرن العشرين كان أمريكياً، وأن القرن الحادي والعشرين سيكون أمريكياً كذلك»! ..

أحد المحللين وصف هذا الاعلان بأنه أقرب إلى الدعاية السياسية منه إلى الواقع، فالخبراء الاستراتيجيون في العالم يجمعون على ان القرن الميلادي الجديد لن يكون أمريكياً وإنما متعدد الأقطاب، وان الهيمنة الاقتصادية التي تركزت للولايات المتحدة في معظم سنوات القرن العشرين زائلة لا محالة، وان هناك قوى دولية اقتصادية وعسكرية

(١) د. يحيى الراوي: «المأزق فوق البرزخ»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٢٦٣): اكتوبر ١٩٨٠م،

ص ٢٧.

(٢) مقدمة في علم الاستغراب؛ مرجع سابق: ٢١١، ٢١٣.

بدأت بالنهوض والتأهب على الصعيد الدولي للمنافسة، ابتداءً من الاتحاد الأوروبي ومروراً باليابان والتنين الأصفر (الصين) وانتهاءً بالهند^١.

وإذا كان مقتل الاتحاد السوفييتي، الذي أدى إلى تفككه في النهاية - رغم صواريخه العابرة للقارات - كان اقتصادياً، بسبب سباق التسلح الكبير الذي شهده النصف الثاني من القرن العشرين، فإن هذا السباق قد دمر أساسيات الاقتصاد الأمريكي أيضاً وإن كان بدرجة أقل، فبلغ العجز في الميزانية الفيدرالية والديون أرقاماً خيالية، الأمر الذي دفع الإدارة الأمريكية إلى تقليل النفقات، وخاصة في المجالات الحيوية وفي مقدماتها الانفاق الدفاعي. وبمرور الوقت بدأت التصدّعات في أركان القوى الاقتصادية الأمريكية تظهر للعيان، رغم طغيان القوة العسكرية الحالية.

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة دخلت القرن الجديد كأكبر قوة عسكرية في العالم، فإن مساعيها للمحافظة على قوتها الاقتصادية التي تفرّدت بها معظم سنوات القرن العشرين حيث كانت في النصف الأول منه القوة الاقتصادية الرائدة بأكبر ناتج قومي إجمالي في العالم اقترب عام ١٩٤٥م من ٥٠٪ من الناتج العالمي، ولديها أعلى متوسط دخل فردي في مستوى المعيشة، وتفرّدت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية بالهيمنة الاقتصادية على العالم، لكن مساعيها للمحافظة على قوتها الاقتصادية أصبحت محل جدل.

وحول احتمال استمرار تراجع قوة الولايات المتحدة الاقتصادية وبالتالي انحسار نفوذها العسكري في العالم كتب عدد من الخبراء في السياسة والاقتصاد والتاريخ، ومن هؤلاء الفرنسيان: المفكر المسلم رجاء غارودي، وبيير بيارنيه «عضو مجلس الشيوخ الفرنسي والمتخصص في قضايا العالم الثالث والعلاقات السياسية الدولية». فألف الأول كتاباً بعنوان: «الولايات المتحدة طليعة الانهيار» أكد فيه أن الولايات المتحدة سائرة في طريق الانهيار أسرع مما يتوقعه البعض، مضيفاً في أحد فصول الكتاب الذي جاء بعنوان «وحدانية السوق» أن كل مظاهر التدهور والانهيار تأتي من منطق السوق الذي يأخذ شكل الدين، دون أن يجزأ أحد على تسميته بذلك، والثابت أن كل القيم الانسانية قد تحولت إلى

(١) يُراجع المقال القيم: «قرن جديد بدون أمريكا» لعبد الكريم حمودي، مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٣٨٦): ٢٦ شوال ١٤٠٢هـ - ٢ / ١ / ٢٠٠٠م، ص ١٨ - ٢٣.

قيم تجارية محصنة قابلة للبيع والشراء، وتتأسس هذه السوق من عنصرين: السلاح والمخدرات.

أما بيارنيه فقد ألف كتاباً بعنوان: «القرن ٢١ لن يكون قرناً أمريكياً» ومما يقوله بيارنيه: «إن بقاء الهيمنة الأمريكية على العالم هو من قبيل الأوهام اللذيذة التي يصدقها عادة ضعاف النفوس وضعاف الذاكرة على السواء، لأن تاريخ الانسانية لا يعرف المزاح ولا يخضع للمصادفات»، وأخيراً يؤكد وزير الخارجية الفرنسي السابق «هرفيه دوشاريت»: «أن أوروبا ستغدو القطب الآخر في القرن المقبل (كان تصريحه قبل بداية القرن الحالي)، وإذا لم يحدث هذا، فالبديل هو الجحيم»!

وجاء كتاب زيغنيو بريجنسكي الخبير في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في جامعة هوبكنز ومستشار الأمن القومي في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر.. ليلقي الضوء على عوامل الضعف في الاقتصاد الأمريكي، وذلك في كتابه «رقعة الشطرنج» الذي صدر عام ١٩٩٧م، حيث يقول: «إن السلطة الاقتصادية الأمريكية نفسها آخذة في التبعثر والتوزع. ففي السنوات المقبلة لن يكون باستطاعة أي بلد في العالم التوصل إلى رقم ٣٠٪ من الناتج الاجمالي العالمي، وهو رقم احتفظت به الولايات المتحدة خلال القسم الأكبر من القرن العشرين، دون أن ننسى عتبة ٥٠٪ التي كادت تجتازها عام ١٩٤٥م»، وحسب التقديرات التي يعتمد عليها بريجنسكي فإن الناتج القومي الأمريكي سينحدر إلى مستوى الاحتفاظ بـ ١٠ - ١٥٪ بحلول عام ٢٠٢٠م، ويرى بريجنسكي أن ارقام القوى الأخرى - أوروبا والصين واليابان - سترتفع لتصل تقريباً إلى المستوى الأمريكي، ولكن من غير المرجح أن يتمكن أي بلد من ممارسة هيمنة اقتصادية عالمية، شبيهة بهيمنة الولايات المتحدة، خلال القرن العشرين، وهكذا إذا ما انتهت زعامتها على العالم فمن المؤكد أنها لن تترك مكاناً لزعامة دولة أخرى».

وأيضاً يرى مؤلف كتاب «المتناطحون» الذي صدر عام ١٩٩٦م أنه من غير المحتمل في القرن ٢١ أن تكون هناك قوة اقتصادية مهيمنة على العالم، وأخيراً يتساءل «جورج ماكجفرن» السيناتور الديمقراطي والمرشح السابق للرئاسة الأمريكية، بعد الأزمة التي ضربت أسواق الأسهم العالمية في العام ١٩٩٨م، عقب انهيار سعر الروبل الروسي، وأدت إلى خسارة هذه الأسواق لنحو ثلاثة آلاف مليار دولار (ثلاثة تريليونات دولار) هل نتقدم

نحو انكماش اقتصادي؟ بل هل هناك ما يندر بانهييار اقتصادي كما حصل عام ١٩٢٩م؟ ولعل أول من أطلق صيحة التحذير من الانهيار، في هذا المجال، المؤرخ الاقتصادي والحربي «بول كيندي» الأستاذ في جامعة بيل في كتابه الذي أصدره عام ١٩٨٧ بعنوان: «صعود الدول الكبرى وسقوطها؛ التغيير الاقتصادي والحربي بين عام ١٥٠٠م و ٢٠٠٠م»، وأرجع هذه الظاهرة، في جميع الأحوال، إلى الخلل الذي يحدث بين القوة الاقتصادية والقوة العسكرية لهذه الدول، وهو ما يحدث ويتعمق الآن في الولايات المتحدة^١.

ومن بين أبرز مؤشرات تراجع الاقتصاد الأمريكي:

١ - تراجع حصّة الولايات المتحدة من اجمالي الاقتصاد العالمي وانخفاض معدلات النمو؛ اذ يمثل الناتج حوالي ٢٠٪ من اجمالي الاقتصاد العالمي، في الوقت الحاضر، وهو ما يعني خسارة الاقتصاد الأمريكي لنحو ٣٠٪ من الانتاج العالمي منذ عام ١٩٤٥م، وهذا التراجع في المساهمة الأمريكية تمّ لصالح قوى دولية أخرى مثل اليابان والاتحاد الأوروبي والصين.

٢ - تفاقم ظاهرة العجز في الموازنة الفيدرالية؛ وقد برزت الظاهرة كمشكلة اقتصادية عام ١٩٦٨م. ونظرة سريعة إلى معدلات العجز في الموازنة الفيدرالية، منذ عام ١٩٦٤م خلال فترة الرؤساء السبعة، الذين تعاقبوا على الادارة الامريكية تكشف لنا عن مدى التدهور المروّع للاقتصاد الأمريكي.

- ليندون جونسون (٦٤ - ١٩٦٨م): بلغ معدل العجز خلال خمس سنوات ٤٤,٨ مليار دولار.

- ريتشارد نيكسون (٦٩ - ١٩٧٤م): بلغ معدل العجز خلال ست سنوات ٦٧ مليار دولار.

- جيرالد فود (٧٥ - ١٩٧٦م): بلغ معدل العجز خلال سنتين ١٢٦,٩ مليار دولار.

- جيمي كارتر (٧٧ - ١٩٨٠م): بلغ معدل العجز خلال أربع سنوات ٢٢٦,٩ مليار دولار.

- رونالد ريغان (٨١ - ١٩٨٨م): بلغ معدل العجز خلال ثماني سنوات ١,٣٤ تريليون

(١) المرجع نفسه؛ ص ١٩.

دولار.

- جورج بوش (٨٩ - ١٩٩٢م): بلغ معدل العجز خلال أربع سنوات ١,٠٤ تريليون دولار^١.

ومن المحتمل أن تسجل معدلات العجز تزايداً قياسيًّا في عهد جورج بوش الابن، بسبب تكاليف حملته ضد ما يسمى بمكافحة الارهاب التي ستكلف الميزانية الفيدرالية اعباءً باهظة، خاصة اذا ما استحضرننا ظاهرة افلاس الشركات الكبرى!

٣- ارتفاع العجز في الميزان التجاري؛ فقد جاء في تقرير لوزارة التجارة الأمريكية صدر في ١٢/٩/١٩٩٩م، ان العجز التجاري الأمريكي لعام ١٩٩٨م بلغ ١٦٨,٥٨٧ مليار دولار، أي بزيادة قدرها ٥٣٪ على عام ١٩٩٧م، والذي كانت قيمته ١١٠,٢ مليار دولار، متجاوزاً الرقم القياسي السابق وهو ١٥٣,٠٠٠ مليار دولار في عام ١٩٨٧م.

٤- ارتفاع معدلات البطالة والفقر؛ فرغم النمو السكاني المنخفض الذي لا يتجاوز في أحسن حالاته ١٪ فان معدل البطالة بلغ عام ١٩٩٠م حوالي ٦,٣٪، وفيما انخفض معدل البطالة عام ١٩٩٦م إلى ٤,٨٪ عاد إلى الارتفاع نهاية عام ١٩٩٩م حيث بلغ ٦٪. أما بالنسبة للوجه الآخر للبطالة وهو الفقر فان الأغنياء يزدادون غنىً والفقراء يزدادون فقراً، وتتجمع الثروة القومية في أيدي فئة قليلة من الأمريكيين حيث يمتلك ١٪ من سكانها حوالي ٥٠٪ من مجموع الثروة، بينما يمتلك ٨٠٪ من السكان أقل من ٨٪ من الثروة. وفي هذا الاطار أكد تقرير حكومي أمريكي أن هناك نحو ١٤٪ من الأمريكيين يعيشون تحت مستوى الفقر^٢.

وكان عدد الفقراء الأمريكيين وصل عام ١٩٩٠م إلى ٣٣,٦ مليون بزيادة نسبتها ٥٠ ألفاً عن عددهم العام السابق (١٢,٤٤٪) وكانت نسبة الفقر في الولايات المتحدة، قبل اعلان الرئيس الأمريكي ليندون جونسون «الحرب على الفقر» عام ١٩٦٥م ٢٠٪، وانخفض معدل الفقر إلى أقل من ١٥٪ إلا انه راوح منذ حينه بين ١١٪ عام ١٩٧٤م و ١٥,٢٪ عام ١٩٨٣م. وعلى الجملة كانت معدلات الفقر في العهود الجمهورية تحت ادارة الرئيس ريغان والرئيس بوش أعلى مما هي عليه في عهد الديمقراطيين تحت ادارة الرئيس كارتر،

(١) المرجع نفسه؛ ص ٢٠.

(٢) المرجع نفسه؛ ص ٢٢.

وفي عهد الجمهوريين تحت ادارة الرئيس فورد وادارة الرئيس نيكسون^١.

٥ - ظاهرة المديونية الأمريكية: فمنذ استقلال أمريكا وحتى عام ١٩٦٤م لم تتجاوز الديون المتراكمة حوالي ٣١٠ مليارات دولار، وكانت معدلات الفوائد ١٠,٧ مليار دولار، ثم بدأت بالارتفاع المتسارع.. فبلغت عام ١٩٩٠م ٣٢١١ مليار دولار، ومع نهاية فترة جورج بوش (الأب) تجاوزت المبالغ المترتبة على الفوائد مبلغ ٢٩٣ مليار دولار، مع زيادة سنوية في المديونية بمعدل ٥٠٠ مليار دولار، ولا تتوافر لنا معطيات رسمية تفصيلية عن قيمة الديون الحالية أو الفوائد المترتبة عليها^٢.

٦ - الاتفاق على التدخلات الخارجية في القضايا العالمية: رغم تفرد الولايات المتحدة بالهيمنة على العالم، إلا أن حجم تدخلاتها في القضايا الخارجية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية شهد تزايداً ملحوظاً خلال العقد الماضي، وهو ما أكدته تقرير أعدته مجموعة من الخبراء المتخصصين اذ يقول التقرير أن نحو ٩٠٪ من النزاعات والحروب التي شهدتها العالم منذ عام ١٩٩٠م تُستخدم فيها أسلحة مصدرها الولايات المتحدة..

٧ - الاستهلاك الترفي: ويتمثل في مظاهر عديدة تحدث عن بعضها روينز ريكوييرو السكرتير العام للاونكتاد (الكيان الاداري والتنظيمي لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية) في قمة مجموعة الـ ١٥ التي عقدت في جامايكا، فقال: إن مجموع ما تنفقه الولايات المتحدة سنوياً على مستحضرات التجميل يبلغ ٨ مليارات دولار، كما تنفق أوروبا والولايات المتحدة مبلغ ١٧ مليار دولار على طعام الحيوانات الأليفة، بالإضافة إلى الاتفاق على قضايا الاعلام ونجوم الفن والرياضة وغيرها، وفي هذا السياق نورد ما جاء في مجلة «التايم» الأمريكية في عددها الصادر في الأول من حزيران (يونيو) عام ١٩٩٨م، تقول المجلة: « ٣٠ ألف شخص هو عدد الموظفين الاندونيسيين لمصنع «نايك» Nike» للأحذية الرياضية والذين يقل اجمالي مرتباتهم السنوية عما يتقاضاه نجم كرة السلة الأمريكية مايكل جوردان لقاء ظهوره في الاعلان عن هذه الأحذية».

وفي ضوء ما ورد آنفاً، يذهب محللون مهتمون إلى أنه بات من شبه المؤكد أقول نجم

(١) صحيفة الحياة (طبعة لندن) - العدد (١٠٨٠٠): ٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٢م - ٧ ربيع الأول ١٤١٣هـ (الملحق

الاقتصادي) ص ١٠.

(٢) مجلة المجتمع: المرجع السابق ١٣٨٦: ٢٢.

الولايات المتحدة خلال العقد الأول من القرن الحالي، وان احتمال الانهيار المفاجي للاقتصاد الأمريكي ليس بعيداً، فقد أعادت الانهيارات الآسيوية والروسية والبرازيلية إلى الأذهان مرة أخرى بشاعة الأزمات الاقتصادية التي تدخل فيها الاقتصادات الرأسمالية بصورة حادة وقاسية تتسبب في زلزلة البنيان السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدول الرأسمالية الكبرى، وللإقتصاد العالمي. وفي هذا السياق يؤكد المضارب اليهودي جورج سوروس أن النظام المالي العالمي هو نظام عمل على هدم اقتصادات دول عديدة، وكاد يهدم النظام الرأسمالي بأكمله. وبالتالي فإن الإقتصاد الأمريكي ليس محصناً ضد أي نوع من الانهيار، بالإضافة إلى المنافسة الشديدة، وفي مقدمة المنافسين الاتحاد الأوروبي الذي قارب الناتج الإجمالي له الناتج الإجمالي للولايات المتحدة الأمريكية^١.

وما يُقال عن الإقتصاد الأمريكي يُقال - أيضاً - عن عوامل الهزال والانهك وتراجع الروح المعنوية داخل الجيش الأمريكي بدءاً من انتشار الشذوذ الجنسي - الذي سمح به رسمياً عام ١٩٩٣م داخل الجيش الأمريكي - وانخفاض عدد المجندين بنسبة ١٣٪ عن عدد المجندين المطلوب سنوياً... ومروراً بانتشار المخدرات وتزايد حالات تسرب الأسرار العسكرية.. وانتهاء بالانهيار الكبير المتوقع الذي بدأت تظهر بوادره داخل الجيش الأمريكي وهو أمر يسبب في حد ذاته ذعراً لدى الأمريكان^٢.

على الصعيد السياسي؛ كان هنري كيسنجر أبرز الذين لفتوا الانتباه إلى خطورة الوضع، مشيراً إلى ضرورة إعادة النظر في الحسابات السياسية التي طرأ عليها تغيير جوهري، حيث يقول: «خلال الحرب الباردة - وحتى لبعض الوقت في ما بعد - اعتقد زعماء روسيا وأمريكا أن تحقيق طرف ما لنصر سياسي يشكل خسارة استراتيجية للآخر، وقد حاولوا باصرار التقليل من نفوذ الآخر في منطقة الشرق الأوسط. أما وفقاً لظروف ما بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) فإن مثل هذه السياسات ستضعف كلا الدولتين أمام الأصولية الإسلامية وتؤثر على استقرار المنطقة التي لكل منهما مصالح حيوية فيها» ولمواجهة (الخطر) الإسلامي الذي يترك أبواب القرن الحادي والعشرين لا يكتفي كيسنجر بمباركة

(١) المرجع نفسه؛ ص ٢٣.

(٢) للمزيد من الاطلاع على بوادر الانهك في الجيش الأمريكي يُراجع مقال: «القوة العسكرية الأمريكية تنهقر»، مجلة المجتمع؛ المرجع السابق ١٣٨٦: ٢٤ - ٢٥.

ما يجري من تحضير لاطار مؤسسي غربي جديد من أجل التعامل مع التحدي المعاصر، وأنما يدعو إلى التأكيد على اضفاء الطابع السياسي وليس الاقتصادي فقط، دون أن ينسى تحذير المعنيين من عدم التمكن من تحقيق النتائج، بسبب محاولة التضيق على الفرصة المتاحة للنظام الدولي، عن طريق فرض المؤسسات العتيقة التي تأسست قبل نصف قرن مضى، من أجل أغراض مختلفة تماماً^١.

وهكذا تتزايد الألغام التي تحزم المجتمع الأمريكي من كل الجوانب، وتنتظر الفرصة اللازمة لانفجار لا يقي ولا يذر، قد يأتي على القوة الأولى في العالم، إلى الحد الذي دفع صحفاً ومجلات ومراكز أبحاث أمريكية لأن تناقش، لأول مرة، تزايد عوامل الانهيار داخل المجتمع الأمريكي، وصدور دراسات عنها تؤكد أن هذا الانهيار سيغال كل شيء في الولايات المتحدة، بما في ذلك قوتها العسكرية التي تحميها من الخارج، وتعد بمثابة ذراع التدخل في أي بقعة من بقاع الأرض، وقد وصل الأمر لحد اهتمام الأجهزة السيادية الأمريكية مثل؛ البيت الأبيض، والكونغرس، وجهاز الأمن القومي بمتابعة هذه التقارير والدراسات الاجتماعية والعسكرية، في محاولة لوقف هذا التدهور.

وخطورة الأمر تزداد أكثر إذا علمنا أن هناك مخاوف أمريكية من تحلل مشابه لما حدث في الاتحاد السوفييتي ليس بسبب التدهور الاقتصادي رغم حدوثه بالفعل، ولكن بسبب التدهور في قيم المجتمع وانهياره من الداخل، كما حدث للإمبراطورية الرومانية التي لم تهزم من الخارج، بقدر ما نخرت فيها عوامل التحلل الأخلاقي والاجتماعي الداخلية^٢. ان الذعر من هذه النهاية المخيفة دعت مفكراً بارزاً كغارودي إلى ان يتساءل، بمرارة ويأس، عمن بمقدوره ايقاف شبح الفناء الذي ينتظر الانسانية، مؤكداً في الوقت نفسه لابدية المزيد من التخيل لتحديد وتحقيق الشروط لبقاء نوعنا ولحياته. وها هو يقول:

«مَنْ ذا الذي يبذل هذا الجهد للتخيل؟

مَنْ ذا الذي يجيب على مسألة موتنا أو حياتنا؟

السياسة؟ لسوف تكون بحاجة إلى أنبياء. وهي الآن لا يتولاها إلا سياسيون وأحزاب. أم العلم وتكنوقراطيوه؟ لسوف يكونون بحاجة إلى حكمة، إلى تبصّر في العواقب،

(١) يُراجع مقاله المنشور في صحيفة الشرق الأوسط (لندن) - الأحد ٩ / ١٢ / ٢٠٠١ م.

(٢) مجلة المجتمع؛ المرجع السابق ١٣٨٦: ٢٤.

بينما هم ما يزالون يحتضنون هياكل الوضعية والعلموية.

أم الكنائس؟ لسوف يكونون بحاجة إلى ايمان حي يصبح خميرة، عاملاً وليس افيوناً مخدراً. لسوف تكون بحاجة إلى صوفيين، علماء روحانيين وإلى ذوي رؤى. وهي لا تملك إلا الكليروساً، رجال دين وعقائد^١.

ويمضي «غارودي» في القول: «لقد سبق لتاريخ البشر أن عرف من قبل هذا الكرب وهذه الاختلاجات. هذا الفراغ وهذه الهوى، سوف نحتاج، اذا اقتضى الأمر، ثلاثة آلاف سنة من التراجع إلى الوراء للعثور على معنى أزمت ذات اتساع شبيه باتساع أزمة اليوم. فالتاريخ طرح المسائل.. وهذه هي حقيقة المادية التاريخية، أما الأنبياء فقدموا أجوبة، وهذه هي حقيقة الروح. ولقد نهينا (يقصد الغربيين) منذ أربعة قرون، وبددنا ثروات وحكم العوالم الثلاث، فليس المقصود أن نعود إلى نبوءات قديمة، إلى حكم دخيلة، إلى رؤى قديمة، وإنما أن نستمد منها القوة لاكتشاف الاجابة على مشاكل عصرنا»^٢ خاصة وأن الجميع يهجع على حافة الهاوية!

البديل الغائب:

أما الاتجاه الثاني المتعلق بالعلاج الداخلي (الغربي)، فيتمثل بعدد من المفكرين الذين نقدوا الغرب، ونبهوا على مخاطره، وأعلنوا نهاية دورته في العصر الحديث مثل: توينبي، وبرجسون، وهوسرل^٣، في حين ظل البعض في دوامة غياب البديل المقنع، فوققوا عاجزين خائرين ازاء التحدي الخطير والفراغ المخيف. ومن خلال هذه المعاناة برزت على الساحة الغربية ظاهرة (اللائتماء) التي حدثنا عنها الناقد البريطاني «كولن ولسن» في كتابيه المعروفين: «اللائتمة» و«سقوط الحضارة»، فأطال الحديث. إن كبار المفكرين والفنانين والأدباء والفلاسفة - هناك - لم يقدروا على التحقق الذاتي في اطار ثقافتهم تلك، بل لم يجدوا أوليات التوازن واليقين في خضم هذه الثقافة المتلاطم، الكالغ، العميق. وكان مأساتهم تكمن في أنهم كانوا يعون هذا الانفصال المحزن بين الانسان - فرداً ومجتمعاً - وبين ثقافته وحضارته.. واذا اندفعت قيادات هذه الثقافة وقواعدنا نحو نوع من

(١) نداء للأحياء؛ مرجع سابق: ٧.

(٢) المرجع نفسه: ٨.

(٣) مقدمة في علم الاستغراب؛ مرجع سابق: ٥١١.

الاندماغ أو النسيان - ربما - بسبب من تضائل وعيها بانعدام التوازن أو التلاؤم بين الانسان الغربي وبين أرضيته الثقافية، نجد بالمقابل ذلك التيار المضاد؛ حشداً من المثقفين الكبار يتمردون على ثقافة بلغت بهم شوطاً من الطريق، وهم يريدون أن يواصلوا الرحلة صوب المصير فلا تقدر معطياتهم الثقافية على اعطائهم المزيد.. لقد امتلكوا العالم كما يقول «كولن ولسن».. ثم ماذا بعد؟

إنّ الانسان بطبيعة تركيبه ذي النزوع إلى الماورائيات يريد أن يتجاوز العالم الى الكون.. جذران المادية إلى الروح.. الطبيعة إلى ما وراءها.. السلطة إلى الحرية.. أنّه يريد أن يكسر الأسوار وينطلق بحثاً عن «الإله» الذي يريد معرفته والاقتراب منه! بعبارة أخرى؛ أنّهم يريدون العقيدة التي تلبي نزوعهم الكبير، وإنّ المرء ليلمس بوضوح هذا التوجه صوب العقيدة ليس فقط في كتب «ولسن» ولكن في معظم المؤلفات التي أبهر أصحابها في الطريق ذاته، وحاولوا أن يعالجوا أزمة الوجود الثقافي الغربي على ضوء المصير المقفل والدرب المسدود!

ففيما بين الحريين العالميتين، على وجه التقريب، كان التقليد السائد هو توجه العقل الغربي المبدع، القلق، الباحث عن اليقين الى الماركسية..

ومنذ بدايات الحرب، وطيلة العقود التالية بدأت عملية الارتداد، بعد أن تبين لهذا العقل أن الماركسية لا يمكن أن تمنحه اليقين المنشود، وكلنا نعرف رحلة رجال من أمثال «اندرية جيد» و«آرثر كوستلر» و«ريتشارد رايت» و«اكناز سيلوني» و«ستيغن سبندر» و«لويس فيشر».. وغيرهم ممن انتموا للماركسية فكراً أو تنظيمياً، ثم مالبتوا أن ارتدوا عنها، أو بعبارة أخرى عجزت هي عن أن تلبي طموحهم للتحقق باليقين المرتجى..

فبعضهم عاد الى مواقع الفكر الليبرالي المتهرىء المترع بالتناقضات، وبعضهم الآخر ظل يحلم بماركسية من نوع جديد فوجد نفسه يدلف الى عالم اليوتوبيا والخيال الفكري الحالم مرة أخرى..

وفئة ثالثة ظلت تعاني القلق والاضطراب، وتواصل سعيها من أجل العقيدة التي تطفئ ظمأها الملح في عالم قفر غدا بالنسبة اليه أشبه بالصحراء التي لا أول لها ولا آخر^(١). أنّها إذن دوامة البديل، وكان مثل هؤلاء كالمستجير من النار بالرمضاء!، الأمر الذي

(١) د. عماد الدين خليل: «مؤشرات اسلامية في زمن السرعة، بغداد، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ١١٩.

حدا بأحد كبار المفكرين (ألبرت شفيتر) أن يعترف بسقوط الحضارة الغربية، وأنه صار أمراً حتمياً لا مفرّ منه، ويرى أن الأزمة الحقيقية ليست في سقوط الغرب بقدر ما هي عدم وجود البديل، لأنه على حسب رأيه ليست هناك أمة في الوجود مستعدة لوراثة الحضارة الغربية. ويقول نحن نعرف كل شعوب الأرض، وأنه ما من أمة إلا وشاركت بقسط في الحضارة، ولم يعد للبشرية فائض انساني للقيام بهمة الحضارة، وقد استنفذت كل القوى الانسانية قدرتها في هذا المجال^١.

وقد مرّ بنا آنفاً أن «شفيتر» يرى ان مخرج كفاح الغرب من التدهور والانهار، الذي بدأت تستعظم أخطاره، مرهون بايجاد نظرية كونية لحضارته يضمن لها البقاء، دون أن يخطو خطوة واحدة باتجاه رسم ملامح هذه النظرية الكونية، لكنه اكتفى بتقديم علاج اقترحه على مواطنيه ينطلق من انغزالية فكرية خالصة: «ان ألمانيا لن تنجو من الانحطاط إلا إذا انكفأت على نفسها، وإلا إذا استوحت الفضائل البروسية الخاصة»^٢.

في عام ١٩٨٢ أطلق الكاتب الأمريكي «جوناثان شيل» صرخته المروعة في كتابه ذائع الصيت «مصير الأرض»، وكأنه يحمل آخر إنذار قد يُتاح للبشرية الانصات اليه، قبل الاستسلام لدمار الحريق النووي، وفي محاولة للتوصل إلى نوع من التفاهم أو التعايش مع خطر الابداء الذي يتهددنا، لا بد أن تكون أولى الحلول تنصبّ على نقطة أساسية هي: هذا النظام في حاجة ماسة إلى نظام آخر بديل^٣، بمعنى ان البشرية في حاجة ماسة إلى حضارة بديلة.

والمشير للاستغراب، ان البعض وعوضاً عن الانكباب على البحث عن بديل حضاري للانتقاذ، نراه يوغل في التنظير لبديل آخر؛ هو صدام الحضارات !!، وهذا ما عمد إليه بالضبط الجنرال البريطاني «وليم جاكسون» في كتابه «البديل: الحرب العالمية الثالثة ١٩٨٥ - ٢٠٣٥ - The Alternative Third World War 1985 - 2035»، الصادر عام ١٩٨٧م، أي بعد خمس سنوات من صدور كتاب «مصير الأرض»^٤!

و «جاكسون» هذا ضابط بريطاني متمرس في الشؤون العسكرية ومتعمق بمجريات

(١) فلسفة الحضارة؛ مرجع سابق: ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) تاريخ الفكر السياسي؛ مرجع سابق: ٦٣٢.

(٣) مجلة العربي (الكويت) - العدد (٢٨٦): سبتمبر ١٩٨٢م، ص ١٨٣.

التاريخ المعاصر ومطلع على عصره بعين ثاقبة . وله العديد من المؤلفات في التاريخ العسكري ، اضافة إلى مساهمته في كتابه التاريخ الرسمي لبريطانيا . وفي كتابه هذا لا يتوقع الانجرار إلى حرب نووية بين دول الغرب المسيحي (حلف وارسو وحلف الناتو) ، كما يذهب الجنرال البريطاني «هاكيت» الذي اشتهر بكتابه الحرب العالمية الثالثة الذي توقع فيه حدوث اصطدام نووي بين العملاقين ، وإنما الصراع ربما يكون على ساحات العالم الاسلامي لتصفية الحسابات بين العملاقين .. كما يتوقع الجنرال «جاكسون» حدوث الحرب ولكن بصورة تدريجية يتم من خلالها تجنب استعمال الأسلحة النووية ، ولكن «تحقق» أهداف الحرب العالمية الثالثة ، من خلال الحرب الطويلة الأمد التي بدأت منذ عام ١٩٨٥م ، وستنتهي في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين (عام ٢٠٣٥م) .

وهناك أمور مهمة يؤكد عليها كتاب «جاكسون» منها إن الثورة الاسلامية ستنتعش في الكثير من بقاع العالم الاسلامي ، وستكون هذه الانتفاضات مدعاة لخوف شديد في العالم المسيحي الغربي يدفعه إلى التدخل بصورة أكثر وحشية وقسوة عما هي عليه الآن (أي منتصف الثمانينات من القرن العشرين) ولكن يقظة العالم الاسلامي وشعوبه ستؤدي كذلك إلى تماسك العديد من الدول في العالم الاسلامي وقد استعرض الفصل الأول من الكتاب فلسفة الكاتب عن مجريات الأحداث خلال الخمسين عاماً هذه ، ويبين أن الصراع بين ما يعتبره قوى (الضياء) وقوى (الظلام) ويعبر عن الأولى بالغرب الأوروبي - الأمريكي ، والشرق الشيوعي (الغرب المسيحي) . أما قوى (الظلام) فيراها تتمثل بأربعة مظاهر هي : القومية السوداء ، والتعصب الاسلامي ، والشيوعية - المسيحية لأمريكا اللاتينية ، وامتزاج الثقافة الصينية - اليابانية . ويرى ان هذه المظاهر الأربعة أو «الفرسان الأربعة» كما يطلق عليها ستلعب ادواراً مهمة في تسيير دفة السياسة الدولية ، وبالتالي مصير العالم في الفترة ١٩٨٥ - ١٩٩٨م !!^١

ولا نرانا بحاجة إلى التأكيد على أن «صموئيل هنتنغتن» يتطابق إلى حد بعيد في اطروحته «صدام الحضارات» مع أفكار الجنرال «جاكسون» ، ولعل «هنتنغتن» قد أطلع على كتاب «البديل : الحرب العالمية الثالثة» وتأثر بما جاء فيه ، ثم اعاد صياغة نبوءاته

(١) للمزيد من الاطلاع على فحوى الكتاب تُراجع القراءة المركزة له في مجلة العالم (لندن) - العدد (١٩٦) : ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧م - ٢٣ ربيع الأول ١٤٠٨هـ ، ص ٢٨ .

وتحليلاته العسكرية على شكل رؤية حضارية !!، فضلاً عن أن عبارة «الحرب طويلة الأمد» التي ردّها «جاكسون» كثيراً في حنايا كتابه.. قد ترددت كثيراً أيضاً على لسان أقطاب السياسة الغربية، إبان اندلاع أزمة تفجيرات نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠١م. وفي مقدمتهم: الرئيس الأمريكي «جورج بوش الابن»، ووزير خارجيته «كولن باول»، ومستشارة الأمن القومي «كوندوليزا رايس» ووزير الدفاع «دونالد رامسفيلد»، وكذلك رئيس الوزراء البريطاني «توني بلير».. وغيرهم.

لقد خفي على هؤلاء، وأضرابهم، أن الحرب (النوعية أو طويلة الأمد) لن تكون بديلاً حضارياً، كما أنها ليست مخرجاً من المأزق، بقدر ما ستكون هروباً إلى الامام، وإيغلاً في السعي نحو الكارثة. والنتيجة الحتمية هي أن هذا البديل الذي يبشر به الجنرال «جاكسون» وزميله الجنرال «هاكيت» لن يكون إلا وبالاً على البشرية ونذير شؤم لمصيرها المظلم، ولتلافي هذا الخطر الداهم لابدّ من البحث عن بديل حضاري يليق بكرامة الانسانية ويحفظ لها وجودها المهدّد.

اليقظة التي ينتظرها الغرب:

وهنا يأتي دور الاتجاه الثالث في العلاج، والذي يمثلته نخبة من المفكرين الغربيين. ممّن دأبوا بحرص شديد على البحث عن مخرج، فمنهم من لفظ ولاءه للغرب كليّة، وانتسب إلى حضارة أخرى، إلى وعي جديد في اطار وعي العالم الثالث، في افريقيا وآسيا، في العالم العربي - الاسلامي، وعي الأنا مثل: غارودي، ليوبولدفيس، مورييس بوكاي.. الخ^١. ومنهم من لا يزال يتلمّس الطريق أو قطع شوطاً في الاتجاه الصحيح.

فالفيلسوف البريطاني الشهير «برتراند رسل» يصدح بصوت عالٍ، لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض، لأن حضارة الرجل الأبيض قد استنفدت أغراضها المحدودة القريبة، ولم يعد لديها ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم، تصلح لقيادة البشرية، وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيين.. لقد أصيبت بالعم - أو كادت - بعدما ولدته في «الماجنا كارتا» الانجليزية، ومبادئ الثورة الفرنسية، ومبادئ

(١) مقدمة في علم الاستغراب؛ مرجع سابق: ٥١١.

الحرية الفردية التي سادت في ما يسمونه «التجربة الأمريكية»^١ وعليه فالبشرية مطالبة بالبحث عن بديل مناسب لحضارة الغرب أو حضارة الرجل الأبيض كما يطلق عليها «برتراند رسل».

وفي حين يتقدم «كولن ولسن» خطوة في طريق الحل.. عبر تأكيده على حاجة هذا العصر إلى دين جديد، كما مرّ سابقاً، فإن الروائي المعروف «ماريو فرغاس يوسا» يحدثنا عن بعض ملامح هذا العالم التائه في روايته الكبيرة «حرب نهاية العالم»، حيث يتدحرج العالم كله، في هذه الرواية، نحو قرية غامرة بعيدة في أدغال البرازيل، قام فيها مجتمع مشير للقلق، تجمعت فيه حول شبح نحيل يلبس خرقة بنفسجية هو مسيح جديد ينبيئ بنهاية العالم.^٢

أما «فيلاسبازا» فيقترب كثيراً من الحل، حيث يقول: «إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جذيرة بكفكة دمة واحدة، ولا خلق ابتسامة واحدة. وليس أجد من أمم الشرق المحفوظة بالثقافة العربية الاسلامية والقائمة على اذاعتها، بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم الذي يجرّ الانسانية إلى هوة التوحش والتسلط المادي»^٣.

وحين سُئل رمز فرنسا ورئيسها الأسبق «ديغول» عن ميله إلى توطيد علاقات بلاده بالعالم العربي -الاسلامي أجاب: «أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والاسلامية التي حافظت على تلك الروح الانسانية التي فقدناها، سينقذنا من مغبات حضارتنا وسيكون مفيداً لنا جداً، ولهذا فاني أحرص على تحسين علاقات فرنسا وتوثيقها بالعالم العربي والاسلامي»^٤.

وبهذا يكون كلُّ من «فيلاسبازا» و «شارل ديغول» يلتقيان بطريقة غير منظورة مع الكاتب الروماني «كونستانان جورجيو» في قصته «الساعة الخامسة والعشرون» أي الساعة التي ستشهد حضارة جديدة بعد ليل الحضارة الغربية البشع والطويل.. فقد أكد «جيورجيو» ان الحضارة الغربية (أوروبية وأمريكية وروسية) قد أفلست، وهي في طريق

(١) المستقبل لهذا الدين؛ مرجع سابق: ٥٦.

(٢) للمزيد تراجع مجلة الثقافة العالمية؛ مرجع سابق ١٣: ١٨٠.

(٣) نقلاً عن «المسلمون والبديل الحضاري»؛ مرجع سابق: ٢٠.

(٤) أيضاً نقلاً عن المرجع السابق: ٢٦.

الانهيار الكامل ، ويتطلع إلى أمة ذات أصالة تفهم الواقع البشري ، وتتقدّم لانقاذ البشرية ويقول: «ان هذا الانهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ، ولا شك من آسيا ، ولكن ليس من روسيا . ان الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي ؛ لذلك لن يعيشوا الليروا الاشراق . سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي وسيستعمل النور الكهربائي لاناارة الشوارع والبيوت . لكنه لن يصبح أبداً عبداً له ولن يقيم الهيكل كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع الآلي الغربي . انه لن يضيئ بنور «النيون» خطوط الفكر والقلب . إن انسان الشرق سيجعل من نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي»^١ . ولئن ظل «جورجيو» يحوم حول رجل الشرق باعتباره المنقذ الموعود ، فان «ديغول» قد اقترب أكثر فأكثر من دائرة هذا البديل المنقذ . اذ أعلن في أكثر من مناسبة عن احساسه بأن الاتحاد السوفياتي ينوء بمشكلات تنخر في جسده ، وستنفجر ذات يوم ، وأن أمريكا تنوء بمشكلات مماثلة . . . وتساءل : هل يمكن للاسلام أن يقدم العلاج لأدواء الحضارة ؟^٢ . حول هذه الاشكالية المثارة ، يسارع المفكر والقانوني الفرنسي المعاصر «مارسيل بوازار» إلى الاجابة ، منطقاً من الخبرة التاريخية ، لكي يؤكد ، بل يشدّد «على صلاحية الاسلام للزمن الراهن» ولكل زمن آتٍ بطبيعة الحال ، فان وراء هذه الخبرة وتلك الصلاحية «قناعة دينية» تحمل «ديمومتها» التي تتجاوز نسيّات الزمن والمكان^٣ ، وما يلبث «بوازار» أن يلخص الأمر كله بهذه الكلمات : «ل سوف يستعيد الاسلام مصيره دون ريب اذا حكمنا عليه ، من خلال القدرة الخارقة التي أثبتتها تاريخياً على التكيف والانبعاث»^٤ .

آرنولد توينبي يستقرئ - أيضاً - ما يمكن أن يقوله التاريخ بصدد مستقبل الاسلام ، ثم يصدر حكمه : «فاذا كان للسوابق التاريخية أي معنى عندنا ، وهي اشعاعات الضوء الوحيدة التي يمكن أن نلقيها على الظلمات التي تكتنف مستقبلنا فانها تنذر بأن الاسلام . . . قادر على

(١) نقلاً عن كتاب «مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية» لمحمد علي ضناوي ، بيروت ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص ٦٢ ، وكذلك رواية «الساعة الخامسة والعشرون» ؛ مرجع سابق : ٨٨ .

(٢) نقلاً عن «المسلمون والبديل الحضاري» ؛ مرجع سابق : ٢٦ .

(٣) يُراجع كتابه : «انسانية الاسلام» : ترجمة د . عفيف دمشقية ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٤٢٢ (نقلاً عن كتاب نظرة الغرب إلى حاضر الاسلام ومستقبله للدكتور عماد الدين خليل ، بيروت ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، ص ١٠٩) .

(٤) أيضاً نقلاً عن المرجع السابق : ١٠٩ .

التأثير في المستقبل بأساليب عدة تسمو على فهمنا وادراكنا»^١.

في كتاب «وعود الاسلام» لروحيه غارودي نلاحظ بعداً مستقبلياً، كما يبدو واضحاً من العنوان، من ثمّ فإن الكتاب كله يمثل شهادة لما نحن بصدده: الانبعاث، والصيرورة، والقدرة المدهشة للاسلام على المشاركة في صياغة الزمن الآتي.. فهو -أي الاسلام- «يحمل بذور تغيير جذري على مستوى الانسانية»^٢، وبالتالي فإنّ «بعثه هو بعث للانسانية بأكملها» ما دام أنه في ماضيه ساهم في تشكيل «فترة مجيدة مشرقة في الملحمة البشرية»^٣. وباختصار، فإن المسألة ليست مسألة الاسلام وحده «انها قضية مستقبلنا، قضية مستقبل جميع البشر»^٤ ومن ثمّ فإن كتاب «وعود الاسلام» ليس كتاباً في التاريخ، كما يقول مؤلفه «لكنه اقتراب جديد من الاسلام ومن وراء الاسلام.. كقوة حيّة، ليس فحسب في ماضيه، وانما في كل ما يستطيع أن يسهم به اليوم في ابتكار المستقبل»^٥.

والآن، فلعل واحدة من أبداع ما تحدّث به الغربيون عن حاضر الاسلام ومستقبله انما هي معطياتهم بصدده هذه المسألة التي يسميها غارودي «ابتكار المستقبل».. ما الذي يمكن للاسلام أن يفعله أو يقدمه للعالم مستقبلاً؟ ما هي طبيعة الدور الذي يستنتج الغربيون أن بمقدوره أن يمارسه في بناء العالم؟^٦، ان غارودي يضع يدها هنا على أهم عناوين «الانتشال الحضاري» حين يؤكد ان الاسلام هو اليقظة التي ينتظرها الغرب^٧.

وقد بدأ كثير من مفكري الغرب البارزين يدركون أن الاسلام هو البديل الحضاري للغرب. ولأن حضارتهم تتجه نحو طريق مسدود وتقود البشرية الى حضارة الانسان المتأزم، فان بعضاً منهم بات يخشى ان حضارتهم تقترب من نهايتها. والبعض يتنبؤ بان الاسلام هو القوة الحضارية التي بدأت تحل محل حضارتهم، وقليل منهم بدأوا يدركون ان تلك القوة العالمية يمكن أن تكون جزءاً من انقاذ كل حضارات العالم بما فيها حضارتهم.

(١) أيضاً؛ المرجع السابق: ١٠٩.

(٢) وعود الاسلام؛ مرجع سابق: ١٥٦.

(٣) المرجع نفسه: ١٧٩.

(٤) المرجع نفسه: ١٨٧.

(٥) المرجع نفسه: ١٨٧.

(٦) نظرة الغرب إلى حاضر الاسلام ومستقبله؛ مرجع سابق: ١١٧.

(٧) يُراجع اللقاء الذي أجرته معه مجلة المستقبل (باريس) - العدد (٤٢٨): ٤ أيار (مايو) ١٩٨٥م، ص ٥٠.

وما تجدر الإشارة إليه، في هذا الباب، شهادة الدكتور «مايكل دينس بيرداين» استاذ التاريخ في جامعة اريزونا الأمريكية، والذي اعتنق الاسلام عام ١٩٩٢م وأصبح يعرف باسم «محمد أسعد»، اذ يقول: «لأنني مسلم وأعتقد بان الاسلام يعطي حلولاً واجابات لجميع أمراض العالم وأمريكا في الوقت الحاضر.. فالاسلام هو ما نحتاجه جميعاً للبقاء سواء في القرن الواحد والعشرين أو ما وراءه. وبدون الاسلام يبدو المستقبل قاتماً وغير مستقر»^١.

ولعل المفكر النمساوي المسلم لوبولدفايس، الذي عايش طرفي الحياة الغربية والاسلامية، هو خير من يحكي عن الموضوع، انه يلحظ «ان الاسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال، بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين، أعظم قوة نهضة بالهمم عرفها البشر»^٢ ويعقب الدكتور عماد الدين خليل قائلاً: «يلاحظ كيف أن فايس، وهو يشير إلى قدرة الاسلام الفذة على النهوض بالهمم للتحقق على كافة المستويات، لا يجعل الأمر يقتصر على دائرة المسلمين وحدهم بل يتجاوزها إلى البشر كافة. ليس هذا فحسب، بل انه ليعتبر الاسلام «أعظم قوة نهضة بالهمم» على الاطلاق. فليس ثمة كهذا الدين من يملك القدرة على التحريك، بما أنه عقيدة شمولية تتعامل مع كينونة الانسان في مكوناتها كافة، وتستجيش قدراتها جميعاً، وعلى مستوى التحقق التاريخي فلنا أن ننظر لكي نتأكد من صدق المقولة ما فعله الاسلام بالجماعات التي انتمت اليه»^٣.

وينضم كتاب «الاسلام كبديل» للدبلوماسي الألماني المسلم د. مراد فلغريد هوفمان، اضافة نوعية متألقة، ومرافعة مشيرة وممتازة لا دفاعاً عن الاسلام وحسب بل لاعتماده كبديل وحيد للأساليب والمبادئ المتبعة في الحياة البشرية، خاصة بالنسبة الى الغربيين. انه مرافعة تدافع عن الاسلام وتزكيه، جذورها ضاربة في التاريخ، وأسسها قائمة على العلم والموضوعية، مع وعي المؤلف التام بالمعاناة والأدواء والمشكلات، لكنه على كل ذلك خال من التبريرات والاعتذارات المعروفة في اللاهوت، والتي تتغيا الدفاع عن الدين.

(١) مجلة العالم (لندن) - العدد (٥٤٠):

(٢) محمد أسد: «الاسلام على مفترق الطرق»، ترجمة د. عمر فروخ، ط ٨، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٣.

(٣) نظرة الغرب إلى حاضر الاسلام ومستقبله: مرجع سابق: ٧٩.

يقول هوفمان: «كان الاسلام، ابان الصراع بين العالم الغربي والشيوعية، يستطيع ان يُعدّ نفسه الطريق الثالثة المبينة لهما، أي أنه الخيار الحر المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائدياً، أما اليوم فان الاسلام يطرح نفسه بديلاً لكلا النظامين، وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه، وتذليل مشكلاتها المستفحلة، خاصة بعد أن عاد العالم من جديد مصطرع كتلتين اثنتين»^١.

ويمضي هوفمان قائلاً: «ولا يخفى على المتأمل البعيد الرؤية أن يرى الزحف الاسلامي في القرن الحادي والعشرين مسيطراً، ممكناً لانتشاره ديناً لأغلبية البشر، أما كون هذا الزعم، الذي تؤكده مجريات الأمور، حقيقة واقعة، ان شاء الله، فذلك ما يشير إليه عنوان هذا الكتاب». ليختتم السفير المفكر قوله بالتأكيد: «ان الاسلام لا يطرح نفسه بديلاً (خياراً) للمجتمعات الغربية بعد الصناعية. انه بالفعل هو البديل الوحيد...»^٢.

من هنا، تتأثّر أهمية الاسلام في عملية الانقاذ باعتباره ضرورة، قبل أي شيء آخر: «لقد وجد الانسان نفسه على حد نصل تاريخي منقسماً إلى روح في نظر المسيحية، وإلى مادة من ناحية الممارسة العملية للالحاد. وقد أثبت الفكر الاسلامي، الذي يؤلف بين الاتجاهين في مركّب واحد، أنه النموذج الوحيد الممكن الذي يرتفع إلى مستوى الموقف. ومن أجل هذا يعتبر الاسلام ضرورة أكثر من كونه مسألة اختيار»^٣ كما يقول مفكر اسلامي بوسني ناضل طويلاً تحت ظروف عصيبة من الحكم الشيوعي، وخبر لسنوات عديدة حضارة الغرب، واطلع على خوائها عن كثب!

ومما تقدّم، وبعد هذه التطواف مع حضارة الغرب، يمكن أن نجمل الموقف العام الراهن - باختصار شديد - بما يلي:

أولاً: أنّها ليست حضارة انسانية البتة، بكل المقاييس والمعايير الأخلاقية والعرفية، كما ان الغرب لم يكن يوماً - ولن يكون - هو ممثل الانسانية، كما يدّعي «ياسبرز»^٤. وكل ما

(١) يُراجع الكتاب القيم: «الاسلام كبديل»، ترجمة د. غريب محمد غريب، الكويت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٩.

(٢) المرجع نفسه: ٢٠.

(٣) تُراجع المقدمة التي كتبها حسن قرشي لكتاب «الاسلام بين الشرق والغرب» لعلي عزّة بيكوفيتش، ترجمة محمد يوسف عدس، الكويت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ٢١.

(٤) د. حسن حنفي: «في الفكر الغربي المعاصر»، ط ٤، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ٣٠٧.

قليل أو يقال حول منظومة القيم والمبادئ ليس سوى محض ادعاء!، والواقع المحسوس يدحض ذلك بقوة الأدلة والشواهد، وما أكثرها!.

ثانياً: أنها حضارة خاوية، والخواء ينخر في روح الحضارة الغربية، بمذاهبها جميعاً، وبأنظمتها جميعاً.. الخواء الذي تختنق فيه روح «الإنسان»، وتُهدر فيه قيمة «الإنسان»، وتنحدر فيه خصائص «الإنسان».. بينما تتكدّس «الأشياء» وتعلو قيمتها، وتطغى على كل قيمة للإنسان!.

انه الخواء الذي يهدّد نمو الحياة الإنسانية ورقّيها بالتوقّف، بل يهددها بالنكسة والانحدار - على الرغم من ضخامة الانتاج المادي والفتوح العلمية والتقدّم الصناعي - ذلك ان الانسان ذاته لم تراع فطرته، ولا احتياجاته الحقيقية عند اقامة النظام الحضاري الذي ساد!.

ثالثاً: أنها حضارة أزمة، فعلى الرغم من تعاظم قدرة الرأسمالية على التكيّف مع عصرها إلا أنه يبدو ان الأزمة الدورية التي ميّزت تطور الرأسمالية، منذ مطلع القرن التاسع عشر، قد ازدادت الآن تعقيداً. فلم تعد الرأسمالية في السنوات الأخيرة تواجه الأزمة الدورية التقليدية.. وإنما صارت تواجه أزمة مركبة، فهي مزيج من أزمة دورية وأزمات هيكلية عديدة^١ وتنعكس الأزمات الهيكلية بصفة خاصة في صورة بطالة هيكلية، وعجز هيكلية في الموازنات العامة، وميل إلى التضخم مع الركود^٢.

رابعاً: في غياب الرجاء الحقيقي بانسانيتها، تنتشر الشيع والخرافات والأساطير، ومن أكثر الأساطير خطراً، أساطير التقدّم والعصرية^٣ كما يقول غارودي. ليس هذا وحسب، بل ان الحضارة هذه أمست ضد الانسان وباعثاً على شقائه. ان بريق الحضارة المادية لا يجوز أن يعشي أبصارنا عن حقيقة الشقاء الذي باتت تعانيه البشرية في ظل هذه الحضارة. وان الصواريخ المطلقة، والأقمار الصاعدة، لا يجوز أن تلهينا عن الدرك الذي ينحدر إليه «الإنسان» ومقومات «الإنسان»^٤.

(١) المستقبل لهذا الدين؛ مرجع سابق: ٦٤.

(٢) د. فؤاد مرسى: «الرأسمالية تجدد نفسها»، الكويت (سلسلة عالم المعرفة) ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، ص ١٠.

(٣) المرجع نفسه: ٤٣١.

(٤) حفارو القبور؛ مرجع سابق: ٧٨.

(٥) المستقبل لهذا الدين؛ مرجع سابق: ٦٤.

وفي ظل الثورة العلمية الراهنة فان هناك مسؤولية يجب ضبطها عن احتمالات دفع العالم بأسره إلى حافة الخطر المميت... ففي مجال الطاقة وحدها فان عشرة آلاف طن من الوقود ينتج وينقل ويخزن ويستخدم في العالم حالياً. انها كتلة ملتهبة متفجرة، ويمكن أن تقارن بالقوة النووية المخترنة منذ اختراع القنبلة الذرية حتى الآن. وفي مجال الكيمياء فان المكونات الكيميائية يجري انتاجها وتشغيلها وتخزينها ونقلها بكميات تضاعف المخزون الحالي من المواد المشعة في العالم. كل هذا ولم نتحدث عن خطر الحرب النووية^١.

خامساً: أنّها حضارة وصلت الطريق المسدود، كما عبّر عن ذلك أكثر من مفكر غربي وغير غربي. وقد افتضح زيفها وافلاسها لكل ذي بصيرة. يقول غارودي، وهو يتحدث عن مفارقة ازدياد التفكك في النسيج الاجتماعي والتمزقات المشيرة، بينما تحقق العلوم والتقنيات وحدة فعلية: «لقد أصبح ممكناً، من الناحية العسكرية، مع الصواريخ والسلاح النووي، بلوغ أي هدف انطلاقاً من أية قاعدة. ومن الناحية الاقتصادية، ان أي انهيار مالي في أية بورصة يخلق أزمة وبطالة في كل مكان. ومن وجهة النظر الثقافية، جعل التلفزيون وتقنيات الصورة كل نقطة من الأرض حاضرة في جميع النقاط الأخرى، وفيها يبسط الأقوى والأغنى الهمجية العظمى،... وليس هذا هو الانقسام الوحيد، فالليبرالية تزعم أنّها متطابقة مع الحرية الإنسانية والديمقراطية، في حين أنّها تقيضهما: انها حرية الأقوى والأغنى في افتراس الأفقر والأضعف».

ويمضي غارودي متساءلاً: «كيف يتم الانتقال من وحدة الفوضى والبربرية التي نخضع لها الى وحدة مقصودة صالحة لتفتح الإنسان وجميع الناس؟ واذا شئنا أن نعبر عن ذلك بكلمات أخرى: كيف يتم الانتقال من اللامعنى الى المعنى؟ من الانحطاط الى النهضة؟ ذلك هو جدل العصر»^٢.

سادساً: أنّها حضارة استنفدت أغراضها ومهددة بالتلاشي. ونذكر هنا تنبؤات بريجنسكي الذي نال شهرته كمتنبئ بالتغيير الحضاري، حيث ألف كتابه الذي أشرنا اليه سابقاً، وتتنبأ فيه ان الشيوعية ستختفي قريباً كقوة عالمية، وهو الآن يحذّر من أن نفس القدر

(١) الرأسمالية تجدد نفسها! مرجع سابق: ١٢، وللمزيد من النقطة يُراجع ما كتبه علي عزّة بيكوفيتش حول «التقدم ضدّ الإنسان» في كتابه آف الذكر، ص ١٥٥ - ١٢٦.

(٢) يراجع كتابه «نحو حرب دينية؛ جدل العصر» بيروت، ١٩٩٦، ص ١٩ - ٢٠.

قد يصيب التجربة الأمريكية الكبرى، والتي بدأت قبل قرن من الزمان. ويؤكد بريجنسكي: «بأن المجتمع المنغمس في الشهوات لا يستطيع أن يسن قانوناً أخلاقياً للعالم. وإن أية حضارة لا تستطيع أن تقدّم قيادة أخلاقية سوف تتلاشى»^١ وقديماً قيل: فاقد الشيء لا يعطيه.

سابعاً: أنها حضارة انتهت ريادتها، باعتراف أبنائها قبل غيرهم. ففي نفس الوقت الذي ظهر مفكرون غربيون معاصرون مثل: نيتشه، اشبنغلر، هوسرل، برجسون، وتوينبي.. الخ ينعون نهاية الحضارة الغربية ويعلنون عن نهاية دور الريادة للحضارة الأوروبية.. يظهر مفكرون آخرون من العالم الثالث يعلنون ميلاد حضارة جديدة: فانون، ديبيري، جيفارا، وأميه سيزير، وبن بركه، ونكروما.. وهوشي منه، وماوتسي تونغ، وغاندي، ونهرو، وتيتو، ومانديللا، وكاوندا، وبن بللا، وييشرون بميلاد وعي جديد للعالم الثالث^٢.

ثامناً: أنها.. ليست حضارة!، إذ لم يعد بالامكان تسمية الوضع الغربي -اليوم- بـ «الحضارة الغربية»، لأنه يفتقد الريادة المعنوية التي تمثل أساس الحضارة^٣. والحضارة الحقيقية لا تكون على حساب الانسان، بل على حساب الأشياء التي يصنعها الانسان. الحضارة الحقيقية تتبع من الانسان وتصبّ في الانسان.. فلا تكون حضارة إلا إذا كان لها مركز في نفس الانسان، إلا إذا أغنت ذاته وأشعرته بمزيد من الوعي، فانطلق يغني انشودة الوجود. ان هذه ليست حضارة على الاطلاق..! كما يقول الدكتور محمد عبدالرحمن مرحباً.

وإذا كان ولا بد أن نتنزل قليلاً، فليس هناك من وصف دقيق ملائم سوى أنها «حضارة الأزمة».

كلّ هذا وغيره.. يضعنا وجهاً لوجه أمام الحقيقة الناصعة والمرعبة: العالم سائر نحو الكارثة لا محالة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ماذا علينا أن نفعل لمنع حدوث هذه

(١) نقلاً عن مجلة العالم (لندن) - العدد (٥٤٠): آذار (مارس) ١٩٩٦م - شوال / ذو القعدة ١٤١٦ هـ ص ٣٩.

(٢) مقدمة في علم الاستغراب؛ مرجع سابق: ٥٤٧ (بشيء يسير من التصرف).

(٣) محمد صادق الإبراهيمي: «الأزمة الحضارية في عالمنا المعاصر»، مجلة التوحيد (قم) - العدد (٨١): ذو

الحجة ١٤١٦ هـ - نيسان ١٩٩٦م، ص ٢٠١.

(٤) د. محمد عبدالرحمن مرحباً: «الانسان وحضارة العصر»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٤٥): ربيع الأول

١٣٨٢ هـ - أغسطس (آب) ١٩٦٢م، ص ٣٠.

الكارثة التي لا بد أن تحصل اذا بقينا كما نحن؟

هكذا تساءل المفكر الكبير غارودي^١، ومن الواضح أن هناك خيارين لا ثالث لهما أمام البشرية، وعليها أن تقرر الخيار قبل فوات الأوان، والخيارات هما: الانتحار... أو الانتقاذ. وليس هناك ثمة خيار بديل آخر. وقد عبّر المرحوم «د. رشدي فكار» أروع تعبير عن هذا المعنى، حينما ساق هذه المقاربة بين نموذجين بارزين لمفكري الغرب المعاصرين، حيث قال: «لا شك أن هناك عقولاً كثيرة متمردة، خلّاقة مبتكرة، وهي أيضاً حائرة تبحث عن الانتقاذ... وهي أمّا أن تنفجر أو أن تتجه إلى منقذ... وبعبارة أخرى؛ أما أن تنتهي بمأساة «التوسير» أو بانتقاذ «غارودي»... و«التوسير» هذا هو أحد عمالقة الفلسفة المادية، قتل زوجته وهي نائمة إلى جانبه... أمّا «غارودي» فبما أنه أعلم بخلفيات الحضارة الغربية وابن الدار وشعر بالانكسار وبالعَد التنازلي، فقد وجد في الاسلام المنقذ للعقل الحائر...»^٢. وحول البديل سبق وأن استشهدنا بقول غارودي وهو يجزم بأنه: «لا يوجد خمسون حلاً لهذه المسألة. هناك حل واحد: هل نعم أم لا، في غياب التيارين الرأسمالي والاشتراكي...» من هنا اعتقد اليوم ان الاسلام اذا كان يريد ان يريح العالم الغربي... يتوجّب عليه أن يبدو قادراً على القيام بدوره والأخذ على عاتقه نجدة هذا الغرب»^٣. وما بين هذا الواقع المذعور... والبديل المأمول، هل لدى المسلمين مشروع متكامل للانتقاذ؟ وماذا لو انهارت حضارة الأزمة على حين غرة؟

مخاطر الفراغ الحضاري:

عن التساؤل الأول؛ لا حاجة بنا إلى التأكيد على النفي، فليس هناك من مشروع قائم فعلاً للانتقاذ، وذلك لأسباب عديدة لا مجال للخوض فيها، وكل ادّعاء خلاف ذلك يأتي من قبيل المكابرة. نعم هناك ارهاصات حضارية لمشروع واعد، غير أن هذا الاعتراف لا يعطينا من القول إن الاسلام - كدين ورسالة وحضارة - قادر على أن يؤدي دوره في عملية الانتقاذ

(١) مجلة المستقبل (باريس)؛ مرجع سابق ٤٢٨: ٥٣.

(٢) مجلة الأئمة (الدوحة) - العدد (٦٧): رجب ١٤٠٦ هـ - آذار (مارس) ١٩٨٦ م، ص ٤٢. وللإطلاع على مأساة الفيلسوف الذي خنق زوجته يُراجع المقال الذي كتبه تحت هذا العنوان د. أحمد أبو زيد، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٢٧٨): يناير ١٩٨٢ م، ص ١١٣.

(٣) مجلة المستقبل (باريس)؛ مرجع سابق ٤٢٨:

الكبرى من خلال ما يمتلكه من تصوّر فكري، وأبعاد انسانية، وقيم عليا .
هذه حقيقة .. ولذلك، فإن الاسلام سيكون سلوكاً كونياً، ليس لقطع من الخراف - على حد تعبير د. فكّار - وإنما لعقول متمردة .. عقول تبحث عن المصادقية، ومن هنا سيكون له دور خطير في المستقبل، وهو - كما أكرر دائماً - (والقول ما يزال للدكتور فكّار) لن يتصدّر في الكون في القرن الحادي والعشرين، ولن يدخل الساحة العالمية كقدرة تطور جديدة تملي مزيداً من التطور في التكنولوجيا والصواريخ والأقمار الصناعية والقنابل اليدوية وغير ذلك .. وإنما سيدخل قدرة خلاقة قادرة على الانتقاذ^١.

وهذا ما ورد في التوقعات المستقبلية المذهلة لمحمد أسد، في كتابه الهائل المشهور «الاسلام على مفترق الطرق» الذي كتبه في دلهي عام ١٩٣٤م، حين تكلم عن صعود الاسلام مقابل انحطاط الحضارة الغربية المادية التي تشمل الاتحاد السوفيتي، وبمنهاج مخالف لمنهاج السلفيين الاعتذاري والتبريري أمام الغرب، بين أن الاسلام منهاج شامل كامل ناجح للحياة .

رأى «أسد» الحرب العالمية الثانية كصراع لا مفر منه بين القوى المادية في الحضارة الغربية .. وتوقع «أسد» أن يجلب التناحر على المادة الكوارث على المعسكرين الغربي والشرقي، ويحط بالحضارة الغربية المادية - المملوءة زهواً بالنفس - حتى يتطلع الغرب - مرة ثانية - إلى الحقيقة الروحية، «وتصبح الدعوة للاسلام ممكنة»^٢.

بدت تلك الرؤيا غير دقيقة لمدة ستين عاماً، فبعد الحرب العالمية الثانية، بدلاً من أن ينهار الغرب انقسم إلى معسكرين، ظهر أنهما يوازنان بعضهما البعض لعصور قادمة .. واليوم، بعد افلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ ١٩٩٠م، وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية في الغرب، تمر المسيحية بتغيير في المشروع، وما كان يُسمّى «مشروع التحديث» يتساقط أمام أعيننا. بدأ منظرو وعلماء الغرب يشكّون إذا كانت افتراضاتهم الأساسية صحيحة^٣.

في هذه الأثناء تتردد في الأوساط الاسلامية نظريات ايجابية وسلبية عدّة بصدد ظهور

(١) مجلة الأئمة (الدوحة)؛ مرجع سابق ٦٧: ٤٢.

(٢) الاسلام على مفترق الطرق؛ مرجع سابق: ٦٦.

(٣) د. مراد هوفمان: «الاسلام عام ٢٠٠٠»، ترجمة عادل المعلم، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٨.

البناء الحضاري الاسلامي العالمي من جديد. ومن المنظورات السلبية الواسعة الانتشار نسبياً ما يقول بشيء من الایجاز والتبسيط، ان الحضارة المادية العلمانية بجناحيها؛ الشيوعي المنهار والرأسمالي المريض حضارة فاسدة لفساد قيمها وأسسها ومحتم زوالها. وقد بلغ عمق الأمراض الاجتماعية فيها وانتشارها درجة خطيرة. كالازدواجية في المقاييس، والظواهر العنصرية، وارتفاع نسبة الجريمة باطراد، وألوان الانحلال الخلقي والاجتماعي. فمن المؤكد إذن أن الصرح الرأسمالي منها سينهار داخلياً كما انهار الشيوعي. والمسألة مسألة زمن فحسب. وأنداك لا يبقى في الساحة منافس، وتظهر الصيغة الحضارية الاسلامية، الانسانية الأخلاقية، العادلة الربانية، وتسود في العالم من جديد!

وفي هذا الكلام مغالطات ومخاطر، منها:

١- أنه يخلط بين منطلقات واستنتاجات صحيحة، وأخرى فاسدة لا تصمد للبحث الموضوعي المتزن.

٢- ويغفل عن الأخطار الكبرى المؤكدة فيما لو صحّت الظنون، وانهار صرح الرأسمالية كالشيوعية انهياراً شاملاً دون وجود بديل حضاري.

٣- وفيه دعوة غير مقصودة إلى القعود والانتظار حتى يتحقق «الهدف» وأخرى ضمنية، غير مقصودة أيضاً على الأرجح، إلى التعجيل في التطور التاريخي النظري المذكور، ولكن بأسلوب الهدم بدلاً من البناء.

٤- وفي هذا الكلام أيضاً غفلة عن العوامل الحقيقية لصناعة الحضارة، وتصوير سلبي غير صحيح للحضارة الاسلامية بالذات. وكأنها غير قادرة على استيعاب «الآخرين». وهذا ممّا يساهم في ترسيخ موقف التخوّف أو موقف العداء، بينما الأصل في الاسلام هو استيعاب الجميع بغض النظر عمّا يتطلع إليه كل فريق من «الأهداف الدنيوية» بل ويضمن الاسلام سبل تحقق تلك الأهداف الدنيوية، بغضّ النظر عن العقيدة، في اطار ضوابط وموازين نزيهة سليمة^١.

ولا يسهل «تفكيك» تلك النظرية لمناقشة عناصرها الأولية مناقشة وافية، لاسيما وأنها

(١) يُراجع المقال القيم: «نحن المسلمون لانخشى استمرار الحضارة المادية بل نخشى سقوطها قبل أن نعدّ المدة» لنيل شبيب. الحياة ٢٠ / ١٢ / ١٩٩٢م - ٢٦ جمادى الآخرة ١٤١٣هـ، ص ١٤.

لا ترد بصورتها الكاملة الملخصة أعلاه في «دراسة منهجية» على رغم أن عناصرها تبرز باستمرار في كثير من الكتابات، بنص العبارة وما بين السطور، فضلاً عن أن القضية المطروحة من خلالها قضية تاريخية حضارية، إذا تناولتها الدراسات المنهجية لاتفيها حقها بسهولة. فما الذي يمكن أن نصل إليه بأسلوب سرد الخواطر؟ وأولى الملاحظات على هذه النظرية وأمثالها أنها تتردد في مناخ فكري وواقعي معين، يجتمع فيه عنصران:

أولهما: الضعف الذاتي أو القصور «النسبي» عن بيان الصيغة الحضارية الإسلامية بياناً منهجياً واقعياً مقنعاً، وبياناً عملياً مشهوداً مؤثراً يفرض نفسه من خلال قيمته الذاتية وانجازاته المرئية، على رغم العوائق الخارجية. فما من فكرة حضارية مجددة تظهر وتنتشر إلا وتجد المقاومة من الفكرة السائدة قبلها في الوسط المحيط بها.

وثانيهما: قوة العوائق الخارجية الموجودة بالفعل، وقد يكون بعضها نتيجة عدم معرفة «البديل» لعدم ظهوره، ولكن أغلبها نتيجة التخوف من ظهوره، لأن من شأنه أن يغيّر القيم والأسس في عالم حضاري معاصر، ليس لأن منطلق هذا البديل هو الاسلام، بل لأن الأمر الطبيعي في منطق التاريخ، إن كل بديل حضاري لابد أن يغيّر في شبكة القيم والأسس السابقة له. وهذا ما يجد المقاومة في عالمنا المعاصر الذي اعتدنا على التمسك به، على رغم الخلل، واستسغنا تبرير ما يُصنع فيه على رغم المعاناة.

وقد تتخذ تلك العوائق الخارجية صورة القهر الفكري أو الجسدي، أو صورة التمييز والتضليل، والنتيجة واحدة. لقد أصبحت تؤدي عكس المقصود منها، ممّا يعبر عنه الاسلاميون بانتشار الصحوة الاسلامية، ويعبر عنه خصومهم بألوان من التعابير، لعل أكثرها شيوعاً اليوم هو ازدياد خطر الأصولية.

والواقع أن العنصرين المذكورين تضافرا معاً على تعزيز الاحساس بالعجز عن أداء المهمة الحضارية الكبيرة بسلوك «الطريق الصعبة» التي تتطلب قطعاً جهوداً فذة. وهذا الاحساس بالذات لا يساهم في تغذية وتعميم نظريات «مريحة» تكفي مؤونة الجهد والبذل اليومي الدؤوب المتواصل فحسب، بل لابد أن يساهم في تعميم نظريات «خطيرة» أيضاً تضع الصدام في حسابها. فالتضحية من أجل الهدف «هدف جليل» بحد ذاته. والترتبة مهياة في نفوس نائرة على مستوى الشباب المتجاوب مع التيار الاسلامي، وهو يرى ما

تواجه التجارب الاسلامية؛ إجهاداً في بلد، وخنقاً في آخر، وحصاراً في ثالث، وفشلاً ذاتياً في رابع، فضلاً عما يجري، بالمنظور الاسلامي، من مذابح ومآس، على حساب المسلمين دون رادع، وتصرف العدو قبل الصديق بالقضايا المصرية دون ضابط^١.

في مثل هذه الأجواء يبدو لبعض المهزومين أن الحديث عن البديل الحضاري الاسلامي ضرب من الخيال، لما ينتاب الأمة الاسلامية -اليوم- من عوامل الضعف، قبال غطرسة القوة الغربية. وقد فات هؤلاء أن الحضارات، كما الايديولوجيات والنظريات، تسقط وتتراجع، وتصدع غيرها، وفق سنة الاستبدال. لكن هذا لا يعني أن هذه السنة تتم بين ليلة وضحاها، ودون مقدمات وأسباب.. وبديل. واذا لم يكن هناك بديل فان عملية الاستبدال تصبح منتفية: «وأي نظرية تقول بإمكانية انهيار داخلي لنظام حضاري قائم دون رؤية بديل عنه على أرض الواقع، من جنسه أو مناقض له، نظرية فاسدة، وإن كانت غايتها وأهدافها سامية قديمة. وهذا مما يتأكد من خلال البحث في الحضارات البشرية المتعاقبة منهجياً، أو النظر في مقتضيات «السنن» التاريخية والاجتماعية وفق المصطلح الاسلامي. وهو ما يفرض طريق «العمل» على إيجاد البديل، ولكن تراكمت الملابس بفعل ضغوط الأحداث السلبية، وحجبت عن الأنظار رؤية الطريق الأصح (لأنها الوحيدة) من أجل الظهور الحضاري الاسلامي من جديد، وانتشرت بدلاً من ذلك عوامل الاغراء بنظريات تختار الطريق الأسهل، قعوداً أو تسرعاً دون الوصول إلى نتيجة»^٢.

إزاء هذه المعادلة الصعبة تزداد حساسية اختيار الموقف المطلوب، فليس المطلوب قعوداً لا يغيّر الأوضاع نحو الأفضل قطعاً، ولا تهوراً يفجر الأوضاع ولا يوصل إلى أفضل منها. بل المطلوب بكل وضوح العمل الجاد البصير بصورة منهجية لقيام بناء حضاري اسلامي في حياة البشرية. وهو ما نعتقد بتحقيقه عند ظهور وعاء القيم الحضاري الاسلامي بصورة تحقق عدة شروط، في مقدمتها الواقعية والتوازن، بما يمنع استثناء «فريق» من البشرية لحساب آخر، ومنها أن يظهر على أرض الواقع التطبيقي. ان هذا الوعاء الحضاري قادر على استيعاب آخر ما وصلت إليه سلسلة التقدم المادي والتقني المشتركة في حياة البشرية بحضاراتها المتعاقبة، وازافة حلقة جديدة اليه، كما صنعت الحضارة الاسلامية

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

من قبل مع ما سبقها، وكما صنعت الحضارة العلمانية الحديثة قبل قرون مع ما تركته الحضارة الاسلامية من قبلها.

ومن هذا المنطلق يؤكد كاتب اسلامي بقوله: «إننا لا نخشى، ولا ينبغي من المنطلق الاسلامي أن نخشى، استمرار وجود الصرح المادي والتقني للحضارة العلمانية الحالية، بل يجب أن نخشى احتمالات سقوطه وانهاره، قبل أن نؤدي نحن مهمتنا الحضارية التاريخية الكبيرة»^١.

وهذا - فيما أعتقد - هو السؤال الكبير.. والتحدّي الأكبر حين نكون - نحن المسلمين - وجهاً لوجه أمام مهمّة ملء الفراغ الحضاري، وهي مهمّة جسيمة عسيرة.. أين نحن منها الآن؟!

(١) المرجع نفسه.

الفصل السادس

الاسلام: البديل الحضاري

إنّ البشرية التي تضع أقدامها، اليوم، على أعتاب القرن الحادي والعشرين تتلفت - مذعورة - إلى مشروع انقاذ، وتتطلع - بترقب مضنٍ - إلى منقذ. إن هتافات كثيرة من هنا وهناك تنبعث من القلوب الحائرة، وترتفع من الحناجر المتعبة.. تهتف بمنقذ، وتهفو إلى «مخلص» وتتصوّر لهذا المخلص سمات وملامح معينة تطلبها فيه. وهذه السمات والملامح المعنية لا تنطبق على أحد إلّا على هذا الدين! كما يقول سيّد قطب.

فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج، نستمد نحن يقيننا الذي لا يترزعزع، في أنّ المستقبل لهذا الدين، وأن له دوراً في هذه الأرض هو مدعو لأدائه - أراد أعداؤه كلهم أم لم يريدوا - وأن دوره هذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى - كما لا يملك منهج آخر - أن يؤديه. وأنّ البشرية بجملتها لا تملك كذلك أن تستغني طويلاً عنه^١.

هل المستقبل لهذا الدين؟

ولكن! كيف؟! وهل ثمة مبررات للاعتقاد بأنه سيكون للاسلام دور في إنقاذ البشرية المتمردة، وفي ظل كل هذا التخبط؟

إنّ الاسلام يتمتع بميزات لا وجود لها في أي دين آخر.. فهو الدين الوحيد الذي يستطيع أن يتحاور مع المتمرد.. وقد اعترف بذلك «كانط» حين ذهب إلى القول بأنه إذا كان ولا بدّ للإنسانية أن تعود إلى دين «وضعي» - أي علمي - يتمشى ومتطلبات العصر، فلن تجد إلّا الاسلام.. هذا الاعتراف قيل في القرن التاسع عشر، عصر التمرّد الأساسي في المدرسة الوضعية. وهذه القدرة على المحاورّة التي يتمتع بها الاسلام تنبع من تجاوزه الشكليات،

(١) سيّد قطب؛ المستقبل لهذا الدين : ٧.

فهو يتحدث دائماً بلغة الشمول والتجانس والايقاع الكوني، وينزه عن الحماقات البشرية، وهذا ما يلفت نظر العقل المتمرّد.

أمّا الميزة الأخرى التي لا تقل أهمية وخطورة وستشكّل رصي­داً كبيراً للإسلام، فقد أكّدها أحد فلاسفة الروحانيات المسيحية المعاصرة في القرن العشرين، وهي: أن الإسلام هو الدين الموثّق الذي من خلاله تُوثّق بقيّة الأديان.. وأن أكبر دليل على المسيحية نفسها هو ما جاء في القرآن.. ولذلك فإنّ العقل المتمرّد الذي لا يقبل إلّا بشيء موثّق، نواجهه بالقرآن، الوثيقة التاريخية الأقدم^١.

ليس ثمة شك يخالجانا أن الإسلام هو طريق الخلاص الوحيد للبشرية المهددة بالدمار والوبار.. أنّه الاستجابة الوحيدة لنداء الفطرة في ساعة العسرة.. انه ضرورة انسانية وحتمية فطرية^٢.

ولئن كان الإسلام هو البديل الحضاري الوحيد، أمام البشرية، لتجاوز مأزقها الحاد الخطير.. فإن السؤال الذي يظل يلاحقنا هو: هل المسلمون مهيباًون لاحتلال مكانة الغرب التاريخية والحضارية فيما لو سقط نهائياً.. أو أوشك على السقوط، وهم على ما هم عليه من تخلف أزاء تفوّق الغرب؟

وقبل الإسراع في إعطاء الجواب - سلباً أو ايجاباً - ينبغي التذكير بأن ثمة فرقاً جوهرياً بين «الحضارة» و«المدنية»، وهو ما سبق أن تطرقنا اليه في الفصل الأول، فمن الواضح أنّ الغرب ينتصر، اليوم بتفوقه في صناعة (الأشياء)، وفي طريق التعامل معها. أمّا الشرق فقد جرّب أن ينتصر أكثر من مرّة بتفوّقه في الانتماء إلى المبادئ وفي طرائق التعامل معها.. وقد انتصر فعلاً.

ليس ثمة تقسيم محتوم لجغرافية العالم إلى أصقاع وأقاليم بعضها يُبدع الأشياء، وبعضها الآخر يُبدع القيم.. فكم طلع الغرب علينا بقيم ومذاهب لسنا في مجال تقييمها والحكم على ما فيها من خطأ أو صواب.. وكم طلع الشرق على العالم بأشياء وكشوفات مادية أضافت إلى رصيد المدنية البشرية الكثير الكثير.

نعم، ليس ثمة تقسيم محتوم. ولكن استقراء التاريخ يمنحنا مؤشرات شاملة، وخطوطاً

(١) يُراجع اللقاء مع د. رشدي فكار في مجلة الأُمّة (قطر) - العدد (٦٧)، ص ٤٥.

(٢) سيد قطب: الإسلام ومشكلات الحضارة: ١٨٣.

عريضة تصبغ المساحة الأكبر من هذا الجانب أو ذاك.. واحدى هذه الخطوط هي أنّ الغرب الحديث اذا كان قد تفوق في صناعة الأشياء، فإنّ الشرق لا يزال يملك القدرة على بعث المبادئ، والتفوق في الانتماء إليها والتوحد معها.

والأمم التي لا تتعلم من تجربة التاريخ، فمّم تتعلم؟ أنّه إذ يتوجّب علينا اليوم أن نلاحق الغرب في صناعة الأشياء كتحدٍّ لا مفرّ من مجابهته إذا أردنا أن نحقق وجودنا في هذا العالم، وأن نتجاوز وصاية الغرب الحضارية؛ فان ممّا يتوجّب علينا أكثر هو أن نعرف بوضوح كامل أنه ليس بالأشياء سنوازي المسيرة الغربية ونسبقها.. لأنّ الفارق الزمني في سباق (المدينيات) حاجز صعب الاجتياز. أمّا في سباق (الحضارات)، حيث تلعب الروح والقيم والأفكار، والمطامح الانسانية، والعقائد دوراً كبيراً، فان الأمر ليس مستحيلاً.. ولقد تحقّق أكثر من مرّة.

على ضوء قدرة الاسلام على احتضان وحماية منجزات المدنية المادية الضخمة.. جنباً إلى جنب مع قدرته على بعث البشرية إلى عالم جديد تتجاوز به محنها ومصائبها.. مرّة أخرى؛ يبدو الأمر ضرورة حتمية لا محيص عنها.. للخلاص.. أنّها الطريق الوحيد^١. وفيما يعتبر مقارنة للسؤال المطروح.. لا بدّ لنا من أن نسجّل بعض ما انتهى اليه الباحثون المنصفون من غير المسلمين من الكشف عن حقائق الاسلام، وما ينطوي عليه من قوّة دفع حقيقي نحو التطور الاجتماعي والسياسي والعلمي، بفضل عقيدته وتعاليمه التي صنعت قادة العالم وزعماءه في العلم والسياسة والحضارة الانسانية بعامة.

يقول «جورج سارتون» في كتابه «الشرق الأوسط»: «ان المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية.. وإلى زعامة العالم.. السياسية أو العلمية، كما كانوا من قبل، اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة في الاسلام، والعلوم التي حتّ على الأخذ بها.

أمّا «جورج برناردشو» فقد قال في بحث له بعنوان «الاسلام بعد مائة سنة»: «إنّ المستقبل العاجل عندما يريد الرجال المفكرون أن يلجأوا إلى دين يحمي الفضيلة، ويقي المجتمع، ويكون سبباً للحياة السعيدة في البشر، فسيجدون الاسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن لهم التقدّم والنجاح» ويبرهن على ذلك بقوله: «وأول البراهين على ذلك هو أنّ الاسلام لا يمنع أي تقدّم سواء كان في النهضة الفلسفية أو الكيميائية، فالاسلام هو الدين

(١) د. عماد الدين خليل؛ مؤشرات اسلامية في زمن السرعة: ٨٨.

الذي نجد فيه حسنات الأديان كلها، ولا نجد في الأديان حسناته..» إلى أن قال: «هذه الحقائق تجبرنا على الاعتقاد بأن الدنيا بأكملها، وانكلترا على الأخص، ستقبل الاسلام، وإن هي لم تقبله باسمه الصريح فستقبله باسم مستعار»^١.

فالاسلام المراهن عليه - في رأي د. برهان غليون - ليس هذا الاسلام المعاش.. وإنما هو الخميرة القويّة التي يمثلها ويجسدها احياء الدعوة أو الرسالة الاسلامية كأساس لتجديد المنابع الأخلاقية والروحية العميقة التي لا تقوم بدونها شخصية انسانية، ولا تتكون خارجها ارادة جماعية ولا مبادرة حضارية^٢، على أن الاسلام وليس غيره من الأديان السماوية هو القادر على النهوض باعباء مهمة الانقاذ هذه، لأن الاسلام وحده من بين الأديان له سابقة حضارية، فقد أقيمت على أسسه ومبادئه حضارة التقت فيها شعوب مختلفة، وازدهرت فيها العلوم المتعلقة بالكون أو الطبيعة إلى جانب العلوم المعنوية والأخلاقية أو الانسانية، وازدهرت كذلك الحياة الاقتصادية ازدهاراً كبيراً، ونظمت الحياة الاجتماعية على أسس تشريعه.

وعليه تستطيع الثقافة الاسلامية أن تكون سندا وأساساً لحضارة جديدة، لا على نطاق شعب معين أو قومية معينة فحسب بل على النطاق الانساني العام، على أن يبقى على مكاسب الحضارة الحديثة النافعة وينفي مساوئها ويستدرك نواقصها^٣، وبهذا تترسخ رؤية القائلين بأن الاسلام هو البديل النهائي الوحيد أمام البشرية، وها هي الارهاصات بادية للعيان.

وما بين ارهاصات الواقع المعاش وحتميات المستقبل المأمول للحضارة الاسلامية.. أمام المسلمين اليوم معبران، معبر إلى المنابع.. إلى مصدر التاريخ لا الى أشكال تحققه، وهو معبر صعب لأن أمة الاسلام - على ما يقول اقبال - ضعفت عن شريعة القرآن، فحاولت أن تبدل معنى القرآن ليلائمها، ولم تحاول أن تغيّر نفسها لتلائم القرآن.. فهذه غربة الاسلام! حتى لقد طرح المسلمون المحدثون، بل القدماء نسبياً، على أنفسهم السؤال التالي: هل

(١) د. محمد فتحي الدريني؛ أصول الحضارة الانسانية في الاسلام (٩)، مجلة العالم (لندن) - العدد (١٨٩)، ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧م - ٣ صفر ١٤٠٨هـ، ص ٣٩.

(٢) تُراجع تقطية ندوة «الدين والتدافع الحضاري» في مجلة «منبر الحوار» (بيروت)، العدد (١٢)، شتاء ١٩٨٨ / ١٩٨٩م - ١٤٠٩هـ، ص ١١٩.

(٣) محمد مبارك؛ مذكرات في الثقافة الاسلامية: ٣٥.

كانت الدولة التي قامت للمسلمين في مختلف الأزمان ، بعد الخلافة الراشدة ، اسلامية أو غير اسلامية ؟ .. فالواجب اذن اقامة معبر إلى الينابيع لا إلى مجاريها التي غاض بعضها في الأرض ، وأسِن بعضها الآخر من الجمود وانعدام الحركة . والواجب المحتم كذلك اقامة معبر آخر إلى العالم المعاصر فوق هوة مخيفة تفصلنا عنه ! انها مسيرة شاقة على معبرين وعُرين ؛ مسيرة من الجزء الى الكل ، لا تُطوى بالكسل وباعتماد جهاد السلف ^١ .

قد تفتتح هذه المقدمة الباب واسعاً ، أمام شتى الموضوعات الشائكة والملّحة ، في ظل احتدام الجدل المفتوح حول الاجابة عن الفراغ الكوني المحتمل . فهناك أساساً طريقتان لعمل الفراغ :

فأما أن ينظر المرء حول قدميه ، أي نحو الأرض .. وأما أن يرفع بصره نحو السماء . فالطريقة الأولى تملأ وحدته بالأشياء ، حيث يجمع بصره المتسلط لامتلاكها . والطريقة الثانية تملأ وحدته بالأفكار ويبحث عن الحقيقة بنظره المتسائل . هكذا ينشأ عبر الطريقتين نموذجان من الثقافة : ثقافة سيطرة ذات جذور تقنية . وثقافة حضارة ذات جذور أخلاقية وغيبية ^٢ .

وفي ظل هذا الصراع الدامي ، تبقى في نظر ضياء الدين سردار حضارة واحدة ما زالت تحتفظ بمؤشرات : المعايير ، واتساق القيم ، ونظرية المعرفة ، والتقاليد ، والحس التاريخي ، وتقاليد الأخوة ، وهي الحضارة الاسلامية . وهذه الحضارة ليست اليوم حضارة فاعلة . ان لها فقط ماضياً مجيداً كشف عن قوتها . ومن هذا يصبح السؤال الرئيسي : كيف يمكن بعث الحياة والحيوية والديناميكية لهذه الحضارة الشامخة ؟

ليس هناك بديل - في نظر سردار - عن تبني منهج مستقبلي يقوم على : فهم الماضي ، وتحليل الحاضر ، واستشراف المستقبل ، لابل والتخطيط المتقن للمستقبل . وليس هناك أمام الحضارة الاسلامية سوى مستقبليين بديلين : مستقبل لا هدف له ، ومستقبل مخطط ^٣ . ومتى وضع المسلمون أقدامهم في طريق المستقبل المخطط سيجدون أن ميزان القوى

(١) د. محسن الشيشكلي : فصل «مسألة الوحدة والعلاقات بين الدول الاسلامية» ، المنشور في كتاب «الاسلام والمستقبل» ، الكويت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ص ١٦٣ .

(٢) مالك بن نبي : «مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي» ، ترجمة د. بسام بركة ود. أحمد شعبو ، بيروت ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، ص ١٧ .

(٣) يُراجع كتاب : «مستقبل الحضارة الاسلامية» ، لضياء الدين سردار ، لندن ، ١٩٧٩م .

في العالم يتغيّر ويتحول اتجاه التاريخ، وهذا ما يقوله - ويحذّر منه - الدارسون المتيقظون من الأجانب والمستشرقين^١، وهذا «آرنولد توينبي» يقول في كتابه «الاسلام والغرب والمستقبل»: «ان الوحدة الاسلامية نائمة، لكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ»^٢ أما «مرماديوك باكتول» فيقول: «إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشروها بها سابقاً. بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها، حين قاموا بدورهم الأول، لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم»^٣، وهذا ما دفع الرحالة الألماني «بول شمتز» أن يستشرف المستقبل، ويتنبأ بقوة الاسلام القادمة، في كتابه «الاسلام قوة الغد العالمية»^٤ ويؤكد بلهجة يشوبها الذعر أن التاريخ سيعيد نفسه مبتدئاً من الشرق، وستظهر صورة هذه القوة التي تكمن في تماسك الاسلام ووحدته العسكرية، وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها، وستقلب موازين القوى، لأنها قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية. ولا ينسى «شمتز» أن ينهي نبوءته هذه من الإشارة إلى ان انتفاضة العالم الاسلامي صوت نذير لأوروبا للتجمع والتساند، داعياً الأوروبيين «إلى الوحدة لمواجهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو كي يحتفظوا بمصالحهم الاقتصادية والسياسية في بلاد هذا الشرق، وكي لا يصبحوا في الغد القريب أو البعيد تحت رحمة هؤلاء»^٥.

وقبال هذه التحذيرات التي يطلقها غربيون يعرفون طبيعة الاسلام ويرصدون تاريخه القديم والحديث بعيني ذنب جائع، كما يقول محمد الغزالي^٦ نجد قلة محدودة جداً من

(١) د. يوسف القرضاوي: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا؟، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ص ١٠.

(٢) نقلاً عن كتيب: «قادة الغرب يقولون: دمروا الاسلام أيدوا أهله» دار الأرقم (عمّان) (د.ت)، ص ٧٥.

(٣) أيضاً: نقلاً عن المرجع السابق: ٧٠.

(٤) صدر الكتاب بالألمانية عام ١٩٣٦م، وترجمه إلى العربية د. محمد شامة، والناشر: مكتبة وهبة في القاهرة.

(٥) يُراجع التعريف بالكتاب في مجلة المنطلق (بيروت) - العدد (٢٧)، جمادى الأولى ١٤٠٥هـ - شباط ١٩٨٥م، ص ١٠٣-١١٧.

(٦) أنظر مقاله: «فلنجهتد في ترشيد صحتنا الاسلامية...»، المنشور ضمن سلسلة كتاب الأئمة (قطر)، والموسوم بـ «مقالات في الدعوة والإعلام الاسلامي» لنخبة من المفكرين والكتاب، الدوحة، رجب ١٤١١هـ، ص ١٤٤ وما بعدها.

رجالاً الغرب تنظر بتفاؤل إلى عودة الاسلام، كما هو الحال مع «جيم موران» (عضو لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الأمريكي) حيث قال عام ١٩٩٦م: «أعتقد أن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن الاسلام وقرن الثقافة الاسلامية، وستكون هناك فرصة لاحتلال مزيد من السلام والرفاهية في كل بقاع العالم»^١، فيما يؤكد أبو الحسن الندوي: «لا نظام راشد، ولا أمل في السعادة إلا في تحوّل القيادة والقوة من الغرب المادي الأناني الذي لم يعد قادراً على اسعاد البشرية ولا رغبة له فيه إلى من يحمل للعالم والانسانية روحاً جديداً، وتصميماً جديداً، ويعتبر نفسه مسؤولاً عن ذلك امام الله، مكلفاً به من قبله، وهو المسلم الذي ينتظره العالم من جديد، ويهيب به شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال، فيقول: «لقد مثل الأوروبيون في العصر الحديث دور جنكيز وهولاكو، وأصبح العالم كله خراباً يباباً باغارتهم وغزوهم، يا بني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته»^٢.

وفي التفاتة دقيقة، يشير د. عماد الدين خليل إلى أن مآل المثقف الغربي الذي تثقله أزمته الحضارية لن يجد غير الاسلام حلاً حقيقياً يأوي إلى كنفه: «... ومرة أخرى فاننا على ضوء هذه الأزمة التي تعانيها الثقافة الغربية نستطيع أن ندرك لماذا توجه حشد من المثقفين عبر الربع الثاني من القرن العشرين صوب الماركسية، إنه لم يكن توجهاً حرّاً بمعنى الكلمة، لكنه ارتقاء المرهقين الباحثين عن الخلاص بأية طريقة، ومن أي برنامج يمتلك رؤية عقيدية شاملة، حتى ولو كان الذي يصوغها هو الشيطان!

لكن المشكلة التي سرعان ما تبدّت لهؤلاء الذين ارتموا في أحضان الماركسية أنها الأخرى تنبع من البئر نفسها التي يشكل ماؤها نسيج الثقافة الغربية وينفخ في عروقها... فما ثمة بدّ من الارتداد ككرة أخرى، بحثاً عن حل أكثر قبولاً وأقدر على تلبية طموح الانسان؛ بما انه انسان لا حيوان اجتماعي، ولا مجرد أداة ميكانيكية، أو رقم مضاف إلى الشمال أو اليمين».

ويمضي «الدكتور عماد الدين خليل» في تبين أهمية الحل الاسلامي لاشكاليات

(١) يُراجع اللقاء معه في مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١١٩٠)، ١٥-٢١ شوال ١٤١٦هـ / ٥-١١ مارس

١٩٩٦م، ص ٢٠-٢٣.

(٢) كتابه: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ط ١٠، الكويت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ص ٢٩٧.

المثقف الغربي فيقول عنه أنه «حل يمكن المثقف الغربي من التحقيق الذاتي المفقود، وإذا كانت الأكثرية القلقة لم تقدر - لأسباب شتى ليس هنا مجال تحليلها أو حتى الإشارة إليها - على أن تجد طريقها صوب الهدف، فإن في اسلام «ليوبولد فايس» و«غارودي» إشارة مؤكدة على أن هناك من يقدر على الوصول، وعلى أن رحلة البحث عن المصير المتفرد لحجم الانسان، ستؤدي ثمارها بإذن الله.

ومعنى ذلك ان المستقبل كفيل بتقديم المزيد من هذه الحالات^١ ومعنى ذلك أيضاً أن البديل الاسلامي المتفرد قد يفرض وجوده في الساحة الاوروبية في يوم ما، فلا تستأثر المادية بالساحة، ولا تسوق خمورها الفكرية العقل الغربي إلى الجبن والادمان^٢ ! إذن، المستقبل المنظور مع البديل الاسلامي، والمستقبل المأمول للبديل الاسلامي وحده، وليس أمامنا إلا عبور الفجوة.

تحديات الألفية الجديدة:

وبعيداً عن استشراف المستقبل البعيد، واجترار الماضي التليد، فإن نظرة فاحصة للواقع سنجدته مثقلاً بالعجز. ومهما تحدث المتحدثون عن عظمة الاسلام وخلود رسالته وكمال شريعته، ومهما شهد المنصفون من المؤرخين بما كان لنا - نحن المسلمين - من فضل على الدنيا في عصور ماضية.. فإن غبار الجدل الساخن الذي يثور حول تلك القضايا كلها لا يلبث أن ينجلي عن واقع مرير لا سبيل إلى انكاره.

إن المسلمين يقفون اليوم في مأزق تاريخي، يتمثل في المفارقة الهائلة بين شعاراتهم المرفوعة، ومبادئهم المعلنة، وتاريخهم الحافل بصور العطاء الحضاري.. وبين حاضرمهم الذي ينطق بتراجعهم عن مواقع الريادة، وتوقفهم عن مواصلة العطاء في أخطر ميادين العلم والثقافة، واعتمادهم على غيرهم في أكثر ما يحتاجون اليه في معاشهم وأبنية مجتمعهم. ودخولهم تبعاً لذلك مجتمعين ومتفرقين في دوائر النفوذ السياسي والاقتصادي لدول كبرى تحرص على استدامة تبعيتهم لها، كما تحرص على اتساع الفجوة التي تفصل بينهم وبينها..

(١) للمزيد من الاطلاع على ظاهرة اعتناق كبار المفكرين والعلماء والفلاسفة والرياضيين.. وحتى الفنانين، يُراجع كتاب «الاسلام والغرب: الوجه الآخر» لكاتب السطور، طهران، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢) د. عماد الدين خليل: قراءات في الفكر الغربي؛ غياب البديل، مجلة الأمة (قطر) - العدد (٧١)، ذو القعدة ١٤٠٦هـ - تموز (يوليو) ١٩٨٦م، ص ١٠.

هذه الفجوة هي التي تباعد في حسابات أهل هذا الزمان ومؤرخيه وباحثيه بين عالم متقدم يملك أدوات النمو الاقتصادي والاجتماعي ويستخدمها لتحقيق المزيد، ويعيش الناس فيه في ظلال وارقة من ثمرات هذا النمو.. وعالم نام أو متخلف، قعد به أهله أو قعدت بهم ظروفهم عن حيازة تلك الأدوات، فأحاطت به المشاكل وتوقفت أو تناقلت خطاه في استخدام ما يملكه من أدوات النمو.. وتخلفت صور الحياة على أرضه من ملاحقة القفزات التي حققتها شعوب العالم المتقدم.. ومع اتساع الفجوة بين العالمين، انتقل زمام القدرة على التأثير والتحكم في مصائر العلاقة بين الشعوب، لتستقر في أيدي الدول الكبرى المتقدمة.. وأحاط العجز والضعف بالشعوب اللاهثة وراء اللحاق، وصار بعض الباحثين عن صورة مستقبل الحياة على هذا الكوكب يتحدثون عن تقسيم جديد، تتراجع فيه الشعوب النامية إلى حيث ينحصر دورها في خدمة الشعوب المتقدمة، دون أن يكون لها اسهام في بناء الحضارة الجديدة أو حق في المطالبة بمكان.. أي مكان!! على خريطة القوى الفعالة التي تنقسم بينها ثمرات التقدم، وتحتكر التنعم بآثار الجهد المبذول في بناء تلك الحضارة.

والسؤال الكبير المعلق اليوم فوق رؤوس كل المسلمين وكل العرب هو سؤال واحد: هل إلى عبور هذه الفجوة من سبيل؟ وهل لنا -نحن المسلمين والعرب- مكان على خريطة المستقبل يصنع نسيجها من خيوط الحاضر الذي نعيش فيه؟^(١)

بعبارة أخرى: هل يمكن أن يكون لنا نظام في ظل التخلف والتبعية التي تحياها الأمة؟ وهل يمكن أن يتحقق لنا ذلك في ظل غيبة الانسان، وتهميش حقوقه وواجباته وبيع حريته وأدواته الانتاجية «للغير» دون استئذانه أو استشارته؟ وهل يمكن أن يلعب المسلمون دوراً ما في التحدي الحضاري المطروح عالمياً في ظل التبعية الفكرية، وتغييب كل الأدوار الوطنية والقومية والاسلامية الفاعلة، في ظل نظام «شرق أوسطي» يطالب بامتلاك «السوق» و«المعدة» و«العقل» و«الأمعاء»؟^(٢) وفي ظل «العولمة» التي دشنت عهداً فظاً من العدوانية والرعب وقيادة المجتمع الدولي وحتى حضارته إلى المجهول؟

(١) د. أحمد كمال أبو المجد: المسلمون وعبور الفجوة، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٣٥٠)، جمادى الأولى

١٤٠٨هـ - يناير (كانون الثاني) ١٩٨٨م، ص ١٨.

(٢) تراجع تعطية ندوة «العالم الاسلامي والتحدي الحضاري» في مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٢٢٤)،

جمادى الآخرة ١٤١٧هـ - ٥ / ١١ / ١٩٩٦م، ص ٥٣.

لقد كانت هذه الأسئلة وغيرها من التساؤلات الخطيرة المطروحة مدار نقاش واسع، في العديد من المؤتمرات والمنتديات والندوات. ومن بين أبرزها ندوة «العالم الاسلامي والتحدي الحضاري» التي عقدتها رابطة الجامعات الاسلامية في القاهرة في الفترة من ٢٨-٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦م. حيث تمت مناقشة سبعة عشر بحثاً في ست جلسات عمل حيوية، شارك فيها أكثر من مائة مفكر وكاتب وأستاذ جامعي. ومن الأوراق الهامة التي نوقشت: دور المجتمعات الاسلامية في مواجهة التغريب، اشكالية الاصاله والمعاصرة، مدى أهمية الهوية الثقافية الاسلامية في ظل النظام العالمي الجديد، كما ناقش المدعوون مشكلة التخلف الحضاري عند المسلمين بأبعادها التربوية والاجتماعية والاقتصادية، وحتمية الشعور بالذات في هذه الفترة من فترات «التميع» الحضاري، وأثر الانتماء إلى الأصل والذات في ادراك الدور الحضاري في عالم الشهادة.

وانتهت الندوة إلى أهمية تقديم دليل عمل للعالم الاسلامي لمواجهة المشكلات الراهنة من خلال دراسات «غائية» تستهدف الوصول إلى صورة مستقبلية أكثر إضاءة عن طريق قراءة الماضي والوصول إلى آفاق المستقبل في ظل «المعلوماتية» العالمية واحصاءات الحاسوب. كما أكدت الندوة في بحوثها ومناقشاتها على التميز الحضاري لدى المسلمين، وأهمية احساسهم بهذه الخصوصية الحضارية الانتقادية للعالم، لا سيما والمسلمون يملكون كل أدواتها المحلية، وينتظرهم الآن دورهم العالمي لأداء هذه الرسالة، خصوصاً في مجالات الأسرة والمجتمع والأخلاقيات، والمجال الاقتصادي الذي أغرق منطقنا في ظلمات الديون والاستهلاك، والمجال السياسي الذي طرح كل الأنظمة الفاسدة التي لا تتناسب مع آمال وطموحات الشعوب الاسلامية^(١).

إن حاضر الاسلام مليء بتحديات يتوقف مستقبله على كيفية ومدى مجابهته لها، وهذه التحديات عديدة ومتشابكة، وقد لخصها المستشرق «هربرت جوتشالك» بما يلي: النزعة القومية، وفقدان التقدم العلمي، والانعزال السياسي، والنزاع مع الجيران، والانشغال بالمصالح الخاصة. ويرى المستشرق ان الاسلام يشتمل على العناصر التي تمكنه من التغلب على كل هذا، وأنه إذا استطاع هذا، فسوف يكون المستقبل له^(٢).

(١) المرجع نفسه.

(٢) يُراجع كتابه «الاسلام في الفكر الأوروبي» ترجمة د. محمد شامة، وعلى غرار «بول شمتز» لا ينسى

من البديهي جداً أن يكون المسلمون ، في ظل التراجع الحضاري ، أهم المتضررين من هذا الخلل ، ومن الطبيعي جداً أن تستغل القوى المتحفزة للهيمنة كل الثغرات ونقاط الضعف المتاحة لها في جسد الأمة ، للنفاذ من خلالها وضمان استمرار سيطرتها ، وهذا ما تملّيه قوانين الصراع المادي ، في غياب مبادئ التنافس الشريف والمدافعة والمغالبة الإيجابيين .

ولا غرابة كذلك في كون العديد من هذه الثغرات ونقاط الضعف هي من كسب أيدينا ، بل من كسب نخبنا الحاكمة والمثقفة بالدرجة الأولى ، ولو أن بعضها أسهم في إيجاده أو تغذيته دهاقنة النظام العالمي الاستعماري القديم ، وخلفه النظام العالمي التحكيمي الهيميني الجديد . ان كل نقطة ضعف أو ثغرة تشكّل تحدياً لوجود الأمة وكيانها ، وعائقاً أمام تقدمها ورفيها ووحدها .

وفيما يلي استعراض سريع لبعض هذه التحديات - على سبيل المثال لا الحصر - في كل من : المجال الاجتماعي والثقافي والاعلامي ، ثم في المجال السياسي والدولي .. وأخيراً في المجال الاقتصادي والمالي^١ .

وتستخدم ، هنا ، العديد من الأدوات والسياسات الفتاكة التي أحسن استغلالها أقطاب النظام العالمي القديم والجديد ، ومن هذه الآليات :

آليات للاختراق الثقافي :

حيث حرص النظام العالمي - قديمه وجديده - على اختراق ثقافة الأمة بتكوين نخب متغربة لا تدين بالولاء لحضارتها وأمتها ، وانما ولاؤها الأول والأخير لثقافة الغرب

«جوتشالك» توجيه تحذيراته للدوائر الغربية المعنية من معيّة تنامي القدرات في العالم الاسلامي . فبالرغم من أنه يؤكد على التاريخ العريق للإسلام وللحضارة الاسلامية ، وعلى أن الاسلام قادر على حل تحديات المجتمعات الاسلامية لامتلاكه مقومات قادرة على الوصول بهذه المجتمعات إلى أرفع المستويات الحضارية ، بالرغم من أنه يؤكد على ذلك إلا أنه يمكن أن نستشف بين سطوره الخشية على أبناء وطنه من الغربيين من ذلك الدين ، والحرص الذي يجب أن يتوخاه في معاملاتهم معه ، والرغبة في التخطيط للتصدي له . (راجع تعريف بالكتاب في مجلة العالم (لندن) - العدد (١٧٥) ٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٨٧م - ٢٣ شوال ١٤٠٧هـ ، ص ٣٤) .

(١) استعنا بشكل أساسي على المقال القيم : «العالم الاسلامي في ظل النظام العالمي الجديد» ، للأستاذ عبدالسلام بلاجي ، مجلة «قضايا دولية» (اسلام آباد / باكستان) - العدد (٣٧٥) ، ٨ ذو القعدة ١٤١٧هـ - ١٧ مارس ١٩٩٧م ، ص ٣٠ - ٣٢ .

وحضارته. وقد شكلت هذه النخب - وما تزال - رأس حربة في معركة السيطرة على مقدرات الأمة وتسخيرها لمنفعة الغير ومصلحته لا لمصلحة الأمة وفائدتها. وقد حرص أقطاب النظام العالمي على تولية مقاليد الأمة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية.. لهذه النخب الوكيله له بدعوى التحديث والتحضير والتمدين.

ولا يختلف أحد في رغبة الأمة في الاستفادة من تجارب الأمم السابقة والمعاصرة وخبراتها، إلا أن الأمر هنا لا يتعلق بالاستفادة والتلاقح، بقدر ما يتعلق باللاحق والتبعية الفكرية عن طريق نخب من الأصناف المنحطة التي لا تخلو منها أمة من الأمم، حيث يتلقى هؤلاء كافة أصناف الدعم لنشر أفكارهم، وقمع كل أشكال المقاومة له تحت لافتة التزمّت والانغلاق (يمكن هنا ذكر عدّة أمثلة منها: سلمان رشدي، تسليمه نسرين)، ويعمد الاعلام «العالمي» عادة إلى تلميع شخصيات من هذا النوع بغرض جعلها رموزاً للتحرر الفكري، وتحويلها إلى ضحايا لاضطهاد المسلمين بحكومات وجماعات وأفراداً. وقد يكون من هؤلاء أناس مبتدئون يتلمسون خطاهم في البحث والتأليف، فتقع لهم أخطاء تتلقفها الدوائر المختصة باصطياد الضحايا، وتقيم ضجيجاً وصخباً من حولهم مما يقطع عليهم طريق الرجعة الى الجادة، وينزلق بهم إلى مزالق العمالة الصريحة أو الموضوعية ضدّاً على أمتهم.

وفي الجانب الاجتماعي:

تبتغي هذه الآليات التحكّم في المد البشري للأمة بالتقليص من نموها السكاني، بدعوى أقرار التوازن بين النمو الديمغرافي والخيرات الاقتصادية، فبدل اقرار خطة لاعادة التوزيع والتنظيم السكاني بين مختلف أقطار وشعوب الأمة، يتم تشجيع ودعم سياسات جلب العمالة والمرييات وخادمات البيوت من خارج جسم الأمة، وذلك للعمل تدريجياً على تغيير البيئة الاجتماعية والسكانية لبعض الشعوب المسلمة، وخاصة تلك التي تحتضن ثروات هامة (دول الخليج مثلاً) تمهيداً لتعميم هذه الخطة لاحقاً.

أما فيما يتعلق بالمرأة والأسرة والعلاقات الجنسية، فتتجه الضغوط إلى فرض مفاهيم وسلوكيات معينة حولها، وذلك بهدف تدمير الأمومة والأسرة المتماسكة -عالمياً- وافشاء الاباحية الجنسية، والشذوذ الجنسي، والمثلية الجنسية، ومفاهيم شاذة للأسرة البديلة. وقد بذلت جهود، ومورست ضغوط، وعُقدت مؤتمرات لهذه الغاية (مؤتمرات عدّة حول المرأة والتنمية: مؤتمر القاهرة حول السكان والتنمية في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤م، مؤتمر بكين

حول المرأة في أيلول ١٩٩٥م)، حيث تركزت الجهود بصفة خاصة على المرأة باعتبارها حجر الزاوية في تماسك الأسرة المسلمة والشعوب والأمة الإسلامية، وبالأمكان تحويلها إلى مدمر ذاتي للكيان الأمة وقيمها وأجيالها.

في الجانب الإعلامي:

نلاحظ توجهاً وتدفقاً إعلامياً مدمراً يستهدف غزو أفكار الأمة عامة، والشباب والمرأة خاصة، حيث تتم عمليات مكثفة لغسيل الأدمغة وفق خطط مدققة تصرف عليها أموال طائلة، وتسخر لها أدوات ووسائل عديدة كالبعثات المستترة بالتبشير الصليبي، والبعثات التعليمية، والمساعدات الاجتماعية، والاذاعات والمحطات التلفزيونية، وشبكات الانترنت، والنواسخ (الفاكسات)، والكتب والنشرات، والصحف، والأشرطة السمعية البصرية، ورحلات الشباب. وتعمل كل هذه الأدوات وغيرها، وفق خطة تركز على دعمتين أساسيتين: أولاًهما إزالة المناعة الذاتية والحضارية ضد الفكر الدخيل، أو على الأقل اضعافها في المرحلة الأولى، وثانيتها تمرير الفكر البديل بالتدريج وعلى جرعات. ويتمثل الفكر البديل المراد تثبيته في مجموعة من القيم والأخلاق والتقاليد منها:

- ١ - على المستوى القيمي والعقدي: كسر قداسة المعتقدات الدينية باعتبارها السياق الواقي الرئيسي لمناعة الأمة. وذلك تحت ستار حرية التفكير والاعتقاد والأخوة البشرية والتسامح الديني.. وهي مفاهيم حقيقية يتم تكييفها بشكل مميّع يخدم مقتضيات الاختراق الاستعماري ويحقق مصالحه، ويقضي على وحدة الأمة وتمايزها العقدي وتماسكها صفاءً مرصوفاً أمام أي اختراق من أي نوع. كما يرمي هذا المنحى إلى تكريس عقائد بديلة بدعوى العالمية الانسانية، وتقاليد وعادات واحتفالات وأعياد ومناسبات من خارج المحيط العربي والإسلامي، من شأنها في النهاية تكريس تبعية فكرية وعقيدية لاشعورية.
- ٢ - على مستوى كيان الأمة وسمعتها: تشويه سلوك الأمة وجهادها (أفراداً وشعوباً ودولاً وجماعات) وكل تصرفاتها الهادفة إلى الدفاع عن مقدساتها وأراضيها وحقوقها وحريتها وكرامتها.. وذلك بالصاق مختلف التهم والنقائص بهذه التصرفات مثل تهمة الغلو والتطرف والارهاب التي تلاحق الحركات الثورية التحريرية، والدول القائمة بواجبها الأممي والقومي في اسنادها فتصبح دولاً داعمة للارهاب تتوجب محاصرتها.. وهكذا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد.. فما من حادثة ارهابية تتم اليوم في أي مكان من العالم إلا

وتبادر الإعلامية الاستعمارية إلى اتهام المسلمين بها واضطهادهم من أجلها وتشويههم بسببها، ولا تكون الحقائق قد انجلت إلا بعد أن تترسّخ صورة سيئة عن المسلمين في أذهان الرأي العام، فضلاً عن أنه لا يتم الترويج الاعلامي للحقائق المتجلية بنفس الزخم الاتهامي، والأمثلة على ذلك عديدة.

ومن الآليات الخطيرة للاختراق الاجتماعي؛ إثارة أو توظيف الدعوات العرقية والطائفية واللغوية كالمسألة البربرية في المغرب والجزائر، والمسألة الكردية في العراق وتركيا وايران، ومسألة الزواج في موريتانيا والسودان، والأقباط في مصر، والأرمن في آذربيجان، والسنة في ايران. ونظراً لحساسية هذه المسألة لابدّ من التذكير بالطرح الحضاري للأمة لهذه القضايا حيث الاقرار بالتعدد العرقي والديني واللغوي، والدعوة الى التعاون بين الجميع لمصلحة الأمة خاصة والبشرية عامة. وفي هذا السياق ضُمنت الاستمرارية لهذه المكونات وثقافتها وعاداتها وخصوصياتها منذ خمسة عشر قرناً، على خلاف المكونات الحضارية واللغوية والعرقية والدينية في أمريكا وأستراليا وحتى أوروبا (البوسنة مثلاً والجبل الأسود وكوسوفا ومقدونيا.. والبقية تأتي) وفلسطين المحتلة وغيرها.. حيث أبيدت أو أقبرت أو هجرت أو «طهرت» العناصر الأصلية لتحل محلّها عناصر أخرى دخيلة في فترات زمنية قياسية.

التحديات في المجال السياسي والدولي:

هناك ترابط وتداخل بين المجالات الثلاث المذكورة سابقاً، فما يتم تركيزه من مفاهيم في المجال الثقافي والاعلامي والاجتماعي، نجد تجلياته وتطبيقاته بادية في المجالين السياسي والاقتصادي، ولكن بآليات مناسبة، وهذه بعض الآليات المستعملة في هذا المجال:

آليات التلبيس المفاهيمي:

وتهدف إلى فرض مفاهيم الخضوع والاستسلام للهيمنة، بدعوى الواقعية والمعاصرة والبراغماتية، وتصوير المتمسكين بالكرامة والارادة بأنهم عدوانيون وخياليون ومثاليون وغير واقعيين.. وبمثل هذه الضغوط النفسية والمفاهيمية يتم الترويج للتطبيع مع العدو الصهيوني والاستسلام لارادته، تحت مسمى صناعة السلام، لبناء منطقة تعايش جديدة

شرق أوسطية، أو شمال أفريقية أو متوسطة، وتهدف المفاهيم المطروحة في هذا المجال إلى عزل العالم العربي بالخصوص عن محيطه وجواره الطبيعي والأقرب، والمتمثل في الدول الإسلامية الأفريقية والآسيوية، وربطه بمحاور أخرى ربطاً تبعياً وليس ربطاً ندياً.

آليات التخريب الداخلي :

والمقصود بها تشجيع أو تحريك أو توظيف أياد داخلية من طرف قوى الهيمنة العالمية، لتحقيق أهداف معينة تضر بالأمة، وتعود بالنفع العميم على أعدائها وخصومها، وقد تكون هذه الأيدي الداخلية، سلطة حاكمة، أو حزباً معارضاً، أو حركة مسلحة، أو حتى دولة كاملة، أو غير ذلك من الصفات وقد تنخرط هذه الأيدي في مخططات الأعداء طوعاً أو كرهاً، خوفاً أو طمعاً، رغباً أو رهباً، عن علم أو عن جهل، عن قصد أو عن غفلة... ولكنها في النهاية تسهم في إضعاف الأمة وخدمة أعدائها.

فمن هذه الآليات ما يمكن تسميته بسياسة التفتيت الداخلي؛ ذلك أن الاستعمار المباشر القديم فرض على الأمة سياسة التجزيء، بتقطيعها إلى مجموعة من الدول والدويلات (المجهرية)، لضمان السيطرة عليها وعلى خيراتها، وضمان استمرار تدفقها نحو المستعمر القديم / الجديد. وها هو الاستعمار يتحرك مرة أخرى لسلوك سياسة التفتيت، بعد نجاحه في التجزيء، وذلك بسعيه لتفتيت دول أخرى، بإنشاء كيانات مجهرية جديدة من صلب هذه الدول التي تقض مضجعه؛ إما لكونها تمتلك قوة عسكرية ضاربة كباكستان (دولة للسند، وأخرى للبنجات، وثالثة للبلوش) والعراق (دولة للسنة، ودولة للشيعية، ودولة للأكراد)، وإما لأنها تمتلك رصيдаً حضارياً وطاقات بشرية وموقعاً متميزاً كالجزائر (دولة للعرب، ودولة للبربر)، وإما لأنها تنزع الاستقلال بقراراتها وتحقيق كرامتها وتقوية نفسها كإيران (دولة للشيعية، ودولة للسنة، ودولة للأكراد) والسودان (دولة للزنج، ودولة للعرب، ودولة للنوبة)، وإما لأنها تعود تدريجياً إلى لاصطفاف مع أمتها - ولو ببطء - مثل تركيا (دولة للأكراد، ودولة للأتراك، ودولة للقبازصة)، وأما للضغط عليها وضمان استمرار سيرها في خط معين كالمغرب (دولة للصحراويين، ودولة لبقية المغاربة، وربما دولة للبربر) وكذلك مصر (دولة للأقباط، ودولة للمسلمين)

إن من شأن هذا المخطط، إذا نجح - إضافة لجروح جديدة في جسم الأمة، تضطرها إلى صرف جهود وطاقات كبيرة، واستغراق زمن طويل لمداواتها، في انتظار أن تنفتق قرائح

الاستعمار عن آليات جديدة لتدبير طاقات الأمة .

وهناك آلية أخرى وهي آلية التدبير الذاتي للمقدرات المتنوعة للأمة ؛ عن طريق صراعات داخلية أو جوارية بين دولتين أو أكثر ، ومن أمثلة الصراعات الداخلية : الصراع المسلح في الجزائر ومصر والسودان وأفغانستان والعراق والصومال وتركيا وطاجكستان واندونيسيا .. فهذه الصراعات لن تؤدي ، في نهاية المطاف ، إلا إلى حصد أرواح شباب الأمة ، وتدمير بنيتها الأساسية ، وتعطيل طاقاتها ، فضلاً عن إضعاف الأطراف المتصارعة فيها ، واستنزاف طاقاتها . وهذا ما ترومه الجهات الاستعمارية المحركة أو المشجعة ، وتجهله أو تتجاهله بعض الأطراف المتصارعة أو كلها .

أما الصراعات المماثلة ، على مستوى الدول الإسلامية ، فإنها تحقق نفس الغايات التدميرية للقدرات ، والاستنزافية للطاقات ، والاستتباعية للأعداء . وتتجلى هذه الصراعات في الحروب الشاملة ، أو النزاعات الحدودية المصطنعة والتي لا يخلو منها بلد إسلامي مع بلد آخر مجاور إلا نادراً . وكذلك النزاعات حول مصادر الثروة والمياه والطاقة .. وغيرها من الصراعات التي يمكن حلها بالاحتكام إلى منطق العقل والحوار ، بدل لغة التدبير والاحتراب التي تضعف الغالب والمغلوب ، وتسخرها معاً لمصالح وإرادة القوى المهيمنة في النظام العالمي الجديد .

وهناك آلية الابتزاز السياسي للأنظمة المتحكمة في دول العالم الإسلامي ؛ وذلك بتوظيف مفاهيم سياسية وإنسانية للضغط على هذه الأنظمة ، وتطويعها للسير في الطريق المرسوم ، والمفاهيم المستخدمة هنا هي من قبيل احترام الديمقراطية ، وحقوق الإنسان عامة ، وحقوق المرأة خاصة ، ومحاربة السلم العالمي ، ورعاية الارهاب ، ورغم نبل الكثير من هذه القيم فإنها تستخدم كآليات للابتزاز ، لأنه لا يلوح بها إلا في ظروف خاصة ، وبطريقة انتقائية فجأة أحياناً ، ووفق سياسة الكيل بمكيالين التي ما عادت خافية على أحد .

آليات تخريب ذات طابع دولي :

وتستعمل فيها الأدوات العالمية والشرعية الدولية المهيمن عليها من طرف الطغمة الاستعمارية القديمة - الجديدة ، وخصوصاً المتمثلة في ما يسمى بـ «مجلس الأمن» ، وهيئة الأمم المتحدة ، والمنظمات التابعة أو الموازية لها ، ومن ذلك :

أ - سياسة الإضعاف الاستراتيجي للأمة ، وتكريس تفوق أعدائها عليها ومنع كل

محاولاتها لاعداد قوتها الدفاعية الذاتية، وقد سلك في هذا المجال عدّة مسالك مأكرة منها:

- تحذير وتهديد بعض الدول المتعاونة من تسريب أي نوع من التكنولوجيا المتطورة لأي بلد اسلامي مثل الصين وروسيا وكوريا الشمالية.

- ومنها تدمير المنشآت والمصانع على مرأى ومسمع العالم ودون أي رد فعل منصف، كتدمير العدو الصهيوني للمفاعل النووي العراقي، والتلويح بضرب المفاعل النووي الباكستاني والإيراني.

- ومنها تسخير المنظمات والهيئات الدولية لنفس الغرض: العراق حالياً.
- ومنها سلوك سبيل الضغط بقطع المساعدات المختلفة: باكستان ومصر.
- ومنها سلوك سبيل التخويف والتشويه: ايران و«القنبلة النووية الاسلامية»!
- ومنها أولاً وأخيراً فتح العيون وبث الجواسيس لمراقبة كل محاولة للخروج من النفق وبناء قوة تحمي الأمة، أو تحقق التوازن مع أعدائها على الأقل.

ب - ثم هناك آليات الحصار والتطويق والاحتواء؛ وتهدف كلها إلى شل حركة البلد المستهدف واعاقته عن التقدم، أو تقديم بديل حضاري عالمي، أو تحدي الارادة الاستعمارية، أو محاربة أعداء الأمة، أو احتمال يقظة شعبية عارمة.. والشواهد على ذلك عديدة^١ ومن المثير للانتباه حقاً هو ان عناصر القوة وأدوات النهضة قائمة وموزعة على أجزاء أمتنا من أبناء هذا الجيل.. وكأنما هناك قوى شيطانية ذكيّة تقف لها بالمرصاد.. فكلما لاح أماننا أفق الرشد والصلاح.. استدرجتنا تلك القوى حيث تتبدّد طاقتنا، وتطيش سهامنا.. وترد كلّها إلى صدورنا»^٢!

التحديات في المجال المالي والاقتصادي:

الأمة الاسلامية لا تنقصها الخيرات ولا الثروات ولا الطاقات المتعددة والمتجددة، بل إنّ لديها الفائض في كل ذلك. فطاقاتها هي التي تحرّك العالم اليوم، وتمدّه بأسباب القوة والتقدم في الوقت الذي تقف فيه الأمة نفسها - في غاليبتها - في عداد المحرومين والمحتاجين والفقراء المتخلفين:

(١) المرجع السابق: بشيء يسير من التصرف.

(٢) مجلة العربي؛ مرجع سابق ٣٥٠: ٢٢.

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ
إنَّ الأسباب الرئيسية في هذه الحالة لاشك أنها من اجتراحنا، ذاتية من كسب أيدينا كل
على حسب علمه وموقعه ومسؤوليته، ولكن تكريس الحالة واستمرارها يسهم فيه إلى حد
كبير دهاقنة الاستعمار العالمي الجديدة من خلال الثغرات التي نوفرها لهم، وهو ما يتجلى
في المستويات التالية :

- مستوى نهب الخيرات والثروات التي تزرعها الأمة ؛ وعلى رأسها الثروات المعدنية
والفلاحية والغابية والسمكية وغيرها من الثروات الغزيرة التي تحوّل لدهاقنة النظام
العالمي الجديد بأثمنة رمزية تسمح لهم بتحقيق فوائض مالية هامة على حساب المنتج
الأصلي والمستهلك الفرعي (الذي قد يكون هو كذلك من الأمة). هذا فضلاً عن ضمان
تحريك دواليب اقتصادهم، وتوفير المواد الاستهلاكية لأسواقهم بجودة أحسن وأثمان
أنسب .

- مستوى فرض التبعية الاقتصادية والمالية لأقطاب النظام الاستعماري الجديد
ومؤسساته ؛ سواء المواد الاستراتيجية كالمواد الغذائية أو الأدوية أو الطاقة !! أو قطع
الغيار... أو بفرض وجهة الاقتصاد والأسعار والأجور، عن طريق مؤسساتهم المالية، أو
بتكليف سياساتنا الاستيرادية والتصديرية مع متطلباتهم ورغباتهم، أو بفرض أنماطهم
ومناهجهم ورؤاهم وبالنتيجة أدواتهم ورجالهم .

- مستوى تعويق الانطلاق الاقتصادي وفرض استمرار التخلف ؛ بمحاربة أية سياسة
للتوجيه والتخطيط والتحرر المالي، أو تحقيق الاكتفاء الذاتي، أو التصنيع الداخلي، وذلك
بفرض مناهج استرخائية توكلية استهلاكية تتنعم بالمظاهر ولا تهتم بالجواهر، أو بفرض
طرائق القروض المالية المرفقة بسياسات التدبير والتسيير التي تعيق التقدم الحقيقي،
مكتفية بتقدم مذهري خادع مثقل بالديون مقيّد بالتوجيهات والتعليمات، وحتى بعض
البلدان الاسلامية التي حققت معدلات هامة في النمو مثل اندونيسيا وماليزيا، فقد خُطّط
لاقتصادها أن يدور في فلك محدود يحقق أهدافاً معينة، ويسهم في ضخ المواد والخيرات
والفوائض والفوائد إلى جهات معلومة ولا يأس بعد ذلك أن ينعم بالفئات^١ .

(١) يُراجع القسم الثاني من مقال «العالم الاسلامي في ظل النظام العالمي الجديد»، مجلة قضايا دولية، مرجع
سابق ٣٧٦ : ٣٠ (١٥ - ٢١ ذو القعدة ١٤١٧ هـ - ٢٤ - ٣٠ مارس ١٩٩٧ م).

وماتزال الذاكرة تحتفظ بنتائج الأزمة الطاحنة التي عصفت باقتصادات دول النمر الآسيوية عام ١٩٩٧م، والتي توجهت أصابع الاتهام خلالها الى ؛ صندوق النقد الدولي، والملياردير اليهودي الأمريكي «جورج سوروس» ذي الصلات الوثيقة مع المخابرات المركزية الأمريكية، والملقب بساحر البورصة ورجل الأزمات المالية في العالم، الأمر الذي حدا برئيس الوزراء الماليزي «محاضر محمد» - والذي كانت بلاده أكثر دول النمر تضرراً - إلى توجيه اتهامه إلى اليهود بشكل صريح محملاً إياهم مسؤولية بعض ما حدث، ولا ننسى ما للعولمة من دور في الدمار الذي تعرضت له دول جنوب شرقي آسيا، وهو ما ذكره محاضر محمد في كتابه «صفقة جديدة لآسيا».

وقد ظهرت «العولمة Globalization» ومثلها «النظام العالمي الجديد» في قاموس الحضارة المادية المعاصرة للتعبير عن اتجاه جديد في التعامل الدولي، يهدف إلى تعميم النموذج الغربي؛ سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، وعلمياً.. ويسعى إلى اختراق الغير، وطمس السمات والقسمات التي تتشكل منها خصوصيات الأمم. والشعوب، خاصة المستضعفة منها، وإعادة رسم العالم بتقسيمه إلى نوعين: (الغرب.. والباقي).^١

وفي ضوء هذا الخطر الكبير الذي يتحرك في الفضاء الكوني، يجب أن ندرك بداية أن تحديات المرحلة القادمة لن تختلف جوهرياً عن تحديات المرحلة السابقة، وذلك ما دام الغرب عموماً، وأمريكا خصوصاً، يفرضان على العالم النظام القائم على الامبريالية والسيطرة وفرض التبعية على الشعوب الأخرى. وهذا يعني أن نفهم العولمة التي تشكل أولى تحديات القرن الجديد باعتبارها امتداداً لمراحل الاستعمار والامبريالية والهيمنة الغربية بل دافعة كل ذلك إلى مستوى أعلى يُراد له أن يصل حد فرض ثقافة واحدة على العالم كله، وجعله سوقاً واحداً تتحكم بها الشركات متعددة الحدود والجنسية تحت هيمنة عسكرية أمريكية - أطلسية، وفي منطقتنا عسكرية صهيونية كذلك.^٢

إن الترويج للعولمة على أساس حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس

(١) لمزيد من الاطلاع على هذه النقطة تُراجع وقائع المؤتمر الدولي الرابع للفلسفة الاسلامية الذي عقدته كلية دار العلوم في جامعة القاهرة حول «الاسلام في عصر العولمة».. في مجلة المجتمع، العدد (١٣٥٧)، ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩/٧/٦، ص ٤٨.

(٢) منير شفيق؛ لقاء معه في صحيفة كيهان العربي (طهران) - العدد الاسبوعي: ٧ صفر ١٤٢٢هـ - اماريس

المال والمعلومات يحمل خدعة تاريخية كبرى تتستر بها أمريكا لضمان سيطرتها على العالم، كما أن تفسير العولمة تفسيراً اقتصادياً فحسب - كما يحاول كبار منظريها - مغالطة كبرى كذلك، بالنظر إلى نسقها الايديولوجي والنفسي والاعلامي الذي يقول على أساس فكرة اكتساح كل ثقافات واقتصادات وسياسات العالم وبناء الاجتماعية تحت الشعار نفسه، وغطاءات الديمقراطية، وحقوق الانسان وحماية الأقليات، وبرامج الشراكة من أجل السلام، ضمن مقولة الحضارة المنتصرة بغية تهيمن العالم في القالب الأمريكي^١. إن العولمة ترمي إلى إعادة صياغة جديدة للعالم بهراوة أمريكية. وبالإمكان الرجوع إلى الكتاب القيم «فخ العولمة» للكاتبين الألمانيين: هانس - بيتر مارتين، وهارالد شومان^٢ اللذين اختزلا العنوان بـ «الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية».

عقبات في الطريق:

وبالإمكان أجمال أبرز تحديات الألفية الجديدة ومخاطرها بتحدي: الهوية، المرجعية التي يحتكم إليها المسلمون، التخلف، العدالة الاجتماعية، المرأة، الإيمان... والأخلاق. ولعل الإشارة إلى هذه التحديات بصراحة ووضوح، ومن ثم تحديدها، وفق منهجية شاملة تراعي الأولويات ضرورة ملحة تحفز إلى تسليط الأضواء عليها، وإدارة الحوار حولها، وإيجاد الحافز للتخلص منها. والوعي بالمشاكل - على أي حال - هو أول الخطى على طريق الخلاص منها.

وليس ثمة شك أن مسيرتنا على هذا الطريق بشقيه: تحديد الهوية، والانطلاق على طريق مرسوم... تواجه أزمة حقيقية، وإن ظواهر هذه الأزمة تتمثل في معوقات رئيسية تكاد تلازم منهجنا في التفكير، ومن أبرز هذه المعوقات^٣:

(١) سالم بن عبد الجبار آل عبد الرحمن: «طرق العولمة»، مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٤٤٥)، ١٣ محرم ١٤٢٢هـ - ١٤ / ٧ / ٢٠٠١م، ص ٦٦.

(٢) للمزيد من الاطلاع على الموضوع؛ يراجع الكتاب القيم: «فخ العولمة»، ترجمة د. عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، ١٩٩٨م، كما صدرت العديد من الكتب والدراسات حول العولمة بين مآدح وقادح.

(٣) اعتمدنا بشكل أساسي هنا، على كتاب «حوار لا مواجهة» للدكتور أحمد كمال أبو المجد، سلسلة كتاب العربي (٧)، (الكويت): ١٥ أبريل ١٩٨٥م، ص ١٤٦ - ١٥٣.

أولاً: تبسيط التجارب

إن كثيراً من مثقفينا، والمتصدين لمناقشة حياتنا الثقافية، واتخاذ المواقف في أخطر جوانب حياتنا الحضارية يميلون ميلاً عاماً إلى «تبسيط» التجارب الثقافية والحضارية - لنا ولغيرنا - ويتجهون إلى تصوّر الحياة تصوراً «مقولباً» جاهزاً... أو «معلباً» كما نقول.. إن من الأسباب الرئيسية لهذا الميل نحو «تعليب» الظواهر «وتثبيتها»، إحساس داخلي بالعجز عن مواجهة تحديات الحاضر مواجهة جدية تقوم على استكناه التراث باعتباره ذاكرة «الذات الحضارية» وسجل رصيدها، ثم تحليل هذه الحضارة، وتحديد ما ينفع منها وما لا ينفع، ثم معرفة الواقع القائم، معرفة احاطة بالدقائق... وأخيراً صياغة منهج حركة إلى المستقبل، يوظف التراث كما يوظف معطيات الحاضر المحلي والعالمي لخدمة أهداف الحضارة. (إن الإحساس بتعقيد هذا المنهج، وصعوبة ممارسته، هو الذي يغري بالالتجاء إلى «الحلول» الجاهزة، كما يغري أحياناً بالاصرار على أن تلك الحلول لا تقبل التطعيم بغيرها، وهو اصرار قد يصدر بدوره عن رغبة خفية في تجنب اعباء عمليات التطعيم ومشقاتها والتوفيق بين معطيات الثقافات المختلفة...).

ثانياً: أحادية التفكير

إن العلاقة بين بعض مكونات الحضارة الإسلامية المعاصرة، كما تقوم في فكر ووجدان المسلم المعاصر، علاقة صراع وخصومه لا علاقة تنوع واثراء متبادل.. والجيل المعاصر مشغول بهذه الصراعات، متددود إليها، مذهول بها عن قضايا الحقيقة ومشاكله الملحة. وقد كان يمكن للتنوع الطبيعي الذي تزخر به حضارة الأمة أن يكون مصدر ثراء يستلهمه الجيل المسلم المعاصر، وهم يتوجه للقاء مستقبله بكل ما يحمل من تحديات ومهام وآمال ولكن هذا الجيل انقسم على نفسه.. فأنحاز فريق منه لبعض مكونات ثقافته وأنحاز غيره لبعضها الآخر.. حتى أن ثقافتنا لا تزال حبيسة حروبها الأهلية الداخلية التي يمتد بعضها قروناً، ولا نرى لبعضها الآخر نهاية منظورة. هناك المنحازون للماضي على اختلاف عصوره، وعلى تنوع ما وصل إلينا من محتواه الثقافي، وهناك المنحازون للحاضر وحده، الرافضون - في اصرار مطلق - لكل ما تركه لنا الماضون عبر الزمان المتحرك ومن غرائب سلوكنا الحضاري أن كثيراً من مثقفينا يصرون على هذه «الواحدة» في علاقتهم مع الزمن.. (فمنهم من تشده إلى الماضي كل وشائج المودة والرضا والالتزام، ثم

هو يريد بعد ذلك أن يحمل هذا الماضي بأثقاله كلها على كتفيه وأن يفرضه - هكذا - فرضاً على الحاضر والمستقبل جميعاً. ومنا من يختلج كيانه غضباً وكرهية اذا ذكر الماضي وأهله وتجاربه .. كأنما هو قادر على أن يخوض رحلته المستقبل «منقطعاً» عن جذوره وأصوله ورصيده كله).

إنّ الخطر الحقيقي في هذا الصراع يكمن في أمرين؛ انه يحول دون تكوين «اتفاق اجتماعي» حول العديد من القيم الأساسية التي تتناول الحياة اليومية للجيل كله. وفي هذا ما فيه من تمزيق لوحدة النفس، ووحدة المجتمع على السواء، وهو تمزيق يصيب «الهوية الثقافية» بالقلق والتذبذب والغموض.

الثاني .. انه يستغرق العقول والنفس ويصرفها عن التوجه للقضايا الكبرى التي يتوقف عليها مستقبل الحضارة كلها. ان المعوقات التي نتحدث عنها تتحول إلى كارثة حقيقية، حين تحوّل الجيل كله إلى جيل يجتر مشاكلة، ويدور حول نفسه، ولا يحرك - حين يحرك - إلا في البحر. ان تصفية هذه المعوقات - فيما نؤمن به - ينبغي أن تكون المهمة المقدسة لرواد الثقافة والفكر. وبغيرها سيكون الأمل في اللحاق بالعصر وهماً كبيراً، يبتعد أفاقه ولا يقترب.

ثالثاً: غياب الإبداع

ذلك إننا أمة مسبوقة في ثقافتنا المعاصرة، ولحاقنا بحضارة العصر ضرورة «حياة» .. وبغير الإبداع في مجالات العلم والثقافة سيظل مكاننا - في أحسن الفروض - مكان التابع والمقلد. ومن القول المعاد التأكيد على العلاقة بين الإبداع والحرية. فالإبداع عطاء خيال حر، وعقل تتفتح له الآفاق واردة تملك الاختيار .. وواقعنا المعاش لا يوفر شيئاً من ذلك. نعم ان حياتنا العملية والثقافية لم تخلُ أبداً من مبدعين. ولكنهم «فلتات» قدرية تشق طريقها وسط ركام هائل من أنظمة القمع والقهر وتجريم الإبداع والمبدعين. وليس الحديث هنا عن الأنظمة السياسية وحدها .. وانما الحديث عن الأنظمة السياسية والاجتماعية والتربوية .. عن البيت والمدرسة والمصنع والنادي وديوان العمل ..

ان غياب هذا الإبداع قد فتح الباب على مصراعيه أمام الرتابة والفجاجة والسطحية .. وجاءت موجات مختلفة الأشكال من الهزّات الاجتماعية أوقعت الثقافة في أيدي حفنات قليلة من المتاجرين بها، الخارجين - من حيث الفكر والانتماء - من قاع المجتمع وأدنى ما

فيه فسّدوا الطرق كلها أمام الانتاج المتميّز الرفيع، وروّجوا بكل ما أوتوا من قوّة ومال لفيض من الأعمال الأدبية والفنية باللغة الهبوط، لا تحرّك فكراً ولا تستثير خيالاً. ولا تخدم قيمة نافعة. تقتل وقت الجيل ولا تستخدمه. وتسطّح الواقع ولا تجمععه أو تتأمّل عناصره. انها باختصار نتاج تعس يقدمه محرومون من الثقافة. يستخدمون في تقديمه - مع الأسف - أرفع أدوات الثقافة وأكثرها تأثيراً وفاعلية.

رابعاً: الفجوة العلمية

والثقافة العملية المقصودة هنا هي ثقافة الرياضيات والعلوم الطبيعية. هي المعرفة بالقوانين الداخلية للعلوم الأساسية، وبالنظمة الخاصة لأدوات الحضارة الحديثة في مجالات علوم الطبيعة، والفضاء، والكيمياء، واختزان المعلومات، وطّي المسافات. إن من نافلة القول التنبيه إلى الآثار الخطيرة للثورة العلمية والتكنولوجية ذات الحلقات المتصلة على صورة التوازن بين الأمم والشعوب. ان القيادة في عصرنا والعصور القادمة معقودة - بغير نزاع - للذين يحوزون هذه المعرفة. ويقدرّون على استخدام تلك الأدوات. ولقد تأخر المسلمون طويلاً في الالتفات إلى هذه الحقيقة، وتأخرت نظمهم التعليمية في أخذها بالحسبان، ولا يزال كثير من مثقفينا يتسكعون في أروقة الجدل العقيم حول قضايا لا تنفع، ذاهلين عن الحقيقة الكبرى التي لا مفر من مواجهتها.. وهي ان استيراد «ثمرات هذه الثورة العلمية والتقنية» قد يكون علامة من علامات الثراء، ولكنه لن يمنحنا الحق في عضوية هذا النادي..

خامساً: غياب الأهداف

انّ حركة الفكر الانساني في ميادين الثقافة والحضارة لا يمكن أن توصف بالنمو أو التقدّم إلا بمقدار اقترابها من أهداف معينة حددها الناس لأنفسهم أو حدّدت لهم، بل ان جوهر «المسألة الثقافية» - فيما يرى د. أحمد كمال أبو المجد - هو تأمين خدمة هذه الغايات من خلال الابداع الفكري والوجداني. ودون تهويم لا آخر له وراء دراسات أخلاقية وفلسفية تتصل بغايات الوجود الانساني، نشير - في غير موارد - إلى أزمة القيم التي يعيشها الوطن الاسلامي.

وإذا كان الاسلام - في عقيدة د. ابو المجد - هو المالىء الأكبر لتاريخنا وحاضرنا

الثقافي فان مهمة الانسان في التصور الاسلامي مهمة مزدوجة، شقها الأول السيطرة على الطبيعة وتعمير الكون بقوانين العلم، وشقها الثاني ترشيد العلاقات الانسانية باشاعة العدل، والحرية، والسلام، والأخوة الحميمة بين الناس.

وإذا كان التخلف - بدرجاته المختلفة - يهدد الشق الأول من مهمة «الانسان» فان التقدم المادي - بدرجاته المختلفة - يمكن أن يهدد شقها الثاني. وفي مجتمعاتنا المسلمة التي يلتقي فيها الفقر الفاحش بالثراء الفاحش، وحيث يستقر التخلف الشديد جنباً إلى جنب مع ومضات قليلة من التقدم الشديد، تحتاج الثقافة التي نبنيها إلى نوعين من القيم:

قيم الحركة والنمو والتقدم المادي، وقيم الرشد والحفاظة لنوعية العلاقات ونوعية الحياة كلها.. والفكر الذي لا يخدم قيم العمل، واحترام الوقت. واتقان الاداء، والاعتماد على المنهج العقلي النقدي.. فكر متخلف لا يخدم الثقافة، ولا يعين على تحقيق مهام اللحاق، وكذلك فان الانتاج الثقافي الذي يسقط من حسابه قضايا الحرية، والعدل، واشاعة الأخوة بين الناس فكر يهدد الحضارة في صميمها، ويسقط من حركة الثقافة، التنمية عنصر الرشد الذي هو معيارها وركنها الركين.

ان هذه المعوقات الخمسة هي أسلحة جريمة «الاغتيال» التي يتعرض لها مستقبلنا كله؛ الفكري والسياسي والحضاري على السواء^١.

كما وان الفجوة، التي تفصل اليوم بين أمتنا الحائرة المتعثرة، وبين شعوب أخرى حولنا، تقفز على طريق النمو والتقدم قفراً.. سوف تتسع ولا تضيق ما دام جيلنا الحاضر مستسلماً للكبائر الأربع التي ما تزال تأخذ بتلابيب العرب والمسلمين.

الكبيرة الأولى: تغييب العقل وتحجيم الفكر، والفرار من الجهاد، بالاجتهاد واصطناع عالم غريب يتقاذف فيه الناس بالنصوص، ويحتمون بالسوابق، ويفرون من مواجهة الواقع طلباً للسلامة من الفتنة، وايشاراً للعافية في ظلال العزلة والانغلاق..

الكبيرة الثانية: قلّة الاحتراف بحرية الانسان، في أن يقول ما يعتقد، وأن يعتقد ما ارتآه واطمأن اليه، وأن يُصان دمه وماله وعرضه على كل حال.

الكبيرة الثالثة: اسقاط قيمة العمل والانتاج

(١) المرجع نفسه: ١٥٢ - ١٥٣.

الكبيرة الرابعة: فساد ذات البين بين العرب جميعاً والمسلمين جميعاً^١.
على أن مفكراً عملاقاً قد وضع - قبل نصف قرن - النقاط على الحروف، كما هو شأنه دائماً في كل المجالات، أنه السيد محمد باقر الصدر الذي شَخَّص أبعاد المشكلة الحضارية للعالم الاسلامي بثلاثة أمور، هي: عدم تطبيق الاسلام، الاستعمار والتبعية، وأخيراً: التخلف العام. ولاحظ الشهيد الصدر أن التبعية لتجربة الانسان الأوروبي الرائد للحضارة الحديثة، عبّرت عن نفسها بأشكال ثلاثة مترتبة زمنياً، ولا تزال هذه الاشكال الثلاثة متعاصرة في أجزاء مختلفة من العالم الاسلامي:

الأول: التبعية السياسية.

الثاني: التبعية الاقتصادية.

الثالث: التبعية في المنهج.

وحول النقطة الأخيرة أشار السيد محمد باقر الصدر إلى أن تجارب عديدة في داخل العالم الاسلامي مارست التبعية في المنهج.. «حاولت أن تستقل سياسياً، وتخلص من سيطرة الاقتصاد الأوروبي اقتصادياً، وأخذت تفكر في الاعتماد على قدرتها الذاتية في تطوير اقتصادها، والتغلب على تخلفها، غير أنها لم تستطع أن تخرج في فهمها لطبيعة المشكلة التي يجسدها تخلفها الاقتصادي عن إطار الفهم الأوروبي لها، فوجدت نفسها مدعوة لاختيار نفس المنهج الذي سلكه الانسان الأوروبي في بنائه الشامخ لاقتصاده الحديث»^٢.

وهذا ما توصل اليه لاحقاً الدكتور الشاهد البوشيخي حيث يرى أن «مشكلة المنهج هي مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم اقلاعنا العلمي ولا الحضاري إلا بعد الاهتداء في المنهج للتي هي أقوم، وبمقدار تفقهننا في المنهج ورشدنا فيه، يكون مستوى انطلاقتنا كمّاً وكيفاً»^٣.
وليس بعيداً عن هذا الاطار، كانت تشخيصات المفكر الأمريكي «بول كيندي» في كتابه

(١) لمزيد من التوسع في هذه الكائنات يُراجع مقال «المسلمون.. وعبور فجوة» للدكتور أحمد كمال أبوالمجد، مجلة العربي (الكويت)؛ مرجع سابق ٣٥٠: ٢٠-٢٢.

(٢) مقدمة كتاب «اقتصادنا» للسيد محمد باقر الصدر، ط ١٣، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ٩.

(٣) يُراجع كتابه: «مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والاسلاميين: قضايا ونماذج»، ص ٢١ -

٢٢ (نقلًا عن مجلة المجتمع الكويتي) - العدد (١٣٦٣): ٦ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ - ١٧/٨/١٩٩٩م، ص ٤١،

هامش (٩).

«الاستعداد للقرن الحادي والعشرين»، وهو تأليف شامل يضم السياسة والاقتصاد والثقافة وعلم الاجتماع، في منظومة مستقبلية تطمح إلى الموضوعية، لدراسة مصير الانسان، على ضوء التحولات المدوخة الكبرى في حياته ومواقفه.

والطريف في الكتاب أنه يفرد الحضارة الاسلامية بفصل هام يوضح فيه مدى قدرة حضارتنا في كسب سباق القرن القادم، وعناصر قوتها ونقاط ضعفها. ويستعرض «بول كيندي» مواطن الصراعات الاسلامية الداخلية والخارجية، ويقول: ان أبرزها المعضلة الفلسطينية، ومشاكل عقائدية أو حدودية بين عدد من البلدان المسلمة، ومشاكل أقليات عرقية أو دينية في بعض البلدان ذات الأغلبية المسلمة... ويلاحظ المفكر الأمريكي أن أبرز عراقيل التنمية في هذه البلدان هي عدم المواءمة بين التعليم والمجتمع، وتخريج خبرات لا توظف بعد تحصيلها على الشهادات، وعدم الاهتمام إلى مناهج حكم توفيقية في أغلب البلدان، وانشغال بعض الدول بالاقتصاد التبوي (وضع العراق وإيران من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨ م)، إلا أن بول كيندي ينتهي إلى خلاصة ذكية وحقيقية، فيقول: «إن العالم الاسلامي يفتقد «ثقافة المشروع»، وهو مصطلح أمريكي يشير إلى انعدام رؤية، مصيرية متكاملة، أي تحديد مسبق لغاية التنمية والتقدم، ثم السعي لتنفيذها بوسائل التريبة، والمؤسسات الاقتصادية، والتطور الاجتماعي^١.

ما ينبغي التنويه اليه، هنا، ان السيد محمد باقر الصدر سبق وأن تناول معالجة هذه الاشكالية، عبر مقارنة بين قابلية المناهج الاقتصادية التطبيقية والمقارنة على أساس المعطيات النظرية لكل واحد من تلك المناهج، ليس هذا فحسب، بل مضى يقول: «لابد أن نلاحظ بدقة الظروف الموضوعية للأمة وتركيبها النفسي والتاريخي، لأن الأمة هي مجال التطبيق لتلك المناهج، فمن الضروري أن يدرس المجال المفروض للتطبيق وخصائصه وشروطه بعناية، ليلاحظ ما يقدر لكل منهج من فاعلية لدى التطبيق. كما أن فاعلية الاقتصاد الحر الرأسمالي أو التخطيط الاشتراكي، في تجربة الانسان الأوروبي، لا تعني حتماً أن هذه الفاعلية نتيجة للمنهج الاقتصادي فحسب لكي تتوفر متى اتبع نفس المنهج، بل قد تكون الفاعلية ناتجة عن المنهج باعتباره جزءاً من كل مترابط، وحلقة من تاريخ،

(١) د. أحمد القديدي: «الاسلام وصراع الحضارات»، سلسلة كتاب الأمة (٤٤)، الدوحة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

فاذا عزل المنهج عن اطاره وتاريخه لم تكن له تلك الفاعلية ولا تلك الثمار». وأضاف: «فحركة الأمة كلها شرط أساسي لانجاح أي تنمية وأي معركة شاملة ضد التخلف، لأن حركتها تعبير عن نموها ونمو ارادتها، وانطلاق مواهبها الداخلية، وحيث لا تنمو الأمة لا يمكن أن تمارس عملية تنمية، فالتنمية للثروة الخارجية والنمو الداخلي للأمة يجب أن يسيرا في خط واحد».

وينهي السيد الصدر رؤيته حول اختيار المنهج بقوله: «فحين نريد أن نختار منهاجاً أو إطاراً عاماً للتنمية الاقتصادية داخل العالم الاسلامي يجب أن نأخذ هذه الحقيقة أساساً، ونفتش في ضوءها عن مركب حضاري قادر على تحريك الأمة، وتعبئة كل قواها وطاقاتها للمعركة ضد التخلف، ولا بد حينئذ أن ندخل في هذا الحساب مشاعر الأمة ونفسياتها وتاريخها وتعقيدات المختلفة»^١.

إن الحاجة الملحة تتعمق يوماً بعد آخر إلى المنهج الاسلامي، خاصة بعد انهيار النظام الشيوعي، وفي ظل تزايد بوادر الانهك في النظام الرأسمالي الحر، رغم كل ما يُقال عن «نهاية التاريخ» وتمجيد المنهج الرأسمالي، وكأنه أرقى ما توصلت اليه البشرية، طيلة تاريخها المتطاوّل. وقد كشف الدكتور جعفر عبد السلام نائب رئيس جامعة الأزهر، في كلمته أمام ندوة «العالم الاسلامي والتحدي الحضاري» أنفة الذكر، كشف سرّاً هاماً حيث قال: ان مسؤول البنك المركزي في روما قال لي في الاسبوع الماضي (للتذكير عُقدت الندوة في الفترة ما بين ٢٨ - ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٦م): نحن نبحث عن ايجاد نظام اقتصادي عالمي يعالج مشاكل التضخم النقدي دون وجود عائد حقيقي لدينا.. ونحن نبحث بجديّة في مشروعات المريحة والمشاركة الاسلامية كنظام بديل، لأننا نئن من مشاكل التضخم التي لا نجد لها حلاً»^٢.

إنّ المدخل لعبور الفجوة التي تفصل العرب والمسلمين عن أصحاب التقدم المالكين للقوة والممسكين بزمّام الحل والعقد في هذا الزمان، يتمثل في تحوّل جماعات من صفوة «المثقفين» إلى «فدائيين» مدنيين، يحشدون للافلاح طاقة روحية هائلة ثم لا يبددون

(١) اقتصادنا؛ مرجع سابق، المقدمة، ص ١٣ - ١٤.

(٢) نقلاً عن مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٢٢٤): ٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٧هـ - ٥ / ١١ / ١٩٩٦م،

في قضايا مغلوطة، واصلاحات مختلة الأولويات، ولا يوجهون حرارتها إلى صدور أخوانهم من العرب والمسلمين^١. بل المطلوب هو؛ التوفّر بجديّة وصدق على تناول القضايا الكبرى التي تشغل الأمة في القرن الحادي والعشرين، ومن أبرزها: الحرية والشورى والتعددية، التنمية الاقتصادية، والوحدة السياسية والاقتصادية، القضية الفلسطينية ومواجهة المشروع الصهيوني، والتصدي لمشروعات الهيمنة والعولمة، وإيجاد مرجعية اسلامية واحدة، وبلورة المشروع النهضوي الحضاري الاسلامي^٢.

وحتى نلحق بالركب. ونكون على موعد مع المستقبل... نتبوأ فيه مكاننا تحت الشمس، ونرتقي إلى الدور المنشود، حَمَلَة حضارة بديلة... لا بدّ من انجاز المشروع الحضاري الريادي الذي تتوفر له مستلزمات النهوض، وأرضيّة الاقلاع... لاقتحام المستقبل، ومن ثم لتدارك مصير البشرية قبل الطوفان.

المشروع الحضاري:

الحديث عن مشروع النهضة الحضارية الشاملة حديث ذو شجون، ذلك أنه ينبثق من واقع الشعور بالانحطاط والاحباط، الذي تعيشه أمة مسلمة عظيمة، تعيش بعد الكبوة الحضارية مرحلة الصحوة الحضارية، وتستشرف أفق النهضة الحضارية الشاملة. ومشروع النهضة الاسلامية مشروع انبعث حضاري، ذلك أنه يمثل استمراراً للحضارة كانت قائمة، بل كانت رائدة، ولها أفضال كثيرة في كل ما آل إليه العالم المعاصر من رفاهة وتقدّم. ولذلك فإن دعاء الحضارة الاسلامية لا يطالبون بمقعد بين الأمم المتحضرة، بل يطالبون بهذا المقعد في الطليعة والمقدمة. وهم لا ينافسون على مقعد شاغر بين الأمم المتقدمة، وانما يطرحون مشروعهم بديلاً للمشروع السائد، ويقدمون أنفسهم قيادة بديلة للعالم على طريق التقدم الاجتماعي والحضاري.

يتضح مما تقدّم ان الحديث يدور حول مشروع احياء واستمرار وتقدّم (أي مشروع تجديد حضاري) لا مشروع لحاق وتنافس وتقدم في سياق الحضارة الغالبة، أي ليس مشروع حداثّة Modrenization بل مشروع تجديد Renovation، ولا بدّ من التوقّف

(١) مجلة العربي؛ مرجع سابق ٣٥٠: ٢٢.

(٢) علي البيانوني: «شهادات على قرن مرتحل» مجلة المجتمع الكويت - العدد (١٣٨٠): ٦ رمضان ١٤٢٠ هـ.

١٤ / ١٢ / ١٩٩٩م، ص ٤٨.

عند هذين المصطلحين هنيهة لاستبانة الفرق. فكلمة أحدث مُحدثة، تعني أتى بجديد ليس له أصل.. أما كلمة تجديد فتعبر عن معنى الاستمرار والتواصل، فالفرق البارز بين الحداثة والتجديد، أن الحداثة تحمل معنى القطيعة المنهجية التاريخية، بينما يحمل التجديد معنى الاستمرار المنهجي والتاريخي. وبالفعل فقد كان المشروع السائد في منطقة الحوض العربي - الاسلامي منذ خواتيم القرن الماضي، وربما قبل ذلك بقليل، مشروع حداثه. وقد أعلن هذا المشروع افلاسه الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي، ولم يبقَ إلا البحث عن المشروع البديل؛ مشروع الاحياء والتجديد.. ولا يكون البديل إلا مشروع العودة للذات، الاعتماد على الذات، الاعتداد بالذات، وذلك عبر مشروع تجديدي شامل يمثل مراجعة فكرية نفسية واجتماعية شاملة، ويرسم طريقاً بديلاً للحضارة والتقدم الانساني^١.

فما هو هذا المشروع؟ ما هي معالمه الرئيسية؟ ما هي مقاصده ووسائله وسبله؟ لا ينفك الاسلاميون من ترديد مقولتهم: ان الاسلام هو طريق الخلاص وان الاسلام مشروع حضارة^٢، وفي الأربعينات من القرن العشرين قال أبو الأعلى المودودي: «ان الاسلام متميز ديناً ومستقل وناسخ شريعة، وفريد حضارة، أنه لا مجال لإنشاء نظام مزيج في شبه القارة الهندية. فإما أن يعود المسلمون فيسيطروا على الهند، وإما أن ينشئوا دولة خاصة بهم»، وهذا يعني أن الاسلام - في نظر المودودي - جاءنا ناسخاً لما قبله وما بعده ومهيماً

(١) يُراجع المقال القيم: «رؤية جامعة لمشروع النهضة الحضارية الشاملة»، للأستاذ أمين حسن عمر. مجلة الانسان (باريس) - العدد (٩)، جمادى الثانية ١٤١٢ هـ / كانون الأول ١٩٩٢ م، ص ١٩.

(٢) احتل الاهتمام بالمشروع الحضاري الاسلامي حيزاً واعداً، لا سيما في العقد الأخير. الذي شهد العديد من الاهتمامات الثقافية والفكرية، سواء على صعيد الدراسات أو الندوات والمؤتمرات.. ومن المسير استقصاء كل هذه الاهتمامات ونكتفي ببعض الاشارات على سبيل المثال لا الحصر: ومن ذلك كتاب: «المشروع الحضاري الاسلامي: في حوار مع العلامة السيد محمد حسين فضل الله»، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٩٢ م - ١٤١٣ هـ، و«ندوة الاسلام حضارة» التي عقدها المعهد العالمي للفكر الاسلامي في القاهرة عام ١٩٩٤ م. و«ندوة العالم الاسلامي والتحدي الحضاري» الذي عقدته رابطة الجامعات الاسلامية في القاهرة عام ١٩٩٦ م، و«مؤتمر قضايا الاسلام والتحدي الحضاري» الذي نظمه اتحاد طلاب الخرطوم عام ١٩٩٠ م، و«مؤتمر المشروع الحضاري الاسلامي على عتبة القرن الحادي والعشرين» الذي اقامته رابطة الشباب المسلم في ديترويت الأمريكية عام ١٩٩٧ م.. الخ، كما أصدرت مجلة «المنطلق» البيروتية عدداً خاصاً حول محور «نحو مشروع حضاري اسلامي» (العدد الثاني والستون: جمادى الثاني ١٤١٠ هـ - كانون الثاني ١٩٩٠ م).

عليه . وله احدى حالتين : إما أن يتمكّن في الأرض ويسيطر ، وإما أن يتأسس ويسود في بقعة وعليها ، ويتحقّق للانطلاق والاستيعاب والسيطرة ولا وسط بينهما^١ .

وتأكيداً للصيغة الانسانية والنهج الحضاري الذي يتسم به الاسلام يقول الامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر : «إنّ الرسالة جاءت شاملة لكل جوانب الحياة ، وعلى هذا الأساس استطاعت أن توازن بين تلك الجوانب المختلفة ، وتوحّد أسسها ، وتجمع في اطار صيغة كاملة بين الجامع والجامعة . والمعمل والحقل ، ولم يعد الانسان يعيش حالة الانشطار بين حياته الروحية وحياته الدنيوية»^٢ .

إنّ أي باحث منصف ، حتى ولو لم يكن مسلماً يعكف على دراسة الاسلام يخلص إلى أنّ الاسلام الذي بدأ يث اشعاعه الحضاري والانساني منذ ما يقرب من أربعة عشر قرناً مؤهل تماماً لأن يكون أساساً راسخاً لبناء انساني شامل ، وأن يكون للانسان معرفة حقيقية تشكّل فاعلية في حياة الانسان ودوره في حياة الحياة ، لا سيما وأننا نشهد اليوم سقوطاً مروّعاً وافلاساً حقيقياً للنظريات والفلسفات الوضعية العاجزة تماماً عن تحقيق انسانية الانسان وسعادته ، كونها لا تعبّر عن فطرة الانسان وشعوره الداخلي العميق بالميل نحو عالم الكمال المطلق والتقرّب من المبدأ الأعلى^٣ .

ويشير فيلويز ، ضابط البحرية البريطاني الذي انتمى الى الاسلام ، إلى البيانات التي نشرتها الصحف ، والتي تفيد «أن الفلاسفة والكتّاب في الغرب يزعمون أن الأديان المعاصرة قد أصبحت بالية عتيقة ، ولا بدّ من التخلص منها» . ويعقّب على هذا بأنه إنّما «يبين مقدار التشاؤم الذي تعاني منه جمهرة الكتّاب الغربيين ، بسبب ما يلاقونه من تعقيدات وغموض في ديانتهم النصرانية ، لكن هؤلاء يرتكبون خطأ فالاسلام الذي يمثّل الاجابة الكاملة الوحيدة ، لا يزال قائماً وعلى استعداد لأن يكون البديل ، وهو جاهز لذلك»^٤ .

(١) نقلاً عن كتاب «الاسلام .. والتحديات المعاصرة» منشورات رسالة الجهاد ، مالطا ، ١٩٨٨م ، ص ٤٤ .
(٢) السيد محمد باقر الصدر : «الفتاوى الواضحة» ، الجزء الأول ، ط ٦ ، بيروت ، ١٩٧٩م - ١٣٩٩هـ ، ص ٧٩ .
(٣) نبيل صالح : «الاسلام .. نهج حضاري ورسالة انسانية» ، مجلة الثقافة الاسلامية (تصدرها المستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الإيرانية بدمشق) - العدد (٤٠) : جمادى الأولى ١٤١٣هـ - تشرين الثاني ١٩٩١م ، ص ١٤٢ .
(٤) نقلاً عن كتاب «نظرة الغرب إلى حاضر الاسلام ومستقبله» ، الدكتور عماد الدين خليل ، دار النفائس ،

وفي هذا السياق ذاته، أكدّ عدد من مفكري وقيادات الحركة الاسلامية أنه لا بديل عن المشروع الحضاري الاسلامي، والمطلوب هو رسم استراتيجية للمستقبل، تأخذ بنظر الاعتبار التحدي الحضاري الخارجي والداخلي والمراهنة على التاريخ، والتشبّث بالنفس الطويل، ولتتمتد أبصارنا فوق الواقع الذي نعيشه، والمسألة لا تتعدى قضية وقت^١.

ولابدّ من القول ان المشروع الحضاري الاسلامي ليس مشروعاً جاهزاً، وقد تأخرنا في انجازه، وظهرت مضاعفات هذا التأخير، حينما انتقلنا إلى مرحلة انزال القيم والقوانين على الواقع في بعض التجارب الاسلامية المعاصرة.

وحان الوقت الذي يأخذ فيه هذا المشروع أولويته في البحث والتخطيط، والدراسة والتحليل، فأمام الاسلام مشروع حضاري جديد لم ينجز بعد، ويحتاج إلى جهد جماعي ضخم، وهذا المشروع لن يتشكّل في غرفة التأمل، أو يخرج من مختبر، وإنّما سيشكّل شيئاً فشيئاً بلمسات متتالية، ضمن عمل في الهواء الطلق والحرير يربط بالتأمل والجهد الفكري والنشاط ارتباطاً جدلياً^٢.

وحتى نصل إلى صياغة المشروع الحضاري الاسلامي المعاصر، نحتاج إلى انجاز الأمور التالية :

أولاً: تحديد الموقف المعرفي من التراث، وهنا نحتاج إلى منهجية علمية قوامها النقد والفحص في قراءة تراثنا، لمعرفة الجوانب الحية من الجوانب الميتة، والجوانب المعقولة من الجوانب غير المعقولة، فكل نهضة حضارية انما تنطلق من رؤية سليمة لتراثها..

ثانياً: تحديد الموقف المعرفي من الغرب. والذي يتطلب أيضاً منهجية علمية في قراءة الغرب ودراسته حضارياً.. بكيفية معمقة، ومن خلال مناهج نقدية متعددة.

ثالثاً: إبراز الدور العلمي والحضاري في تاريخ الاسلام، ودور الاسلام في بناء

بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ١٢٦.

(١) يُراجع على سبيل المثال وقائع الندوة التي عقدها المركز العربي الاسلامي للدراسات بحزب العمل المصري عام ١٩٩٣م حول التحدي الحضاري والعقائدي الذي يواجهه العالم الاسلامي، مجلة العالم (لندن) - العدد (٤٤٧): ٣ نيسان (أبريل) ١٩٩٣م - ١١ شوال ١٤١٣هـ، ص ٣٦ - ٣٧.

(٢) منير شفيق: «الفكر الاسلامي المعاصر والتحديات»، بيروت، ١٩٩١م، ص ٥٩ (نقلًا عن كتاب المسألة الحضارية: كيف نبكر مستقبلنا في عالم متغير لزكي الميلاد، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٩٨، هامش ٤٥).

الحضارة الاسلامية ومشاركته في نهوض وبناء الحضارات الانسانية ..
رابعاً: التركيز على قيمة العقل والعلم في الاسلام، وكيف أن الاسلام أعطى قيمة عالية
وسامية للعقل والعلم، فهو الدين الذي بدأ بآية ﴿اقرأ﴾ واعتبر طلب العلم فريضة على كل
مسلم ومسلمة .. مع التركيز على أخلاقيات الاسلام في العلم، ومضاعفة الاهتمام بالبحث
العلمي في العالم الاسلامي .

خامساً: التركيز على مشكلة التخلف العلمي والحضاري في العالم الاسلامي، وجعل
هذه المشكلة في قمة الأولويات والاهتمام بدراستها، واعداد دراسات علمية معمقة
حولها ..

سادساً: الاهتمام باصلاح وتطوير نظم ومناهج وأساليب وخطط وبرامج التربية
والتعليم . فالحضارة تبدأ بـ ﴿اقرأ﴾، وإذا صلحت المدرسة بدأت الحضارة في النمو . ومن
أخطر المشكلات التي تواجهها في البلاد العربية والاسلامية الضعف الخطير الذي نعاني منه
في نظم التربية والتعليم ..

سابعاً: التقدم باتجاه اسلامية المعرفة والتأصيل الاسلامي للعلوم الاجتماعية
والانسانية، واصلاح مناهج الفكر الاسلامي، وهي المهمة التي نهض لأجلها بكفاءة
«المعهد العالمي للفكر الاسلامي» بواشنطن^١ .

إن قضية التوصل إلى مستوى حضاري متقدم تعتبر من أبرز مشاغل الفكر الاسلامي
الحديث، وقد اعتنى بها المفكرون من مختلف الاتجاهات واشتد بشأنها النقاش .. وقد برز
في السنوات الأخيرة اتجاه يؤسس لما يمكن تسميته بـ «التفكير الحضاري»، وبالتأكيد يُعد
هذا التفكير الحضاري خطوة صائبة نحو الامام^٢ لا سيما ونحن نملك أسس النهضة ونملك
البرامج الاسلامية للخلاص .. ولا بدّ من الصعود والهبوط في خط سير الحضارات، كما
يقول د. محمد عمارة^٣ .

(١) زكي الميلاد؛ المرجع سابق: ٩٨ - ٩٩ .

(٢) يُراجع مقال بهذا العنوان لـ: ع. ح، مجلة العالم (لندن) - العدد (٣٤٨): ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٠م -

٢٢ ربيع الأول ١٤١١هـ، ص ٥٠ - ٥١ .

(٣) يُراجع اللقاء معه في مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٢٠٨): ٣٠ صفر ١٤١٧هـ - ١٦ / ٧ / ١٩٩٦م،

ص ٣٤ .

اليوم ونحن نقف على مشارف النهوض، وفي معترك التحديات، وتزاحم الأضداد، يُطرح السؤال بقوة: كيف نبدأ؟ ومن أين؟ ولا حاجة للتريث في إعطاء الجواب؛ إن الرجوع إلى الإسلام واستلها مبادئه يعتبر أول الخطو على طريق البناء الحضاري^١، وما يبعث على الارتياح أننا نشهد انبعاثاً إسلامياً واعداءً، تتجلى مظاهره في العديد من الأنشطة الفكرية والحركية والإعلامية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.. غير أن هذه الجهود الإسلامية كافة سوف تبقى مبعثرة ومحدودة الفاعلية، في السياق التاريخي الإنساني العام، ما لم نستطع ترجمتها واستثمارها في صياغة وتنفيذ مشروع إسلامي حضاري جديد، يحمل رايات النور والرشاد للبشرية من جديد، ويحول دون التدمير المروع الذي من المؤكد أن تؤول إليه التجربة الحضارية الأوروبية الحديثة، تلك التجربة التي توشك على إعلان افلاسها النهائي.

إنّ الصحوّة الإسلامية المعاصرة تملك من التجارب الجديدة نظرياً وعملياً ما يسهّل لها الطريق ويعبدها إلى مشروعاتها المأمول، وتبقى - من وراء ذلك - أهمية الجهاد الجماعي المنظم، لإخراج ذلك المشروع إلى حيّز الوجود الفاعل^٢. لا ريب أن ثمة محاولات نظيرية قيّمة طرحت في هذا السياق ومحاولات تطبيقية أخرى شقّت طريقها في واقع الحياة الإسلامية.. ومع ذلك فإن علينا أن نمارس المزيد من الصقل والكشف والتحديد وترتيب الأولويات، لكي تكون بمثابة برنامج عمل يجعل المشروع حقيقة واضحة المعالم، وأمراً واقعاً قد يبدأ بخطوة واحدة، ولكنها الخطوة التي تقود إلى قطع رحلة الألف ميل بمشيئة الله^٣.

إنّ الحديث عن هويّة المشروع النهضوي يقودنا إلى القول بأن هناك عدّة محاولات وعدّة مشاريع نهضوية تختلف في النقاط التي تركز عليها. أو الطرق التي تقترحها

(١) د. مهدي بن عبود؛ لقاء معه في مجلة الأئمة (الدوحة) - العدد (٤٠): ربيع الآخر ١٤٠٥هـ - كانون الثاني ١٩٨٤م، ص ٥٧.

(٢) مقال: «عن المشروع الحضاري الإسلامي» بقلم: أ.ع، صحيفة الهلال الدولي (لندن): ١ - ٣١ / آب / ١٩٩٢م، ص ٥.

(٣) د. عماد الدين خليل: «ملاحظات حول المشروع الحضاري»، مجلة «إسلامية المعرفة» (ماليزيا) - العدد

(٩) صفر - ربيع الأوّل ١٤١٨هـ - يوليو ١٩٩٧م، ص ١٠٩.

للنهضة، وهي جميعاً محاولات ضمن المشروع النهضوي الكبير للأمة جميعاً^١، ورغم الأهمية الفائقة للعديد من تلك الطروحات، إلا أن أطروحة السيد الشهيد الصدر تبقى هي الأكثر ألقاً، وعمقاً، وأصالة، وشمولاً. لقد حباه الله بعقريّة فذة متسلحة بفهم متميز للإسلام، وبفهم معمّق للواقع، وكانت حصيلة هذين الفهمين «المشروع الحضاري الاسلامي»^٢.

وفي تحليله لطبيعة الأزمة الحضارية التي تعاني منها البشرية، لم يتوقّف الشهيد الصدر عند الكثير من الهموم اليومية والمشاكل المتنوعة، وأنما حاول أن ينفذ إلى «عمق المشكلة وجوهرها»، وقد أوصله هذا البحث إلى وضع اليد على أبعاد الأزمة الحضارية التي لم تتوصل البشرية إلى حلّها. ومن خلال هذا الفهم قدّم الامام الشهيد المشروع الحضاري الاسلامي، باعتباره طريق الخلاص للأمة الاسلامية والبشرية معاً: «إنّ الاسلام هو طريق الخلاص، وأن النظام الاسلامي هو الاطار الطبيعي الذي يجب أن تحقق «الأمة» حياتها وتفجّر طاقاتها ضمنه، وتنشئ كيائها على أساسه.

فالأمة على الصعيد الاسلامي - وهي تعيش جهادها الشامل ضد تخلفها وانهارها وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود أفضل وكيان أرسخ واقتصاد أغنى وأرفه - سوف لن تجد أمامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب إلا طريقاً واحداً للتحرك، وهو التحرك في الخط الاسلامي، ولن تجد اطاراً تضع ضمنه حلولها لمشاكل التخلف الاقتصادي سوى اطار النظام الاقتصادي في الاسلام.

والانسانية على الصعيد البشري - وهي تقاسي أشدّ ألوان القلق والتذبذب بين تيارين عالميين ملغمين بقبائل الذرة والصواريخ ووسائل الدمار - لن تجد لها خلاصاً إلا على الباب الوحيد الذي بقي مفتوحاً من أبواب السماء وهو الاسلام»^٣.

(١) بشير موسى: «النهوض السياسي أول المهام»، مجلة العالم (لندن) - العدد (١٨١): ٦ ذو الحجة ١٤٠٧ هـ - آب (أغسطس) ١٩٨٧ م، ص ٣٩.

(٢) محمد عبد الجبار: «رؤية السيد الصدر للمشروع الحضاري»، مجلة المنطلق (بيروت): مرجع تمت الإشارة إليه آنفاً، العدد (٦٢)، ص ٨١.

(٣) اقتصادنا؛ مرجع سابق: ٧ - ٨.

المقدمات النظرية..

تتوقف رؤية السيد الشهيد الصدر للمشروع الحضاري على مقدمات نظرية هي :

أولاً: الانسان

الانسان هو موضوع المشروع الحضاري الاسلامي ، ومحوره المركزي ، ولا مبالغة في هذا اذا تذكرنا أن الحضارة هي ، في التحليل الأخير ، حصيلة تفاعل الانسان مع الطبيعة «فالانسان والمادة يتفاعلان على مر الزمن»^١ ، وقد حرص الشهيد الصدر على توضيح دور الانسان وموقعه في المشروع الحضاري ، فالانسان هو أساس «المشكلة الاجتماعية» التي يسعى المشروع الحضاري إلى حلها .. اذن ، فان المشروع الحضاري الاسلامي يسعى إلى ايجاد «الانسان الحضاري» الذي سيكون اللبنة الأولى في اقامة صرح هذا المشروع العظيم ، من جهة ، وسيكون هو أداة انجازه واقامته ، من جهة ثانية .

ثانياً: المثل الأعلى

وإذا كان الانسان هو العنصر الأول في المشروع الحضاري ؛ هدفاً وموضوعاً وأداةً . فإنّ الانسان لا يمارس دوره إلا على أساس مثل أعلى . إن كل حركة حضارية انما تتم من أجل الوصول إلى غاية تتجه نحو تحقيقها ، وتستمد هذه الحركة الحضارية وقودها وزخم اندفاعها من تلك الغاية التي تسير نحوها . وهذه الغاية أو الهدف هي المثل الأعلى للحركة الحضارية ، أي للانسان في حركته الحضارية . وهو المحور الذي يستقطب عملية البناء الداخلي للانسانية .

ثالثاً: الحركة التكاملية

الانسان هو محور المشروع الحضاري ، والمثل الأعلى هو محور حركة الانسان الحضارية . ويبقى أن نعرف ان الانسان (والمجتمعات الانسانية بصورة عامة) منحرفة في مسيرة تاريخية حضارية كبرى . وهذه المسيرة هادفة ، وليست عشوائية أو بلا غاية .. وهي مسيرة تكاملية وارتقائية .. وهذا السير التكاملي نحو الله سبحانه يفترض طريقاً إليه ، وهذا الطريق هو المشروع الحضاري الاسلامي نفسه .

(١) السيد محمد باقر الصدر : «بحث حول المهدي» ، ط ٣ ، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ص ٨٦ .

رابعاً: المركب الحضاري

يقيم الاسلام مشروعه الحضاري، أي تصميمه للحياة الانسانية، على أساس «مركب حضاري». والمركب الحضاري هو العصب الرئيسي لأي مشروع حضاري، والمركب الحضاري هو الصيغة أو المعادلة التي يتم من خلالها الجمع بين العناصر الداخلة في عملية البناء الحضاري. وقد أشار الامام الشهيد الصدر إلى أهمية المركب الحضاري في سياق حديثه عن المعركة الشاملة ضد التخلف.

والمركب الحضاري الذي يعتمد عليه الاسلام هو «الخلافة»، أي استخلاف الانسان من قبل الله على الأرض، وذلك بناء على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾ (البقرة: ٣٠).. ويقوم مركب «الخلافة الربانية» على أساس أربع ركائز هي:

١ - إلتناء الجماعة البشرية إلى محور واحد، وهو الله سبحانه تعالى، حيث تتجاوز الجماعات البشرية كل «محاوَر» التجمع الأخرى، وتتوحد حول الله سبحانه، لبناء أمة جديدة موحدة، واقامة حضارة جديدة واحدة: ﴿أَرَأَيْبَ مَتَفَرِّقُونَ خَيْرَ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (يوسف: ٣٩).

٢ - إقامة الحياة الانسانية على أساس العبودية المخلصة لله وتحرير الانسان من مختلف أنواع العبوديات لغيره. فالتناس كلهم أحرار في اطار هذا المركب الحضاري بلحاظ بعضهم البعض، من خلال كونهم جميعاً عباد الله.

٣ - تجسيد روح الأخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية، بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط.

٤ - المسؤولية والاحساس بالواجب ازاء المستخلف. فالخلافة الربانية استئمان على الكون والطبيعة والبشر، ولهذا وصفها القرآن الكريم في احدى آياته بالأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ..﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وعلى أساس هذه «المقدمات النظرية» كان الشهيد الصدر يطرح تصوره للمشروع الحضاري الاسلامي، سواء في عناوينه العامة، أم في صورته أم هيكلية التفصيلية. فعلى مستوى العناوين العامة كان الشهيد الصدر يؤكد على مسألة «النمو والتنمية والتكامل

والتقدم» في ظل المشروع الحضاري الاسلامي . كما كان يؤكد على «العدالة» و«المساواة» اللتين تضمنان الحياة اللائقة بكرامة الانسان، وتحررانه من الوقوع في قيود وأغلال الهموم المعيشية . وكان يؤكد على «الحرية» باعتبارها الشرط الضروري لمسيرة الكمال، باعتباره حقاً أصيلاً من حقوق الانسان، مبيناً كيف يتصرّف المشروع الحضاري الاسلامي لتحقيق هذه الحرية والحفاظ عليها^١ .

ولابدّ من الاشارة إلى أن اطروحة السيد الشهيد الصدر تحتوي أيضاً على الأبعاد السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية للمشروع الحضاري الاسلامي .. لم نُشر إليها - رغم أهميتها، تجنباً للتفصيل .

وهكذا نجد، على مستوى الخطاب، ان المشروع الحضاري يستهدف مستوىً حضارياً على وجه التحديد، فهو من ثمّ ليس محاولة روحية أو شعائرية أو سلوكية أو تربوية أو عملية أو فكرية أو ثقافية أو سياسية أو دعوية أو حركية صرفة .. وانما هو هذا كله . قد تغدّي حلقات كهذه بنية المشروع وتزيده قدرة على التحقيق هنا وهناك . ولكنها اذا عملت بمعزل عن بعضها البعض فانها قد لا تأتي بشيء (كما حدث عبر القرن ونصف القرن الأخير) .

إنّ المخاطب هنا هو (الأمة) الاسلامية، والمشروع يعني إعادة صياغة أمة بكاملها .. تعديل وقتتها الجانحة، وبعث روح الابداع والحركة في مواتها، لكي نمضي على الطريق الصحيح «الصرّاط» الذي أراده لها كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ .. وممارسات الصالحين ومن تبعهم بإحسان .

ولكن كيف يتأتّى تحويل مطالب المشروع من مستوياته النظرية إلى واقع الحياة اليومية الاسلامية، لكي ينسج خيوطها بمقاصد شريعة الله ومفرداتها؟ هناك جهد مبذول وفعل قائم منذ زمن بعيد قد يمتد لأكثر من قرنين، لكن توظيفه في سياق خطاب حضاري يستهدف مشروعاً يخرج الأمة من تخلفها ومعاناتها، ويكسر حلقة السوء المفرغة .. هو المطلوب . وهذا هو المطلوب : تجاوز بعثرة الطاقات والخبرات والمعطيات وارتطامها ونفي بعضها البعض الآخر، إلى برنامج عمل يستهدف لها اضافة بعضها إلى بعض ، وتحقيق أقصى حالات الوفاق بين مفرداتها، وتوجيهها لكي تصب في

(١) يُراجع المقال القيمّ لمحمد عبد الجبار، مجلة المنطلق؛ مرجع سابق ٦٢ : ٨٠ - ٩٩ .

البؤرة الواحدة أو المجرى الواحد الذي يمضي لتحقيق مطالب المشروع الحضاري. وبالتالي فإن الأولوية التي تفرضها المعادلة تقتضي جهداً متراكباً ذا طبقتين، أولاهما: رسم خريطة عمل قديرة على احتواء كل نشاط اسلامي على مدى العالم الاسلامي كله، والتنسيق بين مفرداته وجعلها تمضي صوب البؤرة الواحدة. وثانيهما: تحفيز ارادة العمل والعطاء والابداع على كل المستويات لانضاج المزيد من الثمار، واغناء المشروع على مستوى الكم والنوع على السواء.. ولذلك فان المشروع يقتضي جهداً مزدوجاً - ها هنا أيضاً - يقوم أولهما على الهدم والنفي، ويمضي ثانيهما في البناء والتأكيد^١.

وليس هنالك سبيل للنهضة غير طريق الثورة والتجديد. والثورة المعنية ها هنا ثورة على الذات الخائفة، وعلى الآخر المسيطر. هي ثورة على واقع الجمود والتخلف وهي في ذات الوقت ثورة على الهيمنة والتبعية التي تفرضها الحضارة الأوروبية على العالم الاسلامي وهي ثورة متزامنة لا توجّل مواجهة الذات بسبب مواجهة الآخر، وان بقي جهادها الأكبر في مواجهة الذات. وهكذا نفهم الأثر النبوي العظيم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فالجهاد الأصغر هو مواجهة الآخر، بينما الجهاد الأكبر هو مواجهة النفس^٢.

ولئن كانت الاستجابة لمطالب اللحظة التاريخية ضرورية على مستوى آخر.. فاننا لا نستطيع أن نقنع (الآخر) بمشروعنا ما لم نحول هذا المشروع من مستوياته التنظيرية إلى واقع نعيشه نحن، ونقتنع بجذواه وضرورته، بمعنى ان علينا لمديات زمنية قد تطول كثيراً ألا نتحدث عن تقديم مشروعنا للغربي الحائر قبالة انهيار مذاهبه الشمولية، ونظمه وأنساقه الفكرية وفلسفاته وأديانه المحرفة. ان محاولة كهذه أشبه بقفزة في الفضاء، ولا بد أولاً أن نتقدم بهذا المشروع لذوات أنفسنا قبل أن نتحدث عن مآزق الآخر وحاجته إلى البديل. ان رسول الله ﷺ لم يتوجه بخطابه إلى حكام العالم قبل أن يقيم دولة الاسلام، ويمكن لعقيدتها وشريعتها في الأرض.. ومن ثمّ فان رسائله إلى الأباطرة والملوك والأمراء ما كان يُمكن أن تمضي إلى هدف.. ان عدداً من المتحدثين عن المشروع الحضاري يخلطون الأوراق ويتخيلون وهم يتحدثون عن المشروع أن مهمتهم تقديم مشروعهم هذا ناجزاً

(١) مجلة اسلامية المعرفة؛ مرجع سابق ٩: ١١١ - ١١٢.

(٢) مجلة الانسان؛ مرجع سابق ٩: ٢٠.

للآخرين .. وينسون أنهم هم أنفسهم لا يعرفون الكثير من مطالب المشروع ، فضلاً عن كونه لم يدخل مرحلة التنفيذ الشامل بعد .

باختصار .. فإننا لا نستطيع أن نقنع الآخر ، بمصداقينا الحضارية ، بله أن نفلت من فلك جاذبيته القاهرة ، ما لم نضع لأنفسنا النسق الحضاري الذي يستمد مقوماته من الأسس الاسلامية ويستجيب لمطالب اللحظة التاريخية .. هذه هي مهمتنا الآن ، وربما لحقبة زمنية قد تمتد عشرات السنين قبل أن نفكر بتقديم رؤيتنا للآخر الذي تعزله عنا آلاف الحواجز ، وليس أقلها ثقلاً غياب المشروع نفسه عن ساحات الجغرافيا والتاريخ .. ان تأكيد الذات كان دائماً البداية الصحيحة للحوار مع الآخر .

والملاحظات السابقة كلها قد لا تعني شيئاً على الاطلاق ما لم تتحدد أمام المسلم المعاصر خطط العمل ، والفرص الواقعية لتحويل مفردات المشروع إلى خبرة متحققة في الزمن والمكان .. إلى حياة تنبض وتنمو وتواصل تجذرهما في الأرض ، وامتدادها في الآفاق .

والآن ، فان في مقدور المرء - في ضوء الملاحظات السابقة - أن يضع يديه على منظومة من الممارسات «العملية» التي يمكن أن تعين على نسج الخيوط الأولى في مشروع النهوض أو البديل الحضاري ، ولنتذكر دائماً أنه ليس بديلاً لحضارة الآخر ، بغض النظر عن مساوئها وتناقضاتها ، وأتماً لتخلفنا نحن وحاجتنا الملحة إلى المشروع الذي يضعنا في المكان المناسب من خارطة العالم .

إنّ الجهد المطلوب - وبايجاز شديد - يكمن في المعادلة التالية : «اختراق الحياة شبه الاسلامية بمفردات اسلامية» ، وهذا ما حدث - بالفعل - منذ عقود عديدة ، بل ربما منذ اللحظات المبكرة للصدمة الاستعمارية في منتصف القرن التاسع عشر ، لكن الجهد - في معظم الأحيان - كان مرتجلاً مجزوءاً لا يملك منهجاً عاماً محدداً ، ولا بوصلة توجيه تعرف كيف تحدد الهدف وفق مطالب اللحظة التاريخية ، ولا يملك كذلك رؤية شمولية تلمّ المفردات في أنساق محكمة لكي تكون أكثر قدرة على الفاعلية .

والبداية الصحيحة للاختراق هي بالضرورة بداية فكرية تنطوي على جهد مركّب : يمضي أحدهما باتجاه الاصلاح والتقويم واعادة تعديل الوقفة التاريخية الجانحة ، ويسعى الأخر إلى ابداع أو تصميم صيغ جديدة تستجيب للمتغيرات وتتعامل معها بأقصى درجات

المرونة والوعي .. وسيكون ما يصطلح عليه بعبارة «إعادة فتح باب الاجتهاد» حلقة أساسية في هذا الجهد، بل هي جوهره وحجر الزاوية فيه، إذا أردنا الدقة. ومالم يتحقق هذا وفق شروطه المحددة فإن أية محاولة لإصلاح منهج الفكر لن تأتي بنتيجة.

كما علينا دائماً أن نفكر بأعداد البدائل المناسبة لكي تحل محل خبرات لم تعد صالحة لمطالب الزمن أو المكان.. وخبرات أخرى تعرّضت للحصار والمصادرة والوأة لهذا السبب أو ذاك.. بدائل تكون جاهزة تماماً للنزول إلى الميدان وملء الفراغ الذي قد تترتب عليه انكسارات واقعية ونفسية كانت السبب - في كثير من الأحيان - للتداعيات التي شهدتها الجماعات الإسلامية عبر القرن الأخير.

إن بمقدور المرء أن يتذكّر - في ختام هذه التأشيريات - نقاط الارتكاز التي يمكن الوقوف عليها لتنفيذ بعض حلقات المشروع والتي أخذت عبر العقدين الأخيرين بوجه الخصوص تتلقى - فعلاً - روافد العطاء فتزداد - بفضل الله - تدفقاً، ولكن، مرةً ثالثة ورابعة، تبقى الحاجة قائمة إلى اعتماد الصيغ التي تجعل هذه الروافد تتجمّع بعضها لكي تصب في الهدف الواحد.. الذي هو في نهاية الأمر هدف حضاري.

هناك - على سبيل المثال - الأداء الفكري (على مستوى الدورية، الكتاب، العمل المؤسسي، المدرسة، الجامعة، المعهد، الندوة، الملتقى، المؤتمر..).

الأداء العلمي (على مستوى البحث، الدراسة، الكشف، الاختراع..).

الأداء الاجتماعي (على مستوى المنظمة الخيرية، المؤسسات الخدمية أو المالية أو الاقتصادية..).

الأداء الاعلامي (على مستوى الصحيفة، المسرح، السينما، الإذاعة، التلفاز، الشريط المصور (الفيديو)، الشريط المسموع (الكاسيت)..).

هناك - فضلاً عن هذا كله - امكانية توظيف الفرص والامكانيات التي وضعها هذا الدين بين يدي المنتمين اليه، فيما لم يضعه دين أو مذهب آخر في الأرض: (المسجد.. المنبر.. الحج.. الزكاة.. الصدقات.. الأوقاف.. الخ)، وهي جميعاً - إذا أحسن التعامل معها لتحفيز عطائها ولو في حدوده المتاحة وليست القصوى - فإن بمقدورها أن تفعل الأفاعيل، وأن تعين على نسج حلقات مشروع النهوض شرط أن تنهيا لها قيادات ذات كفاءة تعرف كيف توظف الفرص جميعاً بأكبر قدر من التناغم والانسجام بين مقاصد الشريعة ومطالب اللحظة

التاريخية.. قيادات يصير فيها الفقيه مفكراً والمفكر فقيهاً، وتتلقى الحياة الاسلامية الضائعة على أيديها ما يعينها على المضي إلى أهدافها بأكبر قدر ممكن من ضمانات المسير^١. وقبل هذا وذاك.. فان أول مهام النهوض الاسلامي هي مهام النهوض السياسي. فامام الاسلاميين مهمة شائكة ليس فقط نحو اقامة النظام الاسلامي، ولكن في «ماهيّة» هذا النظام^٢ حتى لا تُبتلى المسيرة بتجربة خائبة كحركة الطالبان في افغانستان، والتي أساءت أيّما اساءة إلى سمعة الاسلام وتشويه صورته حتى أمام أبنائه فضلاً عن أعدائه!!

مستلزمات النهوض:

ظلّ العالم الاسلامي في خارج التاريخ دهرًا طويلاً كأن لم يكن له هدف. استسلم المريض للمرض. وفقد شعوره بالألم، حتى كأنه يؤلف جزءاً من كيانه. وقبيل ميلاد القرن العشرين سمع من يذكره بمرضه، فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ولديه الشعور بالألم. وبهذه الصحوّة الخافتة تبدأ بالنسبة للعالم الاسلامي حقبة تاريخية جديدة يطلق عليها النهضة؛ ان من الواجب ألا نوقفنا أخطأؤنا عن السير حثيثاً نحو الحضارة الأصيلة، فان الحياة تدعونا أن نسير دائماً إلى الامام، ولا يجوز أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضوياً، يستغله الرجل الوحيد، أو يضلله الشيء الوحيد، بل ليكن سيرنا عملياً عقلياً^٣.

وما يدعونا إلى أن نعقد الآمال العريضة على هذه الأمة في قدرتها على النهوض كونها الأمة الوسط بما تمتلك من مقومات الشهود الحضاري: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة: ١٤٣)، وبما تحتفظ به من خصائص الامكان الحضاري: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠) فالإيمان هو خميرة النهوض، وشرطه اللازم لعودة الدورة الحضارية، إذا استطاع المسلمون امتلاك

(١) للمزيد يُراجع المقال القيم: «ملاحظات حول المشروع الحضاري» للدكتور عماد الدين خليل، مرجع سابق.

(٢) مجلة العالم؛ مرجع سابق ١٨١: ٣٩.

(٣) مالك بن نبي: «شروط النهضة»، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، دار الفكر بدمشق - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ٤٠.

المقومات، واستعادة الفاعلية^١.

وليس بالإمكان تشييد صرح حضاري بأدوات للنهضة مستقلة تماماً عن روح الحضارة إياها. من هنا فإن الخروج من أزمة التخلف الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن يتحقق بأدوات حضارية مقطوعة الصلة بالاسلام وثقافته ونظامه القيمي.. لهذا فإن استخراج أدوات النهضة.. وشروط التقدم من داخل الحضارة الذاتية يغدو المسلك الأمثل، إن لم يكن الطريق الوحيد الفعال لمتابعة مسيرة التقدم.. لا سيما أن الاسلام ينطوي - حقيقة - على «أدوات النهضة وشروط التقدم»^٢.

لذلك رأينا أن الفشل لحق بجميع مساعي النهوض، سواء في ذلك المشاريع المستوردة من الخارج، من الأمم الأخرى التي لها معادلتها الحضارية، ومنظومتها الفكرية، وتاريخها الثقافي.. أو المشاريع النهضوية التي طرحت في الداخل الاسلامي بعيداً عن معادلة الأمة الاجتماعية، واستصحاب قيمها المعيارية، والاهتداء بظروف وشروط ميلادها الأول.. وعليه فإن أي مشروع للنهوض يتجاهل أحد هذه العناصر الثلاثة: منظومة القيم أو عالم الأفكار؛ والتاريخ الذي يمثل الوعاء والاستجابة والتجسيد لهذه القيم في الظروف المختلفة؛ والحاضر كحلقة من هذا التاريخ - لأن الحاضر هو مستقبل الماضي - كعناصر تتركب منها المعادلة الاجتماعية للأمة، سوف ييؤء بالفشل والعجز عن تحقيق أي نهوض، على الرغم من امتلاك امكانية، حيث أننا في هذه الحالة، قد نمتلك القدرة، لكننا نفتقد الارادة التي تتحقق من خلال الرؤية الشاملة، التي لا بد منها في أية عملية للنهوض، وتجنّب الارتكاس، والاحباط، وانطفاء والفاعلية^٣.

إن الوعي بموقفنا الحضاري هو الكفيل اذن بتحقيق وحدة الشخصية عبر التاريخ والتعرّف على مكوناتها، كما يقول د. حسن حنفي^٤، وتأتي أهمية هذه النظرة من أنها تتيح

(١) عمر عبيد حسنة: مقدمة كتاب «في فقه التدين: فهماً وتزيلاً» للدكتور عبدالمجيد النجار، سلسلة كتاب الأئمة (٢٣)، الدوحة، الجزء الثاني ١٤١٠ هـ، ص ٧.

(٢) د. أحمد كمال أبو المجد: «الحاجة إلى الاسلام في هذا الزمان»، المقال منشور ضمن كتاب «المسلمون والعصر»، سلسلة كتاب العربي (١٤) الكويت: ١٥ يناير ١٩٨٧ م، ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) تراجع المقدمة التي كتبها عمر عبيد حسنة لكتاب «قيم المجتمع الاسلامي من منظور تاريخي» للدكتور أكرم ضياء العمري، سلسلة كتاب الأئمة (٣٩)، الدوحة ١٤١٤ هـ، الجزء الأول، ص ٣٦.

(٤) د. حسن حنفي: في فكرنا المعاصر، بيروت، ١٩٨١ م، ص ٥٥.

لنا الوقوف على عوامل التقهقر والانحطاط، أي على قوى الجمود داخل الحضارة، إلى جانب شرائط النمو والتقدم، فهي تتيح لنا أن نجمع كلاً لا تتجزأ مراحله.. لذا يرى مالك بن نبي: إن العالم الاسلامي لفي مسيس الحاجة في هذه النقطة إلى أفكار واضحة تهدي سعيه نحو النهضة^١.

وإذا كانت بذرة الاستبداد ومصادرة حرية الانسان هي بداية الطريق الذي أدى إلى الانحطاط الحضاري في الاسلام، فإن النهوض الحضاري الجديد لا بد أن يبدأ من العودة إلى تحرير الانسان المسلم من كل الأغلال والقيود، بناءً على صحة القول القائل بأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها. وكان صلاح أول هذه الأمة قد تمّ عبر إرساء مفهوم الحرية، بمعناه الواسع، حينما جاء القرآن إلى الناس لكي ﴿يضع عنهم إصرهم والأغلال..﴾ (الأعراف: ١٥٧).

إنّ المعركة التاريخية من أجل القضاء على التخلف، والنهوض الحضاري الجديد بحاجة بادية ذي بدء إلى تبلور «ارادة النهوض» لدى جماهير الأمة الاسلامية، وهذه الارادة تتكون من عناصر ثلاثة رئيسية هي: أولاً: الوعي بقضية التخلف وأبعادها المختلفة، وثانياً: الوعي بضرورة القضاء على التخلف، وثالثاً: الوعي بالأساليب والأدوات اللازمة والضرورية للقضاء على التخلف والنهوض الحضاري بمعناه الشامل، كما يرى د. عمرو محيي الدين في كتابه: «التخلف والتنمية».

لكن النجاح في هذه المعركة مشروط، من بين أمور أخرى، بقدرة المشروع الحضاري على تعبئته الجماهير حوله وحول الاهداف التي يطرحها. ذلك ان المعركة ضد التخلف تقوم بالانسان ومن أجل الانسان، والجماهير هي مادة المعركة وأداتها الرئيسية وهدفها الأعلى^٢، ويظل الاهتمام مشدوداً إلى نقطة الانطلاق التي لا بد أن تركز على دراسة تحليلية تبين جوهر المشكلة الحضارية، وتحدّد مستلزمات النهوض. ان طريق النهوض الحضاري، الذي ترتجيه الأمة يفرض عليها شروطاً لا بد من تحقيقها، ويحدّد مسارات لا بد

(١) مالك بن نبي: «وجهة العالم الاسلامي»، ترجمة عبدالصبور شاهين، دار الفكر، بيروت (د.ت) ص ٢٧.

(٢) محمد عبد الجبار: «الاسلام والديمقراطية في معركة البناء الحضاري»، مجلة العالم (لندن) - العدد (٦٥٨):

٦ فبراير (شباط) ١٩٩٩م - ١٩ شوال ١٤١٩ هـ، ص ٣٢.

من السير فيها، لاكمال المشوار المبتغى^١.

ففي سياق تحليله لشروط النهضة، في افتتاحية العدد الأول من مجلة «الأضواء» النجفية الصادر في ١٥ ذي الحجة ١٣٧٩هـ، قال الامام الشهيد الصدر ان الشرط الأساسي لنهضة الأمة هو أن يتوفر لديها المبدأ الصالح الذي يحدد لها أهدافها وغاياتها ويضع لها مثلها الأعلى، ويرسم اتجاهها في الحياة، ويعني «توفر المبدأ الصالح» ثلاثة أمور هي: وجود المبدأ الصالح أولاً، وفهم الأمة له ثانياً، وإيمانها به ثالثاً، فإذا استجمعت الأمة هذه العناصر الثلاثة، فكان لديها مبدأ صحيح تفهمه وتؤمن به أصبح بإمكانها أن تحقق لنفسها نهضة حقيقية، وأن توجد التغيير الشامل الكامل في حياتها على أساس ذلك المبدأ، فما كان الله ليغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، كما دل على ذلك التنزيل الحكيم^٢.

والأمة الاسلامية تملك العنصرين الأول والثالث، ولكنها تفتقد للعنصر الثاني، وهو «فهم المبدأ» فالأمة تؤمن بالمبدأ الاسلامي ايماناً جماعياً ولكنها لا تفهمه فهماً اجماعياً، وهذا هو التناقض الذي قد يبدو غريباً لأول وهلة، فكيف تؤمن الأمة بالمبدأ وتدين له بالولاء وهي لا تفهمه حق الفهم، ولا تعرف من مفاهيمه وأحكامه وحقائقه إلا نزراً يسيراً، ولكن هذا هو الواقع الذي تعيشه الأمة منذ مُنيت بالمؤامرات الدينية المستترة تارة والسافرة أخرى من أبناء الصليبيين المستعمرين أعداء الاسلام التاريخيين^٣. وطبيعي ان جهل الأمة بالاسلام يحول إيمانها به إلى «عقيدة باهتة»^٤ لا تؤدي الكثير على صعيد الحركة الحضارية للأمة، من جهة، ولا تفعل الكثير على صعيد تطبيق الاسلام من قبل الأمة، من جهة ثانية^٥. المطلوب هو: السعي الحثيث وبذل قصارى الجهود لتعميق ايمان الأمة باسلامها، وردم الفجوات وإزالة العثرات عن طريق فهم الأمة لمبدأها العظيم، وتأكيد الشروط الضرورية الكفيلة بالبعث الحضاري المرتقب والاستراتيجية الحضارية المناسبة، لتتقدنا ممّا تعانيه مجتمعاتنا وديارنا، من الحرمان والتخلف، وذلك من خلال:

(١) د. محمود محمد سفر: «دراسة في البناء الحضاري: محنة المسلم مع حضارة عصره»، سلسلة كتاب الأمة

(٢١) الدوحة ١٤٠٩هـ، ص ٣٢. (بشيء يسير من التصرف).

(٢) السيد محمد باقر الصدر: «رسالتنا»، النجف، ١٩٦٩م، ص ٣.

(٣) المرجع نفسه: ٤.

(٤) السيد محمد باقر الصدر: الاسلام يقود الحياة.

(٥) مجلة المطلق؛ مرجع سابق ٦٢: ٨٢.

١ - «فعالياتنا الروحية»، ومعطيائنا القيمية، وعقيدتنا الموحية، وخطوطنا التربوية المأمولة في: البيت، والمدرسة، والمناخ العام، والقذوة الصالحة.

٢ - «إستيعابنا لحضارة العصر» على أسس علمية وتعليمية متطورة، وتزواج بين العلم والحرفة، يمكننا بها وبالجهد والمجاهدة من «استنبات التقنية» في بلدانا.

٣ - «تبني الأساليب الحضارية» الايجابية، التي تناسبنا في الحضارة المعاصرة، دون أن نصاب بسلبياتها الفكرية والاجتماعية، مع الجد والاجتهاد في «إبداع البدائل» للنظم الحضارية الحاكمة، على أيدي المتخصصين في دراسات النظم، التي تحكم مؤسسات شبيهة بمؤسساتنا المرجوة، لاسيما وأن ديننا بسعته يشتمل على الأصول العامة، والقواعد الكلية، والثوابت اللازمة كافة لانبثاق أرقى النظم الحضارية.

٤ - «ضرورة التفاعل المطلوب بين ديناميكية كل من: الأفكار، والنظم، والزمن» من حيث أن النظم والأفكار، قديمها وحديثها، أمر ينقصه الكمال، وليس فيها جميعاً شيء مقدس، ولكأن الزمن نهر جار يخط طريقه في حياة البشر، فتتحرك الأفكار والنظم والزمن، كل خلف الآخر، في دورة ديناميكية، تستهدف دائماً - في مجال التطور - الوصول إلى الكمال.

٥ - «تصحيح النظرة إلى الحضارة المعاصرة» بعد فحصها وفرزها، من خلال التعامل معها، والبحث في دروبها، والفقهاء العميق لعملية «توارث» الحضارات «حلولها» و«إحلالها»، ونشأة أطوارها، ودوراتها، كل في ظلال الآخر، وحضائنه، ومناخه، وضرورة الاستفادة من نقد العلماء والمصلحين للحضارة الغربية، والتركيز على «الكيف» و«الجوهر» والايجابيات في عوالم النظم والفكر والمنهجية، كل بما يناسب بيئتنا، وبُنيّتنا، وتركيبنا.

٦ - «ثمّ حماية منجزاتنا الحضارية المأمولة» بديمومة التطور، والتقدم، والحركة، وحماية الأمن من أمراض الحضارة من خلال العناية بسماتنا الذاتية، والاهتمام بسياساتنا الواقية لقيمنا ومبادئنا من جرائم الحضارة، والحرص على بناء أجهزتنا الدفاعية الحامية لنغورنا وأنظمتنا في كل مجال وأفق^١.

ومن بين تحديات الواقع وضغوطه الهائلة، يلوح المشروع الحضاري الاسلامي في الأفق المنظور بديلاً حضارياً، وإن على المستوى التنظيري، فيما نشهد اليوم ارهاصات

(١) دراسة في البناء الحضاري؛ مرجع سابق: ١٢٣ - ١٢٤.

حضارية في العالم الاسلامي، والذي يمتلك كل عناصر النهضة، وأسباب القوة، ومستلزمات القيادة البشرية. والأمة الاسلامية تمتلك - كما يقول كاتب اسلامي - : «الرسالة والقيم الانسانية السامية، طاقات بشرية ضخمة تزيد على مليار انسان، ماضياً مجيداً، وتراثاً تاريخياً عظيماً، ثروات طبيعية هائلة، وأرضاً خصبة فنية، موقعاً استراتيجياً فذاً، ولديها طاقات وكفاءات علمية وفكرية، لو أحسن استخدامها لأرتقت بهذه الأمة إلى مستوى علمي رفيع»^١، ولو أُتيح لهذه المفردات أن تتعلم ومن ثم تُوجّه ضمن مشروع ريادي، ومنهجية صائبة، مدعومة من قبل مركزية سياسية تتولى المشروع لتحقيق نقلة هائلة في هذا المضمار، دونها أنها تقطع شوطاً مهماً على طريق الاقلاع الحضاري.

الاقلاع الحضاري:

بعد غياب، أو تغييب طويل عن المسرح الحضاري، تتطلع الأمة الاسلامية حالياً الى استئناف مجدها الغابر، وتتزايد محاولات البحث عن حلول للمأزق الحضاري، وهاهي تتلمس طريقها للنهوض، في محاولة للخروج من النفق. ان واجب الخروج من التخلف يدعونا إلى الاسراع بتحديد نقطة البداية، أن نبني مشروعاً لمستقبلنا، مستمداً من واقع أمتنا الاسلامية وتاريخها الطويل وأحاسيس شعوبها المعطاء.. ان تاريخنا وتراثنا زاخران بالتجارب والنظريات على جميع المستويات لا مجال لانكارها أو إبعادها، إذا أردنا أن نبحت عن مشروع مستقبلي.. وكل مشروع لا يراعي هذه المعطيات التاريخية مآله الفشل^٢.

ان تحديد أي مشروع مستقبلي لا يقوم إلا ببناء على قراءة واقع أمتنا الاسلامية، وتحديد العوامل المؤثرة فيه سلباً وإيجاباً، كما لا يمكن انجاح أي مشروع اذا لم يخرج من صفوف الجماهير؛ حضارياً وعقيدياً وفكرياً^٣، حتى يكون البناء متيناً، والانطلاق واثقاً، والهدف مضموناً. وهذه هي مستلزمات «العدة الدائمة» التي يقول عنها مالك بن نبي: «عندما يتحرك

(١) مجلة رسالة القرآن (قم)، كلمة الرسالة - العدد (السادس)، ربيع الثاني ١٤١٢ هـ، ص ٩.

(٢) محمد الصالح عزيز: «حتى يكون البناء متيناً»، مجلة الأمة (الدوحة) - العدد (٤٩): محرم ١٤٠٥ هـ.

تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤ م، ص ٣٥.

(٣) المرجع نفسه.

رجل الفطرة، ويأخذ طريقة لكي يصبح رجل حضارة، فانه لازاد له سوى؛ التراب، والوقت، وارادته لتلك الحركة. (في اشارة إلى مكونات الحضارة الثلاث)، وهكذا لا يُتاح لحضارة في بدنها رأسمال، إلا ذلك الرجل البسيط الذي تحرّك، والتراب الذي يمدّه بقوّته الزهيد، حتى يصل إلى هدفه، والوقت اللازم لوصوله. وكل ما عدا ذلك من قصور شامخات، ومن جامعات وطائرات، ليس إلا من المكتسبات، لا من العناصر الأولية. والمجتمع الانساني يمكنه أن يستغني وقتاً ما عن مكتسبات الحضارة، ولكنه لا يمكنه أن يتنازل عن هذه العناصر الثلاثة، التي تمثل ثروته الأولية، دون أن يتنازل في الوقت نفسه عن جوهر حياته الاجتماعية^(١).

واذا ما توخينا رصد الواقع وقراءته بروية حضارية، فاننا سنجد أن العالم الغربي أخذ يزمام المدنية البشرية في العصر الرهن. لاشك في ذلك ولا ريب. لكن ينبغي أن نعيّز دائماً بين المفاهيم، لاسيما هنا: (الثقافة والمدنية والحضارة)، ونركّز مرّة أخرى فنقول ان الغرب لا يمثل حضارة، لأن ثقافته ومدنيته قائمتان على أسس العنجهية الرومانية والوثنية الاغريقية والمسيحية المحرفة، ثم المادية الناجمة عن الديانة اليهودية والفكر الصهيوني. هنالك ثقافة عريقة نعم ولكنها ثقافة الأخلاط. وهناك مدنيّة متطورة نعم، ولكنها مدنيّة الأهواء، والحضارة إن لم تقم على ثقافة سليمة فهي عمية، وإن لم تقم بمدنيّة قوية فهي عرجاء. ان في الغرب ثقافات، وفي الغرب مدنيّة متطورة، وفي الغرب أيضاً معالم حضارية وان كانت ناقصة.. لأنها تحوي الشرك والكفر وفلسفات الالحاد والوجودية والمادية والعنصرية والأساطير، ونفايات التاريخ والمدنيات، وشيوع الفاحشة والاباحية والتهتك والخمور والمخدرات والعنف ودور اللهو والقمار والأسلحة النارية، وما ينتج عن ذلك من انتشار الاكتناب والغي والضلال والجريمة والقتل والانتحار والتفكك الأسري والانحلال الاجتماعي والتفسخ الأخلاقي وانتهاب القوي للضعيف واللاأدرية واللامبالاة وروح التمرد العام. وهذا الذي شهد به فلاسفة الغرب أنفسهم وحكماؤهم ومفكروهم وأدباؤهم. وما دامت هذه المدنيّة المتطورة في الغرب قابلة للتوجيه في الوجهة الايجابية، فان الترسانة الثقافية للمسلمين - إن أُعيد ترصيصها - ستكون ملزمة بالاستفادة من هذه المدنية واستثمارها في الوجه الصحيح.. وتوظيفها لترويج هذه الترسانة والسعي بها داخل العالم

(١) شروط النهضة؛ مرجع سابق: ٦٠.

الاسلامي للنهضة بالأمة وخارجه للنهضة بالدعوة الاسلامية وايصال نفع الاسلام للعالمين.

إنّ العالم الحالي، وفي طليعته العالم الغربي، قد تطور كثيراً على المستوى المدني (الأشياء والتقنيات والأساليب)، ولكن الثقافات ومنها الغربية لم تستطع أن تحتوي هذه المدنية أو أن توجهها توجيهاً سليماً. والعالم الاسلامي ضعيف أو مستضعف في أساليبه المدنية، لكنه يرقد على خزان زاهر ضخم كفيل بانقاذ واسعاد البشرية جمعاء، وليس هذا الخزان هو النفط أو الفوسفات أو المعادن النفيسة أو مناجم الذهب والفضة ولا الثروة السمكية ولا مخزون المياه.. ولكنها الثقافة الاسلامية القائمة على الوحي والتوحيد والمربطة باليوم الآخر. هذه الثقافة لم ينتجها العرب بالضرورة أو البربر أو الديلم أو الترك.. ولكن هؤلاء وغيرهم كان لهم شرف المساهمة فيها وتبليغها إلى الناس مع مساهمة هؤلاء وأولئك حسب الكفاءات والفعالية، لاحسب الجنس والعرق. وهذه الثقافة السليمة المرتكزة على الوحي والرسالة اذا تحركت بها مدنية مستعملة في الوجهة الصحيح المعقولة، لا بدّ أن تتفاعلا لتنتجا حضارة بمعناها الحقيقي لا بالقهر والبطش، ينتفع بها الناس كلهم، وليس المسلمون فحسب بل كل المخلوقات. ان معطيات كثيرة تبشّر بأن العالم سيلتقي مع وجهة الاسلام. سواء بما تفرضه صيرورة الواقع، أو بما يجب أن يكون عليه الأمر. وقيادة ذلك والاشراف عليه لن تكون لشعب أو لدولة أو لتكتل - كما عليه الأمر منذ قرون - وانما هي لأمة قائمة على عقيدة واحدة وشريعة واحدة كذلك، وإن كانت متعددة الأعراق والمناطق. الأمة التي تستحق الاستخلاف في الأرض، وتحقق صفة الخيرية، أساسها الايمان بالله، وسمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله عاقبة الأمور^١.

وهذا ما يؤكده الفرنسي «اتيين دينيه» الذي اعتنق الاسلام عام ١٩٢٧م وتسمى «بناصر الدين»، اذ يقول: «إن أتباع محمد ﷺ لو نهضوا وأفاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد. وتبوأوا مكانهم الذي يليق بمجدهم»^٢. ولعل «ليوبولد فايس»: الذي عايش طرفي الحياة الغربية والاسلامية هو خير من يحكي عن

(١) يُراجع المقال الرائع: «نحو ترسانة ثقافية تحقق الاقلاص الحضاري» لعبد الوهاب الفجري، مجلة العالم (لندن) - العدد (٦٤٦): ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٨م - ١٨ رجب ١٤١٩هـ، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) نقرأ عن كتاب «نظرة الغرب إلى حاضر الاسلام ومستقبله»؛ مرجع سابق: ٧٩ (هامش ٢).

الموضوع، انه يلحظ، منذ البدء كيف «أن الحياة الاسلامية في الواقع تظهر، على كل حال؛ في أيامنا الحاضرة، بعيداً جداً عن الامكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الاسلام» وفي المقابل «فان الاسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال، بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين، أعظم قوة نهاضه بالهمم عرفها البشر». و يلاحظ كيف ان «فايس» وهو يشير إلى قدرة الاسلام الفذة على النهوض بالهمم لتحقيق على كافة المستويات، لا يجعل الأمر يقتصر على دائرة المسلمين وحدهم بل يتجاوزهم إلى البشر كافة. ليس هذا فحسب، بل انه ليعتبر الاسلام «أعظم قوة نهّاضة بالهمم على الاطلاق»^١.

إن أي استعراض وتحليل لمقومات الحضارة المعاصرة تستدعي القول بأن المجتمع الانساني بحاجة إلى بديل حضاري يحول دون طغيان جانب على آخر من جوانبه، كما يؤدي إلى ابراز وتنمية عنصر الخير في الفكر الانساني، وتمتلك من الصفات ما تمكنه من استيعاب المعطيات الحضارية المتجددة، وتمحيصها وتوظيفها لخدمة الانسانية، ولا بد لتكامل تلك المسيرة الحضارية توافر العنصر الروحي، والعقل الابداعي والانتاج المادي. وتوازن يتمثل في: دستور خلقي، ذوق جمالي، منطق علمي، صناعة تقنية. واذا ما توفرت للمجتمع المعاصر مقومات هذا البديل الحضاري، وتكاملت في دساتيره الخلقية والجمالية والعلمية والنفسية فسوف تسوده قيم ايجابية، على مستوى فردي وجماعي وعالمي وهذا ما يوفره الاسلام^٢.

ومع أن عدداً لا يُستهان به من مفكري الغرب ومنصفيه يقرّون هذه الحقيقة نظرياً، بيد أن المشكلة تكمن في أن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع.. انما تستجيب لمنهج حي متحرك، مجسّم، ممثل في حياة جماعة من البشر، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد، وتلاحظ آثاره العيون^٣ وليس بمقدور المسلمين اقناع الآخرين ببديلهم الحضاري مالم يألفوا «فن الاستراتيجية» الذي يفضي حين تطبيقه أولاً إلى فن التعبئة،

(١) المرجع نفسه.

(٢) للمزيد راجع مقال: «البديل الحضاري للمجتمع المعاصر» لعزت جرادات، مجلة المسلم المعاصر

(بيروت) - العدد (١٣): محرم ١٣٩٨هـ - ص ١٢٩ - ١٥٢.

(٣) الاسلام ومشكلات الحضارة؛ مرجع سابق: ١٨٢.

والتعبئة تتم حسب المقاصد، واحتمال صعوبات الطريق ومنعرجاته للوصول إلى تلك المقاصد، ممّا يحتمّ التزوّد والاعداد: التزوّد بالتقوى أولاً، ثم بما يلزم من العلم والدراية، مع مصاحبة عمليات التدبر والتبصّر والتذكير في مختلف المجالات والفنون حركةً وموضوعاً. والاعداد مرادف للتزوّد، لكن يزيد عليه تصوّر حجم الخسارة لو لم يكن الزاد كافياً، مع الحرص على بذل الجهد إلى أن تنتهي دائرة المستطاع.

ولئن عزمنا وتوكلنا على الله في بذل الجهد لتحقيق ذاتيتنا واستقلالنا الفكري، من خلال تحدّد دائم وحوار متصل متوازيين متفاعلين يغذي كل منهما الآخر، فلعلنا حينذاك نكون قد بدأنا في خوض الجانب التطبيقي من الفكر الاستراتيجي، ولنا أن نبشّر أنفسنا وقتئذ بان مرحلة التعبئة قد نضجت، لتفسح المجال لمرحلة المواجهة، فان كانت نصراً فمرحلة مراجعة لدوامه واستمراره، وان كانت كرهة فمرحلة لاعادة التعبئة وتحقيق أسباب النصر. فلنكم نترقب أن نلفظ يوماً بمثل ما يلفظ به اليابان اليوم حيث يقول بأن مرحلة اللحاق بالغرب بالنسبة له قد ولّت، وأنه دخل مرحلة السباق أشواطاً بعيدة عن كوكبة الغرب، ووجد نفسه في حل من كل ضغط في أن ينعت رجالات أمريكا بالكسالى، وأن يصف رجال الغرب بالعاجزين في مجال التقدم العلمي والابداع الصناعي^١.

من هنا، قد تكون التجربة اليابانية أكثر ما تحتاج منا إلى دراسة عميقة، هي وبعض التجارب الغربية كنموذج الألمانى والسويدي. ومن نافلة القول أن نتذكر الفرق بين الدراسة والتقليد وحرية الاقتباس.. والذي يعيننا أكثر، كيف استطاعت اليابان أن تنهض من حطام وغبار واشعاع القنبلة الذرية، ومن بين الجراح والآلام في عام ١٩٤٥م، لتستطيع قبل أن يمضي أربعون عاماً أن تكون قوة اقتصادية، استطاعت - بكل اقتدار - أن تهدّد من جديد - ودون قوة عسكرية - معاقل الحضارة الغربية، وبخاصة في المجالين العلمي والتقني، وتفوقت في الإلكترونيات والانتاج الميكانيكي بنوع خاص، حتى ارتفعت معدلات البطالة في غرب أوروبا، واهتزّت وسقطت فيها حكومات، وزاحم الانتاج الياباني الانتاج الأمريكي في عقر داره، وفي أسواقه التقليدية^٢.

(١) مجلة اسلامية المعرفة؛ مرجع سابق: ١٠٤، ١٠٨.

(٢) د. عبدالعزيز كامل: «الشباب من الاغتراب إلى البناء»، مجلة المسلم المعاصر (بيروت) - العدد (٣٥)

رجب ١٤٠٣هـ، ص ٢٥.

لقد اهتزّت أوروبا خاصة، والغرب عامة، لتحديّ ياباني شديد اللهجة، عنيف المجادلة، قاسي الحكم على لسان رجل من كبار الفاعلين في الاقتصاد الياباني، وهو الخبير «كونوسوكي ماتسوشيتا»، رئيس ادارة الكهرباء الصناعية اليابانية، وكان ممّا جاء في هذا التحدي الحكم الآتي: «سننجح لا محالة، والغرب الصناعي حتماً مآله الاخفاق، ذلك لأنه يحمل في ذاته عناصر اخفاقه. لقد ظلت مؤسساتكم (يا أهل الغرب) تيلورية الفكر (نسبة إلى مذهب تيلور الاقتصادي المعروف)، والخطر المحدق بكم، أن عقولكم تيلورية كذلك! انكم تتخيلون أن حسن العمل يتجلّى في الفصل بين ما ينبغي أن يقوم به أولئك الذين يفكرون، وأولئك الذين ينفذون. فالتدبير عندكم فن تحرير فكر القادة إلى أيدي العاملين والمنفذين، أما نحن فقد نبذنا المذهب التيلوري، وأحطنا علماً بالتحديات التي تجابهنا في المستقبل، وحرصنا على تنمية ذكاء كل العالمين، واستثمرنا أموالهم لتعميم هذا الذكاء، ولجعل الحوار المتبادل مستمراً بين كل العناصر الفاعلة، والعمل أسرة واحدة. إن الادارة عندنا هي كيفية تجنيد ذكاء الكل، لصالح مشروع يخدم الكل»^١.

ونحن لانسوق هذا التحدي للاشادة باليابان، فالنموذج التنموي الياباني غير قابل للنقل، ولكن لنضرب المثل على ما تقوم به الدول الراغبة في التمكن والمحافظة على السبق الحضاري، والحريصة على مواكبة التقدم والتنافس ابتكاراً وابداعاً في مختلف مجالات الحياة..^٢

وصفوة القول: إنّنا بحاجة إلى يقظة فكرية بُصر بها صورة الغد، ومواقع الزل، وإلى عقيدة تعيننا على أعباء الطريق، وقوة على مراجعة حساباتنا.. على أن نعبر عن ايماننا بالله سبحانه بالعلم والعمل والتخطيط والصبر على مسؤوليات التنفيذ^٣ عبر استراتيجية بعيدة يساهم فيها الجميع.

(١) يُراجع «تقرير حول الوضع التقني» صادر عن مركز الاستشراف والتقدير ووزارة البحث العلمي والتكنولوجي، ووزارة إعادة الانتشار الصناعي والتجارة والخارجية بفرنسا.. في مجلة العلوم والتقنيات (باريس) أواخر عام ١٩٨٥م ص ١١ (تقلاً عن المقال القيم: «تعميق الفهم في الفكر الاستراتيجي: مدخل إلى التغيير الثقافي» لمحمد برش، مجلة اسلامية المعرفة، مرجع سابق ٩: ٧١).

(٢) المرجع نفسه ٩: ٧٥.

(٣) مجلة المسلم المعاصر؛ مرجع سابق ٣٥: ٣٣.

مستقبل الإنسانية:

بين الفنية والأخرى، نقرأ في الصحف، أو نستمع في أحاديث الزعماء، وقادة السياسة العالمية وخطبهم؛ للآراء المفزعة حول المستقبل المخيف، الذي ينتظر البشرية.. وهذا ما يعزّز النظرة التشاؤمية لدى البعض حول المستقبل البشري. ولأسباب عديدة لا بد أن نعتقد بأن هؤلاء المتشائمين على حق في نظراتهم تلك.

لماذا لا نكون متشائمين؟ إن العالم الذي يتوقّف مصيره على زر يضغطه انسان، وبعد ذلك تعمل الآلات المخربة عملها المخيف، التي لا يعلم مداها إلا الله؛ العالم الذي يقف على قوّة بُركان، وعلى ركام هائل من البارود، وشرارة واحدة تكفي لأن ينشب الحريق في العالم كله، فأين موضع التفاؤل بالمستقبل، ولماذا لا نكون متشائمين؟

يقول «برتراندرسل» في كتابه «الطموحات الجديدة»: «إن العصر الحديث، الذي تواءمت فيه الحيرة والذهول والقلق، مع الضعف والعجز؛ وقد شملت هذه الحالة التعيّسة الجميع، فترى بأننا نسير إلى حرب لا يرغب فيها أيّ واحد منّا، حرب يعلم جميعنا بأنها سوف تقذف بالقسم الأعظم من البشر إلى العدم والفناء، ونحن كالأرنب المذعور الذي يقف مصعوقاً أمام الحيّة، ننظر بفزع إلى الخطر الهائل الزاحف إلينا، ولا ندري ماذا نعمل لنوقفه عند حدّه.

ونسلم باستمرار حكايات القنابل المدمّرة؛ الذريّة، والهيدروجينية، والمدن التي سويّت مع التراب بفعل هذه القنابل، ونسمع بخيول الجيش الروسي، وتتناقل فيما بيننا أحاديث المجاعات، والجرائم الوحشية.. ولكن رغم أن العقل يفرض علينا أن نرتجف من المستقبل المخيف، لأن جزءاً من وجودنا يلتذّبه، وبذلك يحدث جرح عميق في روحنا ويمزّقها إلى قسم سليم، وقسم غير سليم، ولكن رغم ذلك لا نتخذ قراراً حاسماً بوجهه^(١). وحول هذه النقطة يعقّب الشيخ مرتضى مطهري: «اننا لو اعتمدنا على العوامل الظاهرية فحسب للحكم ولتقييم الأشياء، فإن هذا التنبؤ بدمار الأرض صحيح».. ويمضي بالقول: «بما أننا مسلمون، فإن الثقة والاطمئنان والتفاؤل بمستقبل البشرية تغمر قلوبنا.. رغم الاحساس بالخطر الهائل المخيف، وتوقع الخطر الذي يحمل الفناء والدمار للبشرية،

(١) نقلًا عن كتاب «مقالات اسلامية» للشهيد مطهري، ترجمة السيد الهاشمي، طهران، ١٤٠٢ هـ، ص ٥١-٥٢ (بشيء يسير من التصرف).

ويحوّل الكرة الأرضية إلى رماد، لتذهب أدراج الرياح جهود البشر كلّها عبر آلاف السنين»^١.

..إذا قلنا: بأن الانسان سيحفر قبره بيد قدراته العلمية نفسها، وليس هناك إلا خطوات ويسقط في قبره، إذا كان هذا الانتحار الجماعي، هو المصير الذي ينتظر البشر، فحينئذ لا بدّ أن نقول بأن ايجاد مثل هذا الموجود وخلقه كان عبثاً وجزافاً.

أجل.. إن الانسان المادي لا يفكر إلا بهذه الطريقة، وأما الانسان الذي نشأ وترعرع في أحضان التعاليم الالهية، فانه لا يفكر بهذا الاسلوب. انه يؤمن بأن العالم لا يمكن أن يسقط في أيدي حفنة من المجانين. وهو يعتقد بأن العالم وإن وقف اليوم على حافة الخطر، لكن الله الذي أنقذ البشرية في العصور السابقة، بين فترة وأخرى، وأرسل المصلح والمخلص من عالم الغيب ليقوم بمثل هذا العمل في الظروف الصعبة التي تمرّ بها البشرية. بعد ذلك هو يؤمن بأن أعمال العالم لا تصدر عبثاً، هو يؤمن بأن المصير الرهيب والنهاية المفزعة التي يتصورها المادي لو تحققت فانها تتنافى وحكمة الله وعنايته.

إذ مقتضى الحكمة والعناية إيصال كل ممكن لغاية

كلّال يصل عمر العالم إلى نهايته، فإننا لا زلنا في بداية الطريق - يقول الشهيد مطهري - : إن البشرية تنتظر الحكومة القائمة على العقل والحكمة والخير والسعادة والأمن والرفاه والوحدة العالمية الشاملة. الدولة التي يحكمها الصالحون، ويتحقق فيها انتخاب الأصلح بمفهومه الصحيح. أنّه يوم السعادة والنور: ﴿وأشرق الشمس بنور ربّها﴾ (الزمر: ٦٩). أنّه اليوم الذي يقول حوله الحديث الشريف: «إذا قام القائم حكم بالعدل، ارتفع في أيامه الجور، وأمنت به السبل: وأخرجت الأرض بركاتها، ولا يجد الرجل منكم يومئذ موضعاً لصدقته ولا برّه»، وهو قوله تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ (القصص: ٨٣).

ان هذه هي فلسفة المهدوية، ففي الوقت الذي ستحدث فيه الهزّات الشديدة، والمذابح والجرائم، والمآسي الدامية، ولكن رغم ذلك سيظهر الفجر. وستصل البشرية الى الغد يفيض سعادة، حيث سينتصر فيه العقل على الجهل، والتوحيد على الشرك، والعدالة على الظلم، والسعادة على الشقاء، وهذه هي البشارة: «اللّهمّ إنّنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الاسلام وأهله، وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك

(١) المرجع نفسه: ٥٠.

والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة»^١.

وفكرة «المخلص» أو «المنقذ» للبشرية ممّا تعانيه من ظلم وجور لا تقتصر على الأطروحة الاسلامية، فهي تستوطن التطلّع الانساني لليوم الموعود. وبهذا الصدد يقول الشهيد الصدر: «ليس المهدي تجسيدا لعقيدة اسلامية ذات طابع ديني فحسب، بل هو عنوان الطموح اتجهت اليه البشرية بمختلف أديانها ومذاهبها، وصياغة لالهام فطري، أدرك الناس من خلاله - على الرغم من تنوّع عقائدهم ووسائلهم إلى الغيب - أن للانسانية يوماً موعوداً على الأرض، تحقق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير، وهدفها النهائي، وتجد فيه المسيرة المكدودة للانسان على مرّ التاريخ استقرارها وطمأنينتها، بعد عناء طويل. بل لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيبي والمستقبل المنتظر على المؤمنين دينياً بالغيب، بل امتدّ إلى غيرهم أيضاً وانعكس حتى على أشد الأيديولوجيات والاتجاهات العقائدية رفضاً للغيب والغيبيات، كالمادية الجدلية التي فسّرت التاريخ على أساس التناقضات، وآمنت بيوم موعود، تصفّي فيه كل التناقضات ويسود فيه الوئام والسلام»^٢.

وقد سبق الحديث في الفصل السابق، عن مسرحية «في انتظار غودو» للكاتب الإيرلندي الأصل «صموئيل بيكيت» والذي حاول فيها تشخيص مشكلات الانسان المعاصر، عبر تصويره شخصيتين مركزيتين هما أشبه ما يكونان بالمتشردين الذين يعاونون عن أزمة نفسية، أو يقعون ضحية الإدمان على الشراب. وهما يقفان كل مساء تحت شجرة جرداء ليعيدوا حواراً قديماً وينتظروا شخصاً يعلقان عليه أملهما بالخلاص. وتنتهي المسرحية القصيرة دون أن نرى لمخلصهما المنتظر أي أثر، وإن سمعنا من أحدهما أنهما سينتحران اذا لم يأت المخلص^٣.

وهذا يعني - فيما يعني - ان الشرائع السماوية والأفكار الوضعية، على حد سواء، تنطلع إلى الخلاص والمخلص. يتساوى في ذلك المؤمنون برسالات السماء من اتباع الديانات الكبرى.. والماديون والعشيون. والمثير حين نجد أن أدب اللامعقول - الذي يُعد «بيكيت»

(١) المرجع نفسه: ٥٤ - ٥٥.

(٢) بحث حول المهدي؛ مرجع سابق: ٧.

(٣) عبد الرحيم حسن؛ «في انتظار غودو»، مجلة العالم (لندن) - العدد (٣٠٩): ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠م، ص ٤٩.

أحد أبرز رموزه - يدلي بدلوه، في هذا المضمار، اذ يتطلع - كما هو في انتظار غودو - إلى منقذ تتمخض عنه الدنيا، ليضع حداً لكل هذا الاغتراب، والضياع، والجذب الروحي الذي يتفشى - بشكل مربع - في أوصال الغرب ويضرب بأطنابه في كل اتجاه، مما يهدّد حضارة الغرب من الأساس، ويُسرّع في خطاها نحو الانهيار.

وهكذا نجد أن التجربة النفسية لهذا الشعور التي مارستها الانسانية على مرّ الزمن، من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموماً بين أفراد الانسان.. وحينما يدعم الدين هذا الشعور النفسي العام، ويؤكد أن الأرض، في نهاية المطاف، ستمتلاً قسماً وعدلاً، بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً، يعطي لذلك الشعور قيمته الموضوعية ويحوّله الى ايمان حاسم بمستقبل المسيرة الانسانية، وهذا الايمان ليس مجرد مصدر للسلوة والعزاء فحسب، بل مصدر عطاء وقوة^١.

وليس أدلّ على اهتمام المجتمع الدولي بأمر المستقبل.. من ذلك التوجّه المبكّر بالألفية الثالثة وما تخبئه من تحديات. وقد اتّخذ الحديث المتزايد يوماً بعد يوم، قبيل حلول عام ٢٠٠٠م، ما يشبه الحُمى التي انتابت الغرب إلى حد الهذيان التهديدي للألفية!، حتى أن زعيماً عريقاً بماركسيته كفيدل كاسترو ينساق وراء الزوبعة المثارة، ويقول قبل عقدين من مجيء الألفية: «الناس يتحدثون عن سنة ٢٠٠٠، ولكن لا أحد يعرف بالضبط ما اذا كان العالم سيبقى حتى سنة ٢٠٠٠م لا!»^٢.

الأنكى من ذلك أن البعض - في الغرب - قد ذهب بعيداً في النبوءات التي تحدثت، خلال التسعينات من القرن الماضي خاصة، عن نهاية الكون، بل حدّد البعض ساعة الصفر صبيحة عام ألفين.. وهو تفكير بلاشك صيباني، كما وصفه نور الدين بوقروح^٣.

وفي اطار الاستعدادات الهائلة للاحتفال بالألفية.. رُصد للمهرجان العالمي النصراني (بيت لحم ٢٠٠٠) مبلغ ٣٢٢ مليون دولار، الذي شارك فيه العديد من القادة العالميين،

(١) بحث حول المهدي؛ مرجع سابق: ٨.

(٢) يُراجع عمود «أقوال معاصرة»، مجلة العربي (الكويت) - العدد (٢٥٧): أبريل (نيسان) ١٩٨٠م، ص ٤٦.

(٣) تراجع مقدمته لكتاب «القضايا الكبرى» لمالك بن نبي، بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ص ١٣، وللوقوف على

ما قيل من أساطير ونبوءات حول نهاية العالم، يُراجع لكاتب السطور مقال: «مستقبل العالم: نبوءات وأساطير»،

مجلة المستقبلية، العدد الأول، ربيع ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص ٦٥ - ٨٤، ومقال: «نهاية العالم وحديث النبوءات»

م. س. العدد الثاني، صيف ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ١٨١ - ١٩٤.

وعلى رأسهم بابا الفاتيكان، والرئيس الأمريكي كليتتون، والرئيس الروسي يلتسين الذي انضم في اللحظات الأخيرة إلى هيئة رئاسة الاحتفالات وحينها تواترت الأخبار عن حشد متحفز، وتسابق مستنفر لحضور تلك الاحتفالات، حيث قدر بعض المصادر في البداية عدد من سيحضرون إلى القدس في أواخر عام ١٩٩٩م وأوائل عام ٢٠٠٠م بنحو مليون ونصف مليون شخص، ثم زادت التقديرات إلى مليونين، وبعد أن تأكد حضور بابا الفاتيكان لتلك الاحتفالات قدر بعض الأوساط القادمين بثلاثة ملايين^١، في حين أوصلتهم مصادر أخرى إلى ستة ملايين^٢. وفي خضم تلك الاحتفالات واسعة النطاق ساد اعتقاد لدى الأوساط المسيحية واليهودية بأن عودة السيد المسيح عليه السلام أمست وشيكة. والألفية عندهم ليست خصوصية زمان فحسب، بل هي بوابة عبور إلى مرحلة جديدة لعصر جديد تعتقد طوائف من النصارى: «أن الأرض كلها ستخضع فيه لدين المسيح. ولكن المسيح العائد لن يعود إلى روما أو واشنطن أو باريس، بل سيعود إلى الأرض التي في أحضانها وُلد، وفي رُباها تربى.. انها القدس». كما أن نبوءات هؤلاء النصارى في القرن الجديد، عن سيطرتهم على حكم العالم بعد مجيء المسيح تؤكد أن ذلك لن يحدث في هدوء، وإنما بعد حرب عالمية نووية تهلك الحرث والنسل^٣.

وقد مرّ بنا في مقدمة الكتاب أن هيئة اليونسكو كانت سباقة إلى عقد الندوات والملتقيات عن تحديات عام ٢٠٠٠م، والتي انبثقت عن مائدة مستديرة عقدتها في عام ١٩٧٦م، حول الغرض نفسه. ومنذ ذلك الحين، توالى الاهتمام بهذا المحور، كما صدرت عشرات الدراسات والبحوث حوله، وعلى الصعيد الاسلامي أصدر السفير الألماني المسلم د. مراد هوفمان كتابه «الاسلام عام ٢٠٠٠م» في خريف عام ١٩٩٥م^٤، فيما سبقه الكاتب البحراني د. محمد جابر الأنصاري حين أصدر كتابه «العالم والعرب عام ٢٠٠٠م» في سنة ١٩٨٨م.. وتطول القائمة.

وفيما يتعلق بعودة السيد المسيح عليه السلام. فإننا -نحن المسلمين- نعتقد بها اعتقاداً جازماً،

(١) مجلة الوسط (لندن): ٤ / ١ / ١٩٩٩م.

(٢) نقلاً عن مجلة المجتمع (الكويت)، العدد (١٣٤٠): ٢ / ٣ / ١٩٩٩م.

(٣) إراجع المثال المثير: «العالم يعيش حتى عام ٢٠٠٠»، مجلة المجتمع (الكويت) - العدد (١٣٨٢): ٢٠ - ٢٦.

رمضان ١٤٢٠هـ - ٢٨ ديسمبر ١٩٩٩م / ٣ يناير ٢٠٠٠م، ص ٢٦ - ٣١.

(٤) بادر إلى ترجمته الأستاذ عادل المعلم، ونشرته مكتبة الشروق (القاهرة)، في العام نفسه.

بل ان عودة المسيح عيسى بن مريم من أجل آيات الأله في آخر هذا الزمان^١ وقد أجمع المسلمون على أن السيد المسيح ﷺ سينزل من السماء إلى الأرض في آخر الزمان. وبذلك فسّر أكثر المفسرين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ (النساء: ١٥٩)، وقد ورد في بعض الروايات أنه يصلي خلف المهدي عليهما السلام، ومنها الحديث المشهور عن النبي ﷺ: «كيف بكم (أنتم) إذا نزل ابنُ مريم فيكم، وإمامكم منكم»^٢ ولأن المجمع عليه عند المسلمين أن حاكم الدولة العالمية يكون الامام المهدي عليه السلام، ويكون المسيح عليه السلام مُعيناً له ومؤيداً.. ولا بد أن الكلمة النافذة في الغرب تصبح للمسيح والمهدي عليهما السلام، وللتيار الشعبي المؤيد لهما في الشعوب الغربية. وأن هذا التيار يتولى حركة اسقاط الحكومات الكافرة واقامة حكومات تعلن انضمامها الى دولة المهدي ﷺ^٣.

ولما كان لكل حدث عظيم، من أحداث التاريخ، بدايات وارهافات وعلامات تشير اليه، فالمستقبل حقيقة تعيش في ضمير الحاضر. وظهور المصلح المهدي (عج) واحد من أعظم أحداث التاريخ البشري الكبرى، لاسيما وان الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام قد لفتوا أنظارنا إلى هذا الحدث الكبير، عبر الأحاديث التي تشير إلى حركته وعلامات ظهوره^٤. وهناك افتراض أساسي واحد بالامكان قبوله على ضوء الأحاديث التي تحدثت عنه والتجارب التي لوحظت لعمليات التغيير الكبرى في التاريخ، وهو افتراض ظهور المهدي (عج) في أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة وأزمة حضارية خانقة. وذلك الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتد، وهذه النكسة تهيء الجو النفسي لقبولها، وليست هذه النكسة مجرد حادثة تقع صدفة في تاريخ الحضارة الانسانية وإنما هي نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله - سبحانه وتعالى - التي لانجد لها في نهاية المطاف حلاً حاسماً، فتشتعل النار التي لا تُبقي ولا تذر، ويبرز النور في تلك

(١) عبدالرحمن عيسى: «الاسلام والرتق الحضاري»، دار الهجرة، بيروت - دمشق، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م،

ص ٩٣.

(٢) صحيح مسلم: «نزول عيسى بن مريم ﷺ»، الحديث رقم ٣٤٧.

(٣) للمزيد يُراجع كتاب: «عصر الظهور» لعلي الكوراني، قم، ١٤٠٨هـ، ص ٣٠٦ - ٣١٣.

(٤) لجنة التأليف في مؤسسة البلاغ: «الإمام المهدي المنتظر (عج)»، سلسلة أهل البيت ﷺ، طهران

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ٥٧٠.

اللحظة ليظفيء النار ويقيم على الارض عدل السماء^١.

إذن، نحن ازاء حتمية الحل الاسلامي. تلك الحتمية التي أخذ الاسلاميون يتحدثون عنها منذ السبعينات، على نحو ما قرأنا من قبل للماركسيين عن «حتمية الاشتراكية» مع اختلاف المدلول في الاستعماليين. ومع ضرورة التذكير بأن كثيراً من أهل الفكر ضاقوا بـ (الحتميات) المادية، وبخاصة بعد أن تخلفت كثير من النبوءات التي سبقت على أنها القدر المحتوم^٢، ليتجلى عجزها بل افلاسها المصقع، غداة السقوط المدوي للشيوعية في معقلها الركين (موسكو) عام ١٩٩١م، ومن ثم لتتلاحق تداعيات بقية الحصون المهددة، ولتتهاوى بصورة مفاجئة وعلى طريقة لعبة الدومينو الشهيرة!

وبهذا الصدد، يقول د. يوسف القرضاوي (صاحب اطروحة «حتمية الحل الاسلامي» عبر سلسلة كتابه الذي صدر تباعاً، منذ عام ١٩٧٧م، تحت هذا العنوان)، وهو يتحدث عن ضرورة التغيير والبحث عن بديل: «ان منطق العلم هنا يؤكد ضرورة التغيير، ويوجب البحث عن بديل، ترى ماذا يكون البديل؟»، ويسارع المؤلف إلى القول بأن الحل البديل المطلوب لا يتصور إلا أحد اثنين: الحل الشيوعي الأحمر الصريح، أو الحل الاسلامي المتكامل الصحيح.. أما الحل الشيوعي فهو مرفوض شكلاً وموضوعاً، أصلاً وفروعاً.. فلم يبق إلا الحل الآخر، فهو الحل البديل، وهو الحل الحتمي، وهو الحل الوحيد، ذلكم هو الحل الاسلامي^٣.

المستقبل للاسلام، إذن، ليس هو مجرد شعار نتبناه محوطاً بالأمل والرجاء، إنما هو دين وعقيدة تؤمن يقيناً ونوقن بجزم أن المستقبل للاسلام، لأن المسلم بحكم تديّنه يؤمن بالمستقبل، وأن لكل مشكلة حلاً، ولكل مسألة جواباً، ولكل داء دواء. وقد قرر هذه الحقيقة كتاب الله المحفوظ وسنة نبيه المعصوم وروايات أهل بيته الأطهار. ومن آيات

(١) بحث حول المهدي؛ مرجع سابق: ٩٠.

(٢) تناول الأستاذ محمد فتحي عثمان آلة «الحتميات» في مقالة «تحت الضوء: قراءات وخواطر»، مجلة

المسلم المعاصر (بيروت) - العدد (٩): محرم ١٣٩٧هـ - يناير ١٩٧٧م، ص ١٤٧.

(٣) يُراجع الجزء الثاني من السلسلة والموسوم بـ «الحل الاسلامي؛ فريضة وضرورة»، بيروت، ١٤٠٠هـ

١٩٨٠م، ص ٤٠، ٤٤.. ويراجع فصل «حتميات الحل الاسلامي» في كتاب «الاسلام والرتق الحضاري» مرجع

سابق: ٥٣. وللوقوف على دراسة مقارنة معمقة بين (الحتمية) المادية والحتمية الاسلامية يُراجع كتاب «اليوم

الموعد بين الفكر المادي والديني» للمرجع الشهيد محمد الصدر، دار المعارف، بيروت، ١٩٧٩م - ١٣٩٩هـ.

النصر وبشائر المستقبل في القرآن الكريم: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (الحج: ٤٩)، فوراثه الأرض مستقبل ينتظر الصالحين الذين التزموا دينه وأقاموا شرعته. ويتأكد ذلك ويتصدق بالتاريخ الذي وقع بظهور الاسلام وسيادته وهيمنته على الأديان كلها مصداق قوله تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (سبا: ٢٨).

جاءت السنة تترى تثبت هذه الحقيقة وتقرّها وتنبه عليها^١، فقد رويت طائفة من الأحاديث تؤكد هذا المآل المستقبلي للاسلام ودولته الكبرى المأمولة: «لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً، ثم يخرج من أهل بيتي من يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»^٢.

وليست عالمية النفوذ السياسي هي وحدها أبرز معالم دولة الامام المنتظر عليه السلام فهناك من خصائصها ومعالمها البارزة غير هذا، مما نقرؤه في النصوص التنبؤية الواردة عن المعصومين عليه السلام.. وربما كان أهمها ما يأتي:

١ - عالمية العقيدة الاسلامية (عقيدة التوحيد)، وعمومها لكل فرد من البشر، وتطهير الأرض من كل عقائد الشرك والكفر والضلال والنفاق. فمما يروى في هذا المجال: عن رفاعة بن موسى: قال: سمعت جعفر الصادق عليه السلام يقول في قوله تعالى: ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾.. قال: إذا قام القائم المهدي لا تبقى أرض إلا نودي فيها شهادة: ألا إله إلا الله وإن محمداً رسول الله.

وعن عمران بن ميثم عن عبابه: أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾.. أظهر بعد ذلك؟

قالوا: نعم..

قال: كلاً.. فوالذي نفسي بيده، حتى لا تبقى قرية إلا وينادي فيها بالشهادة: ألا إله إلا الله، بكرة وعشيّاً.

٢ - عموم العدل والأمن والرخاء؛ ومن النصوص المشيرة اليه ما يلي: «إذا قام

(١) أحمد علي الإمام: «مستقبل العالم الاسلامي إزاء التحديات المعاصرة»، دورية «قراءات سياسية» (فلوريدا / أمريكا) - العدد (١٨): ربيع ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ص ١٥٣.

(٢) نقلاً عن كتاب «في انتظار الإمام» لعبد الهادي الفضلي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٩ م، ص ٣٩.

القائم عليه السلام حكم بالعدل، وارتفع في أيامه الجور، وآمنت به السبل، وأخرجت الأرض بركاتها، ورُدَّ كل حق إلى أهله، ولم يبق أهل دين حتى يظهروا الاسلام، ويعترفوا بالايمان...».

٣- انتشار الثقافة والعلم؛ ومما يشير إليه من النصوص ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث له: «وتوتون الحكمة في زمانه، حتى أن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله»^١.

ولا غرو أن المبشرات بانتصار الاسلام عديدة، سواء على مستوى النص أو غيره. وقد أثبتت منعطفات التاريخ الحادة قدرة الاسلام الهائلة على النهوض مهما كانت الكبوة. وإذا تركنا التاريخ وما يحمله من مبشرات بالقوة الذاتية للاسلام والقوى المكونة في كيان هذه الأمة، والتي تبرز عند الشدائد، وعندما يوجد من يفجرها... ونظرنا إلى واقع الأمة في هذا العصر، وجدنا مبشرات أخرى كثيرة، جعلت هذه الأمة تثبت في وجه الأعاصير، ولا تذوب في غيرها، كما يذوب الملح في الماء، كما كان يراد لها، بل جاهدت وقاتلت حتى تحررت من مستعمرها، وعادت تشعر بكيونتها، تكتشف ذاتها من جديد، رغم ما وضع لها من أغلال تكبلها، وما صنع لها من أقفاص حديدية أو ذهبية تحبس داخلها^٢.

وإذا كان بعض الناس يحاول أن يهون من قوة التيار الاسلامي، ويقلل من شأن الصحوة الاسلامية، مهولاً من قوة التيار العلماني والمعادي للاسلام وشريعته ومنهجه لقيادة الحياة، فانهم مخطئون في تقديراتهم، أو هم يعلمون الحقيقة ولكنهم يتجاهلون عداً، لهوى في أنفسهم. وإذا ما تعمقنا في تقدير وزن القوى التي لنا والتي علينا، كانت كفة الاسلام ودعائه بحمد الله أرجح وأثقل في الميزان، كما يقول د. القرضاوي:

أ-: فنحن بالاسلام نملك صيداً ضخماً، لا يمكن أن تملكه دعوة أخرى وافدة من هنا وهناك. ان وراء الاسلام (قوة الجماهير) الغفيرة المؤمنة بربها وقرآنها ومحمدها، المتطلعة إلى من يقودها باسم الله، ويضع يدها في يد رسول الله، وعندئذ تبذل المال عن رضى

(١) للمزيد من الاطلاع على عالمية النفوذ السياسي لدولة الاسلام زمن الإمام المهدي (عج) يُراجع الكتابان القيمان آفا الذكر: «اليوم الموعود...» للسيد محمد الصدر، و«في انتظار الإمام» لعبد الهادي الفضلي.

(٢) يُراجع المقالات الثلاثة التي كتبها العلامة الدكتور يوسف القرضاوي حول «المبشرات بانتصار الاسلام»، مجلة المجتمع (الكويت). وخصوصاً الحلقة الثالثة المنشورة في العدد (١٢٠٨): ٣٠ صفر ١٤١٧ هـ - ١٦ / ٧ / ١٩٩٦ م. ص ٤١ - ٤٣.

واغترباط، والروح عن طواعية وارتياح، ان هذه الأمة متدينة بفطرتها وتاريخها، والدين هو مفتاح شخصيتها، وصيقل مواهبها، وصانع بطولاتها، وسر لانتصاراتها الكبرى، وهي أسرع استجابة اليه، والتفافاً به، من أية دعوة دخيلة جاء بها غاصب محتل، أو بذور بذورها طامع متربص.

ب- ونملك كذلك (قوة المنهج) الذي ندعو اليه، قوة مبادئ الاسلام العظيمة الخالدة، نملك قوة الاسلام التي تتمثل في وضوحه وشموله وعمقه واتزانه وتأثيره، الاسلام عقيدة تخاطب العقل، وعبادة تزكي النفس، وأخلاقاً تلائم الفطرة، وأحكاماً تحقق التوازن والعدل، تطارد المفاسد، وتجلب المصالح، وتعطي كل ذي حق حقه.

ومن أبرز معالم القوة في هذا الاسلام: أنه ليس من وضع البشر، بل هو من تنزيل رب العالمين، وهذا العنصر الالهي فيه جعله يبرأ من الغلو والتقصير، ومن العجز والقصور، الذي يُصاب به دائماً كل منهج يضعه البشر لأنفسهم. وهذه الميزة أيضاً تجعله أدنى إلى القبول والاذعان له من جمهرة الناس، لأنه انقياد من الانسان لربه، الذي خلقه فسواه، وأمدّه بنعمته، وغمره برحمته، والذي يرجو مثوبته، ويخشى عقابه، على عكس المبادئ الوضعية التي لا يطيعها الانسان إلا خوفاً أو طمعاً، والتي يحاول أن يتهرب من سلطانها ما استطاع.

ومن أسباب قوة الاسلام: أنه منهج نابع من أعماق الأمة، وليس دخيلاً ولا طارئاً عليها، بحيث تحتاج إلى ضغط مادي أو معنوي حتى تسيغه وترضى بتجرّعه كأسه.

ج- ان هذه القوة المذخورة في منهج الاسلام، لا يعادلها إلا القوى المكنونة في حنايا أمة الاسلام. تلك القوى التي انفجرت يوماً والمسلمون في ضعف وتفرّق وخذلان فحطمت الصليبيين في (حطين)، وهزمت التتار في (عين جالوت)، وأسرت لويس التاسع في (دار ابن لقمان) بالمنصورة^١.

بل ان كثيراً من الازهاصات تنبئ بحقيقة أن المستقبل لحضارة الاسلام منها: ان القيم الروحية والأخلاقية والمعنوية المميزة لحضارتنا وامتلاك الأمة الاسلامية لمصادر الطاقة والحياة، مع كونها وسطاً جغرافياً وتاريخياً، يمثل سكانه خمس سكان العالم مع الامكانات التي يتيحها لها ذلك الموقع. وفوق ذلك اعتمادها على دينها الخاتم المهيمن على كل

(١) المرجع نفسه: ١٢٠٨: ٤١.

المناهج. الدين القائم على العلم وسيادة علومه وحضارته.

ومن وعود النهضة التي تبشّر بالمستقبل ظاهرة الصحوّة والقوة، نحو زوال قابلية الاستعمار التي بقيت رديحاً من الزمان عند المسلمين. فالأمة بتوحيدها بإيمانها وجهادها بامتلاك القوة والتقدم العلمي قد تبلغ غداً أن شاء الله أوج الحضارة، وتنتصر على قوى التخلف في داخلها، وتواجه قوى الطغيان والاستكبار العالمي، لتنتصر عليها إن شاء الله^١. ولم يُعدّ خافياً أن الاجانب من المستشرقين والدارسين لطبيعة أمتنا، وخصائص ديننا، ومذخور الطاقات في شعوبنا، هم الذين يدركون حقيقة ما نملك من قوة ذاتية، يحسبون لها ألف حساب، بل يساورهم وهم مفزع، من خشية انطلاقها يوماً من الأيام. يقول البروفسور «جب» في كتابه: «وجهة الاسلام»: ان الحركات الاسلامية تنطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً قبل أن يتبين المراقبون من اماراتها ما يدعو إلى الاستمرارية في أمرها. ان الحركات الاسلامية لا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها إلا صلاح الدين من جديد.

وكتب الرحالة الألماني «بول شمتر» كتاباً خاصاً بهذا الموضوع سماه: «الاسلام قوة الغد العالمية»، وقد مرّ ذكره آنفاً، ومما قال فيه: ان مقومات القوى في الشرق الاسلامي، تنحصر في ثلاثة عوامل:

١- في قوة الاسلام (كدين) وفي الاعتقاد به، وفي مثله، وفي مؤاخاته بين مختلفي الجنس واللون والثقافة.

٢- وفي وفرة مصادر الثروة الطبيعية في رقعة الشرق الاسلامي الذي يمتد من المحيط الأطلسي، على حدود مراكش غرباً إلى المحيط الهادي على حدود أندونيسيا شرقاً، وتمثل هذه المصادر العديدة لوحدة اقتصادية سليمة قوية ولاكتفاء ذاتي، لا يدع المسلمين في حاجة مطلقاً إلى أوروبا أو غيرها اذا ما تقاربوا وتعاونوا.

٣- وأخيراً أشار إلى العامل الثالث وهو: خصوبة النسل البشري لدى المسلمين، مما جعل قوتهم العددية قوة متزايدة.

ثم قال: «فان اجتمعت هذه القوى الثلاث، فتآخى المسلمون على وحدة العقيدة، وتوحيد الله، وغطت ثروتهم الطبيعية حاجة تزايد عددهم، كان الخطر الاسلامي خطراً

(١) دورية قراءات سياسية؛ مرجع سابق ١٨: ١٥٣ - ١٥٤.

منذراً بفناء أوروبا وبسيادة عالمية في منطقة هي مركز العالم كله».. ويقترح «بول شمتز» - بعد أن فصل هذه العوامل الثلاثة عن طريق الإحصاءات الرسمية، وعما يعرفه عن جوهر العقيدة الإسلامية، كما تبلورت في تاريخ المسلمين، وتاريخ ترابطهم وزحفهم لرد الاعتداء عليهم - أن يتضامن الغرب المسيحي شعوباً وحكومات ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر، ولكن في أسلوب نافذ حاسم^١.

وقال «روبرت بين» في مقدمة كتابه الذي سَمَّاه: «السيف المقدس»: «علينا أن ندرس العرب ونسبر أفكارهم، لأنهم حكموا العالم سابقاً، وربما عادوا إلى حكمه مرة أخرى، والشعلة التي أضاءها «محمد» لا تزال مشتعلة بقوة، وهناك ما يدعوا الاعتقاد بأن الشعلة لا تطفأ، ولهذا كتبت هذا الكتاب، لكي يقف القراء على أصل العرب وتسميتهم باسم السيف ذي النصلين الذي ناله «محمد» في وقعة بدر تذكراً لانتصاره، لأن السيف أصبح رمزاً لمطالبه الامبريالية»^٢.

وبغض النظر عما في هذا الكلام من تحامل، وما يغلي به من حقد، فهو يبيّن لنا مبلغ قوة المسلمين في نظر الأجانب عنهم، وهم اليوم يسمون الاسلام (الخطر الأخضر) بعد أن زال (الخطر الأحمر) بانھیار الاتحاد السوفییتی^٣.

واضافة إلى ما تقدّم من عناصر القوة الذاتية في الاسلام.. هناك مبشرات أخرى مستمدة من سنن الله في الخلق وفي الاجتماع الانساني، وهي سنن وقوانين ثابتة تجري على الآخرين، كما جرت على الأولين، وتجري على المسلمين كما تجري على المشركين، لا تتخلف ولا تتبدل، كما قال سبحانه: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ (فاطر: ٤٣). وإذا ما نظرنا إلى هذه السنن الالهية وجدنا مجموعة منها في صفنا - نحن المسلمين ودعاة الاسلام -

من هذه السنن: سنة «التداول» أو «المداولة» للأيام بين الأمم والأقوام، وهي السنة التي قررتها الآية الكريمة من سورة آل عمران، وقد نزلت بعد غزوة أحد التي أصاب المسلمين

(١) نقلاً عن مقال «المبشرات من والواقع ومن السنن الالهية»، المجتمع (الكويت)، مرجع سابق ١٢٠٨: ٤٣

(هامش ٢).

(٢) أيضاً: نقلاً عن المرجع السابق ١٢٠٨: ٤٣ (هامش ٣).

(٣) المرجع نفسه: ١٢٠٨: ٤١.

فيها ما أصابهم قال عز وجل: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

ولهذا قيل: الدهر يومان؛ يوم لك ويوم عليك، وقيل: دوام الحال من المحال، فالأحوال تتبدل، والدنيا تتحول، والعالم يتغيّر.. ومن نظر في أحوال الأمم عبر التاريخ يجد شعلة الحضارة تنتقل من أمة إلى أمة، ومن يد إلى أخرى. ومن حسن حظنا أن «سنة التداول» أو «قانون المداولة بين الناس» يعمل معنا لا ضدنا، وكما قال الامام حسن البنا: «إن الدور لنا لا علينا!». فقد كانت قيادة العالم قديماً في يد الشرق، على أيدي الحضارات الفرعونية والآشورية والبابلية والكلدانية والفينيقية والهندية والصينية، ثم انتقلت إلى الغرب، على يد الحضارة اليونانية ذات الفلسفة الشهيرة، والرومانية ذات التشريع المعروف، ثم انتقلت هذه القيادة مرّة أخرى الى الشرق على يد الحضارة العربية - الإسلامية، وهي حضارة متميزة جمعت بين العلم والايمان، بين الرقي المادي والسمو الروحي، ثم غفا الشرق وغفل عن رسالته، فأخذ الغرب الزمام وكانت له القيادة مرّة أخرى، ولكنه لم يرعَ أمانة هذه القيادة، بل أفلس في ميدان الروح والأخلاق، وفرط في العدل، وأعلى القوة على الحق، والمادة على الروح، والجماد على الانسان، وكال بمكيالين في التعامل مع القضايا البشرية، فكان من سنة الله أن تنتقل الشعلة إلى غيره، والمفروض حسب استقراء التاريخ: أن تعود إلى الشرق مرّة أخرى، الشرق الذي يملك رسالة غير رسالة الغرب، وهو الشرق الاسلامي، فعليه أن ينتهياً لذلك، ويعد له العدة، كما قال تعالى: ﴿عَسَى رَبَّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوْكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

ومن السنن الالهية التي نجدها في صف المسلمين، ونعدها من المبشرات: «سنة التغيير» التي قررها القرآن الكريم في أكثر من آية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مَغِيْرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ. كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ. كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِيْنَ﴾ (الأنفال: ٥٣، ٥٤).

وهذه السنة إذا طبقت على أهل الحضارة الغربية الذين مكّن الله لهم الأرض، وسخر لهم قواها، وأتاهم من كل الثمرات، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ووسّع عليهم الأرزاق فأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكنهم - كما ذكرنا في «سنة التداول» - خانوا أمانة القيادة

والمسؤولية، وطفوا في البلاد فاكثروا فيها الفساد، وبعبارة وجيزة: أنهم غيَّروا ما بأنفسهم إلى الشر والفساد، فهم أهل لأن يعمل الله فيهم سنته فيغيِّر ما بهم، ويسحب القيادة منهم، وينقلها إلى غيرهم^١.

وقل مثل ذلك عن سُنَّة «الاستخلاف والتمكين» التي صرح بها القرآن الكريم وعداً من الله، ووعد الحق: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (النور: ٥٥).

ومن نافلة القول التأكيد، بأن أياً من هذه السنن لا يمكن أن تتحقق بلا مقدمات موضوعية، أو لمجرد رغبة البعض في ذلك، دون أن يتقدّم خطوة واحدة لانجاز هذا التحقق. إن إحداث عملية الانقلاب الكبرى لابدّ لها من مستلزمات وأرضية وشروط. ولكي تتم عملية «الاستخلاف والتمكين» لابدّ من توفير أسباب القوة، واعداد العدة، والأخذ بالوسائل والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض..

ومن سنة الله في استخلاف الدول والأفراد، والأمم والأجيال، أن يكون المستخلف أهلاً وكفوّاً لما أُستخلف فيه أو عليه. أما ما نراه من امتلاك أو استخلاف قائم على غير هذه السنن المبنية، فانما هو اغتصاب لحقوق أخذت من أهلها وذويها قوة وعنوة ولأسباب ذاتية فيهم.. فالاستخلاف اذن هو حق من حقوق المؤمنين الذين يعملون الصالحات عليهم أن يسعوا لنيله واسترداده، من أمم الأرض المغتصبة له منهم.

وإذا تحقق الاستخلاف وفق سننه هذه وبشرطه الصحيحة، كان ذلك عاملاً وسنّة من سنن التمكين في الأرض، حيث قرُن الأمران في الآية التي تحدثت عن الاستخلاف والتمكين، وجاء التمكين كنتيجة مطردة، وقضية حتمية بعد الاستخلاف. ولتلازم الأمرين فقد تحدث الله تعالى في هذه الآية، عن التمكين بعد الحديث عن الاستخلاف وعطف بينهم فقال تعالى: ﴿.. وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، ولعل اللامين في: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ وفي ﴿لَيُمَكِّنَنَّ﴾ لام الاستقبال والتوكيد تدل على حتمية وضرورة الاستخلاف والتمكين أنما للذين سلكوا سنتهما، وعرفوا طريقهما، وذلك وعد من وعود الله للمسلمين^٢.

(١) المرجع نفسه: ١٢٠٨: ٤٢-٤٣.

(٢) محمد هيثور: سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

وهكذا نخلص إلى أن الاستخلاف كبديل ذو صلاحية للبقاء والاستمرار الحضاري يتداول بين الاسم والعوالم، والأفراد والأجيال، له سنن وموجبات وتوابع ومقتضيات. ويبقى مجال سنن التقدم والازدهار الحضاري مفتوحاً أمام الانسانية للمزيد من الابداع والرقي، والتمكين كمستوى ثانٍ بعد الاستخلاف في التحضر هو الآخر له سنن وشروط لا يتحقق إلّا وفقها ولا ينال إلّا بمقتضاها..

ولئن اقتضت سنة الله أن يأتي التمكين بعد الابتلاء: ﴿وَلِيَبْدَلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدُ خَوْفَهُمْ أَمْنًا﴾ فإن سنة الله مضت في أن تظل الأرض عامرة بالأكثر صلاحية لاستعمارها، وأنه لا يمكن التمكين للمستضعفين من المؤمنين، لمجرد كونهم كذلك أو لكونهم يعبدون الله عبادة مجردة عن التأثير في النفس والمجتمع^١، وهذا مايقودنا - بالضرورة - إلى ما يتعرّض له الاسلام من حرب وتشويه وأبناؤه ودعائه من اضطهاد وابتلاء.. فهذا ما يأتي في السياق الطبيعي لمسار السنن الالهية. أما اعتراض البعض بالمحن الشداد التي تصب على رؤوس الدعاة إلى الاسلام، والضربات القاسية التي تنهال عليهم من هنا وهناك، فمن ذا الذي يأمل أن تقوم لهؤلاء المضطهدين المشردين المعذيين قائمة، أو يرتفع لهم علم، أو ينتصر في الناس نظام يدعون اليه، ورسالة يؤمنون بها، وهم في كل يوم بين المطرقة والسندان؟ فنقول لهؤلاء المعترضين أو المتوجسين ان هذه المحن التي تذكرها ليست علامة ضعف أو موت لدعاة الاسلام، بل هي دليل حياة وحركة وقوة، فان الميت الهامد لا يضرب، ولا يؤذى، أنما يضرب ويؤذى الحي المتحرّك المقاوم.

إن الدعوة التي لا يضطهد أصحابها، ولا يؤذى دعااتها تافهة أو ميتة، أو دعااتها - على الأقل - تافهون ميتون. ثم ان هذه المحن والاضطهادات برهان على حيوية المبدأ نفسه، مبدأ الاسلام، فهو يقدّم كل حين شهداء في معركة، يروون شجرتة بدمائهم، ويبنون صرح مجده بأشلائهم. وهذه المحن أبلغ معلّم، وأعظم مربّ لأصحاب الدعوات، باعتبارهم أفراداً تصفو أنفسهم بالشدة، وتتمحّص قلوبهم بالمحنة، وقد جاء في الحديث: «مثل المؤمن يصيبه البلاء كمثل الحديد تدخل النار، فيذهب خبثها، ويبقى طيبها».

وآية الآيات في هذا الدين وأثره في امته، أنه أشد ما يكون قوة، وأعظم ما يكون رسوخاً وشموخاً، حين تنزل بساحته الأزلمات، وتحقق به الأخطار، ويشتد على أهله الكرب،

(١) المرجع نفسه: ٢٩٦، ٣٠٧.

وتضييق بهم المسالك، ويعزّز المساعد والنصير..

حينئذ يحقق هذا الاسلام معجزته، فتنبعث الحياة من الجثمان الهامد، ويتدفّق دم القوة في عروق الأمة، وينطلق جنود الحق انطلاق المارد من القمقم. فاذا النائم يصحو، والجبان يتشجّع، والضعيف يقوى، والشارد يعود، والشتيت يتجمّع، وإذا هذه الفطرات المتتابعة المتلاحقة من هنا وهناك تكون سيلاً عارماً لا يقف في وجهه سد من السدود^١.

صحيح؛ إنّ التحديات الحضارية هي الخطر الحقيقي الذي يواجه المسلمين اليوم، غير أن هذا الخطر، كائناً ما بلغ، قد ردّ الأمة إلى الايمان. وأحياناً آمال العودة إلى الذات، حتى ولو كان بعض أبنائها أمياً فيؤتيه الله علماً، والايمان بالله هو أصل العلم. ومهما كان ضعفنا وتفرقنا فإن الله يعيننا ويؤلّف بيننا، اذا استمسكنا بعروته الوثقى، وعدنا إلى الإيمان العاصم فنملك بهذا العلم الايماني أن نهدي العالمين. ثم اننا من أجل اقامة نهضة حضارية، ونفوّق ثقافي، وتقدّم علمي، لنكون قوّة المستقبل الواعدة لا بدّ من عمل دائم وجهاد في هذا السبيل، واقامة الدين بمعانيه الشاملة الكاملة من أنه اعتقاد وعمل وعبادة وأخلاق وآداب وسلوك ومعاملات وقوانين مدنية وجنائية، أو شعائر وشرائع، واسلام لله لشؤون الحياة وسياساته كلّها في الفرد والمجتمع والدولة^٢.

ختاماً؛ ان أمة محمد ﷺ - بكل خيارها وقواها الحيّة وقدراتها الكامنة، وطاقاتها المبدعة مدعوة اليوم، وأكثر إلحاحاً من أي يوم مضى، إلى حسم أمرها، بعد التوكل على الله، والتوثّب نحو اقتحام المستقبل.. بارادة جسور، لا يشوبها شك، أو يعتورها تردّد. أو تعيقها حواجز وتحديات وعقبات.

وما ينبغي أن يُقال: ان الاسلام آتٍ، كالفجر بعد طول عتمة. ولا بدّ أن يستأنف دوره الحضاري، بوصفه ضرورة انسانية لاتقاذا الانسانية، وبوصفه الترجمة العملية للمنهج الالهي الذي لا بدّ غالب. ان هذه الحتمية ليس معناها، أن الطريق اليه نزهة مريحة، ولا أنه هناك على قيد خطوات..

كلّا إنّ حتمية الميلاد لا تغني من آلام المخاض! كما يقول قائد اسلامي شهيد^٣ والطريق

(١) مجلة المجتمع؛ مرجع سابق، ١٢٠٨: ٤٢.

(٢) دورية قراءات سياسية؛ مرجع سابق ١٨: ١٥٤.

(٣) الاسلام ومشكلات الحضارة؛ مرجع سابق: ١٨٤ (بشيء يسير من التصرف).

إلى البديل الاسلامي طويل وشاق .. ومليء بالأشواق . وأعسر ما في هذا الطريق هو أن نرتفع نحن بتصوراتنا ، وبأفكارنا ، وبأخلاقنا ، وبسلوكنا - ثم بواقعنا الحضاري المادي - إلى مستوى الاسلام ولكنه - بعد هذا كله - ضرورة انسانية . وحتمية فطرية . ولا بدّ له من ميلاد . ولا بدّ للميلاد من مخاض ، ولا بدّ للمخاض من آلام !

المحتويات

مدخل بلا مقدمات	٥
-----------------------	---

الفصل الأول

إشارات حضارية

ما الحضارة ؟	٣٢
الحضارة .. والمجتمع	٣٥
الحضارة .. والمدنية	٣٦
الحضارة .. والثقافة	٣٩
الحضارة .. مفهوماً	٤٠
الحضارة .. والأديان	٤٥
الدورة الحضارية	٤٧
الاخصاب .. والتنافر	٤٨
النشأة .. والمقومات	٤٩
التعاقب الحضاري	٥٥
الحضارة : مسار .. وضوابط	٦١
كبريات الحضارات	٦٣

الفصل الثاني الانهيار الحضاري

٧١	التاريخ؛ سنن وقوانين
٧٣	سنة التداول الحضاري
٧٥	الانهيار الحضاري
٧٥	جدلية الشكل والمضمون
٨٢	مدارس تفسير سقوط الحضارات
٨٢	المدرسة الماركسية
٨٤	مدرسة الابداع
٨٦	مدرسة توينبي
٩٠	ابن خلدون
٩٢	مالك بن نبي
٩٣	أبو الأعلى المودودي
٩٥	التفسير القرآني للسنن
٩٦	السنن.. وحركة التاريخ
١٠٣	الاستبدال

الفصل الثالث حضارتان في الواجهة

١٠٨	النموذج الحضاري.. والحضارات الباقية
١١٠	الضغط المتصاعد رغم الهزات
١١٠	المشروع الحضاري الانساني
١١٤	إشكالية الإسلام.. والغرب
١١٧	نمطان حضاريان
١١٩	مأزق الغرب: شاهدان من الأهل

١٢٥	التراجع الحضاري للمسلمين
١٣١	من التآلق .. إلى التراجع
١٣٤	لماذا ازدهر الغرب ؟
١٤٢	الاستعمار ؛ نكسة تاريخية

الفصل الرابع

حضارة الأزمة: المظاهر .. والتداعيات

١٥٠	من مظاهر الأزمة
١٥٣	على حافة القلق الهستيري
١٥٨	أزمة القيم المستفحلة
١٦٥	حضارة الإبادة .. والفضائح
١٧١	إرادة الهدم
١٧٥	الانسان المعلّب !
١٧٨	الانحطاط الأخلاقي .. والقيمي
١٨٢	حضارة العنف .. والجريمة
١٨٧	المخدرات .. والإدمان
١٩٣	الشذوذ الجنسي .. والأيدز
١٩٩	الكآبة .. والانتحار
٢٠٨	إنّه .. الوباء الأخير
٢٠٨	أولاً: إنها حضارة مفلسة أخلاقياً، إلى حدّ الانحلال
٢٠٨	ثانياً: منحطة اجتماعياً .. حتى الضياع
٢٠٨	ثالثاً: مأزومة نفسياً .. حد الخط
٢٠٩	رابعاً: عدوانية نزعة .. بل همجية
٢٠٩	خامساً: حضارة فقدت انسانيتها
٢٠٩	سادساً: حضارة مهدّدة بالفناء

٢١١ الفصل الخامس

ماذا لو انهارت حضارة الغرب ؟

٢١٤	صيحات الخطر
٢١٩	البشرية المحاصرة بمخاوف المستقبل
٢٢١	الاحتضار الكوني
٢٢٥	تحليلات .. ونبوءات
٢٢٨	بكائيات على أطلال الحضارة
٢٣٥	«حضارة في مأزق»
٢٣٦	هل هناك إمكانية علاج ؟
٢٣٧	الأول : إمكانية العلاج
٢٤١	بحثاً عن طريق جديد للخلاص
٢٤٥	نهاية الوعي الأوروبي
٢٥٦	البديل الغائب
٢٦٠	اليقظة التي ينتظرها الغرب
٢٦٩	مخاطر الفراغ الحضاري

الفصل السادس

الاسلام ؛ البديل الحضاري

٢٧٧	هل المستقبل لهذا الدين ؟
٢٨٤	تحديات الألفية الجديدة
٢٨٧	آليات للاختراق الثقافي
٢٨٨	وفي الجانب الاجتماعي
٢٨٩	في الجانب الإعلامي
٢٩٠	التحديات في المجال السياسي والدولي
٢٩٠	آليات التلبيس المفاهيمي

٢٩١	آليات التخريب الداخلي
٢٩٢	آليات تخريب ذات طابع دولي
٢٩٣	التحديات في المجال المالي والاقتصادي
٢٩٦	عقبات في الطريق
٢٩٧	أولاً: تبسيط التجارب
٢٩٧	ثانياً: أحادية التفكير
٢٩٨	ثالثاً: غياب الإبداع
٢٩٩	رابعاً: الفجوة العلمية
٢٩٩	خامساً: غياب الأهداف
٣٠٤	المشروع الحضاري
٣١١	المقدمات النظرية
٣١١	أولاً: الانسان
٣١١	ثانياً: المثل الأعلى
٣١١	ثالثاً: الحركة التكاملية
٣١٢	رابعاً: المركب الحضاري
٣١٧	مستلزمات النهوض
٣٢٢	الإقلاع الحضاري
٣٢٨	مستقبل الإنسانية

حسن السعيد

- من مواليد الكحلاء (العراق) ١٩٥٠م.
- تخرّج في جامعة بغداد - كلية الآداب عام ١٩٧٢م.
- رأس تحرير صحيفة الجهاد للسنوات ١٩٨٢-١٩٨٧م.
- رأس تحرير مجلة رسالة القرآن للسنوات ١٩٩٠-١٩٩٥م.
- مدير تحرير مجلة النهج عام ١٩٩٧م.
- مدير تحرير صحيفة المنتدى الثقافي ١٩٩٦-١٩٩٩م.
- الأمين العام لرابطة الكتاب والمثقفين العراقيين ٢٠٠٢م.
- رئيس تحرير مجلة التوحيد حالياً.

صدر له:

- ١- المواجهة العنيدة ١٩٨٩م.
- ٢- نواطير الغرب ١٩٩٢م.
- ٣- الاسلام والغرب: الوجه الآخر ١٩٩٧م.
- ٤- ثلاثة كتب (بالاشتراك مع آخرين).
- ٥- عبد الرحمن الكواكبي .. جدلية الاستبداد والدين ٢٠٠٠م.
- ٦- الاسلام والرأي الآخر.
- ٧- حضارة الأزمة (هذا الكتاب).

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبد الجبار الرفاعي

- | | |
|-------------------------|--------------------------------------|
| ابراهيم العبادي | الاجتهاد والتجديد |
| عبد السلام زين العابدين | منهج الامام في التفسير |
| محمد مجتهد شبستري | علم الكلام الجديد |
| محمد رضا حكيمي | المدرسة التفكيكية |
| حسين باقر | الامام السجاد |
| عادل عبدالمهدي | اشكالية الاسلام والحداثة |
| اسماعيل الفاروقي | اسلامية المعرفة |
| طه جابر العلواني | اصلاح الفكر الاسلامي |
| ابراهيم العبادي | جدليات الفكر الاسلامي |
| عبد الوهاب المسيري | فقه التحيز |
| كامل الهاشمي | اسلمة الذات |
| غالب حسن | نظرية العلم في القرآن |
| لمحمد رضا حكيمي واخويه | القسط والعدل |
| طه جابر العلواني | مقدمة في اسلامية المعرفة |
| عبد الجبار الرفاعي | تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية |
| حسن الترابي | قضايا التجديد |
| الشهيد حسين معن | نظرات في الإعداد الروحي |
| جعفر عبد الرزاق | الدستور والبرلمان |
| زكي الميلاد | الفكر الاسلامي: تطورات و مساراته |

- علم الاستغراب
- الاجتهاد التحقيقي
- المستثيرون: خدمات وخيانات
- أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم
- اشكاليات التجديد
- مقاصد الشريعة
- الثقافة الاسلامية بين التغريب والتأصيل
- الواقع والمثال في الفكر الاسلامي المعاصر
- فقه النظرية عند الشهيد الصدر
- محاولات للتفقه في الدين
- الصراع الاجتماعي في القرآن الكريم
- المنهج الفقهي عند الإمام الشهيد الصدر
- المنهج البنائي في التفسير
- حضارة الأزمة
- حسن حنفي
- محمد رضا حكيمي
- جلال آل أحمد
- غالب حسن
- ماجد الغرباوي
- طله جابر العلواني
- شلتاغ عبود
- جمال الدين عطية
- باقر بري
- حسن خليفة
- غالب حسن
- محمد الحسيني
- محمود البستاني
- حسن السعيد